

مكتب الصحافة الدولي
للصحافة والنشر

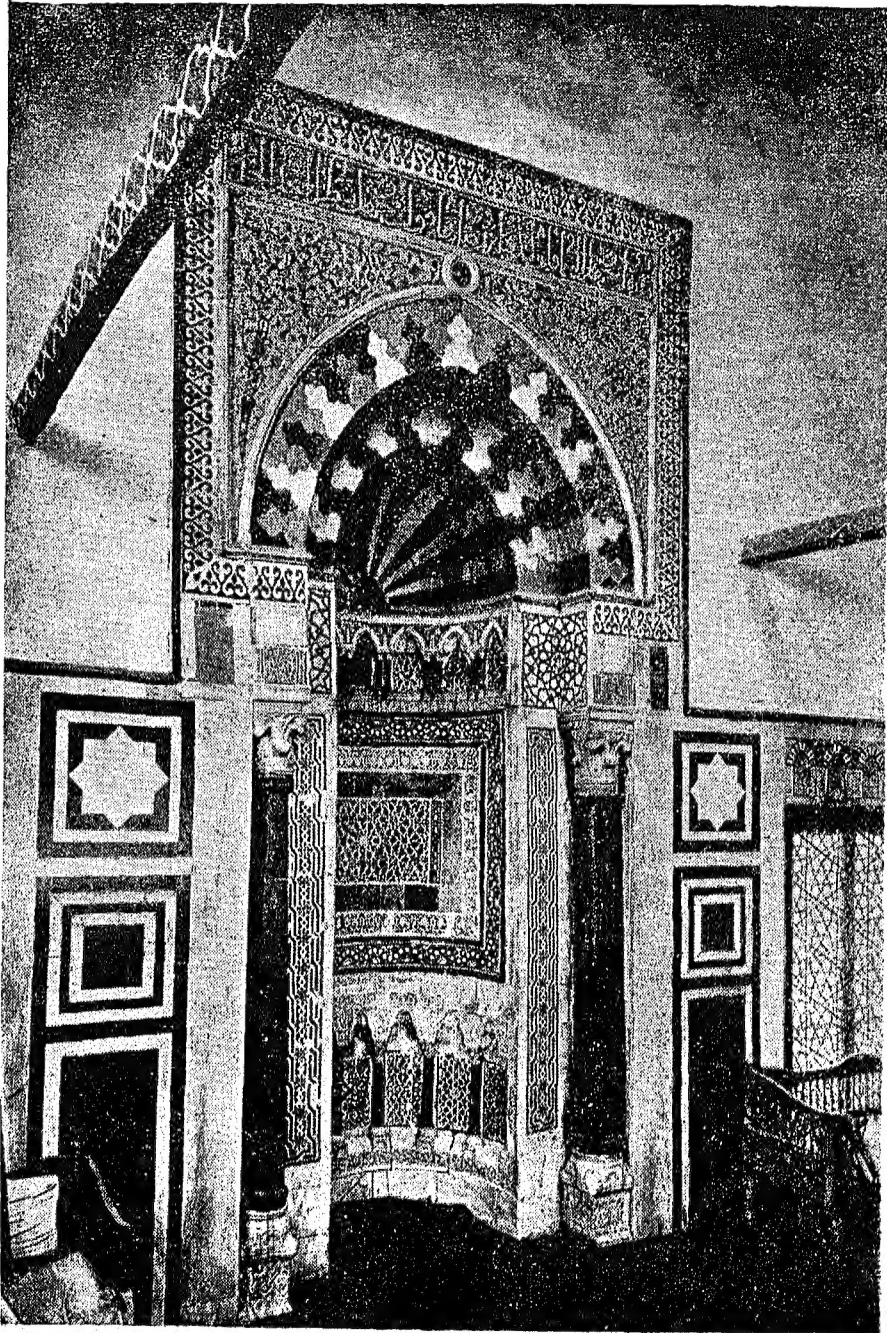
مسابقة وطلول

الكتاب الفائز بالجائزة الاولى لعام ١٩٥٨ من وزارة التربية والتعليم

بمقتضى
سنة قراعه

مطابع دار اخبار اليوم

« قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك
شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره »
(قرآن كريم)



« محراب المدرسة الطبرسية الملحقة بالجامع الأزهر »
أنشأها الأمير علاء الدين الخازنداري سنة ٧٠٩ هـ ، ١٢٠٩ م .

كلمة السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة التي قدم بها كتاب ((وزارة الاوقاف في مساجدها)) حرصت على أن أسجلها في كتابي هذا استكمالا للهدف الذي أرمي اليه ، وهي الكلمة الجامعة التي حفزتني على التوفر على دراسة تاريخ مصر الاسلامية جامعة العروبة ممثلا في مساجدها الكبرى . لأنقل الى القارئ صورة من أجمل وأجل صور الاسلام التي تروى لنا عن طريق المساجد قصة جهاد طويل لجمع كلمة العرب في كل بقاع الارض تحت راية الوحدة التي أمر بها الله ، ونادى بها الدين ، وسعى الى تحقيقها رسوله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كل كتاب يُضاف إلى المكتبة العربية ، هو في الواقع عنصر جديد من العناصر العقلية ، وثرورة مستحدثة في رصيد التفكير العربي ، وقوة تضاف في كيان أمتنا إلهية الجادة دولتنا واسترطاع مجدها .

فالعلم والمعرفة هما سبيلنا إلى الحياة ، وهما عدتنا للمستقبل المرتقب ، وفيها إلى تقيم بنيان ، ولأن ثبتت قدم ، فإتته بقدر ما تحصل أمة من العلوم والمعارف بقدر ما تبلغ في هذا العصر بصفة خاصة من مكاتبة في المحيط لدول ، وما اختلاف موازين الأمم ليعم في الحياة والآتيمة لاختلاف خطوطها فيما بلغت من علم ومعرفة ولا شك أن الكتب مادة الفزارة ، والفزارة أوسع أبواب المعرفة وأكثرها ثمرة ، فإننا وجدنا كتاب الصالح والنفس الراغبة في الفزارة الباشعة عن الحقيقة وجدت المعرفة طريقها إلى أفضل فخذته ورتبه وأشرقت به على آفاق جديدة في الحياة ، وخلفت فيه ونعيا صحيحا ، ومذكرات سليمة لواقع الأمور وتقديرا دقيقا لنتائجها .

ولقد سرتني حقاً أن تقدم وزارة الأوقاف هذا الكتاب إلى أبنائنا الطلبة وأن تخبرهم بوضوح واداء من صميم الحياة الإسلامية مستفاه من المساجد وما يتصل بها من أحداث التاريخ الإسلامي ، ولتطور لعمارة الإسلامية بتطور الزمان والأحوال التي اختلفت على دولة الإسلام :

أحب أن يقرأ أبنائنا هذا الكتاب قراءة حرة خالصة للعلم والمعرفة ، بعيدة عن قيود الاعتبارات الدراسية فذلك جدير بأن يقيم في أنفسهم معرفة مثمرة ينفع بها في كل مجالات الحياة .

ففي الكتاب علم يحبه الطلاب في هذا التاريخ المسطور عن كل مسجد ، وفي الكتاب فن يحبه الطلاب أيضا في هذه الصور المعبرة عن الفنون الإسلامية في العمارة والنقش والخط ... ولعلم ولفن ها عناصر المعرفة الكاملة ... فإننا وقع لقرأ هذا الكتاب من أبنائنا شئ من المعرفة - وهذا ما أرجوه - فإنني أقدر أن هذه المعرفة لا بد أن تصلهم بالمساجد ، وتحييها إليهم ، وتوثق الصلة بينها وبينهم ، فيسعون إليها وفي طوبى لهم ألف لها ، وأعجاب بها - حسب الإنسان أن توثق الصلة بينه وبين بيوت الله ، فإن هذا خلق أن يمد له في أسباب الهدى ، وأن يهتدي له بجو الصالح للرغبة لنفس ، وتقوم لخلق وذلك ما نرجو أن يكون لنا منه حظ في أنفسنا وفي أبنائنا

جمال عبد الناصر

كلمة السيد الأستاذ محمد حسن الباقوري وزير الأوقاف

منذ قام الاسلام ، والمساجد بالمكان المكين من قلوب المسلمين .. اذ رفع الله قدرها ، وجعلها بيوتا لذكره وتمجيده ، يسبح فيها بحمده ، ويؤذن على مآذنها بوحديته .. استجابة لقوله سبحانه وتعالى « وان المساجد لله ، فلا تدعوا مع الله أحدا » .

والرسول الكريم - منفذ الشريعة ، وكاشف معالمها - يضرب المثل للمسلمين فيما للمسجد من شأن في رسالة الاسلام ، حين دعا المسلمين الى بناء مسجد «قباء» على مشارف المدينة قبل أن يستقر بهم المقام في دار الهجرة .. ولقد شارك الرسول الكريم في البناء ، وعمل فيه بيديه الشريفتين .. ذلك ليكون المسجد الدعامة الأولى التي يقوم عليها المجتمع الاسلامي ويستند اليها .

واستن المسلمون سنة رسول الله في هذا ، فما اجتمعت منهم جماعة في أي أفق من آفاق الارض حتى كان المسجد هو الراية التي يجتمعون اليها ويلتفون حولها وحتى كان المسجد هو أجمل مايتخذون من بناء ، وأثبت مايقيمون من دور .

ومن ثمة كانت المساجد سجلا صادقا لتاريخ الحضارة الاسلامية في فن البناء والنقش والنجارة .. اذ قامت العاطفة الدينية بدور عظيم في خلق الجو الفني الصافي الذي يتجرد فيه الفنان من شواغل الحياة ليودع أروع ما عنده في هذه البيوت ، تقربا الى الله ، وطمعا في رضاه ، ورغبا في ثوابه .

فالمساجد من هذه الناحية تاريخ كامل لفن البناء العربي ، الذي ظلت المساجد - وحدها - تحتفظ به دون أن يعدو عليها ما عدا على التراث العربي من نحو أو تبديل !

ويحتفظ التاريخ الاسلامي بصفحات مشرقة رائعة للمساجد في اذاعة الثقافة

الاسلامية ، وفي تخريج العلماء في كل علم وفن . . اذ كانت المساجد دور عبادة ومجامع علم ، يلتقى فيها العلماء والطلاب من آفاق الاسلام المختلفة ، فيجدون في مكتباتها نفائس الكتب ومذخور العلوم . . ففي مسجد رسول الله بالمدينة تخرج صحابته أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عباس ، ومعاذ بن جبل ، وأبو هريرة وغيرهم من أئمة المسلمين وفقهاء الاسلام .

وفي مسجد البصرة والكوفة ، تخرج علماء اللغة وفقهاء الدين وكذلك الشأن في مساجد بغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، التي كان الأزهر - ولا يزال - جامعة العالم الاسلامي لعلوم الشريعة وفقهها .

وهذا الكتاب الذي نقدمه للقراء عن المساجد ، وعن الدور الكبير الذي أدته في تاريخ الحضارة الاسلامية ، قد بذلت له مؤلفته الاستاذة سنية قراة جهدا مشكورا ، جديرا بالتقدير والثناء .

واذا كان تاريخ المساجد قد نال من الباحثين المؤلفين عناية وجهدا على مختلف العصور ، الا أن وسائل الحياة في الازمنة الماضية لم تكن تمكن من رسم مصورات للمساجد ، تظهر معالمها ، وتشير الى مواطن الابداع الفنى فيها ، ولهذا فقد استدرك هذا النقص في المؤلفات الحديثة حين تيسرت وسائل التصوير ، وكانت وزارة الاوقاف سباقة الى هذا فأخرجت مجلدين كبيرين عن مساجد مصر كما أخرجت كتيباً صغيراً عن هذه المساجد أيضاً ، وشارك وزارة الاوقاف في هذا بعض الافراد بجهودهم الخاصة فأخرجوا - مشكورين مقنورين - كتاباً مصورة عن المساجد ، كان هذا الكتاب أحدثها ونرجو ألا يكون آخرها ، فالمساجد موضوع متنوع الجوانب للباحثين والدارسين يمكن أن يستقل كل جانب منها بدراسات وموسوعات من التأليف .

وبعد ، فشكر الله للمؤلفة جهدها ، ونفع بمؤلفها .

أحمد حسن الباقري
وزير الأوقاف

٩ ربيع الاول سنة ١٣٧٨

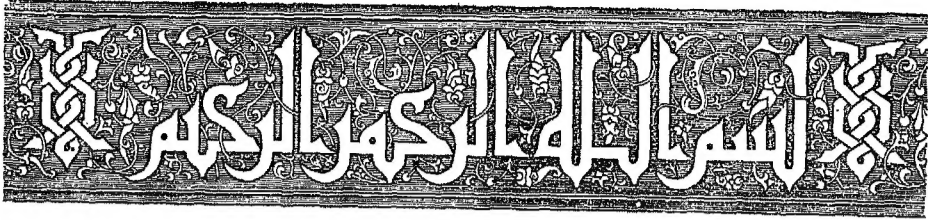
٢٢ سبتمبر سنة ١٩٥٨

كلمة الشاعر الشاب السيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم .. لم تفته فرصة اخراج كتاب ((وزارة الاوقاف في مساجدها)) فأسهم فيه بالكلمة التالية الداعية الى دراسة أحداث الماضي ليعرف الشباب عن طريق تلك الدراسة أن آباءهم كانوا شيئاً كبيراً ..

بسم الله الرحمن الرحيم

أشكر لوزارة الأوقاف هذا المجهود القيم في تقديم هذا الكتيب بل هذه القصة لأبناء هذا الوطن وأشكر للسيد وزير الأوقاف هذه الحكمة إذ تفضل فأمر بطبع عدد هائل من النسخ لتوزيعها على المدارس المصرية لتعريفهم بتاريخهم وماضي أمتهم .
إنها قصة تاريخ وحضارة ومجد وفن فيها ذكرى وفيها عبرة وفيها حوافز للأمل .
وإنها النطوف بخيال أبناء هذا الجيل خلال لمصوّر لتصور لهم أحداث الماضي البعيد والغريب وتشجّلهم بالايقبل الشك أن آباؤهم كانوا شيئاً كبيراً وأنه رغم ما كان يحلّ بهم من نكبات فإن نفوسهم الأبية وروحهم العالية كانت دائماً تظهر في كل وقت وتبرز في كل عصر عالمية مخلوق هذه المناثر قوية قوة هذه العمارت نبيلة صافية ثبت لا يتماثل في هذه النفوس البديعة وصفاء يتجلى في جمال هذه الألوان والزخارف .
إن أبناء الجيل الحاضر وقد تفتحت أمامهم أبواب الأمل لفادرون على إعادة الحصول المجيدة لهذه القصة وأن يجتنبوا أنفسهم وبلا دهم الدروس القاسية في باقي فصولها .
وقفنا الله وإياهم لما فيه إعمال كلمة الحق ورفع هذا الوطن وسعادة هذه الأمة كما

كله القدر محمد بن محمد



مَسَاجِدُ : إِنَّمَا يَحُضُّ مُسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

و

ذُولُ : وَتِلْكَ الْأَيَّامُ تَدَاوَاهَا بَيْنَ النَّاسِ



الناشر
مكتب الصحافة الدولية
جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

الطبعة الاولى
غرة ربيع الاول ١٣٧٨ هـ
١٤ سبتمبر ١٩٥٨ م

الكتاب المتاد

حارس المجدد

بقلم سنية فزاعة

إهداء

هذه المآذن .. وتلك القباب .. وهاتيك المساجد ..
هذه المآذن المتعالية نحو السماء في زهو : أنها بيارق الاسلام وشارات مجده ..
وتلك القباب العظيمة الجليلة : انها آية التحضر الناطقة بساحة الدين وتحضر العرب
وهاتيك المساجد العامرة : انها دلائل الرفعة ، ورمز القوة والخلود ..
انها تروى لك تاريخ دول دالت بشخوصها وبقيت آثارها ..
انها اللسان المعبر الناطق بما كان لنا من حضارات .. تمثلت فيها السيادة العربية
الكاملة ، والوحدة التامة بين شتى شعوب الشرق التي جمعت بينها وحدة اللغة
والدين والعادات .
جمعتها بين دفتي هذا الكتاب ، ليكون في عرض وقائعها العبرة بالماضي والحافز الى
المستقبل ..
فالى شباب العرب المتحرر في كل مكان ..
الى سادة الغد وبناء المستقبل .. الساعين الى جمع الشمل وتحقيق الوحدة ، واعادة
الدولة العربية العظمى ...
أهدى هذه الصحائف المعطرة بعبق الخلود ، ليستروحوا فيها نسائم المجد ، فتوقظ
فيهم روح المعالي ، وحب النضال في سبيل استرداد مجد العرب .. لتتم نهضة هذا الشرق
وتعلو راية الأمة العظمى ، وتكون خير حارسة للتراث العظيم .. وخير بانية للمستقبل
الزاهر ...

منية زاهرة

كلمتي

هذا كتاب لا أقول انه الاول من نوعه في مكتبتنا العربية ، ولكنى أرجو أن يكون قطرة من غيث .. أتمنى أن يهمل ، وأن يستحيل فيضانا ثقافيا ، يكتسح الحواجز التي أحاطت بتاريخنا الاسلامي وحجبته عن العيون ، وأبعدته عن الاذهان .. فتتكشف لنا مناحى العظمة في صحائف تاريخ أمتنا العربية المجيدة ، ليعرف أبناءها أنهم انما يجاهدون اليوم ليستردوا التراث الخالد الذي كان لهم ويأخذوا مكانهم تحت الشمس ..

اننى اقدم اليوم صفحة ناضرة من أعز الصحائف في تاريخ العرب والاسلام ، مستجيبة وأنا أقدمها للدعوة الكريمة التي أوحى بها السيد الرئيس جمال عبدالناصر في نشر صحائف أجداد العرب لتكون الدافع القوي في الزحف الكبير نحو أتمام صرح المجد الذي وضع سيادته أساسه الراسخ .

لقد كان مجرد الاشارة في مستهل دستور الشعب الى أن مصر دولة عربية - كافيا لتوجيه الأنظار الى الحقل الجديد الذي تعمدت الثورة أن ترشد اليه الباحثين ليعملوا فيه فيستخرجوا درره ويعرضوا على الانظار جمعاء مافيه من نفائس وروائع ، تثبت بالبرهان القاطع أن العرب كانوا اساتذة الامم ومعلميها .. وان تأثيرهم الحضارى في تقدم الغرب ونهوضه واضح للعيان ، وعليه ألف دليل .

ولم يكن غريبا منا - نحن المصريين - أن نوجه كل اهتمامنا الثقافى الى تاريخنا القديم .. تاريخ الفترة الفرعونية ، ذلك لاننا أحسبنا ذات عصر من العصور أننا في حاجة الى مانفاخر به من ادعوا أنهم اصحاب حضارات - ونسينا في غمرة تحزينا لهذا التاريخ الفرعونى - ان نذكر شيئا عن امجادنا العربية ، ومدى تأثير الاسلام فينا كأمة موحدة كانت خير أمة أخرجت للناس ..

ان المكتبة العربية تشكو اليوم تخمة ثقافية ، عربية اللغة اجنبية الروح .. وإنها لتشعر بالحنين الطاغى الى مزيد من العناية بالتراث الاسلامى بصفة خاصة والتاريخ العربى بوجه عام ..

لقد شهدت مصر انبثاق فجر التاريخ في ربوعها المقدسة ، ورأت وهى في مكانها الشامخ مطلع أنوار الحضارات التى شعت على العوالم القديمة فوقفت منها موقف المعام المرشد الذى ينشط الهمم وينمى المدارك ويبعث الوعى الى العقول ويدعو الى مزيد من التقدم والرقى ..

وتوالت عليها بعد ذلك حضارات متباينة كانت من الضعف بحيث زالت بزوال المؤثر ٠٠٠ وعرفت كذلك على كر العصور ديانات ومعتقدات وآراء - لم تستطع البقاء فيها لضعفها فزالت وتبددت وكأنها لم تكن ٠٠٠

وشاء الله أن يشرق عليها الاسلام بنوره ، فتفتحت القلوب للدعوة المحمدية - واذا بمصر تتحول بكليتها وافكارها وايمان اهليها - الى ذلك الدين السمح حتى لقد صارت حصنا من حصونه القوية ، ودرعا من دروعه الحامية .. فحمت الدعوة ، واعلت شأنها وراحت تجاهد في سبيل اعزازها واحلالها اقدس واحب مكان ..

لقد تجلى الله على مصر فجعلها - وهى كنانته في ارضه - جامعة لكل عظيم ، وشاءت ارادته ان تجتمع في صعيدها الحبيب آثار القديم وظلال الحديث ، وان تنبت ارضها الجلال والرقى ، وهذه آثارها الفرعونية وقد تعالت مسلاتها واعمدت معابدها الخالدة سامقة جليلة نحو السماء لاتزال حية تشهد بعظمة القديم ومجده .. كذلك تعالت في حاضرها الاسلامى منائرنا وقبابها شاهدة بالفضل معتزة بالمجد ، قادرة على سرد اخلد قصة واجمل رواية عن عظمة العرب وتأثيرهم في حضارات الشعوب جمعاء .

ان دور مصر في الذود عن الاسلام ورفع رايته .. ثم تخليد عماراته الرائعة ونشر آيات فنه - دور خالد ، حملت مصر وحدها فخره دون العواصم الاسلامية جمعاء ، وكانت جديرة به قادرة على تحمل مسئولياته الجسام ، حتى لقد طالما كانت دائما كعبة القصاد لطالبي العلم وناشدى المعرفة في هذا الدين العظيم .. وكانت دائما ملاذا للخائفين يفرون اليها بعقائدهم ومبادئهم من الظلم .. فيجدون فيها الحمى والامان .. لانها انما كانت في الواقع عاصمة الدنيا الاسلامية ، وحاملة لواء الجهاد في سبيل دين الله وحامية الاحرار اهليه ..

ومصر اليوم تقوم بنفس الدور الذى قامت به منذ اشرق في ربوعها فجر الاسلام . انها لتجاهد في سبيل العروبة مترسمة في ذلك خطوات الرسول القائد وصحابته - داعية الى الاتحاد والى تعزيز الوحدة عاملة بالامر الربانى الكريم « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا » ٠٠٠

ان لمصر من ماضيها وجهادها فيه ، مايعزز حاضرها ، وان لها في انتصارات الامس البعيد والقريب - ما يؤكد أنها ستصل الى تحقيق مجاهدت من أجله لتحتفظ على العروبة هيبتها وتبقى على الوحدة جلالها ، وما ذلك ببعيد على مصر التى حمت الاسلام فى « عين جالوت » فكسرت التتار وردتهم بعد ان ردت من قبل ، اطماع الصليبيين فى فلسطين وحفظتها عربية للعرب المغاوير .. ثم قامت تحميها بعد ذلك من عدوان صهيون واحلام اسرائيل ..

لكم هو جميل أن تلقى اليوم على حاضرننا المجيد ظللا من ماضينا العظيم .. انها
الذكرى وللذكرى جلالها .. وكم هو جميل أن نتذكر فنحن الخطى في طريق الجهاد
لأننا نعرف جيدا ، « أن الذكرى تنفع المؤمنين » ..

هذه صحائف أعرضها .. وأعرض فيها أمجادا ترويهما للعالمين بيوت الله .. وهى
اذ تروى وتقص فانما تقص « أحسن القصص » وتروى أقدس وأحب وأطهر قصص
في الوجود ..

ولكم هو جميل ان ينصت العرب في كل مكان الى تراجيع الماضى ، فيتعرفون
مواضع العبرة ، ويأخذون أروع المثل ويقتبسون أقوم الصفات ..

« مساجد ودول » أقدمه وقد أبيت الا ان اجمع بين هذه وتلك ليشعر القارئ
العزیز بقداصة الهدف الذى أردت أن أصل اليه من الجمع بين المساجد والدول ..

والحكمة في جعل « المساجد » نفسها تقص قصة هذه « الدول » في سرد صادق
يعرض جلائل أعمال فئة من القادة اخلصت للدين ، ونقشت لنفسها في
صحائف الجهاد مكانا مرموقا كان وجوده وظهوره حافزا على العمل المفيد ..

والمعنى من هذه التسمية واضح في قوله تعالى : « وتلك الايام نداولها بين الناس »

لقد هدفت من كتابى هذا أن أعرض على كل عربى تاريخه العظيم ليشعر بالزهو
وهو يدرسه كما أردت أن أزيده صلة ببيوت الله ، ليعرف أن هذه المساجد العظيمة لم
تؤسس ليذكر فيها اسم الله فقط بل لتردد على مسامعه مع كل آذان
قصة تروى مجده الاسلامى وتاريخ أولئك الغطاريف الذين نفخر بهم ، ليسير في طريق
ساروا فيه ، وليبنى هو الآخر .. لامسجدا شاهقا .. بل مجدا من أمجاد الاسلام ،
يتمثل في احساسه بعروبته ، وإيمانه بالوحدة وغيرته على الدين

ولا أجد ماأنهى به كلمتى هذه الا أن أسأل الله أن يوفقنى الى الخير ، وأن يجعل من
« مساجد ودول » صحائف تدفع الى فعل الخير وتشجع على الاسهام في بناء صرح
العروبة وتدعيم وحدة هذا الشرق لياخذ مكانه القديم فيكون هاديا للأمم ، ومصلحا
للشعوب ، وداعية خير ، وبر ، وأمن ، ومساواة ، وسلام .

والسلام على من اتبع الهدى أولقى السمع وهو شهيد ..

سنة فراعته

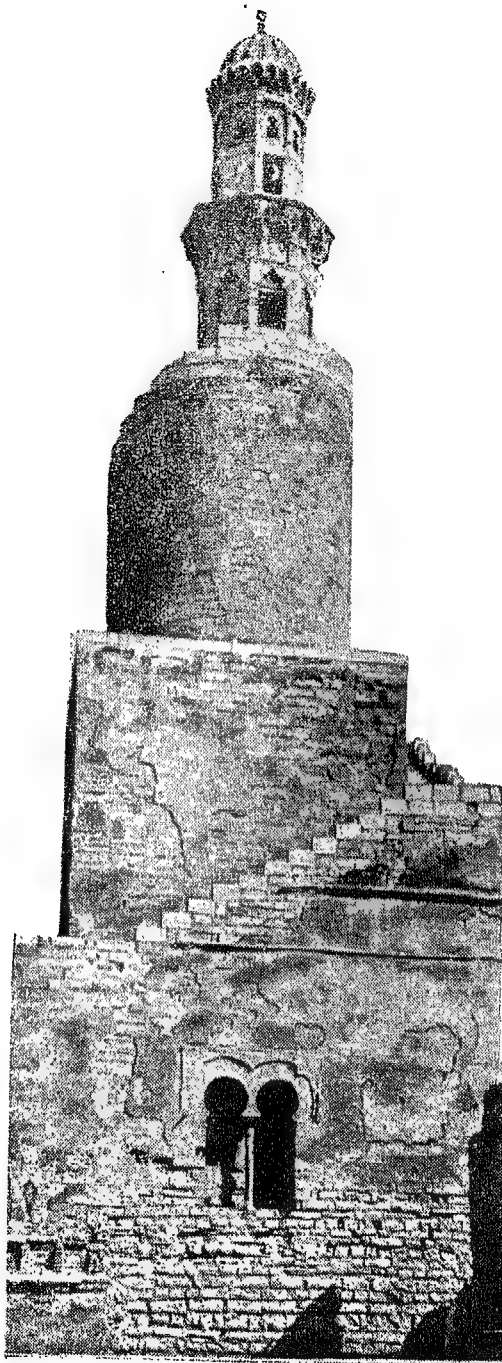
« شكر واجب »

الى كل من تكرم بامدادى بما تطلبه اخراج هذا الكتاب من مراجع تاريخية ولوحات فنية ، وخاصة وزارة الاوقاف ودار الكتب المصرية ، ومصلحة السياحة ، ومصلحة المساحة . . اليهم جميعا اقدم خالص الشكر والتقدير .

سنية فلاحه

« مصادر الكتاب »

- | | |
|-----------------------------------|--|
| ١١- اتعاظ الحنفاء للمقريزى . | ١ - خطط المقريزى . |
| ١٢- أخبار مصر لابن ميسر . | ٢ - النجوم الزاهرة . |
| ١٣- الاشارة الى من نال الوزارة . | ٣ - تاريخ المسيحي . |
| ١٤- الولاة والقضاة للكندى . | ٤ - تاريخ ابن الطوير . |
| ١٥- التبر المسبوك . | ٥ - تاريخ ابن المأمون . |
| ١٦- عجائب الآثار . | ٦ - الخطط التوفيقية . |
| ١٧- الافادة والاعتبار . | ٧ - المحاضرات الاثرية للاستاذ
المرحوم يوسف احمد . |
| ١٨- ابن اياس « بدائع الزهور » . | ٨ - ابن خلكان . |
| ١٩- كنز الجواهر فى تاريخ الازهر . | ٩ - ابن دقماص . |
| ٢٠- تقويم النيل . | ١٠- مساجد مصر . |



فتح مصر

أيها الأمل .. ياظل السعادة البراق ،
يا من تداخل قلوب الحزاني ببرد الراحة
وجلال الهدوء ، انها لترقب مجيئك في لهفة
الضال الذي أته الأمانى على غير موعد ،
فأسعدته المنى وحبته الآمال ...

يا نور الأمل لاحت أضواؤه القدسية في
ليل الحيارى ..

من أين ؟! وإلى أين ؟!

من مكة تفجر نبعك ، وفي يثرب انتشرت
أضواؤك ، ومع صيحات الحق ، استحال
أحلامك حقائق نورانية .. بددت الظلمات
واختفت أمام التماعها عتمة الدياجير
والأباطيل والضلالات !

الله أكبر لمشرقك .. والله أكبر لانتشارك
.. والله أكبر حيثما تسير .. الله أكبر ..
عنت الجباه للحي القيوم ، وخشعت
القلوب للاسم الأعظم ، ودخل الناس في
دين الله أفواجا ، يسبحون بحمده
ويستغفرون لماض تولى في الضلالات
والأوهام ...

الله أكبر .. وانصني أيتها الدنيا للتكبرية
المقدسة ، يرددها قوم باعوا أنفسهم لله
واشتروا بها الشهادة في سبيل نصره دين
الله ، وأنه لا إله الا هو وأن الصادق محمد
عبده ورسوله ..

((مئذنة أحمد بن طولون))

الله أكبر .. تهاوى إيوان كسرى معلنا زوال دولة النار ، فما أسرع ماتحطمت
البنود السامقة واندكت الصروح المنيعة ، وتصدعت جدران المعابد وأقفرت باحاتها

من أرواح الشياطين ، هاربة بباطلها أمام كلمة الله الحق !

الله أكبر » غلبت الروم في أدنى الأرض » ٠ تمزقت طيبالسهم ، واختلطت بالغبراء معاقريهم ٠٠ وعفى الزمن على آثارهم ، فهربت الجيوش المجيشة ، وتبددت الجموع الباغية ودالت دولة الظلم والعسف والجبروت وأذل الله قيصرًا وخذل أتباعه ومن معه وفتحت الشام أبوابها للفاقد المنتصر رافعا راية التوحيد والحرية والعدل ٠٠

الله أكبر ٠٠

هذه المهمة الخافتة التي أحالها الإيمان دويًا ملأ الأسماع ونفذ إلى القلوب ٠٠ فدان له العالم الأكبر !

أهو السحر ؟! أهى القوة ؟! أم هو الأمل ٠٠

انها السحر أحله الله ، وهى القوة لانها الاعتزاز به ، وهى الأمل لانه دكت حصون الظلم ٠٠ وثلت عروش البغى ، وزحف موكب النور المقدس على جحافل ليل لم نستطع ظلماته أن تثبت في وجهه أو تقاوم فذهبت أبديدا ٠٠

وان الصيحة لتشتد وتعلو ٠٠ وان الارنان ليتزايد ويعصف وان الاصداء لتندى بجلبة معتدة ، وان الناس لينصتون في فرح وزهو واكبار ٠٠

انه الأمل يداخل القلوب ٠٠ وان اشعاعه ليمتد هنا وهناك وفي كل مكان ٠٠ وانه ليصل الى ضفاف النيل فيستقر في الآذان ، وتخفق بحبه والحنين اليه الفلوب ٠٠

أجل ٠٠ انه الأمل الذى هو سر الحياة والبقاء والخير ٠٠

ان كل كائن حى يعيش بالامل ، وللأمل ٠٠

انه القوة التى تسيطر على نفوس البشر ٠٠ ويلجأون اليها كلما اشتد الكرب وعظم الخطر ، وساد الظلام والظلم الأرض ٠٠

لقد امتد الى الحيرة ، والعراق ، وتهافت تحتته حضارة النار وتبدد ملك كسرى ٠٠ ثم ، هاهو ذا ينتشر ظله وتتقدم جموعه المظفرة ٠٠ حتى وطأت أمجاد قيصر روما وطاغيتها العتيد !

واستمر الاعصار العربى المدمر فى مسيره الظافر ، قويا ، ساحقا مشبوبا ، فذلك وهم ٠٠ وسحق وبلد ٠٠ وباد وحطم ، وأعدم وأوجد ، وانهزمت أمامه كل القوى التى طالما كانت أداة الظالمين فى اذلال الشعوب الحرة المسالمة ٠٠

ورنت العيون فى الوادى متطلعة الى الافق ترقب مطلع النور والسعادة ، وهمست الشفاه فى مصر المجاهدة الباسلة ، موطن الشهداء وأحرار المجاهدين - متسائلة ، تتعجل مشرق هذا الأمل ، ومقدم مواكبه وهى ترجو أن يمتد على النيل رواقه ، لتستنشق مصر

المناضلة عبره الحلو ، واهب الحياة والحرية والامل لكافة شعوب الارض التى أذلها قيصر وحطم معنوياتها كسرى ، وكبلها كلاهما بقيود الذل والمهانة والاحتلال ..

وفى غمرة الامانى التى داخلت القلوب فى مصر ، راح شعبها المتلهف الى طلعة الامل يستعرض الماضى ويراجع صوره .. ويرى فى نصر العرب فى كل ميدان استكمالا لكفاحه ، وتعزيزا لجهاده العظيم ..

ان شعب مصر ليذكر كيف طغت روما وبغى أباطرتها * واستأسد ذئاب جنودها وصور لهم غرورهم ان كنانة الله مزرعة توارثوها ، فاذا بالشعب الاصيل يخيب أمانهم ، فكان أن كافح وناضل ، ورد ودفع ، وكسر الشوكة وقلم الاظافر فى حدود قوة معنوية ان لم تمكنه من القضاء على الظالم بصفة نهائية الا أنها روعت العدو وأرعبته ولقنته درسا جعله يتراجع أحيانا وينكمش أحيانا أخرى ، خشية من كفاح الشعوب وثورات الأحرار !

ولم يكن غريبا أن تكافح مصر الاحتلال الرومانى ، ثم يتطلع أحرارها الى أضواء الامل التى حملتها مشاعل النصر العربى لا رغبة فى العرب لذاتهم ، ولا لاستبدال احتلال باحتلال أفضل .. ولكن ترحيبا بالنور .. نور الوحدة التى كفل النصر للفاتحين الجدد ، امتدادا وتعزيزا لعقيدة آمنوا بها واستمسكوا بدعوة صاحبها ولقوا فى سبيل ايمانهم العنت والطغيان ..

لقد كان الاسلام متمما للمسيحية ، وكانت رسالة محمد مكملة لناموس عيسى وشريعة موسى .. وكان أحمد المختار هو بشرى المسيح الى العالم الذى أثقله نير روما وحطم معنوياته عبث الأباطرة وطغيان من ألهوا قيصرًا ونادوا به ربا بين المعبودات !

وهناك صلة أخرى ربطت بين مصر وأولئك الموحدين الفاتحين الجدد ، تلك هى صلة الرحم والمصاهرة ، فالمصريون هم خوؤلة العرب .. فلقد كان نسبهم من القوة بحيث امتد على كثر العصور .. من عهد ابراهيم عليه السلام وزوجه هاجر المصرية .. حتى عصر محمد رسول الله ، فكانت له مارية المصرية أم ولده ابراهيم ..

من أجل هذا راحت مصر ترقب الامل الجديد ، فى لهفة وقلق وشوق .. حتى لقد راح شعبها المناضل يرى على اشعاع نوره ، أقسى صور مرت به على أيدي الظالمين الذين عرف رغم حاجته وفقره ، كيف يهزمهم ويورثهم الفزع والرعب ، وانه ليذكر الماضى ويدرس ماحوى من عبر وشجون ..

لقد طالما أربعت مصر روما ... ولقد طالما وقف الصعيد فى وجه الطغاة غير عابىء بوسائلهم وسلاحهم ، فروع الامبراطورية وأرعب جندها وشنتهم وأقلق مضاجع أباطرتهم الماجنين ..

وسارت الدلتا فى الكفاح والصراع ، على نفس المنوال .. ولعبت نفس الدور الخطير

.. كما حملت « منف » العاصمة القديمة ، عبء الكفاح طويلا ، فحركت معنوية الاقاليم وشجعتها على سحق قوى الطغيان ..

أما الاسكندرية ، فكان لها في جهاد الرومان دور مشهود .. كانت عاصمتهم وكانت بالنسبة لهم مفتاح مصر ، فلم يكن عجيبا أن يقف أهلها في وجوههم وأن يذيقوهم عذاب السعير ..

ان مصر وهى تنصت فى شغف الى انتصارات العرب على الروم فى الشمام ، لتتري فى الأمر قصاصا وعدلا .. وانها لتتحس بالسعادة ، لان طفلة الأمس يشربون اليوم كأسا - طالما أجبروا الشعوب على تجرعها بقوة العسف وجبروت الطغيان ..

انهم ليذكرون الطاغية « كراكلا » الذى زار الاسكندرية وخدع أهلها أدنا خدعة ، اذ دعاهم الى حفل ليتعارف عليهم .. فلما وافوه مسلمين ، أمر بحصارهم وقتلهم أجمعين .. وسافر بعد ذلك الى روما ، تطارده أشباح الابرياء .. ورغم هذا ، أبى الا أن يغسل الدم بالدم ، ويعزز الظلم بالظلم ، وينتقم من قوم لا ذنب لهم الا انهم أحرار .. فأرسل لواليه مرسوما امبراطوريا يقول فيه :

« ينبغي أن تعمل على طرد جميع المصريين المقيمين بالاسكندرية بشتى الوسائل ، وخاصة الريفين الذين فروا الى مناطق أخرى - عدا تجار الخنازير وأصحاب القوارب ، الذين يحملون الاحطاب لندفئة الحمامات .. وأنه لأمر هين أن تعرفهم من لهجاتهم وأساليب معيشتهم ، وتطردهم لانهم يشيرون القلاقل والفتن .. »

وان مصر لتذكر جيدا عهد « دفيانوس » والشهداء فى عصره ! وتذكر وقفة الاسكندرية وبطاريقها فى وجه روما - وقد صارت دولة مسيحية .. وكيف خالفوها الرأى وجادلوها فيه ..

لقد حاربت مصر احتلال روما بكل سلاح .. وعلى الرغم من طول فترة الاحتلال ، فقد كان النصر دائما للشعب .. اذ لم تستطع روما أن تصل الى روحه وطباعه ، فظل مصرىا .. واستطاع بقوته أن يصهر فى بوتقته حضارة الرومان ونفوذهم ! غلبت مصر روما فكريا وروحيا ، وآثر أهلها الفرار الى الصحراء بأرائهم وأفكارهم ودياناتهم ..

ولم يكن عجا - وهم الأحرار - أن يتطلعوا الى مقدم الأحرار .. الذين كانوا فى ذلك الوقت يقطعون أوصال المارد الذى شاخ ، ويحطمون صولجانه ويثلون عروشه فى بلاد الشام ..

وشاءت ارادة الله أن يمهّد شعب مصر للفتح العربى .. وأن يعد التربة الصالحة لاستقبال البذرة الطيبة ، القادمة اليهم عبر الصحراء ، حاملة ايمانا وعقيدة وشرعية وحياة ولم يكن عجيبا أن يملأ الأمل القلوب .. وتغمر الامانى نفوس الشعب الثائر على

الرومان ، الرأغب فى مقدم العرب الغازين بأفكارهم ودينهم ، لا بسلاحهم وجموعهم
اللجنة ٠٠

ولم يكن عجيبي أن يتلهف القوم فى مصر على سماع أنباء الكوارث التى نزلت
بالرومان فى شتى المواقع التى خاضوها ضد العرب ، وأن يتعجلوا الحوادث ، ويسألوا
أنفسهم : متى يصل الى مصر هذا الغوث القوى الذى سيتقدم فيه الأعصار الشاب ،
ليحطم المارد الرومانى ويزيل آثار وجوده من الوادى الخصيب ؟

وكان طبيعيا أن تحس مصر بالهزة الجبارة التى أحدثها الزلزال المسمى ، وأن
يتلقى أحرارها بالفرحة أنباء فرار طواويس روما من وجه العرب الجراء المفوير . .
وأن تنتقل هذه الأنباء السعيدة عبر القرى والبلدان مع نسائم الصباح وهى تنتقل فى
مساريها بين أعواد القمح اللينة فتتمايل سنابلها فى أغرودة البشرى يعزفها النسيم
لحنا يسرى فى مرح وحيوية وحيمة ، فيصل الى شتى المسامع بعيدها والقريب وينفذ
الى المحاريب فى المعابد والصوامع وتدفق فى حذر منافذ البيع التى استقر بداخلها
أحرار الوادى فى قلب الصحراء . .

أية أنباء ! وأية بشائر ، طالما هفت إليها القلوب الصادية ، أطمأها العسف . .
فحنت الى ذلك الغيث الربانى ، حاملا فى طياته الايمان والعدل والحرية !

والهبت أنباء انهيار الامبراطورية الظالمة - قلوب الاحرار الذين وقفوا بايمانهم أمام
سلطانها وقواها ، ووثقوا أنهم لابد منتصرون . .

وثار فى قلوبهم من جديد حب الجهاد . . واحسنت جموعهم برغبة ملحة فى استئنافه
والانتظام فى صفوف أولئك العرب البواسل ، ليكون لهم شرف الثأر من طغاة الرومان !
وهكذا . . وأمام حرب التحرير الكبرى التى أثارها أبطال العرب ، أحس أحرار
وادى النيل بصدى ذلك البعث الجديد . . ووجدوا فيه فرصتهم للثأر والتكتل لطردهم
الرومان من الشرق !

ومع مسارى الأهوية ، ترددت الهمسات المشبوبة . . وسرعان ماتجمع أحرار مصر
وخيرة بنيتها وتسللوا سرا عبر الحدود متطوعين فى الجيش العربى الغازى ، ليكون لهم
فخر الاشتراك فى سحق الطغيان العتيد . .

والمصريون بوصفهم أهل حضارة ودين - قوم فيهم الوفاء وحب الدين ، وتقديس
العبادات الداعية الى التحرر والجهاد بصفة خاصة . . لأن صلب عبادتهم القديمة كان
الدعوة الى الفتوح والقوة والتوسع . . فلا عجب أن يركن أحرارهم الى أحرار الدعوة
المحمدية ، وأن يقبلوا بقلوبهم على الدين الجديد يستروحون فيه عبير دعوة جديدة الى
جهاد مقدس لا لفرض سلطان وتملك . . بل دعوة تهدف الى جمع العالم كله فى صعيد
واحد تظلمه راية المساواة وينتشر فوقه قانون العدل والحب والاخاء . .

بهذا الروح السامي تقدم المصريون من العرب ٠٠

وعلى ضوء تلك النورانية التي توهج بها الايمان القوى ، كان التعارف ، وكان التواد ٠٠ وكانت الصلة القوية التي أكدها « عمرو » وثبت دعائهما ، وأحب أن يجعل منها تكأة لتكون له فاتحة خير لفتح ومزيد من التقدم والفتوح ٠٠

لقد أحب « عمرو بن العاص » مصر ٠٠ ولم يكن غريبا أن يندمج والاحرار من أهلها ، وهو الذي طالما كانت له بالكثيرين منهم صلات تعدت روابط التجارة والكسب الى الصداقة والاخاء ٠٠

لقد عرف « عمرو » مصر وخبر أهلها خبرة التاجر الذكي البعيد النظرة .. فلا عجب وهو الداهية الحضيف ، أن يسارع للاستفادة من هبوب رياحهم الجديدة النزاعة الى هدم العتيق القائم على العسف والمظالم ، واعداد الاسس الطاهرة لاقامة البناء الجديد ٠٠

واعتبر عمرو بن العاص أحرار المصريين الذين التفوا حواليه عيونا له وسواعد ، وقوة يروجها في غد مأمول ٠٠ لتكون عدته لتحقيق حلم قديم ٠٠ بشرهم به محمد رسول الله اذ قال :

« ان الله سيفتح عليكم مصر » ٠٠ وأوصاهم خيرا بقبطها ، فان لهم فيها مودة ورحمة من عهد خليل الله ابراهيم عليه السلام ٠٠

وشاءت ارادة الله في تلك الفترة من فترات الجهاد ، أن يظل بالنصر ركاب عمرو ابن العاص ، ويكون التوفيق حليفه ، فيسير به من نصر الى نصر .. حتى لقد كان مجرد ذكر اسمه العظيم ، كافيا لالقاء الرعب في قلوب الرومان المعسكرين في فلسطين – وكان يسير اليهم بقواته ويضربهم الضربة تلو الضربة ، ويوقع بهم الهزيمة في اثر الهزيمة ، وهو سائر قدما الى الفتح المبين ٠٠

وحقق عمرو الداهية بالقوة الفتية المحدودة العدد التي كانت تتبعه ، أعظم نصر ٠٠ وكانت الضربة التي وجهها لقوات قيصر في « اجنادين » مصدر رعب لروما ، وأداة لتحطيم معنوية جنودها ٠٠ وكان من جرائها أن فتحت « غزة » أبوابها مرحبة بالعرب ٠٠ ثم لم تلبث أن نهجت نهجها بقية المدن .. وسرعان ما انهارت القوى الباغية ، واستسلمت الحاميات الرومانية في « يافا » و « الرملة » و « صور » ٠٠

واستمر عمرو في تقدمه ، وقد تقوس الحديد الروماني ولان وفقد صلابته أمام المطارق العربية ٠٠ وظلت الحيوش المظفرة في مسيرها تتبع طريقها المرسوم لتصل الى « بيت المقدس » لتفتحه وتحرره باسم الله ، وتبنى فيه للعرب الأماجد عزا وسلطانا ٠٠ وهاجم العرب المدينة المقدسة ٠٠ واستطاع « البطريق » ، زعيم بيت المقدس وقائده

الروحي أن يصمد ويقاوم ٠٠ حتى بعد أن تخلت عنه فلول الرومان ، طوال شهور أربعة ، وجد في نهايتها أنه يقوم بمحاولات مقضى عليها بالفشل ، لأنها أمام القوة الفنية التي تشبه الأعصار المشبوب وأن الصمود أمامها ضرب من ضروب المحال !

ورأى « البطريق » أن التسليم للعرب خير وسيلة لحقن الدم ، وحفظ التراث الدينى للمدينة المقدسة ٠٠

وأحب في نفسه أن يختبر مدى سماحة أتباع هذا الدين الجديد ، الذى بعث الله به محمدا ليتنم مكارم الأخلاق ٠٠ وليرى كيف يحترم المسلمون أهل الديانات الكتابية ، فكان أن بعث يفافض الغالزين المنتصرين في شروط التسليم ٠٠

وطالب « البطريق » بأن يحضر أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » بنفسه ، ليتسلم مفتاح « القدس » - ذات الأجداد الدينية العريقة - من يد البطريق ٠٠

ولم يستطع عمرو أن يجزم بموافقة أو رفض ٠٠٠ وأسرع فأرسل الى أمير المؤمنين ليحضر بنفسه ويشهد استسلام بيت المقدس ٠٠

وكان طبيعيا أن تمر فترة مهادنة بين المتحاربين ٠٠ وكان طبيعيا خلال هذه الهدنة أن تتجه قلوب أحرار وادى النيل الى مصرهم العزيزة ، ويتمنوا زوال الطغيان الرومانى وانحساره عن أرضها الطاهرة كما انحسر وزال عن فلسطين ٠٠

ويغلب الحنين الى تحرير مصر قلوب الأحرار من شبابها ، فيخرجون على شرعة الكتمان ٠٠ وتسارع جموعهم الى صديقهم الوفى القائد المظفر عمرو بن العاص ، ليبيثوه شكواهم ويوحوا له بما أمضهم من لوايح الحنين الى الوطن الحبيب ٠٠ ثم يسألوه أن يكون وسيوف الله عونهم فى طرد أولئك الغاصبين !

وأصغى ابن العاص الى الهمسات المؤمنة بحق وطنها فى الحرية والسيادة ٠٠

ورافت له الفكرة وقد بسطها له القوم وزينوها وصوروها له فى هيئة حركة مباركة لن تكلفه أكثر من أن يسير قدما عبر سيناء ليصل الى الوادى الخصيب ، فيضرب الرومان الضربة الاخيرة المرتقبة ، التى سيكون معناها القضاء النهائى على طغيانهم المقيت ، فلا تقوم لهم بعد ذلك قائمة فى الشرق أبدا !

وبلغت الحماسة بالمتحدثين مداها ٠٠ وراحوا يعزرون الفكرة لعمرو ، وكيف أن مصر بأسرها ستؤيد مقدمه وتعزز تقدم قوات الفاتحين القادمين بالحرية والنور الى شعب متعطش اليهما ٠٠ وكيف أن شعب وادى النيل بأسره سينقلب على الرومان ويقطع امداداتهم وتموينهم ويعوق تقدمهم ويعرقل تحركاتهم ٠٠ وأن حركة مقاومتهم السلبية التى استمرت سنين عديدة ستظهر اليوم ايجابيتها بصورة واضحة ٠٠

ورافت الفكرة لعمرو بن العاص ٠٠ فسيكون له ، فوق فخر السبق بفتح مصر

ونشر الاسلام فيها ، فخر تحقيق نبوة رسول الله على يديه !
 فراح فى شغف ينصت ويبحث ويدقق ويفحص .. فأسعده أن وجد التربة معدة ،
 والجو ممهدا ، والظروف مهيأة لاستقبال الحدث العظيم ..
 وبالغ عمرو فى تفاؤله الى الحد الذى جاءه يطلب من طائفة من مجاهدى مصر وخيرة
 بنيتها ، أن يعودوا متمسكين الى بلادهم ، ليبثوا الدعوة ويهيئوا الاذهان للفتح العربى
 الموشك .. فأسرعوا تستخفهم الحماسة للدعوة المباركة التى سيكون من ورائها تحرير
 الشرق من ربة الاستعباد والذل الى الأبد !
 وبات عمرو بن العاص .. وأصبح ولا فكرة تشغله غير فتح مصر الحصيبة الغنية
 ذات الصيت والمجد التليد . حتى لقد آمن بأنه لا بد وأن يتم على يديه هذا الامر العظيم
 ولم يكد أمير المؤمنين يحضر الى « القدس » لبتسلمها من البطريق ، حتى أسرع عمرو
 يسر اليه برغبته فى فتح مصر ..

* * *

لقد كان تسليم بيت المقدس للعرب ، واتمام فتح فلسطين على يدى عمرو ، ضربة ..
 لم يتحملها هرقل الذى جاء من بلاده ليشرف على سير المعارك ، فأسرع هاربا ناجيا بنفسه
 وأن فى هذا النصر المعنوى ، الذى عاينه أمير المؤمنين بنفسه ، لما يشجع عمرو بن العاص
 على مفاتحته برغبته فى فتح مصر الحصيبة ، التى فتحت ذراعيها وتعالصت صيحات أهليها
 الاحرار داعية العرب الى القدوم ؛ لسحق قوات الاحتلال الباغى وطردها من شتى جوانب
 هذا الشرق العزيز ..

وأنصت عمر بن الخطاب الى حديث قائده وأخيه فى الله عمرو بن العاص .. وراح
 يفكر ويدبر ...

لقد فتح الله على المسلمين بلاد فارس والشام وفلسطين ..
 وان الدولة الفتية لتمارس اليوم لونا من ألوان الحكم لم يكن لها به عهد من قبل ..
 وان أقدام العرب الفاتحين لم تثبت بعد فى أماكنها الجديدة .. وأنه لجدير بأمير المؤمنين
 المسئول عن أقدار هذه الأمة الشابة ، وذلك الدين القيم - الذى دفع بأهليه الى تحقيق
 الاجاد ، أن يفكر لا فى فتح جديد ، ولا فى ارسال قوات أخرى عبر الصحارى والقفار ،
 بل فى تركيز ذلك الفتح وتعزيزه وتقويته بشتى الوسائل ليستقر ويعظم ويكتب الله
 له البقاء ..

وهكذا تردد عمر بن الخطاب فى أمر فتح مصر .. ولكن تردده لم يقنع عمرو .. وما
 كان عمرو ليسلم به أو يرضاه ، فعاد يطالب ويلحف .. ويهمس فى ايمان لأميره ، مينا
 له مدى الغنى الذى سيعود على الاسلام من فتح مصر والقضاء على الفلول الباقية هناك
 من قوى الرومان ..
 وأنصت عمر من جديد الى صاحبه وقائده - ثم عاوده من جديد تردده وخشيته ،

وراح يبين لصاحبه وجهة نظره .. التى آمن بها عمرو .. ولكنها مع ذلك لم تننه عن تكرار الاحاح والاستمساك بمطلبه ..

لقد كان أحرار مصر يرون فى تقدم قوات المسلمين عبر الصحراء نحو واديهام أملا منشودا ، ورجاء عزيزا ، وأمنية غالية .. وماكان العربالبواسل ليحجموا عن اسدائها ! انهم يبشرون بدين ودولة وحضارة وشريعة .. وانهم كرسل صدق لهذه الفضائل ، واجبهم الاول يحتم عليهم الاستجابة والتضحية فى مثل هذا الموقف ..

على هذه الوتيرة أخذ عمرو بن العاص يضرب لصاحبه أمير المؤمنين .. حتى لم يجد عمر بن الخطاب بدا من أن يوافق ، مادامت موافقته ستمنح أهل مصر - خوؤلة العرب وأصهارهم - الأمل العزيز الذى ينشدون !

الله أكبر ! لا اله الا الله ، محمد رسول الله
انها صيحة الحق وشهادة الصديق ، وصك الرضوان ، تلوى فى جوانب الوادى !
وان أصوات الفاتحين فى تقدمهم الظافر لتعلو بها هائفة من الاعماق :
لا اله الا الله .. وحده ، لا شريك له فى ملكه ، هو الحق .. هو العدل .. وهو على كل شيء قدير ..

نفس الصدى المشبوب .. نفس الأرنان العميق ..
هى .. هى ، الدعوة السمحاء النقية !
هى .. هى ، صيحة الحق والفوز والنصر المبين ..
ان الوادى الاخضر ليصغى الى الدوى المجلجل ، فيذكر شبيبها له من قبل .. دوى فى جنبات هذا الوادى منذ دهور عديدة خلت ! وعصور ماضية تولت ..
ولكن الأصدااء الحبيبة مازالت باقية تتردد على الزمان شاهدة أن لا اله الا الله ، خلق فسوى ، وقدر فهدى - وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر .. ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا ..
وأصغى الشعب الذى تبدت بشائر تحريره من الغاصبين .. وأنصت فى شغف ليزكر الماضى ويعرف متى سمع مثل هذه الصيحة .. وأين !؟

الله أكبر ، لا اله الا الله ! هتف بها خليل الرحمن ابراهيم «امام الشعوب» .. وتردد صداها فى أجواء مصر .. عاد بعدها أب الانبياء ، وقد ربط بين المصريين والعرب برباط المصاهرة ..

الله أكبر ، لا اله الا الله ! - هنا .. علا بها صوت الصديق يوسف فى محنته .. وبشر بها صاحبه سجنه - وقد أحب أن يرشدهما الى طريق الحق السوى ، هما وغيرهما ممن كانوا يصغون اليه ..

الله أكبر ، لا اله الا الله ! دوى بها فى مصر ، صوت موسى كلم الله .. وقضى بهاعلى كبير

طفاة الأرض، فرعون العاتى الظلوم الذى علا فى الأرض، وجعل أهلها شبيها ، يستضعف طائفة منهم • يذبح أبناءهم ويسبى نساءهم • • فجعله الله نكالا فى العالمين وأهلكه ، وأغرقه فى اليم ثم نجاه ببدنه ليكون عبرة للطفاة من بعده !

الله أكبر ، لا اله الا الله ! ترنم بها الفيلسوف الموحد « أخناتون » ودعا اليها وجاهد فى سبيلها • •

الله أكبر ، لا اله الا الله ! همهمت بها « مريم العذراء » ، وقد جاءت الى مصر هاربة بمسيح الله عيسى ، لتخفيه بعد مولده من بطش هيرود !

الله أكبر ، لا اله الا الله ! هتفت بها حناجر أهل مصر وآمنت، فتار الأباطرة وعذبوهم وطاردوهم ، فخرجوا بدينهم هاربين الى الصحراء • •
الله أكبر ، لا اله الا الله !

انها صيحة تعرفها مصر كلها • • وتؤمن بها مصر كلها • • وتعرف أنها دعوة الحق وصيحة الحق ، وأن أصحابها ولا شك أنصار الحق ورجال الله وأسيافه • •

الله أكبر ! ان عمرو ليتقدم باسم الله مؤيدا بنصره • • وهاهم أولاء فلول الرومان يفرون مرة ، ويقعون فى الاسر أخرى ، وتزهق أرواحهم تحت النصل القوى كالخصيد !
والشعب • • انه يعبد الطرق • • يقاوم ما وسعته المقاومة • • ينزل الرعب فى قلوب الرومان • • يقطع أوصالهم • • يمزق وحدتهم • • يقذف فى قلوبهم الرعب • • يريهم من الانتقام آيات تجعلهم يؤثرون السلامة ويفرون هاربين !

وسقطت « بلوزيم » وسلمت حاميتها الرومانية وقد دعر قادتها من عنف الهجوم ، واندفعت فلولهم تتلمس النجاة بعيدا عن السيوف العربية المشرعة ، التى ما أن تم لأصحابها تملك الحصن الاول ، الذى يعتبر مفتاح حدود مصر ، حتى اندفعوا كالسيل العرم منتشرين فى خط طويل مهد الفدائيون المصريون لتقدمه • • حتى وصل فى النهاية الى « بلبيس » • •

وأمام بلبيس ، هذا الحصن الشامخ العتيد ، وقف العرب وقفة • • لم تطل ، اذ حملوا على أعدائهم فى عنفوان وقوة • • حملة سرعان ما انهارت لها مقاومة الرومان ففروا تاركين الحصن ، وقد أزيلت مواقعه وتهدمت استحكاماته وفتحت أبوابه • • واذا بها بين ليلة وضحاها معبر المنتصرين فى تقدمهم السريع !

ووصل العرب فى سرعة مذهلة الى الحصن الرومانى الذى كان يقع فى مواجهة «منف» العاصمة الفرعونية ، والذى كان يعرف وقتها باسم «الحصن البابلى» - فداروا حواليه وحاصروه أدق حصار ، اذ تكدست فى داخله جموع الرومان المعسكرة فى تلك الجهات والتى فرت أيضا عن المدن التى تم فتحها • •

ووقف عمرو في الفضاء الفسيح المشرف على الحصن البابلي يرقب جيشه ٠٠ وينظر ناحية الحصن المنيع ذي المداخل السرية المليء بالمؤن والذخائر وجنود الاعداء ٠٠
 ووجد أن الحكمة تقضى باليقظة ٠٠ والانتظار بعض الوقت ، لاحكام الحصار وقطع كل صلة يمكن أن تحدث بين الرومان المحاصرين وأى قوة أخرى تمدهم بميرة أو عتاد أو رجال وسار عمرو شمالا في هدوء ويقظة حتى باغت حامية « أم دنين » فتخلص منها وقسى على أى أثر يمكن أن تحدثه في حصاره المضروب على الحصن ٠٠ ثم راح يفكر في اشغال جيشه لبعض الوقت ، ليشعر الرومان المحاصرين داخل الحصن أنه يعمل للقضاء عليهم فنقل مراكزه الى منف نفسها ليشرف على الحصار من هناك وليتجنب خوض معركة فاصلة مع الرومان ٠٠

أبدا ما تبادر الى اذهان الرومان - سادة الحرب ودهاقين الوغى وأرباب فنونه - أن عمرا انما انسحب من أمامهم لتجنب موقعة فاصلة ٠٠ وأن خطة عبوره النيل واقامته معسكره في منف ، كانت ضربة موفقة أراد بها أن يغطي موقفه ويستمر انتظار جنوده ٠٠ حتى يأتيه المدد الذى بعث يطلبه من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ٠٠



كان عمرو القائد الداهية ، قد وصل الى قلب مصر ٠٠ وكانت وقفته الجريئة في منتصف الطريق بين الوجهين القبلي والبحرى ، ضربة موفقة شطرت قوات الرومان ، ومكنته وحلفاء المصريين من سرعة العمل لتغطية الانتظار الذى أرادوه هو ليعزز جيشه العظيم ٠٠٠

لقد عرف عمرو صعوبة الطريق ، وكثرة المقاومة التى سوف تعترضه في تقدمه لاتمام تحرير مصر ٠٠ فأرسل الى أمير المؤمنين يسأله العون وقد بيت في نفسه خطة ٠٠
 لقد قطع الطريق بين قوات الشمال والجنوب ٠٠ وحكم بالسجن على كثرة عظيمة من المحاربين في الحصن البابلي ٠٠

ثم ، هاهو ذا يرسل الرسل ، ويبث الدعاة من أهل مصر للتحدث عن قوائمه ، وكيف سيبيد الرومان ويحطم قواهم كما كسروهم قبلا في فلسطين ٠٠
 واستطاعت الدعاية وقوة الحصار المضروب أن تؤتى ثمارها ٠٠ فلم تكد النجدة تصل من المدينة ، يفودها «الزبير بن العوام» و «المقداد بن الأسود» حتى كان عمرو قد أعد الخطة الجريئة للموقعة الفاصلة بينه وبين الرومان ٠٠

وقسم القائد العربى الداهية جيشه الى ثلاث فرق ٠٠ ثم أذن بالقتال ، وجعل نفسه على الفرقة الاولى وهى القلب وهاجم بها الأعداء ٠٠

فلم تكدهم تكرر ناحيته حتى تراجع ليخرجهم من مكائهم ٠٠ ثم مالبت أن هجم الجناحان العربيان على جانبي الرومان ؛ فدارت عليهم الدائرة في « عين شمس » وتبدد جمعهم ٠٠ وأسرعت فلولهم لاتلوى على شيء ، لتحتفى مرة أخرى « بالحصن البابلي » !

وأُسرع عمرو الى موطن الخطر وقد استقر به الرأى على أن ينهى هذه المقاومة بصفة نهائية ، فأحكم الحصار هذه المرة على الحصن المارد ٠٠

وظل فى وقفته تلك صامدا قرابة ثمانية أشهر وقد قطع كل سبيل على أى نجدات أو مدد للمحاصرين الذين أرهقهم طول الحصار ، وقضت على معنوياتهم شدة العرب ، فطلبوا التسليم ٠٠ وعاهد رسلهم العرب على ذلك فى «جزيرة الروضة» وتم التحالف ، وأرسلت بنوده الى « هرقل » الذى انظر قلبه كمدا وقد رأى امبراطوريته الفسيحة تتضاءل وتنهار أمام العرب المغاوير !

وترددت فى جوانب مصر صيحة الظفر ٠٠

وبدأت المقاومة المصرية المستترة تظهر جهارا ، وقد طغت من أعماق القلوب الكراهية المتأصلة للرومان ٠٠ وراح القساوسة والبطارقة من أهل مصر يشيرون الناس ويذكرونهم بالصراع المذهبى بينهم وبين الكنيسة الرومانية ٠٠ وكيف اضطهدتهم روما وتحكمت فى عباداتهم ومذاهبهم وصادرت حرياتهم وأجأتهم الى الصحراء زمانا طويلا !

كان الرومان يتبعون المذهب « الملكانى » وكان المصريون يتبعون مذهب « اليعقوبيين » وفرق بين المذهبين ٠٠

لهذا لم يكن غريبا أن يحاول الرومان ، بوصفهم السادة الحاكمين ، أن يفرضوا مذهب « الملكانى » على أتباعهم من « اليعقوبيين » الذين أبوا الخضوع لهذه السيادة ٠٠ فكانت الكراهية وكان الجهاد المستتر الذى أخذ يظهر ويعظم بعد سقوط الحصن البابل وضياع هيبة الرومان ٠٠

وتدارس المصريون وحلفائهم العرب خطة الهجوم ٠٠٠ وكانت المشاورة تقضى بتوجيه الهجوم الى الاسكندرية بالذات ، فهى عاصمة الرومان وهى حصنهم وهى نقطة اتصالهم بامبراطوريتهم وقادتهم وحكامهم ٠٠ ثم هى فوق هذا كله موطن أحرار مصر وكبار مجاهديها الذين كانت لهم ضد الرومان وقفات مشرفة وجهاد معروف ٠٠

وقبل أن يتقدم عمرو الى الاسكندرية ، حاصر الفيوم واستولى عليها ٠٠ ثم ترك حامية عربية فى الحصن البابلى ٠ وسار بعد ذلك فى محاذة فرع رشيد ؛ ليصل الى الاسكندرية محطما فى طريقه كل قوة رومانية كانت تعترضه ٠٠ حتى طهر الطريق كله من الرومان وألجأهم بجمعهم الى الاسكندرية ثم فرض عليهم الحصار البرى الطويل ! وبعد حوالى عام أو أقل قليلا ، بدأ الظل الرومانى يُنجاب عن الاسكندرية ٠٠ واقتنعت الدولة البيزنطية فى النهاية أن بقاءها فى مصر مستحيل أمام القوة العربية ، واندماج مقاومة المصريين فيها ٠٠

فكان أن رحلت قواتهم بحرا ، تاركة وراءها جنة الله ؛ لتستقبل عهدا جديدا من النور والحياة ٠٠

إمام المساجد

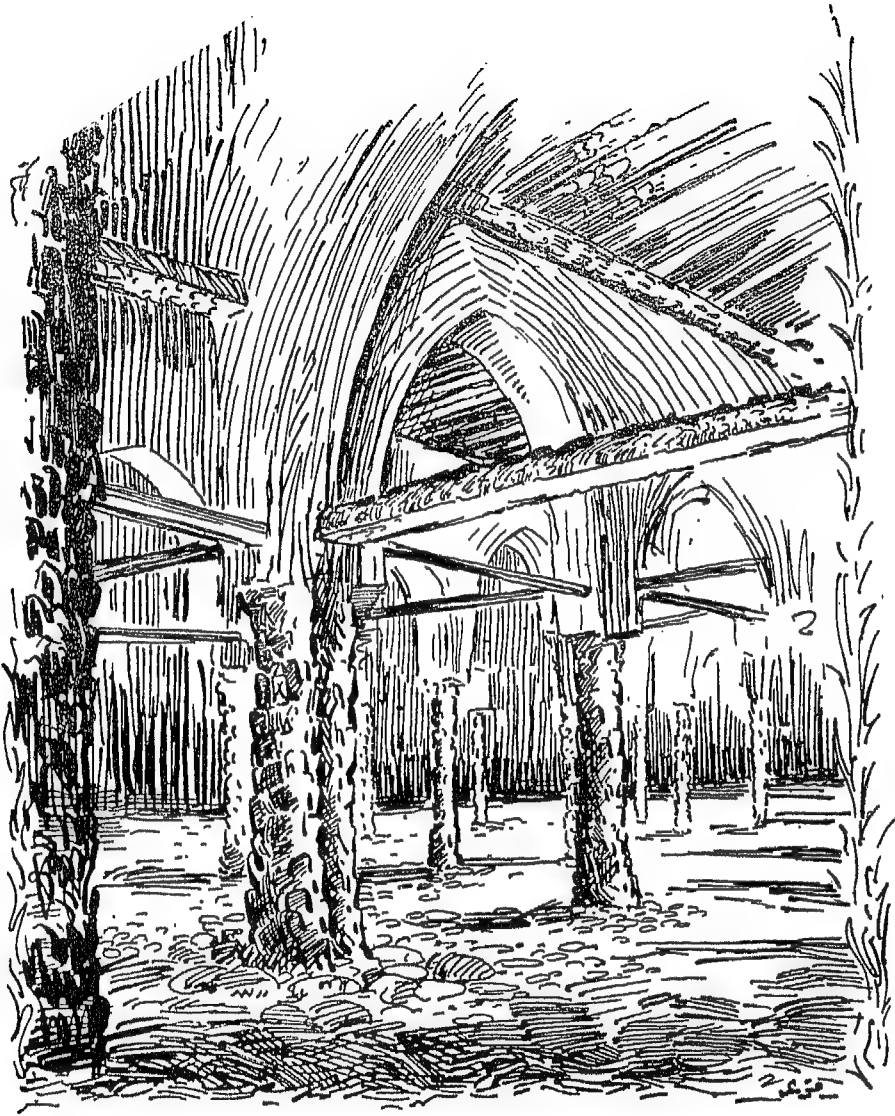


« مئذنة قايتباي بالأزهر »

انطلق معاوية بن خديج الى المدينة تسبقه الفرحة ، ليحمل الى اسماع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أبناء انتصارات قائده عمرو ابن العاص في وادي النيل ، ويصف له مدى التوفيق الذي لازم حملته المظفرة التي نجحت في طرد الرومان الفاصيين وقذفت بجموعهم الفارة الى البحر ، وحررت مصر ، كنانة الله في أرضه، من رجس الاستعمار .. وارتاح أمير المؤمنين الى النبا السار ، وامتلأت بالسعادة نفسه ، اذ شهد احدي بشائر صاحبه محمد عليه الصلاة والسلام بالفتح المبين .. ودعا مسرعا الى صلاة جامعة ، للشكر على انعم الله وما من به على الدولة الفتية .. ثم صلى بالمسلمين صلاة الغائب على ارواح من استشهدوا في مصر وروت دماؤهم الزكية التربة الخصبة التي تفجرت منها اولى الحضارات ..

ولم تمض على وصول بشرى فتح مصر الى أمير المؤمنين أيام قلائل ، حتى كان قد وصل كتاب مفصل من عمرو يقص فيه على عمر بن الخطاب طرفا مما حدث .. وكيف هي الكنانة اليوم تحت ظل العربى سعيدة فرحة .. ترنو الى المستقبل وترجو الخير على يد الاخوة الذين حرروها من النير وقذفوا بأصحابه بعيدا الى غير رجعة .. وأمام فتح مصر الخصيبة ذات الأجداد ، وانضمامها الى كتلة الدول التي بدأت تتكون

منها أول امبراطورية اسلامية - وجد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن خير مايجزى به قائده الظافر عمرو بن العاص هو أن يقره على ولاية ذلك الاقليم الشهير ، ويسند اليه أموره



كان مسجد عمرو بن العاص يوم انشؤ سنة احدى وعشرين هجرية ، اثنين واربعين وستمائة ميلادية يتسم بالبساطة الكاملة : فضاء رحب ، تسوره جدران عادية .. وله بابان يقابلان دارة ثم بابان آخران في ناحيته البحرية ، وبابان في ناحيته الغربية .. وكان سقفه المصنوع من الجريد منخفضا جدا واتخذت أعمدته من جذوع النخل ولم يكن له صحن يتسع لجلوس المسلمين .. وكان بينه وبين دار عمرو بن العاص سبع أذرع

جمعاء . فهو بمصر أخير العرب ، وهو الى قلوب أهلها أقرب الناس ، وأعرفهم بها من حيث مسالكها وخيراتها وأسرارها وخارجها ومواسم الزراعة والاعياد فيها وأنه بعد هذا كله أقدر فاتح على السير فى الكنانة سيرة العدل والاحسان ونشر رسالة الدين السمح وتقريبه الى القلوب . .

وأرسل عمر الى قائده يوليه حكم مصر ويفره عليها ، ويطلق يده للتصرف فيها بما أمر الله . .

وبدأ عمرو يعمل فى همة عرفت عنه فى شتى أدوار حياته . . وكان أن فكر أول ما فكر فى انشاء حاضرة لحكمه الجديد ، ومستقرا لسلطانه . . وأراد لهذه الحاضرة أن تكون مدينة جديدة تصطبغ بالصبغة الاسلامية ؛ وتسودها التقاليد العربية لتكون مقرا للدعوة الدينية أولا ، ثم مستقرا للجيش الفاتح بعد ذلك ومن معه من العرب القادمين ، ومن سيفدون على القطر الذى وصله بهم الفتح - والذين سيكونون أنموذجا فى حياتهم وتفكيرهم ومعاملاتهم لسائر الأهلى .

ولم يبحث عمرو طويلا عن المكان الذى سيقم فوقه حاضرتة العربية ، اذ وجده الى جانبه فى ذلك الفضاء الذى نزل فيه أول ما نزل بجنده . . وكان منزله فيه فاتحة خير على الحملة العربية كلها ؛ اذ واتها النصر بعد ذلك واستقرت لها الغلبة واعتزت بالمدد القادم من مدينة رسول الله ، فكان هجومها التالى على الرومان المحاصرين أول ضربة أطارت صواب العدو وأذهلته . .

لقد عرف عمرو تلك البقعة الغالية جيدا ، وعرف قيمة موقعها الممتاز الذى عاينه بنفسه ، وعرف الى أى مدى يتحكم فى موصلات الوجهين : البرية والنهرية . . وكيف يستطيع وهو فيه أن يشرف على الشمال ويبسط سلطانه على الجنوب ، ويكون صاحب الغلبة على من حواليه والسيد المطلق . .

وكما اهتدى عمرو بسليقته الحربية الغذة الى ذلك المكان ، كذلك هداه اليه المصريون وجاءوا يحدثونه عن ماضيه . . ومدى ما أفاده حكمهم الاوائل من جعل حواضرهم قريبة منه ، ليسهل لهم الاشراف على جميع اطراف البلاد . .

وهكذا استقر رأى بعمر بن العاص على أن يجعل من الارض الفضاء التاسعة المجاورة للحصن البابل حاضرتة الجديدة خاصة وأنها كانت فوق ما ذكر . . أحب البقاع اليه ؛ ففيها عرف الراحة بعد أول غزوة يغزوها قائدا فى سبيل الفتح ، وفيها أقام فسطاطه ، وحواليها تناثرت خيام جنده ، وفيها شهد احدى الحماثم البرية تتخذ لها من اعلا الفسطاط عشا تأوى اليه وتضع فيه فراخها . . فكانت فلاحسنا وبشيرا بالاستقرار!

وأمام هذا كله . . أمر عمرو بأن يكون المكان حاضرتة ، وصرح لرجالها أن يقيموا فيه

دورهم وأن يعمره ويجعلوه مدينة عربية ذات طابع اسلامي بحث يكون نموذجا بعد ذلك للاهلين ، اذا ماحدث وتدارسوا الدين وأحبوا الدخول فيه ٠٠

واختط عمرو بذلك عاصمته ٠٠ وأسمها « الفسطاط » نسبة الى فسطاطه الذي كان أول ما أقيم فيها واشارة الى استقرار العرب الأول في تلك البقعة المباركة ٠٠

وشاءت حكمة عمرو أن يوطد أركان دعوته في البلاد التي فتحها باسم الاسلام ٠٠ فأشار على قومه وجنده أن يختلطوا بالاهلين ، تدعيما للصلة الجديدة ، وربطاً بين القومية المصرية الأصيلة والعربية الوافدة عليها ٠٠

ثم بعث الى أمير المؤمنين بكتاب ضمنه كل هذه الخطوات ٠٠

ووصل كتاب عمرو الى عمر بن الخطاب ٠٠ فكان حافزا لأمير المؤمنين ، على التفكير ، لا في أمر مصر وما فعله عمرو فيها ، بل في أمر تلك الامصار جمعاء ، وقد فتحها الله على المسلمين ، وبدأت تنتشر فيها الدعوة الى دين الله ، الذي بدأ الناس في شتى أصقاع العالم يدخلون فيه أفواجا ، ايماننا منهم بالحق ورغبة منهم في أن يكونوا متساوين مع العرب الذين عظم شأنهم في شتى الحقوق والواجبات ٠٠

ورأى عمر بن الخطاب ، أنه مادامت قد أنشئت حواضر عربية في البلاد المفتوحة ، فانه استكمالا للطابع الديني لهذه المدائن الجديدة ، يجب أن تكون بها مساجد جامعة ٠٠ لهذا أسرع فأرسل الى ولايته في الشام والكوفة والبصرة ومصر بأن يتخذ كل منهم مسجدا للجماعة ، والا يقيموا في موضع واحد مسجدين يضار أحدهما الآخر ٠٠ وأن يجعلوا للقبائل مساجد بين بيوتهم فاذا كان يوم الجمعة حضروا الصلاة جميعا في مسجد الجماعة

وأسرع عمرو بن العاص لينفذ أوامر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ٠٠ وشرع يعد العدة ويتخير المكان الذي سيقوم على أرضه جامع الكبير ، ليعزز وجوده العاصمة الاسلامية ، ولتكون اقامته فيها دليلا على صفته المعروفة لأمثاله من المساجد الجامعة ، يجعله مقرا للدعوة والحكم ؛ فتقام فيه الشعائر ويتدارس الدين ، وتنعقد فيه مجالس القضاء والشورى ومنه تصرف شئون الدولة جميعا ٠٠

ولم يطل بعمره بحنه عن مكان مناسب ليقوم عليه الجامع الكبير ، اذ وجده في قلب الفسطاط ٠٠

كان ذلك في السنة الواحدة والعشرين من الهجرة المحمدية المباركة ٠٠ وكانت مصر حدينة عهد بالفتح العربي ٠٠

وكان للناس فيها أحاديث عن العرب ، بلغ بعضها حد الاسطورة ٠٠ ووصل البعض الآخر حد التحيز ، في حين كان بين الأحاديث ما يرتقى الى درجات الدعاية ، المختلفة الوجوه ، فبعضها يمدح والاخر يقذح ٠٠

ولم يكد عمرو يفكر في اقامة جامع الكبير ، حتى انطلقت الشائعات عبر القرى ٠٠

والدساكر حتى وصلت الى المدن واستقرت فى الاسماع مع محسنات غريسة ، أو مشوهات ، بعضها منفر وأكثرها مكذوب ٠٠

لقد عرفت الجاهلية عمرو بن العاص داهية من الدهاة ٠٠ وعرفه الاسلام رجلا استغل ذكاه فى خدمة الدين ، فكان القائد الفرد الموفق الذى كان يضع خطته على أسس دقيقة تضمن له الفوز دائما ٠٠٠

اذن ٠٠ فقد كان صاحب عقلية نادرة يميزه ذكاء مفرد ، وبعد نظر ، وتمكن من الأمور، لهذا لم يكن عجيبي أن تدور الشائعات حول ذكاء عمرو ٠٠ وليكن بناء المسجد الجامع الذى سيكون مسجد الولاية الرسمى ، أول مصدر لانطلاق الشائعات ٠٠ حتى لو كانت هذه الاستعانة خاصة بغصب أرض من أصحابها دون دفع أجر لها وخداع هؤلاء الملاك لغرض اتمام بناء المسجد ٠

وانطلقت أولاهها تقول : ان الصحابى الجليل والفتاح الأشهر ((عمرو بن العاص)) استعرض الفسباط كلها ٠٠ فراقه مكان وجده أنسب الامكنة لاقامة المسجد الجامع ٠٠ فسأل عن أصحابه ، فقليل : انه لسيدة من ثروة الاقباط تملك بستانا مجاورا لذلك الفضاء الرحب ٠٠ فأرسل اليها من يسألها أن تمنح المسلمين من أرضها هذه مايكفى لان يكون مناخا لناقة عمرو !!

وقالت المرأة فى سماحة : « حبا وكرامة » لياخذ الأمير من أرضى مايكفى لان يكون مناخا لناقته ٠٠

وابتسم عمرو ٠٠ وكتب اقرارا على المرأة بهذا التنازل ٠٠

وما أن حصل عمرو على هذا الاقرار حتى جاء بجلد ناقة وراح يقطعه حتى صار حبلا طويلا جدا ٠٠ ثم راح يحدد به مساحة من الارض ، حسب سعة الجبل وطوله من شريقها وغربها وشمالها وجنوبها ثم أخذ فى البناء !!

وراع المرأة أن رأت الأمير يغتصب كل هذه المساحة الكبيرة من أرضها ! ولكنه ذكرها بتصريحها له واقرارها المكتوب بمناخ للناقة ! وانه لم يفعل أكثر من أنه أخذ من الأرض بقدر جلد الناقة بعد أن حوله الى حبل طويل !

وكادت المرأة أن تسكت أمام هذا الدهاء ، وأن تسلم للأمير بما فعل ٠٠ لولا أن عمرو ابن العاص قد راق له أن يستمر فى دهائه ؛ واغتصاب أرض رعيته من المصريين ، بأن أدخل جزءا من بستان المرأة فى حدود مسجده ، بحجة أن الظل والماء لازمان للمصلين ! وغضبت المرأة واستشارت عقلاء قومها ، فنصحوها بأن تتظلم الى أمير المؤمنين من عامله على مصر ، فترفع اليه بشكوى تقص فيها قصتها ٠٠ ففعلت ، وأرسلت بذلك كتابا مع رسول الى عمر بن الخطاب ٠٠

ووصل الرسول المصرى الى المدينة ٠٠ وسال عن ديوان أمير المؤمنين : فقبل أنه ليس لعمر بن الخطاب ديوان ! فطلب أن يرشدوه اليه ، فأشاروا له الى رجل كان يجلس على كومة من الحصباء ٠٠ فدهش الرجل المصرى ، وظن أن القوم يسخرون منه ! ولكنه ذهب الى ذلك الجالس وحده بلا خدم ولا حراس ولا أبهة ٠٠ وأسلمه شكوى المرأة المصرية ٠٠ وفضى عمر بن الخطاب الرسالة وقرأها ٠٠ ثم طلب رقا كتب فيه :

« من عبد الله عمر بن الخطاب ٠٠ »

الى العاصى بن العاص ٠٠

أما بعد ، فنحن أولى بالعدل من كسرى ! «

وختم الكتاب وأعطاه للرسول المصرى ، فحمله وهو يائس من نتيجه ، وعاد الى الفسطاط وأسلمه الى عمرو ، الذى لم يكده يقرأه حتى خر على وجهه باكيا ٠٠ وذهب لتوه الى المرأة المصرية متوسلا يرجوها أن تغفر له خديعته إياها ويسألها أن تطلب الثمن الذى تريد أو يهدم ما بناه !

ويأبى مروجو الشائعة بعد هذا الا أن يختموها بخاتمة مسرحية ! اذ لم تكد المسألة تتعقد الى ذلك الحد ، ويحار الوالى أمام رسالة أميره العادل — حتى تسارع المرأة المالكة بالمساهمة فى التضحية هى الاخرى ، فتقر ملكية عمرو للأرض وتبارك اقامة المسجد الجامع عليها ! وتتمادى فى كرمها بعد هذا فتعلن اسلامها وتدخل عن صدق وإيمان فى دين الله بعد أن رأت هذه الآيات السمحاء من أمير المسلمين العادل العظيم !

والقصة ولا شك لاتعنى أن تكون خيال قصاص بارع ٠٠ أو خرافة راوية من نسج الواهم اتخذ الناس منها مادة للسمر فراحوا يتبادلونها مرة بالتحبيد وأخرى بالاستنكار وثالثة بالزيادة عليها ، من باب الحماسة للكرم العربى والاشادة بالعدالة الفذة التى اشتهر بها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ٠٠

ومادمنى فى موضع التاريخ الحق لبناء المسجد الجامع «إمام المساجد» ومقدم المعابد ، وقطب سماء الجوامع ، ومطلع الأنوار اللوامع • عين قلادة البنيان ، وعقيلة بيوت الملك الديان ، موطن أولياء الله وحزبه ، ومنزل اشيع الدين وصحبه • طوبى لمن حافظ على الصلوات فيه ، وواظب على القيام بنواجيه ، وتقرب منه الى صدر المحراب ، وخر لديه راکعا وأناب ، ومال اليه كل الميل ، وجنح الى حضرة فى جنح الليل ، وصرف همته باجتناء ثمرة خيره ، وأدرك فضيلة جماعته التى لاتحصل أبدا فى غيره « (١) ٠٠٠

أقول : مادمننا فى موضع التاريخ الحق لبناء المسجد الجامع ، فقد كان موضعه الاوّل دار قيسبة بن كلثوم النجيبى وهو واحد من بنى «سوم» حضر الى مصر مع جيش عمرو ابن العاص ، وكان ممن لهم شرف الجهاد فى شتى المواقع واحراز النصر ..

ويوم وفد قيسبة على مصر مع الجيش الفاتح لم يكن وحده ، بل كان مع اهليه وخدمه .. وكان يملك مائة بعير وثلاثين جوادا كريما ومائة عبد .. وقد نزل بهؤلاء جميعا فى «الفسطاط» ، شأنه فى ذلك شأن غيره من المسلمين المحاربين الذين أقاموا خيامهم ودورهم بعد ذلك حول فسطاط قائدهم العظيم ..

ولما أنشأ عمرو عاصمته الجديدة ، وأقام العرب لانفسهم الدور بدل الخيام ، دلالة على الاستقرار ، واتخذت كل قبيلة حيا خاصا بها - أصبح المكان الذى نزل فيه قيسبة وأهله ملكا له ، فأنشأ فيه دارا وبستانا ..

ولم يكد اختيار عمرو يقع على مكان دار قيسبة ليقام على أرضها المسجد ، حتى بعث فى طلب الرجل .. وعرض عليه الأمر ، وسأله أن ينزل له عن ذلك الموقع الطيب ؛ ليكون أول مسجد يقام بأرض النيل لآداء شعائر الصلاة ..

وأبى كرم عمرو أن يسأل قيسبة الدار منحة ، بل رجاء أن يتخير من الارض مايشاء ، وسيقيم له عليها الدار التى يشاء فى مقابل داره ان هو نزل عنها لتكون موضع المسجد الجامع ..

ولم يطل بعمرو انتظار رد صاحبه قيسبة ، الذى اغتنمها فرصة يكون له فيها أعظم أجر وأخلد ثواب ، فجاء الى أميره العظيم ليقول له وللمسلمين من حوله :

« قد علمتم يا معشر المسلمين أنى حزت هذا المنزل وملكته ، وأنا أتصدق به على المسلمين » !

وهلل المسلمون وكبروا .. وبارك عمرو بن العاص هذا الكرم العربى وعاد يعرض على قيسبة أن يقيم له من بيت مال المسلمين دارا بدل داره .. ولكنه أبى ، وأصر على أن يشتري بداره ، يوم يقام مكانها المسجد الجامع - عز الدنيا وثواب الآخرة !

وهجر قيسبة بيته وأسرع بأهله ومتاعه وما عنده من أماء وعبيد الى حيث كان قومه من « بنى سوم » ، فنزل بينهم .. ولم يكن من الصعب عليه - أمام انتقاله هذا - أن يجد فى الفضاء الرحب الذى كانوا يسكنونه مكانا مناسبا اختط فيه دارا لسكناء ..

وهكذا أزيلت دار «قيسبة» من مكانها .. وأسرع المسلمون يمهدون الأرض ويعدون لها للبناء بهمة عرفت عنهم فى أمثال هذه المناسبات ذات الصلة بشعائر الدين ..

وأعدت الارض .. وراح المسلمون يفكرون فى البناء وصفاته وهيئته .. وكيف سيقام ؟! وأى مساحة سيشغل ؟!

وتطوع شقيق المقوقس - عظيم القبط فى مصر - بمشاركة من وكل اليهم أمرا لاعداد

في الرأي ٠٠ وراح بماله من خبرة ٠ يرسم معهم الخطوط الاولى للمسجد الجديد ويحددون معاله ٠٠

وبناء مسجد اسلامي أمر عادي ٠٠ ولكن هذا المسجد « الجامع » الذي أراد له عمرو أن يكون على نمط جديد في بلد فتح حديثا ليكون مقر الدعوة والحكم - لاشك أن أمر بنائه سيكون عسيرا دون الاستعانة بخبرة هندسية ٠٠ لاسيما وأن المساجد الاسلامية نفسها لم تكن ذات أشكال أو أحجام تقليدية ٠٠ أو مواصفات مفروضة - لهذا رأى عمرو ابن العاص أن يشرف على عملية البناء أربعة من أجلاء الصحابة ، هم : أبوذر الغفاري ، وأبو بصرة ، ومحمثة بن جزء الزبيدي ، ونبيه بن صواب البصري - الذي بلغت منه الحماسة لسرعة اقامة جدران المسجد مداها ، فراح يصنع اللبن بيديه ويرفعه الى مكانه من البناء ٠

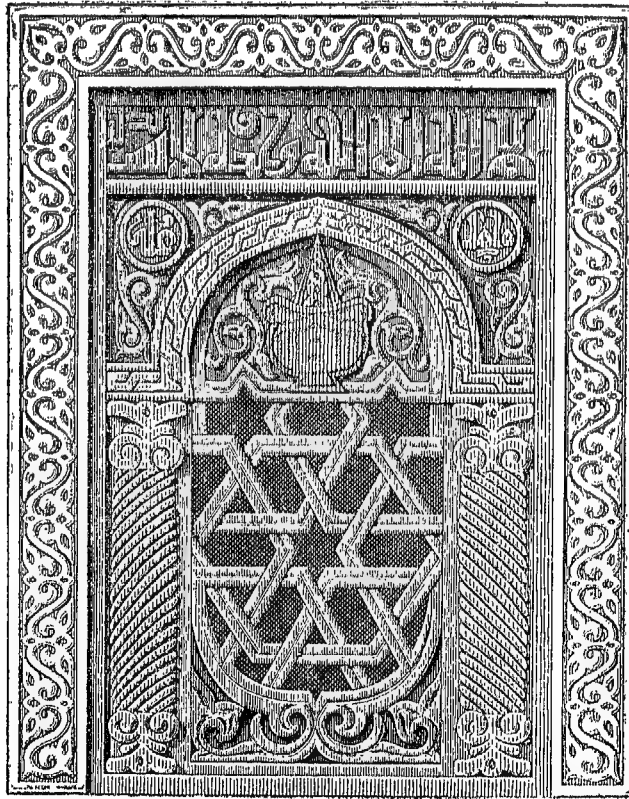
وظل العمل يجرى أياما في ذلك الفضاء الرحب ٠٠ حتى استكمل المسلمون اقامة الجدران ، وتم تسوير المسجد واتخذ شكله الخارجي ٠٠ وكان عاديا الى حد بعيد ، خاليا من النقش أو الزخرفة أو المحسنات المعمارية ٠٠

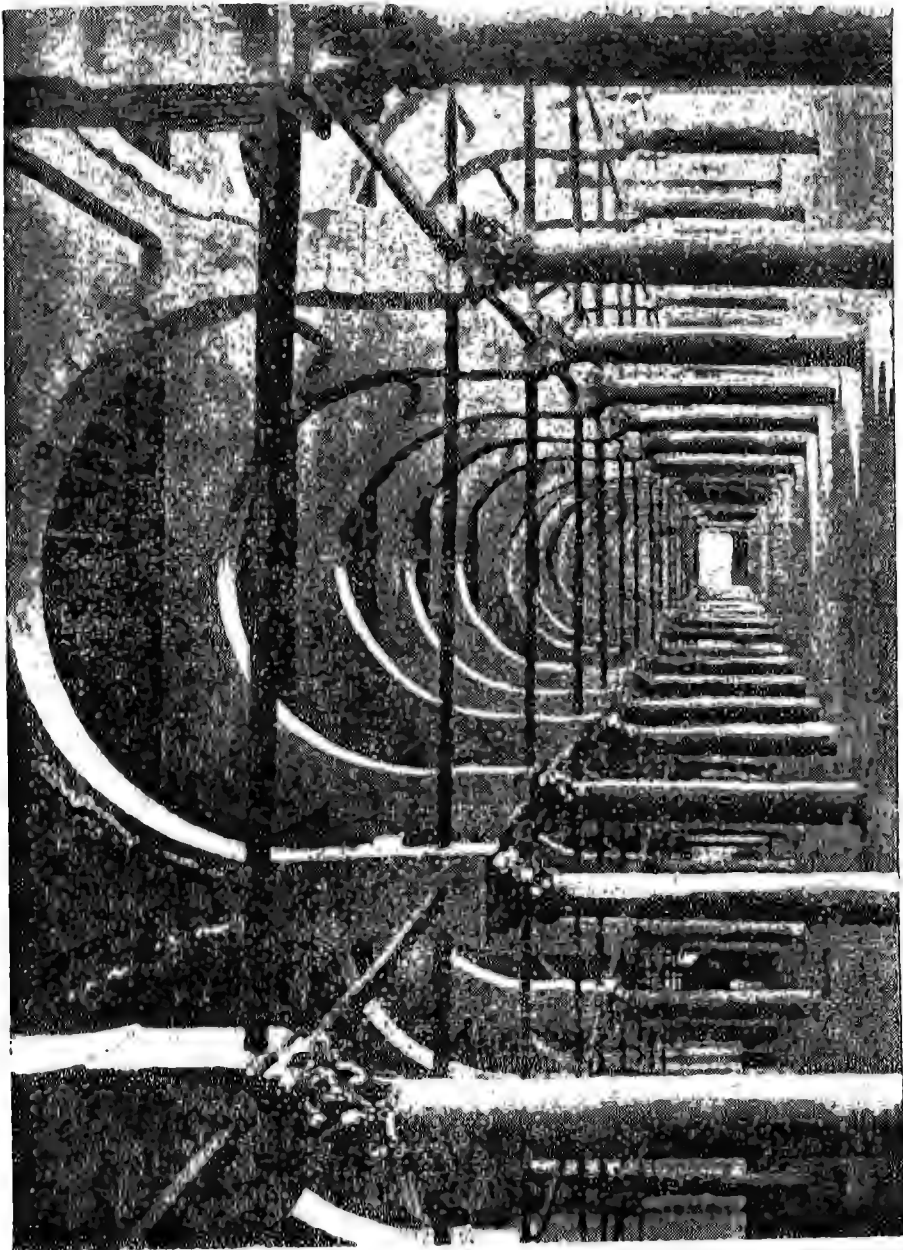
أما مساحة المسجد نفسها وقت انشائه ، فقد كانت صغيرة - لم تزيد على ٣٠ × ٥٠ ذراعا ٠٠ وكان في مكان متوسط من الفسطاط تحيط به المساكن من كل ناحية ٠٠ ولم تكن للمسجد يوم أنشئ - سنة ٢١ هجرية ، ٦٤٢ ميلادية - مظاهر تقليدية تدل عليه اطلاقا ٠٠

كان يتسم بالبساطة الكاملة : فضاء رحب ، تسوره جدران عادية ٠٠ وله بابان يقابلان دار عمرو بن العاص ، ثم بابان آخران في ناحيته البحرية ، وبابان في ناحيته الغربية . . وكان سقفه المصنوع من الجريد منخفضا جدا واتخذت أعمدته من جذوع النخل ولم يكن له صحن يتسع لجلوس المسلمين ٠٠ وكان بينه وبين دار عمرو بن العاص سبع أذرع (١) ووجد عمرو نفسه بعد اقامة الجدران ، أمام اشكال فني خاص بتحديد القبلة نفسها ، وكيف يمكنه - دون الاستعانة بالآلات هندسية دقيقة - أن يعين مكانها الذي حدده الله في البيت الحرام في قوله سبحانه « **وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره** » !

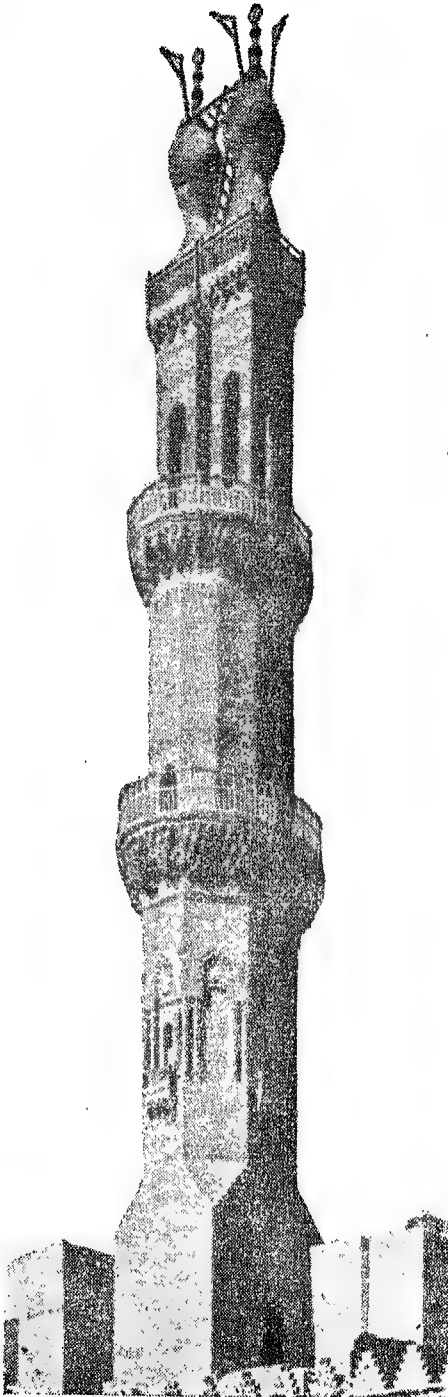
اذن ٠٠ فالضرورة كانت تقضي بأن تتجه قبلة المسجد الجامع الجديد الى المسجد الحرام لتستكمل صفتها الشرعية ويستقيم وجودها الديني وتؤدي الغرض المطلوب من اقامتها ولم يجد عمرو كبير مشقة في البحث ، فالعرب أهل نجابة فطرية ، ولهم خبرة بالفلك . . وهامو ذا عمرو يستدعي « **ربيعة بن شرحبيل** » ، « **وعمر بن علقمة القرشي** » - ويقول لهما :

« اذا انتصفت الشمس فاجعلها على حاجبيكما » ٠٠ فأطاعا وحددا المكان، فراح عمرو يشد الحبال ويمدها ثم قال : « شرقوا القبلة تصيبوا الحرم » !
وهكذا حدد عمرو بن العاص مكان قبلة المسجد الجامع ٠٠ وقد حضر تحديدها معه ثمانون رجلا من أصحاب رسول الله ، بينهم «الزبير بن العوام» والمقداد بن الاسود» ، و «عبادة بن الصامت» ، و «رافع بن مالك» و «أبو الدرداء» ، و«فضالة بن عبيد» ، و«عقبة بن عامر» ، وغيرهم من أجلاء الصحابة ٠٠
ولم يكن لجامع عمرو يوم تم بناؤه ، محراب مجوف ، ولا منارة ، ولا منبر ، ولا فرش ٠٠ سوى الحصباء التي فرشت أرضه بها ٠٠
وجعل عمرو من مسجده الجامع المسجد الرسمي للدولة الجديدة ، فيه ينعقد مجلس القضاء والشورى ٠٠ ومنه تعرف أمور الدولة جميعا وافتتحه بأول صلاة جمعة جامعة عقب الانتهاء منه مباشرة ٠٠ وسمى المسجد باسمه ٠٠





جامع عمرو بن العاص بقصر القبة بعد الزيادات التي أنشأ صاحبها عام ٢١هـ - ٢٢هـ - عصر الخلفاء الراشدين



تقاليد

باتمام بناء مسجد عمرو بن العاص الجامع
بعد الفسطاط ، واقامة شعائرالدين فيه ..
استكمل الفتح العربى مقومات وجوده
الروحى كحامل دعوة ورسول هداية
للشعوب .

واستطاع فى رفق وهوادة ولين أن يوجه
أنظار المجتمع المصرى الى الدين الذى بدأ
أهلوه يسودون العالم ويبشرون الناس
بآداب وحضارة ومبادئ جديدة ليس لها
مثيل من قبل ..

وكان تقليدا رسميا بعد افتتاح المسجد
للصلاة ، أن يتولى امامة المصلين فيه الحاكم
المعين من قبل أمير المؤمنين ، بوصفه نائبه فى
كل شئ ، حتى فى امامة المسلمين ..

وكان لحاكم مصر ، بمقتضى ولايته ،
ونائبته عن أمير المؤمنين ، أن ينيب عنه من
يليه مرتبة ليقوم مقامه فى أداء الشعائر
والصلاة بالمسلمين فى أى الاوقات يشاء ،
حتى لو كانت صلاة الجمعة أو العيدين .

وكان من عادة عمرو أن يؤم المسلمين
كثيرا ..

وكان يحب أن يخطب فيهم ويعظهم ،
خصوصا فى مواسم أوبة الجباة والعائدين
من ريف مصر بعد مواسم الحصاد وغير ذلك
وكانت له فى توجيه شرطته وجباةه
ورجال دولته ، أساليب وآراء وتقاليدتحتذى

« مئذنة الغورى بالازهر »

وانه ليقول للقوم وقد اجتمعوا فى مسجده للصلاة الجامعة ذات يوم :

» أيها الناس ..

» انه قد تدلت الجوزاء ، وذلت الشعري ، وأقلعت السماء وارتفع الوباء ، وقل الزندي وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل . وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر .. فحي لكم على بركة الله تعالى الى ريفكم لتنالوا من خيره ولبنه وفراخه وصيده .. « وأريخوا خيلكم وأسمنوها ، وصونوها وأكرموها .. فانها جنتكم من عدوكم ، وبها مفانمكم وأنفالكم .. واستوصوا بمن جاورتهم من القبط خيرا ؛ فان لهم فيكم ذمة وصهرا .. فكفوا أيديكم وعفوا وغضوا أبصاركم ..

» ولا أعلن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه .. واعلموا أنني معترض الخيل كاعتراضى الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة ، حططته من فريضته قدر ذلك !! « واعلموا أنكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم اليكم والى داركم - معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية ..

» فاحمدوا الله أيها الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم .. فاذا يبس العود وسخن الماء وانقطع الورد من الشجر ، فحي الى فسطاطكم على بركة « الله » ، ولا يقدم من أحد منكم ذو عيال الا ومعه لعياله ما أطاق من سمنه أو عسره .. أقول قولى هذا وأستحفظ الله عليكم « (١)

وجامع عمرو الذى هو « الجامع الفريد ، النضير النضيد ، الكامل المديد ، الماهول بالطائفين من الطوائف على أنه وحيد ، وهو الجوهر الفرد ، والبيت الذى قدر بانيه السرد ، والمسجد المؤسس على التقوى ، والمعبد المتمسك جاره من الاسباب ، بالاقوم القوى » (٢) كان أمر عمر بن الخطاب باقامته مقصودا به أن يكون المسجد الجامع الذى تقام فيه الصلوات الجامعة وأخصها صلاة الجمعة ..

وقد حافظ عمرو بن العاص على توفر هذا الشرط فلم يسمح بأن تقام صلاة الجماعة من يوم الجمعة فى أى مكان آخر بمصر غير مسجده هذا .. حتى لقد حدث ذات مرة أن جاءته وفود من الشعب ، تسأله رأيه فيما يمكن عمله اذا وجبت صلاة العيدين مثلا وهم فى أماكن بعيدة عن المسجد الجامع ، أيصح لهم حينئذ أن يقيموا صلاة الجماعة ويؤمهم واحد منهم ، فتكون الصلاة جامعة !؟

وأجاب عمرو بأن صلاة العيدين تجوز اقامتها جماعة فى مكان بعيد عن المسجد الجامع .. وأن يؤم المصلين فيها واحد منهم ...

واذ ذاك تقدم واحد بسؤال جديد أحب عن طريقه أن يعرف ، ان كان من الممكن تطبيق

(٢) وفاء الوفاء للسهوى ج أول

(١) المفريزى ج ٢

هذا على صلاة الجمعة اذا وجبت واجتمع جماعة من الناس بعيدين عن المسجد ؟ واذا ذلك اعترض عمرو على المتحدث وقضى ببطالان هذه الصلاة قائلا : أنه لا يصلى بالناس الجمعة الا من أقام الحدود ، وأخذ بالذنوب ، وأعطى الحقوق ..

فكانت الصلاة بعد ذلك فى المسجد الجامع تقليدا استنته عمرو ، وطالب به ولى الأمر الذى اعتاد أن يؤم الناس فى كل صلاة ، وأن يحدثهم فى أمور دينهم ودنياهم ..

وبالرغم من البساطة التى تميز بها جامع عمرو ، وبعده عن الزخرف والفخامة التى اتسمت بها أبنية المصريين بصفة عامة ، والروعة التى اشتهرت بها فيما يختص بالمعابد بصفة خاصة - ، فان عمرو لم يوفر سببا من أسباب هذه الفخامة لمسجده بالرغم من مكانته الرسمية ، ولكنه اتخذ له فيه منبرا من خشب ..

وسمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن واليه على مصر عمرو بن العاص قد اتخذ له منبرا يتحدث الى الرعية من فوقه ، فأسرع وكتب إليه :

« أما بعد - فانه بلغنى أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين .. أما حسبك أن تقوم قائما والمسلمون تحت عقبيك؟! فعزمت عليك الا ماكسرتة ! »

وأطاع عمرو .. ولم يحطم المنبر الخشبي ولكنه أبعد به بأمر أمير المؤمنين ، اذ ما كان له أن يجادل ابن الخطاب أو يناقشه فى أمر من أمور الدين أو الدنيا ارتأه وأمر به ! وبهذه البساطة المتجردة ، أخذ المسجد سمته وصارت له المزايا والصفات ، فتميزت به الفسطاط وتفردت واشتهرت ، وأصبح وهو الجامع الاكبر قبلة الجميع ومقصدهم أيام عمرو ..

وبدأت قافلة الزمان تسير سيرها الخثيث .. حتى وقفت أمام حادث رهيب ، أصاب قلب الاسلام .. يوم جرؤ المجوسى اللعين أبو لؤلؤة فطعن بخنجره المسموم عمر بن الخطاب صاحب محمد ووزيره وخليفته الثانى ، الذى أعز به الله الدين ، فى فجر السعوة ، وقضى به على الردة وأهل الشرك بعد ذلك ، وفتح عليه الامصار وجعله يضع أساس الامبراطورية الاسلامية المتراامية الاطراف !

وولى الخلافة بعد ابن الخطاب ، الصحابى الثالث عثمان بن عفان « ذو النورين » صهر رسول الله ، والمسلم العف الكريم ، الذى شغله دينه عن دنياه فترك أمر الخلافة فى يد أهليه من بنى مروان بن الحكم ؛ مما ترتب عليه أن عادت الارستقراطية الوثنية التى حاربها محمد وقضى عليها الاسلام ..

وكان طبيعيا أن يصدر أمر الخليفة الجديد بعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر ، بحجة انه قصر فى جمع خراجها .. وولى عثمان بدلا منه أخا له فى الرضاعة هو « عبد الله ابن أبى السرح » ..

وترك عمرو مصر بشخصه وظل فيها باسمه وسمعته وذكرىات أجداده وأقاصيص عدله

وحب الشعب له ؛ اذ رفع عن كواهلهم الجزية ، واعتاد أن يصرف أكثر الخراج في اصلاح
شئون الدولة ثم يرسل بعد ذلك فائضه الى أمير المؤمنين . .

ترك عمرو بن العاص مصر وله في كل بقعة فيها ذكرى طيبة واحدثة عطرة . .
وجاء عبدالله بن أبي السرح والمال همه ، فاستطاع أن يجمعه وان يكسسه وأن يرسله وفيرا
الى عثمان الذي أدهشه ذلك التغير في جمع الخراج ، حتى لقد قال لعمرو ذات يوم ، وقد
وصله ذهب وادى النيل وفيرا : « لقد درت اللقحة بعدك يا عمرو ؟! » . .
واسرع ابن العاص يقول : « نعم ، ولكننا أجاعت أولادها » ! مشيرا بذلك الى أن
ابن أبي السرح جمع الجزية ولم يهتم بمصائر الشعب ، فجاع من جاع وتشرد من تشرد ،
وتلوق الناس غصص الحاجة وقسوة الفقر . .

وظل عبد الله بن أبي السرح يحكم مصر باسم الخليفة عثمان ، حتى لحقه مرض الموت ،
فمات في الفسطاط ودفن بها . .

وتولى حكم مصر من بعده وال جديد هو « قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي » وأبوه
من الأئمة السابقين في الاسلام ومن أوائل من دعوا الى هجرة رسول الله الى يثرب ، حيث
حمى الاسلام بقائم سيفه وبعصبيته القوية ومكانته في بلده وحب الناس له . .

وكما مرت أيام عبد الله بن أبي السرح ، كذلك مرت أيام قيس : هدوء . . وخراج
منتظم . . ولا شيء أكثر من هذا . . حتى المسجد الجامع الذي ضاق بالمسلمين الذين
تكاثروا ، اما عن طريق الهجرة من مكة والمدينة وغيرها من البلاد الاسلامية ، أو عن
طريق اسلام اهل مصر أنفسهم — حتى هذا المسجد لم يلتفت أحد من الواليين اليه
وتركاه على حاله كما بناه عمرو بن العاص . .

وقامت الفتنة الكبرى . . وشغلت الامصار نفسها بأنباء عثمان وقيام أمية ، وسطوة
رجالها وانتزاعهم مقود الحكم من الخليفة المرضى الطباع . .
ونار الناس . . وتبلبلت الخواطر ، وسافرت الوفود الى المدينة ، اما لشكوى ولاتهم ،
أو للمطالبة بعزلهم أو التحقيق معهم لما ارتكبوه من جور وخروج على أصول الدين . .
وخرج أحرار مصر في جملة من خرجوا ، ووصلوا الى المدينة . . وكان لهم خطرهم بين
الثوار على عثمان . .

واستفحل أمر الفتنة ، وخرجت من أيدي العقلاء ، وركب الثوار رؤوسهم لاصرار أمير
المؤمنين على موقفه الحازم منهم ، وعدم انصياعه الى آرائهم ورفضه الاستجابة الى مطالبهم
وأمره اياهم بالعودة الى بلادهم وترك الفرصة له ليرى في شكوايهم ومطالبهم رأيه . .
وكانت الواقعة الخطيرة . . وكان الاقدام على اهراق الدم الزكى ! دم عثمان بن عفان .

صهر محمد وصاحبه والمقدم على كثيرين من أوائل من آمنوا به !

وقتل عثمان . . ذبح ذبح الشاة وهو قائم يصلى فى محراب بيته رضوان الله عليه . . وترك وراءه ثلثة رهيبية . . وخرقا كان من العسير رتقه ، فأخذ يتسع ويتسع حتى راحت الأمصار يأكل بعضها بعضا . . وكثرت فيها الأحزاب واتسعت شقة الخلاف واستطاعت الارستقراطية الوثنية التى أطلت برأسها من وراء كرم عثمان وطيبته بالظهور . . وخرجت الى ميدان الحياة العامة مرة أخرى - استطاعت أن تحدث بين المسلمين حدثا جللا ، رهيبا تمثل فى وقوف « معاوية بن أبى سفيان » فى وجه « على كرم الله وجهه » ، وعدم الاعتراف ببيعته الشرعية والمناداة به خليفة رابعا على المسلمين !



واتسعت رقعة الخلاف بين صاحب الحق الشرعى أمير المؤمنين « على بن أبى طالب » وبين حاكم الشام الخارج عليه - « معاوية بن أبى سفيان » ووصلت الى درجة اجترأ الوالى على اتهام أميره بالتقصير فى الأخذ بدم صاحبه وعديله عثمان بن عفان . . من قتلته ، وتركه اياهم يعيشون أحرارا دون عقاب !

ووصل الخلاف الى ذروته بين الرجلين . . حتى لقد جاهر معاوية أمير المؤمنين « عليا » بأنه لا طاعة له عليه . . ولا ولاء له ، وانه لا يمكن أن يعترف به أميرا للمؤمنين أبدا ! وتحصن فى دمشق الشام مقر ولايته واعتز فيها بأتباعه . . وكون لنفسه شبه دولة اسلامية لاتخضع لأمير المؤمنين !

واشتم عمرو بن العاص من رائحة الخلاف بين ابنى العم وصهرى الرسول أن الخرق سيتسع على الرافع ، وأن الكسر لن يقدر له أن يجبر أبدا ، لأن الصراع يقوم بين داهية لا يمكن أن يسلم وقد واثته فرصة السلطان ، وصاحب حق يفضل الموت على التهاون فى حقه !

ورأى عمرو أن من صالحه أن يقف فى المعسكر الأموى - ضد المعسكر الهاشمى ، لثقتة بأن الحيلة قد تفلح . . وان « عليا » المستقيم الخلق الشجاع القوى - قد ينرنج أمام ضربة مأكرة من ضربات الدهاء والمخادعة التى سوف يحسن معاوية توجيهها اليه ، والتى قد تزداد وتعظم خطورتها ان هى تأيدت بانضمام عمرو !

وهكذا وجد عمرو الحصيف فرصته النادرة ؛ ليظهر فى مجال الحياة العامة من جديد . . وسرعان ماكان على رأس جيش معاوية الذى وقف فى « صفين » يستقبل جيش أمير المؤمنين « على » ليحاربه !

ولقد كانت مغامرة فعلا من سيد بنى أمية أن يجند جنده ويقف بجيشه فى وجه « على » سيف الله وصاحب الانتصارات العظيمة فى الاسلام . . الذى لم يكد يحول جولته فى أول موقعة حتى ولى جيش معاوية الأدبار وانهزم وفر صناديده يتلمسون النجاة من سيف

« على » الذى علا صوته يطالب بحقن الدم ويدعو معاوية الى مبارزته .. فان أظهره الله عليه انتهت الفتنة ، وان نصر الله معاوية ، تم له ما أراد ..

ورجف ابن أبى سفيان .. وابتسم عمرو الداهية ، وطلب من معاوية أن يلبس دعوة ابن عمه ليارزه ، قائلا له : « والله لقد أنصفك »

واذا بمعاوية يقول : « والله ما أنصفتنى أنت يا ابن العاص أتريد أن تقذف بى بين فكي ابن أبى طالب ! »

وتبادل الرجلان نظرة مفهومة .. - لقد كان معاوية الداهية يستجير بدهاء صاحبه وزميله عمرو ، الذى سرعان ما فكر فى خدعة «التحكيم» وأمر برفع المصاحف على الرماح . وانتصرت الخديعة فى النهاية .. وكوفى عمرو بولاية مصر مرة ثانية ، وكان واليها فى ذلك الوقت « محمد بن أبى بكر الصديق » .. وكان بعض الخوارج قد ذهبوا اليه وحاربوه وانتصروا عليه فقتلوه شر قتلة ونكلوا به !

وهكذا .. عاد عمرو الى مصر ..

ولكن عودته هذه لم تكن مستقرة فى بدايتها ، لأن الشرارة التى اشتبك فى اطلاقها كانت لم تزل ترعى الهشيم .. وكانت قد تكونت بين صفوف المسلمين فرقة من الخوارج القساة ، استقر بهم الرأى على القيام بعمل حاسم يريح الاسلام والمسلمين من دعاة الفرقة وكانوا فى نظرهم ثلاثة : على ، ومعاوية ، ثم عمرو بن العاص !

ووقع اختيار الخوارج على ثلاثة من بينهم يقتلون هؤلاء الثلاثة ؛ ليعود الصفاء بين المسلمين ..

وأفلىح «قاتل» « على » فى صيد سيد المجاريين غدرا !

وفشل من ذهب ليقتل معاوية ، اذ لم يحكم الضربة التى سددها ..

أما قاتل عمرو ، فقد ذهب الى القسطنطينية ليتربص بضحيته الدائرة ..

ورابط الخارجى الى جوار باب مسجد الجامع المواجه لدار عمرو ..

وشاءت الظروف أن تعيق الأمير عن الخروج ليؤم المسلمين فى صلاة الجمعة فى ذلك اليوم ، فأناوب عنه صاحب شرطته (الخارجة بن حذافة) ليؤم المسلمين ويصلى بهم ..

وخرج صاحب الشرطة فى موكبه ... ومضى فى طريقه بالقاتل المتربص الذى انقض عليه كالثوحش المفترس ، فأجهز عليه وهو يظن أنه قد نفذ ما أمر به وهو قتل عمرو .. ولكن ، لم يكده الشرطة يقبضون عليه ويدخلونه على « عمرو » فى داره حتى راعه تعظيم الناس لذلك الرجل الذى أدخلوه عليه ، فسأل عنه فقيل له : انه عمرو بن العاص ! فذهل .. وأحب أن يعرف اسم ضحيته .. فقيل له ان اسمه « خارجة » !

وصرخ الخارجى فى دعر وقال لعمرو فى وجهه : « والله ما أردت غيرك يا عمرو » !

وأجاب عمرو في ملء هذوئه : أردت عمرا ، وأراد الله « خارجة » !

وظل عمرو في منصبه يحكم مصر باسم الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان ، حتى وافته منيته ليلة عيد الفطر من السنة الثالثة والأربعين للهجرة ٠٠
فلما كان يوم العيد أخرج نعشه الى الجامع ووضع في المحراب ٠٠ حتى تكاملت الناس وصلوا عليه بعد صلاة العيد ٠٠ ثم حمل ودفن في مقابر القسطنطين على طريق الحاج « (١) وأمر «معاوية» بعد موت عمرو بن العاص ، أن يولى على مصر أخوه «عقبة بن أبي سفيان» ليحكمها باسمه ٠٠ فحضر وتولى مقاليد الامور في وادي النيل ٠٠ ولكن منيته لم تمهله غير عام واحد ، مات بعده ودفن بمصر ٠٠

وتولى مصر بعد ذلك الراوية المؤمن « عقبة بن عامر الجهني » الصحابي الجليل والراوية الامين لاحاديث رسول الله
وبعد « عقبة » ، تولى حكم مصر ، باسم معاوية أيضا « مسلمة بن مخلد » ٠٠ ومسلمة بن مخلد أول حاكم لمصر ، بعد عمرو - اتجه بتفكيره الى المسجد الجامع ، ورغب في زيادته وتوسيع رقعته بعد أن شاهد بنفسه كيف ضاق بالمصلين ، ولم يعد يتسع للمسلمين الذين كانوا يأتونه للصلاة والتذاكر في الدين ٠٠ كما لم يعد يصلح بهيئته المتواضعة لأن يكون مسجد الدولة الاكبر ٠٠ وكتب مسلمة بن مخلد الى أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان سنة ثلاث وخمسين للهجرة ، يشرح له حالة المسجد ٠٠ ويصف له ضيقه ، ويرجوه أن يأذن له بتوسيع رقعته وتحسين بنيانه ٠٠٠

وأسرع معاوية وهو رجل الدعاية البارع ، فأمر واليه بأن يوسع جامع عمرو بن العاص وأن يزيد فيه ماشاء له الزيادة وما سمحت له به الموارد ٠٠

وصدع مسلمة بن مخلد للأمر ، وكان أن وسع رقعة الجامع وزاد فيه مما يلي دار عمرو نفسه ٠٠ حتى ضاق الطريق بين المسجد والدار ، ووسعه أيضا من ناحيته البحرية وجعل له في هذه الجهة مكانا رحبا مسقوفا ٠٠ وكان ذلك في سنة ٥٣ هـ - ٦٧٣/٣٦٢ م وبلغ اهتمام مسلمة بن مخلد بجامع عمرو مداه ، فطلا حوائطه وجدرانها بالجص وزخرف بنيانه ، وبنى له أربع منارات سامقة شامخة ، جعل مداخلها ومصاعدها من الخارج ٠٠ ولم تكن هذه المنارات سوى أبراج مربعة كانت في الواقع نواة للمآذن التي انشئت بمصر بعد ذلك مما نرى الكثير منها الآن وقد تطورت تصميماتها وتنوعت أشكالها ٠٠ ولم ينس مسلمة في غمرة اهتمامه بالمسجد أمر فرشته بالحصير ، فاستبدل به الحصباء ، وجعله وحسنه وجعله جديرا بأن يكون المسجد الجامع في العاصمة الاسلامية ،

(١) ابن اياس ج ١ - ص ٢٧

الذى يتسع لوفود المصلين الذين تكاثر عديدهم وكانوا يتزايدون أضعافا فى المناسبات والاعياد ..

وظل مسلمة بن مخلد فى دست الحكم على مصر حتى مات بعد خمس سنين ، حافلة بجلائل الاعمال ..

وجاء من بعده «سعيد بن زيد الازدى» ثم .. خرج «عبد الله بن الزبير» على الخلافة الاموية وأنكر البيعة ، واستقل لنفسه بخلافة أعلنها فى المدينة ، ودخلت فى طاعته أمصار متعددة ، منها العراق ومصر ..

وحكم مصر «عبد الرحمن بن جحدم» باسم الخليفة عبد الله بن الزبير .. وظل فى منصبه هذا يرقب الصراع السياسى بين مولاة ، وبين دهاقين السياسة الأموية ، الذين استطاعوا بعد خلافة قوية دامت سبع سنوات ، أن يثلوا عرشه ويبددوا ملكه ، ويعيدوا الأمر كله الى أمية من جديد ..

فذهب ابن جحدم عن مصر .. وجاء بدلا منه «عبد العزيز بن مروان» ليحكم مصر باسم أخيه الداهية «عبد الملك بن مروان» ..

ولقد كان عبد العزيز بن مروان - على قلة مكنه بمصر ، رجلا لم تصرفه السياسة عن شئون الدين .. لقد رأى انكباب أخيه عبد الملك على شئون الدنيا ، انكبأبا أبعد عن ذهنه فكرة ارتقاء عرش الخلافة بعده وأحب أن يكون له شأن فى محيط الدين فقرب منه العلماء وشجعهم على أداء رسالة الدين ، ووجه اهتمامه بجامع عمرو ، ونظر اليه بعين الرعاية الجديرة به .. وبالدعاية الأموية التى لعبت فى تلك الآونة أخطر دور لتثبيت حقهم فى الخلافة ، وأنهم أجدر الناس بها على الإطلاق !

وبالرغم من أن عبد العزيز ترك سكنى الفسطاط ، وانتقل الى مدينة «حلو» الجافة ذات المناخ البديع .. فانه لم يرد أن ينقل مقر العاصمة أو يغير أى وضع من الاوضاع .. وكان ، تأكيدا منه لرغبته هذه ، أن وجه همه الى الجامع الكبير ، فقرر أن يوسع رقعته وأن يدخل فيه زيادات تتناسب وخطورة الدور الدينى الجليل الذى كان يقوم به فى مصر الجديدة العهد بالاسلام ..

وأعد عبد العزيز خطته الإصلاحية ، ورسم خطوطها وأكمل استعداداته لتنفيذها فى العام السابع والخمسين للهجرة النبوية ..

وكانت خطته تقوم على ضرورة ابدال نظم الأبنية وأن يشمل التحسين جامع عمرو برمته ، ولو أدى الامر الى ازالة معالمة كلها واقامة مسجد آخر جديدا فى كل شئ يقوم مقامه .. وفى الغرض ويكون فيه من التطورات التى لحقت الفكر الاسلامى الشئ الكثير . ووجد عبد العزيز أمام ظروف العمل الذى أخذ على عاتقه مهمة القيام به ، أن يهدم جامع عمرو من أساسه . ويقيم مكانه مسجدا آخر ، فكان أن أتم الهدم .. ولم يبق

شيئا من معالمة القديمة غير « قبلته » اذ أراد الاحتفاظ بها تكريما لمن وقفوا على بنائها من كبار الصحابة ، وابقاء لاثر ديني عظيم . .
 وأولى عبد العزيز كل همته للبناء الجديد ، وراح عماله يعملون في جد ومهارة ، وعرف حذاق الصناع من المصريين كيف يظهرون كفاياتهم الانشائية التي عرفت عنهم . . وسرعان ماتم بناء المسجد الجديد وكمل تزيينه ونقشه بما يتناسب ومقام بانيه ، شقيق أمير المؤمنين وحاكم وادي النيل . .

وافتح عبد العزيز بن مروان المسجد الجامع للصلاة ، وأحب أن يؤم المصلين فجر افتتاحه . . فأعدت العدة لذلك ، وفتحت الابواب ، وخرج الوالى قبل موعد الصلاة من « دار الذهب » وصلى بالناس ثم . . اذا به يشهد عجبا !
 لقد راع عبد العزيز أن يرى من جموع المصلين خفة ، ورغبة فى الاسراع بالخروج من المسجد . . فأصدر أوامره بأن تغلق الابواب كلها وألا يسمح لأحد ممن كانوا بالمسجد بالخروج ، فقد أحب أن يعرف سر هذه الخفة البادية منهم ، وسبب اسراعهم فى الخروج عقب الصلاة مباشرة ؟!

وراح الوالى يستدعى المصلين من رعيته واحدا واحدا ، ليتعرف أحوالهم . فكان يسأل الرجل منهم : ألك زوجة ؟!

فيقول : لا . . .

فيأمر بزواجه !! ثم يسأله : « ألك خادم » ؟!

فيقول : لا

فيأمر له بخادم . .

ثم يسأله : هل عليك دين ؟!

فيقول : نعم . .

فيأمر له بسداده !

ويسأله : هل أدبت فريضة الحج ؟!

فيقول : لا . .

فيأذن له بالحج على نفقة الدولة !

وهكذا وصل الأمير الأموى الحاذق الى تعرف سر قلق الناس وخفة صلاتهم . .
 لقد كانوا فى حاجة الى الاستقرار الذى فقدوا أسبابه فوفرها لهم ، ليرتاح بالهم من ناحية الدنيا فيلتفتون الى شئون الدين ليؤدوا حقه مطمئنين . .
 وظل عبد العزيز حيث هو ، رجل الصلوات والكرم ، الساهر على صوالح الشعب الراعى لامور الدين ، البعيد عن السياسة الاموية وتياراتها . . حتى حدث ذات يوم أن طرق « النجابتون » باب داره فى حلوان ، وقد جاءوه من دار الخلافه بمصحف عظيم من

جملة المصاحف التي أمر بنسخها «الحجاج بن يوسف» لتوزع في الأمصار . .
كان عبد العزيز يكره الحجاج ، ويكره سياسته . . ويكره فيه سفاحا شريرا ، أساء
الى أمية معنويا أكثر مما أفادهم ماديا . . لهذا ساء اليوم جد الاساءة أن يرسل اليه
الحجاج مصحفا . . وأن يطلب منه وضع هذا المصحف في المسجد الجامع ليقرأ منه
القصاصون . . .

وأبى عبد العزيز أن يطيع الحجاج ، وكره أن يضع مصحفه في جامع عمرو . . فكان
أن أمر بأن يعد للمسجد الجامع مصحف خاص . . وسرعان ما استجاب النساخون
والكاتبون لأمره وتسارعوا يكتبون المصحف المطلوب ، ويفرغون في نقشه وتزيينه
وتنميقه خلاصة تجاربهم الفنية . .

ثم قدموه اليه فأعجب به ، ولكنه مع إعجابه أراد أن يستوثق من صحته صحة كاملة
- لا عن طريقه هو بل عن طريق الغير ، وان يعرف أن الاخطاء الاملائية قد فاتت كاتبه ،
فأفرد جائزة ثمينة لمن يكشف فيه أى خطأ . .

وأقبل القارئون من كل صوب على المصحف الجديد يقرأونه ويدققون حتى استطاع ،
« زرعة بن سهيل » أحد قراء الكوفة أن يفوز « بالجمل ، والثلاثين دينارا » التي عرضها
عبد العزيز يوم كشف خطأ لفظيا في هذه الآية :

« ان هذا أخى له تسمع وتسعون نعمة » وكانت مكتوبة كالآتي « له تسمع وتسعون
نجة » بتقديم « الجيم » على « العين » . .

وأمر عبد العزيز بن مروان بالمصحف لاصلاح ما فيه من خطأ لفظي ، واستبدال الورقة
بأخرى . . وبعد أن استوثق من صحته التامة . أمر بأن يحمل من داره الى جامع عمرو
صباح كل يوم من أيام الجمعة ، ليتولى القصاصون القراءة فيه ثم يعاد بعد ذلك الى
بيت الأمير . . .

ولما كان القاضي « عبد الرحمن بن حنبل » هو الذى يتولى في ذلك الوقت
أمر القضاء والقصاص في مصر ، فقد كان هو أول من قرأ في هذا المصحف في جامع عمرو
ومات عبد العزيز بن مروان والمصحف يومها في داره فاعتبر ضمن ميراثه . .
واشتراه ابنه أبو بكر شقيق الخليفة الاموى عمر بن عبد العزيز . . واستترته من بعد
أبى بكر هذا ابنته « أسماء » بسبعمائة دينار ، ثم وهبته لجامع عمرو ليقرأ فيه القصاص
الى جانب المصحف الآخر ، الذى نسب زورا الى « عثمان بن عفان » . . ومن يومها
عرف هذا المصحف باسم مصحف أسماء بنت أبى بكر بن عبد العزيز بن مروان . .

وتولى مصر بعد عبد العزيز ابن أخيه عبد الملك . . وكان اسمه « عبد الله » . .
وهذا الأمير الاموى لم يكن أقل من عمه اهتماما بجامع عمرو بن العاص ، اذ أمر

في السنة التاسعة والثمانين للهجرة بأن يرفع سقف المسجد كله - وكان منخفضا ..
وأن ترتفع جدرانه بما يناسب مكانته .. فتمت هذه العمارة وأخذ جامع عمرو سمة
حسنة وأصبح عالي البنيان ..

وعند تعلية سقف المسجد ، وقفت جهود عبد الله ، فلم يزد عليها شيئا حتى انتهت
ولايته بعد خمس سنوات ..

وجاء بعده الى مصر واليا جديدا هو « قره بن شريك العبسي » ليحكمها باسم « الوليد
ابن عبد الملك » ..

وكما كان عصر الوليد هو عصر الفتوح واتساع رقعة الدولة الأموية كذلك كان هذا
العصر عصر التعمير والبناء في كل مكان ..

وكما أقام الوليد المساجد وجندها وبني الدور والسبل ، وأعاد بناء مسجد رسول الله
صلى الله عليه وسلم والمسجد الأموي ، كذلك أمر بأن يهدم جامع عمرو من أساسه وطلب
من واليه قره بن شريك أن يعيد بنيته من جديد بما يتفق وجلال الخليفة الأموي وترائه
العظيم ، ويتناسب والخراج الوفير الذي كان يدخل خزائن بيت المال من شتى الاصقاع
التي وصلت اليها فتوح المسلمين ..

وأتى قره بن شريك هدم المسجد الجامع في العام الثاني والتسعين للهجرة ، وبدا
بنيانه على أسس ونظم جديدة ..

كان عمرو بن العاص قد أقام أبنية الجامع الكبير على غير أساس من علم العمارة أو
فنونها ؛ اذ لم تكن للعرب وقتها دراية بالبناء ولا معرفة بأصوله وتقاليده .. كما أنه لم
تكن للمساجد نفسها هندسة خاصة ولا أشكال معينة . ولكن بعد أن احتكت الحضارة
العربية الناشئة بالحضارات العريقة الاخرى ، وذابت في بوتقتها شعوب وحضارات ،
وشهد عباقرتها فنونا متعددة من بيوت العبادات - أصبحت للولاة والخلفاء فيهم آراء
هندسية وتقاليدي ، كان لابد أن تراعى في بناء المساجد ..

ولما كانت هذه التقاليد الانشائية قد تم تطبيقها في مساجد معينة ومحدودة ، فقد
رؤى أن تطبق عند إعادة بناء المسجد الجامع في القسطنطينية عاصمة مصر ..
وعلى هذا الاساس بدأ قره بن شريك عمله ..

وأتت العبقرية الانشائية المصرية أكلها .. وكما أحسن الوليد استخدامها في إعادة
بناء مسجد النبي والمسجد الأموي .. كذلك أحسن « قره بن شريك » استخدامها ، تحت
إشراف « يحيى بن حنظلة » مولى بني عامر بن لؤى - وهو يعيد بناء جامع عمرو بن العاص
وبالرغم من أن قره بن شريك لم يكن من الولاة الذين يقيمون حدود الدين كما يجب
.. وبالرغم من أنه استباح الكثير من المحرمات ومنها شرب الخمر - كما قيل - فان صلاة

الجمعة لم يهمل شأنها - وقد هدم جامع عمرو - بل حرص على أن تقام باستمرار في تلك الفترة في « قيسارية العسل » ..

وتم بناء المسجد الجديد بعد أربعة عشر شهرا .. أصبح بعدها جديدا في كل شيء ، فانسعت رفعتة وزيد فيه من ناحيتيه الشرقيه والجنوبية ، ودخلت في ساحته الدار التي كان يسكنها عمرو بن العاص نفسه ، وضم الى ساحته دار عبد الله بن عمرو بن العاص وكان بها في ذلك الوقت قبره ، فشملة بناء الجامع الكبير فأنبت بذلك نسبة المسجد العتيق الى أبيه عمرو ، فاتح مصر ، ومنشئ فسطاطها وباني جامعها .. وليكون في وجود هذا القبر في باحة المسجد مايزيد تلك الصلة ويعطيها صفة الخلود !

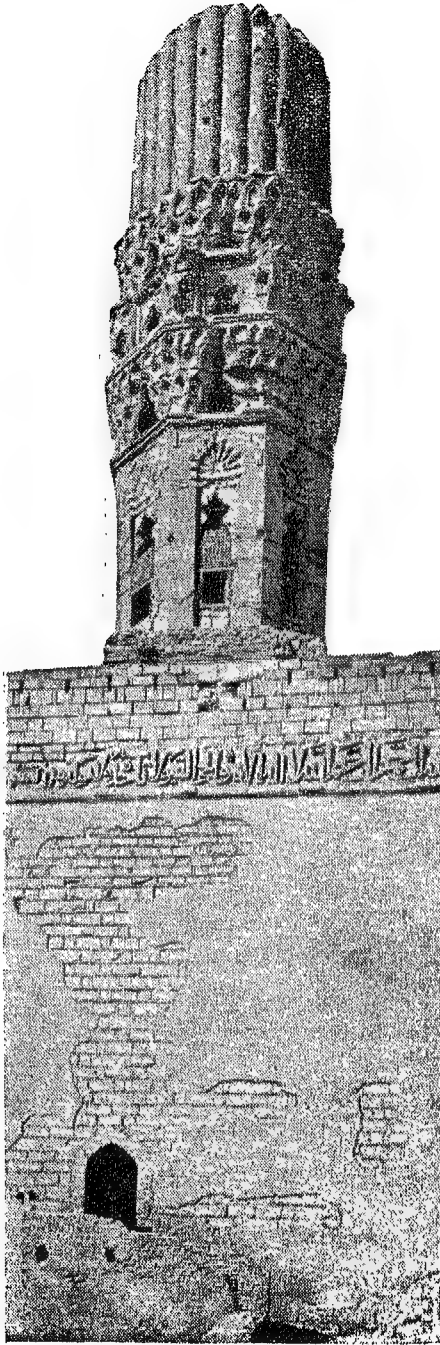
وعوض قرة بن شريك حفدة « عمرو بن العاص » عما أخذ منهم ، ووهبهم دورا بالغة الاتساع في زقاق مليح في « النحاسين » و « العداسين »

وأفرخ « قرة » همه في تجميل المسجد ، فنقل اليه لأول مرة أعمدة رومانية ومصرية ويونانية قديمة ، جلبها من بعض دور الثروة من الاسكندرية وغيرها ، أو من بعض المعابد القديمة أو البيع التي هجرها عبادها ...

وباتمام عمارة « قرة بن شريك » أصبح جامع عمرو بناء عظيم ، له فوق العمود والأيوانات والباحت ، أحد عشر بابا .. أربعة منها في ناحيته الشرقية آخرها باب النحاسين ، وأربعة في ناحيته الغربية ، وثلاثة من جهته البحرية .. !

ولم تفت الأمير فرصة تجميل المسجد الجامع وطلانه وزخرفته بما يتفق والانشاءات الكبرى التي تمت أيام الوليد ..





دولة ومسيح

توالى على مصر ولاية أمية بعد قرة بن شريك .. ولكن لم يهتم أحد منهم بعمارة جامع عمرو أو زيادته كما اهتم «قرة» ، ذلك لان الرجل أسسه وأحسن بنيانه وجعله خليقا بأن يكون امام المساجد في عاصمة البلاد ..

ومر ركب التاريخ في سيره الرتيب مرة ومرات .. ثم مال ميزان نهار أمية وبدأت ظلمة الغروب تحتويها بعد طول الاشراق ، وتبدت في الافق شمس بنى العباس ، وتقدمت بنودهم خفاقة ورماحهم مشرعة وسيوفهم مسلولة ، ومعاولهم معدة . فأخذت تهدم صرح أمية وتشل عرش الارستقراطية ليرسو مكانه عرش حفدة العباسي بن عبد المطلب عم سيدنا رسول الله ..

ونقدم أبو مسلم الخراساني ، وخلفه البنود السود تخفق مزهوة .. وأخذت جحافل أمية تفر ، والصفوف تنهار في أثر الصفوف .. حتى لم يبق هناك من أمل في النجاة ، ووجد آخر بنى أمية « مروان العجمار » ، نفسه في مازق ، أسرع يعمل جاهدا ليخرج منه .. بالفرار !

الى أين ؟!

« مئذنة الحاكم »

ونقل « مروان » عينيه حواليه ، يرقب الشمس التي أفلت، ويتذكر الدنيا العريضة التي كانت له ليتخير مكانا يختبئ فيه من الهول العباسي الذي كان يتقدم كالأعصار

المشبوب ، يهدم ويدمر ويقوض ولا يستطيع أن يقف في طريقه سد أو حائل على الإطلاق وكانت مصر أقرب مكان يمكن أن يلجأ اليه مروان الحمار ؛ فاستقر به الرأي أن يهرب إليها عساة أن يجد فيها ما يحميه من الهول العباسي وعساة يستطيع سعاة يصلها أن يجد الخمي والملاذ والجند الذي يظاهاه ويعزز مكانته ويقف دونه ليحول بينه وبين العدو الذي تمكن واستعظم وحالفه التوفيق وسارت في ركابه مواكب الانتصار ..

ووصل مروان الى وادي النيل .. ووطئت قدماء التربة الطاهرة التي ما أحبت جباناً ولا رحبت يوماً برعديد .. فلم يجد المدد الذي كان يرجوه ولا القوة التي يعتز بها ، ولا الرجال الذين يزودون عنه الأعصار .. فوقف حائراً لا يدري من أمره رشداً .. لقد ضاقت به الأرض ومادت ؛ فلا الشمال مرحب ببقائه ، ولا الجنوب راغب فيه .. وأنه في غمرة حيرته تلك ليقرر العودة ليلقى قدره ، وليكن مايكون !

كانت الراية السوداء العباسية قد ارتفعت ورفرفت خفاقة مزهوة ، وكانت راية أمية قد هوت بعد أن مزقتها رياح التواكل والفرقة والاضطهادات المتوالية ..

وكانت الاشرقة العباسية قد علت كل مكان من العالم الاسلامي ، وقد مهد لها الدعاة الطريق وسبقوها متقدمين طلائعها يروجون للقادمين بالعدل ، ويذكرون الناس بالائمة الميامين من أبناء « علي والحسين » الذين اضطهدتهم أمية وطاردتهم .. ويذكرون الخلفاء الراشدين من أصحاب محمد الذين لعنهم بنو مروان على المنابر علانية . وأنصت الناس الى الدعاة .. وأصغت الشعوب الى الروايات المثيرة التي تحدثت عن المذابح والمطاردات وأقسى ألوان التنكيل ، وهم في دهشة لم تلبث أن استحالت الى لعنات ، راحوا يصبونها على بنى أمية ، وأمراثهم أجمعين ..

لقد كان الصراع بين الدولة التي شاخت وخرت على ركبتينها ساجدة مستسلمة ، والدولة الفتية المتطلعة ودعاتها من بلاد فارس - صراع دعاية ، أكثر منه صراع رماح وسيوف ...

وكان من البديهي أن تنتصر الدعاية أروع انتصار ..

قال الدعاة : ان أبناء العباس لم يخرجوا طالبين الامارة والصدارة ، بل جاءوا ليعيدوا أمجاد الهاشبيين ويثبتوا الولاية في أصحابها ورثة رسول الله وقرابته ، الذين كانوا موضع اضطهاد من كل الخلفاء وجميع الولاة ..

وكان طبيعياً أن ترتاح الاسماع لاقوال القائلين ، وأن تجد الدعوة صداها في كل قلب يحب أهل البيت من عترة الرسول وأهليه ..

وعز على مروان أن يجد في مصر جنداً وحماية ، اذ سبقه الدعاة اليها وعرفوا كيف يسممون الآبار أمامه ..



مقياس النيل بالروضة

أنشئ عام ٢٤٧ هـ - ٨٦١ م في عصر الدولة الاءوية في آخر عهد الخليفة المتوكل على الله جعفر
العباسي وأشرف على بنائه المهندس محمد بن كثر الفرغاني وأطلقت عليه اسماء : المقياس الهانسي ،
والمقياس الجديد ، والمقياس الكبير وهو ما نسميه الآن « مقياس الروضة »

ألم يكن مروان الحمار سليل معاوية الذى لعن عليا كرم الله وجهه علانية على المنابر ..
وجعل هذه اللعنات على كر العصور التى تلتها تقليدا أمويا ، اضطر الى سماعه الناس ؟!
ألم يكن مروان الحمار هذا سليل « يزيد » الماجن ، الذى استباح قواده دم الحسين
الشهيد ابن الزهراء البتول ؟!

ألم يكن مروان هذا الذى جاء يحتفى بالكرم المصرى ، سليل مروان بن الحكم ،
وعبد الملك ، والوليد ومسلمة .. وغيرهم من طغاة أمية الذين أهرقوا الدماء الزكية ،
وأفسدوا الدم ، وكانوا حربا لا هوادة فيها على آل البيت ؛ فسمسجنتوهم وطاردوهم
وتتبعوهم فى كل مكان !

اذن .. فلم تحمى مصر حفيد السفاحين القساة - ؟! ولأى سبب تؤيده ؟ .. ولماذا
يقف أحرارها فى صفه يجولون دونه والقصاص ؟!

تلك كانت الأسئلة الحائرة التى لم تجد لها عند جموع الشعب جوابا ، والتى بسببها
انفضت الجموع عن مروان الهارب وتركته وحده يشرب صاب الوحدة ويستشعر قسوة
الندم ويعتصر الخوف قلبه ويرهبه ويميته فى كل لحظة عشرات المرات قبل أن يلقى الميتة
التي كانت تنتظره لتضع حدا لحياته !

وهكذا وجد مروان نفسه وحيدا ، لا عون ولا نصير .. حتى أولئك الذين صحبوه فى
هربه كانوا يتحينون الموقعة الفاصلة ، لينفضوا من حوله ويتركوه الى حظله التعس !
ووصل مروان الى ناحية الشرق ، وهو لا يدري : أكان فى طريق العودة الى عاصمته
التي ملكها أعداؤه ، أم فى طريقه لمناضلة أولئك الأعداء الذين تبعته جموعهم الى مصر ؟!

وتقدم « صالح بن على بن عبد الله بن عباس » بجنداء الى مصر ؛ ليقضى على المقاومة
الأموية الباقية .. وفر مروان ثانية والعدو يتابعه حتى شاء الله أن ينهى هذه الحياة
المضطربة القلقة ، وأن يضع حدا لحيرة صاحبها وتشرده وعدم استقراره وما لحقه من هوان
واذلال ، فسقط مروان الحمار فى النهاية تحت النصل العباسى القاطع ، وقتل فى مدينة
« بوسير » .. فافل بموته نجم أمية ودالت دولتهم ، وطوت يد الزمن كتاب أجدادهم ،
وخلص الأمر فى النهاية للخليفة العباسى الجديد ، أبى العباس السفاح ..
وتنفس شعب مصر الصعداء ..

لقد عاد السلام الى الوادى ، وانجابت أشباح الحروب الداخلية من آل البيت المحمدى
الكريم ..

وعمت الفرحة البلاد كلها. . وخرجت الوفود والمواكب تستقبل القائد الظافر «صالح
ابن على» أخ الخليفة العباسى الأول .. وترحب به ترحيبا حارا وصلت أنبأؤه الى مسامع
السفاح ؛ فوجدها فرصة لظهار مشاعره الطيبة لمصر والمصريين ؛ فافر بقاء أخيه بينهم

ليحكم مصر باسمه ويسوس أمورها ويثبت قوائم الدولة الفتية الجديدة ..
وتسلم « صالح بن علي » زمام الامور . وأسعده أن وجد كل شيء مهيأ بما يعنى
الاستقرار وحب السلام ..

وفتحت الفسطاط أبوابها للحاكم العباسي الجديد فدخلها دخول الظافرين مع بضعة
عشر رجلا من أخلص رجاله ؛ ليستعين بهم فى تصريف الامور .
أما جيشه الذى جاء لازالة بقايا أمية ، فقد بقى حيث كان يعسكر شرقى الفسطاط
بفرقه وجوعه وأمرائه ، وقد رمى صالح بن علي من وراء بقائهم حيث نزلوا أول الامر ،
الى غرض انتواه فى نفسه وترك أمر تنفيذه للزمن وللظروف ..
وفى العاصمة الاسلامية الاولى ، والبلدة الطيبة المباركة التى زحف منها نور الاسلام
فعم أرجاء وادى النيل - راح صالح بن علي يفكر فى شئون دولته وأقدارها ، ويرسم
خطوط الاستقرار والبقاء القائمين على حب الشعب وتقانيه فى الاخلاص لحاكمه والالتفاف
حول رايته ..

ولما كان زوال الملك الاموى ، وقيام الخلافة العباسية لايغنى غير مجرد تغيير مظهرى
لشخص الحكم ، وبقاء السياسة الاسلامية الرفيعة المستمدة من روح الدين السمح ،
فقد أحب صالح بن علي أن يعلن هذا الامر بصفة رسمية ، ليشعر الشعب بأمر التغيير
الشكى الذى طرأ على البلاد ؛ فيبنى للعباسيين عاصمة ومسجدا جامعاً جديدين ..
ولقد نهج صالح بن علي فى ذلك التغيير المادى الذى أرادته ، نهج عمرو بن العاص يوم
جاء لأول مرة ، فبنى الفسطاط ومسجده الجامع ، وكان فى انتقاله اليها وصلاته بالمسلمين
فى المسجد الجديد ، ما دل على تغيير السلطة وتبدل الأحوال وإعلان دخول مصر فى حكم
وسياسة جديدين ..

وحتى يتم بناء العاصمة الجديدة ومسجدها الجامع ، بقى صالح بن علي فى الفسطاط ..
يصرف الامور ويحكم البلاد ويسن القوانين وينفذ الشريعة ، ويعنى بأمور المسلمين ..
وبالرغم من أن الحاكم العباسي كان يضع أساس عاصمة جديدة ، لم يهمل شأن
الفسطاط .. بل وجه جزءا كبيرا من اهتمامه الى مسجدها الجامع بصفة خاصة ..



كان المصريون قد بدأوا يدخلون فى دين الله عقب الفتح الاسلامى بقدر محدود ، زاد
مع الأيام ومع اختلاطهم بالعرب الفاتحين ، اختلاطا جعلهم يتوقعون أن يكون لهم حقوق
العرب وميزاتهم .. وظلت هذه الزيادة تنمو وتعتظم خلال الدولة الأموية ، حتى بلغت
الذروة أيام أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ؛ اذ كتب له عامله على مصر يقول : ان كثرة
دخول المصريين فى الاسلام قد أفلس خزائنه وحال دولته وجمع الجزية التى رفعت عن
القوم لاسلامهم .. حتى أنه ليخشى ألا يجد لديه مايكفى نفقات جنوده !
وكتب عمر بن عبد العزيز الى واليه زاجرا غاضبا يقول : « ويلك ! لقد بعث الله محمدا

رسولا هاديا لله ، ولم يبعثه جابيا للمال ! والله ، لأحب الى أن يدخل أهل مصر جميعا
فى دين الله فتسقط عنهم الجزية ، وأعمل أنا وأنت حراثين فى الارض ناكل من كد أيدينا؛

لهذا ٠٠ وأمام تزايد المسلمين من أهل مصر من ناحية ، وهجرة الكنيرين من أهل
الامصار الاسلامية الاخرى من ناحية أخرى - أصبح جامع عمرو ، حتى بعد الاضافات
والزيادات والتحسينات التى أدخلها عليه قرّة بن شريك ، لا يفى بالغرض الذى أقيم من
أجله ، وهو جمع المسلمين فى صعيد واحد لآداء صلاتهم الجامعة ؛ التى سُرّعها الله
ليجمعهم فيتعارفوا ويترابطوا ويتبادلوا المنافع وتتحد منهم الأفكار والآراء ، ويعملوا
مجتمعين وبقوة لاعزاز دين الله ورفع مكانتهم بين الشعوب ٠٠

وصالح بن على العباسى ، يوم وجه اهتمامه فى جامع عمرو - فى ذات الوقت الذى كان
يضع فيه أسس جامعته هو أيضا - انما كان يشعر بمدى مكانة الجامع الكبير ، وحاجته
الى أن يتسع وينمو وتعظم مكانته ، وأن يشعر الناس فى شتى الأمصار أن العباسيين
لا يخصون منشأتهم وحدها باهتمامهم بل يخصون بيوت الله كلها بوافر التقدير وخالص
الرعاية والاكبار ٠٠

ولما كانت الخلافة العباسية قد قامت على قوة السواعد الأعجمية ، وشاد بنيانها الفرس
ورعوها ودافعوا عنها ٠٠ فلم يكن عجيبا أن يقتبس الخلفاء العرب الشئ الكثير من حضارة
الفرس ، وخاصة فى فنون البناء ٠٠ لهذا كان تفكير صالح بن على فى زيادة جامع عمرو
قائما على أساس الاستعانة بالفن الفارسى فى البناء ومزجه بالخبرة المصرية العريقة ،
ليخلص من هذا الاتحاد ظهور فن بنائى جديد يكون مثلا يحتذى به بعد ذلك ٠٠

وفى العام الثالث والثلاثين بعد المائة من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ
صالح بن على عمارته الجديدة فى جامع عمرو ، بأن وسع رقعته وزاد فى جناحه العربى
أربعة أساطين ، وأجرى عمارة جديدة عند مدخل الجامع من ناحية بابه الاول ٠٠

وكان طبيعيا أن يدخل الأمير العباسى فى هذه الزيادة الجديدة بعض الدور القريبة من
المسجد ٠٠ وكانت دار الزبير بن العوام الواقعة غربى دار «النحاس» من هذه الدور ،
وكان قد اشتراها أول الامر الحاكم الأموى عبد العزيز بن مروان من مولى الزبير الذين
آلت اليهم ملكية الدار بالهبة عن سيدهم ، وقسمها عبد العزيز بعد ذلك بين ولديه ؛
الأصمغ ، وأبى بكر ٠٠ وهذان أورثاها بعدهما لحسان بن الأصمغ ، وأم عاصم بنت عاصم
ابن أبى بكر ٠٠ ومن هذين اشترى صالح بن على الدار وأدخلها فى المسجد ٠٠

وهكذا ٠٠ ومع تسلسل الزيادات والعمائر التى تمت فى جامع عمرو على كر العصور
فشملت باحته دور الصحابة الاجلاء : عمرو بن العاص ، والزبير بن العوام ، وعبد الله

ابن عمرو ٠٠ وكثيرين غيرهم من السادات السابقين في الاسلام فشرف الله بذلك أقدارهم وجعل دورهم الديني بيوته عبادة وعلم وألهم بتعميرها قوما آمنوا بالله ورسوله وعرفوا أن من أقام لله بيتا ولو كمفحص قطاة ، بنى الله له بيتا في الجنة ٠٠ وما أكثر بيوت الخلد التي أقيمت لهم دعائها هناك !

ولم يكن الأمير العباسي صالح بن علي يفرغ من عمارة جامع عمرو هذه ، حتى التفت إلى إتمام العاصمة العباسية الجديدة التي أراد إقامتها في أرض مصر ٠٠ وراح يعمل بعزيمة وهمة ، حتى تم تشييد مدينة ٠٠ أخذت اسمها من « العسكر العباسي » الذين كانوا مقيمين بها منذ قدموا مصر ، فأصبح اسمها « مدينة العسكر » ٠٠

وما أن تمت العاصمة الجديدة واستكملت أسباب وجودها وتسارع العباسيون الموجودون في مصر إلى سكنى دورها الجديدة ، حتى راح أميرهم يتم تشييد المسجد الجامع الجديد ، والذي أطلق عليه أيضا اسم « جامع العسكر »

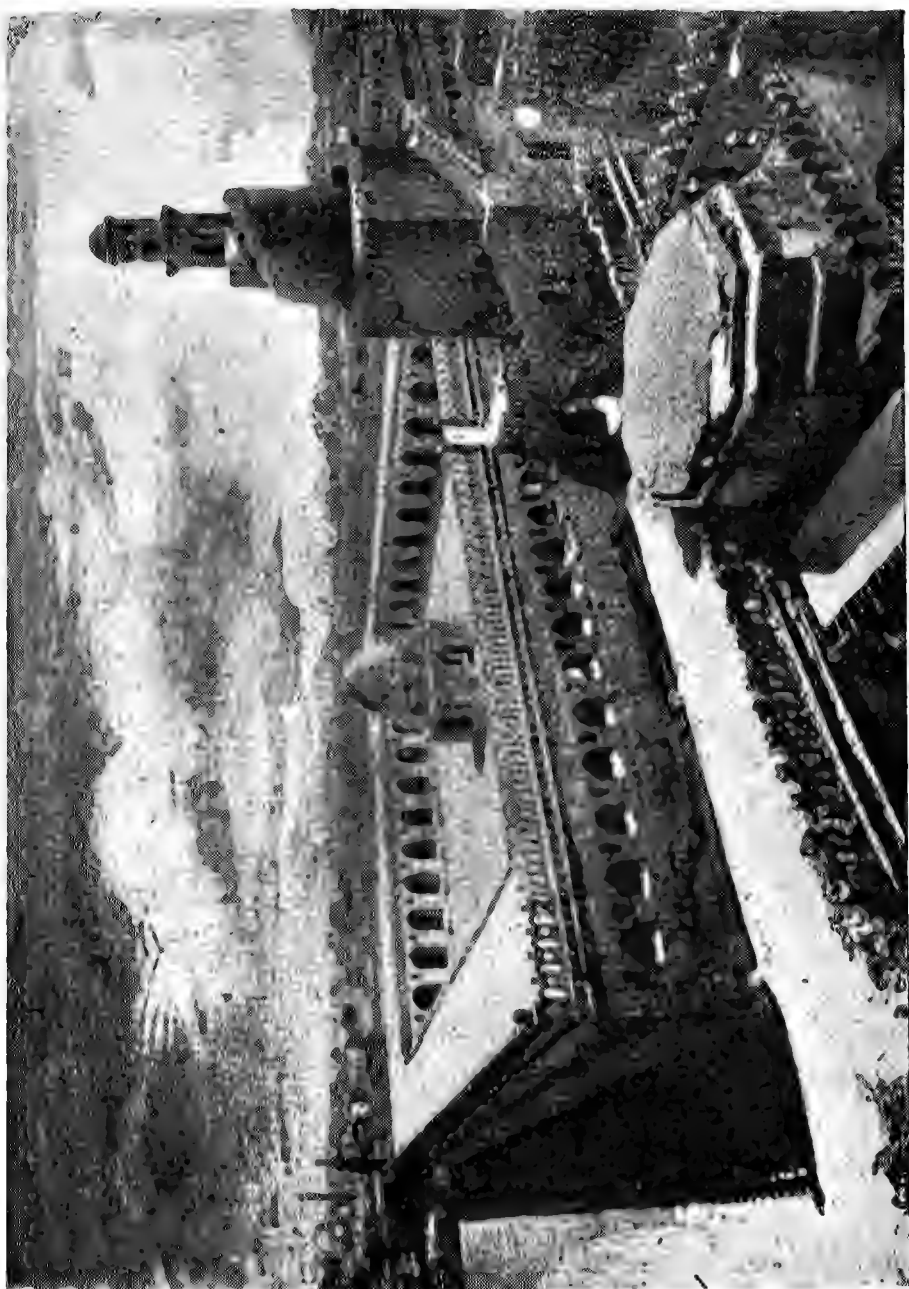
وهكذا أصبح للخلافة العباسية في مصر عاصمة خاصة ومسجد جامع ٠٠ وهكذا انتقلت السلطة الزمنية من الفسطاط إلى مدينة العسكر ٠٠ وانتقلت الزعامة الدينية من جامع عمرو إلى مسجد العسكر الجديد ، الذي ضمنت له صفته الرسمية رواجاً وإقبالا من الناس ٠٠

وبالرغم من أن مهام الدولة الرسمية في عهد صالح بن علي قد انتقلت من الفسطاط إلى العسكر فإن « بيت مال المسلمين » قد بقي مكانه في جامع عمرو في نفس المكان الذي أقامه فيه « أسامة بن زيد التنوخي » أيام « سليمان بن عبد الملك » الأموي ٠٠ وبقاء « بيت مال المسلمين » في الفسطاط ، وداخل جامع عمرو بن العاص بالذات فيه إقرار بأن الدولة العباسية الجديدة ، لم ترد بإنشاء مدينة العسكر ومسجدها أن تسلب الفسطاط ولايتها الرسمية ٠٠ ولا المسجد الجامع مكانته الدينية ، فأبقت لهما هذا المظهر المالي الخطير ٠٠

وظل « بيت المال » في مكانه العتيق من جامع عمرو حتى تولى أبو جعفر المنصور الخلافة ، وولى على مصر « يزيد بن حاتم المهلبى » الذي قامت في أيامه فتنة أشعل العلويون نارها بزعمه « علي بن محمد بن عبد الله العلوى » وهاجموا خلالها « بيت المال » ليسلبوا ما فيه ، فيكون عونهم في حركتهم الثورية ضد الخليفة العباسي اليعقوب ٠٠ وعلم يزيد بالامر ٠٠ وكره أن يغتصب العلويون « مال المسلمين » ليوقدوا به نار فتنة تآكل المسلمين !

فأسرع جنده إلى جامع عمرو ، واستطاعوا صد دعاة الفتنة العلوية ، وتعزيز الحامية العباسية التي كانت هناك ، وتغلبوا على الثوار ، ولكن ٠٠ بعد أن أفلحوا في نهب شيء كثير من « بيت المال » !

ولم يفعل الحاكم العباسي بعد أن أخمد الثورة شيئا بالنسبة لمكان « بيت المال » ، فأبقاه حيث هو في مكانه بجامع عمرو ٠٠ وشدد عليه الحراسة ٠٠



جامع أحمد بن طولون أنشئ عام ٢٦٣ - ٦٥ هـ - ٨٧٦ - ٧٩ م أنشأه صاحبه علي « جبل رشكر » قلعة الكيش

نهاية دولة



وعلى الرغم من أن مدينة العسكر ظلت مقر حكم الولاة العباسيين ، ومسجدها الجامع ظل هو المسجد الرسمي للدولة منذ إنشائه ، فإن مكانة جامع عمرو الذي تحول عنه الوالي وعسكره ورجال ديوانه - كانت أقوى من أن يسلبها مسجد حديث كجامع العسكر . . فرضت السياسة الجديدة مكانته - أن يقف الى جانب العملاق العتيق .

لقد كانت لمسجد « عمرو » مكانة عظمية في قلوب المصريين قاطبة . فهو أول بيت من بيوت الله ارتفع منه صوت الداعي الى الوحدانية الحققة ، وهو أول مسجد أنشئ في الأرض ذات الحضارة الدينية الوطيدة ، التي دوت في أرجائها منذ أظلم العصور أول الدعوات الى الكفران بالصنم والخروج على الشرك والاعتراف بالوحدانية .

ولقد كانت نسبة مسجد الفسطاط الجامع الى عمرو بن العاص الصحابي الجليل ، كافية لأن تسبغ عليه هبة ومكانة لا سيما وقد أشرف على تحديده ووضع قبلته اجل الصحابة وأقربهم الى رسول الله ، وأعرفهم بأصول الدين ولب الدعوة المحمدية . .

فمكانة جامع عمرو كانت مكانة روحية ، لم يكتسبها من صفته الرسمية في الدولة ،

بل من صلته بأولئك الذين شيدوه وأرسوا قواعد وجعلوه مزارا مقدسا يذكرهم بالمجاهدين الأوائل ، الذين جاهدوا في الله حق جهاده واستطاعوا على قلتهم وعظم إيمانهم

« مئذنة الامام الحسين »

أن يثلوا العروش ويقيموا صروح الدول ويرسوا دعائم العدل فى عالم كان يرقب مقدمهم، ليخرجوا بالشعوب من ظلمات الجهل والشرك الى نور المعرفة الحق والعبادة السامية .

وقد أدى جامع عمرو وظيفته الدينية فى مصر خلال حكم الخلفاء الراشدين ، واستمر فى أداء رسالته خلال فترة السلطان الأموى ، وطالما كان موضع اجلال الولاة ورعايتهم المستمرة التى بدلت فيه وغيرت وهدمت وشيدت . . حتى لقد احتفل المسجد بشباب دائم ، وجمال قدسى منقطع النظير بما أدخل عليه من تجديد وما أضيف من زيادات

وكان كلما مر الزمن ، عظمت مكانة جامع عمرو بن العاص ، وعلا نجمه . . اذ تكاثرو المسلمون فى الوادى الخصيب وجمعتهم السوامر والندوات ، وراحوا يتذكرون سير السلف العظيم ، وعلى رأسهم عمرو الفاتح ، والزبير ، والمقداد وعبادة بن الصامت وغيرهم من دهاقين الاسلام وحماته الذين كانت لهم فى مصر جولات وسير وذكريات .

لقد أنشأ « صالح بن على » مدينة العسكر ومسجدها . . ولكن . . . هل فقدت الفسطاط مكانتها أو تراجع مسجدها الجامع عن مكانه فى المقدمة . . لا . . لقد كانت « العسكر » لها من اسمها صفة ، جعلتها شبة مقصورة ، هى ومسجدها على فئة خاصة من الناس . .

أما جوع الشعب - وهم الكثرة الغالبة ، فقد طالما كان ميدان تعبدهم وتجمعهم جامع عمرو فى الفسطاط . .

ولرب قائل يقول : ان اهتمام صالح بن على العباسى بزيادة جامع عمرو . . وعمارته كان الغرض منه صرف الناس عن القول بأنه أنشأ فى العاصمة الجديدة مسجدا جامعاً « يضار » به المسجد الجامع الأسمى ذا الذكريات - فكان أن عمره ووسعه ذرا للرماد فى العيون . .

وهذا القول مردود عليه بأنه ان كانت تلك سياسة صالح بن على فان خلفاءه لم يقصروا فى العناية بجامع عمرو ولا هم انصرفوا عنه . . بل طالما اتجهوا اليه وأولوه من اهتمامهم الشئ الكثير دلالة على مكانته ، واعترافا منهم بعظيم فضله ، وبأنه المقدم على المساجد جمعاء ولو ملأت الرحاب فى وادى النيل . .

لم يكده يتولى « موسى بن عيسى الهاشمى » أمر مصر باسم هارون الرشيد حتى اتجه باهتمامه الى جامع عمرو . . ورأى أن يزيد فيه وأن يوسع رقعتيه ، فبنى « الرحبة » الفسيحة التى تقع فى نهاية المسجد ، والتى تبندى من ناحية شباك النحاسين . .

وادخال هذه الرحبة الفسيحة فى حرم المسجد ، كان ولاشك من أسباب ضيق الطريق العام ، لانها فى الواقع انما أخذت منه . . فلم يجد والى الطيب موسى بن عيسى الا أن يستمر فى كرمه ، فلا يقصر التوسعة والزيادة على المسجد دون توسعة الطريق

فاشتري دار الربيع بن سليمان الزهرى فهدمها وجعلها طريقا فسيحا للناس ..

والواقع أن جامع عمرو خلال العصر العباسى بالذات ، كان في حاجة الى مزيد من التوسعة والتحسين ، وتشمل الطرق المؤدية اليه لانها كانت من الضيق بحيث لم تكن تتسع لجماهير الشعب التي كانت تتردد على المسجد في ساعات النهار والليل على السواء لتحضر حلقات المدارس وتصغى الى أجلاء أهل العلم وقد جلسوا في صحن المسجد يحدثون الناس ويفقهونهم في الدين ...

كان جامع عمرو ، باتخاذ أهل العلم مجالسهم فيه ، قد اتخذ مكانه المرموق بين المساجد الجامعة الكبرى .. فصار دار علم ودراسة ؛ شأنه في ذلك شأن المسجد الجامع ببغداد ، ومسجد الرسول في المدينة .. حيث كان أبو حنيفة النعمان يعقد مجالس العلم في بغداد ، ومالك بن أنس في مسجد النبي ..

ولما كانت المدينة المنورة أقرب الى أهل مصر من بغداد ، فقد توافد على مسجد الرسول في مواسم الحج كثيرون ممن عشقوا العلم ، وأحبوا أن ينهلوا من مناهله ..

واجتمعوا بمالك .. وأخذوا عنه فقهه ودرسوا آراءه ، وعادوا الى بلادهم بمذهبه الدينى وراحوا يعلمونه للناس في تلك الجلسات التي اعتادوا عقدها في جامع عمرو .. وعرفت حلقات العلم في جامع عمرو « عبد الله بن وهب » وأنصتت اليه وهو يتحدث عن مذهب مالك وآرائه .. وتوافد عليه الناس - وقد راقهم المذهب المالكي فاعتنقوه - وتكاثرت جموعهم تكاثرا ظاهرا شجع كثيرا من العلماء على الجلوس للمدارسة والشرح أمثال البويطى وابن عبد الحكم ، ويوسف بن يحيى ، وأبى بكر الحميدى ، وغيرهم ..

كما دوى في جوانب جامع عمرو وفي حلقاته الدراسية صوت امام من خيرة أئمة المسلمين وأقدرهم هو « الليث بن سعد » .. المصرى الذى أضاع المصريون مذهبه وأهملوا دراسة فقهه وآرائه ، وهو الرائد المتحرر ، الذى كانب الامام مالك وناقشه وأقنعه فى أعماق المسائل بالحجة والبرهان .. وكانت له فى أدق مسائل الدين وتفسير القرآن آراء صائبة ، عزت على كثيرين من العلماء وكانت موضع جدلهم ونقاشهم ودراساتهم عدة سنين بعد موت الليث بن سعد المصرى ..

ولقد سمع « محمد بن ادريس الشافعى » ابان تجواله بين المدينة والكوفة والبصرة فى طلب العلم - بأمر حلقات الجدل الفقهي والمدارس التي كانت تعقد فى أبهاء جامع عمرو وصحنه .. فتأقت نفسه الى الرحيل الى مصر للاستزادة ونشر العلم وتوجيه الآراء ..

ووصل الامام الشافعى أرض مصر .. وجلس فى جامع عمرو يحدث المصريين عن مذهبه وفقهه وآرائه ، فكثر تلاميذه وتوافد عليه المريدون من شتى الاصقاع وسرعان ما ارتفع صيته ونبه اسمه ، وعمت شهرته الافاق ..

وتلاقى الشافعى فى مصر مع السيدة الشريفة « نفيسة بنت الحسن الانور » حفيد
الامام « على بن أبى طالب » كرم الله وجهه .. وأخذتها بعض الأحاديث وجادلها الرأى
فى كثير من المسائل الفقهية ، وكانت ضليعة فى العلم متمكنة من الفقه عامة بالحديث .
وكانت طريقة الشافعى فى الدراسة بجامع عمرو ، هى أن يلى على مريديه ما كان
يقول .. وقد أملى وهو فى مجلسه العلمى هذا ، ألفا وخمسمائة ورقة .. وأخرج كتاب
« الأم » من ألفى ورقة ، وكتاب « السنن » .. ومراجع أخرى فى الفقه والشريعة .
واعتاد الشافعى أن يأخذ مجلس دراسته فى جامع عمرو كل يوم عقب صلاة الصبح
مباشرة ، وعندها كان يأتيه طلاب الحديث .. فإذا ارتفعت الشمس قاموا منصرفين ،
واستوت الحلقة بعد ذلك للمناظرة والمذاكرة .. فإذا ارتفع النهار تفرق هؤلاء وقدم
طلاب دراسة اللغة والفروض والشعر والنحو .. ويطلون أمام الشافعى يصغون
ويناقشون ويكتبون حتى ينتصف النهار ، فيصلى بهم الظهر ويعود الى بيته ..

وظل الشافعى فى مصر ، وفى مكانه العتيد يلقي على الناس درر علمه وآيات فضله ،
حتى مرض مرضه الاخير فلم يستطع أن يبرح داره الى مجلس علمه فى جامع عمرو ..
واذ ذاك تطلع كثيرون من العلماء الى ذلك المجلس الخطير الذى طالما ضاق بهن فيه ..
وأحب كل واحد منهم أن ينفرد بالجلوس فيه دون الآخرين ؛ ظنا منه أنه بذلك يحل محل
الشافعى وتكون له بين الناس مكانته العلمية التى لا تبارى !

وتطور الامر بين العلماء المتنافسين على المجلس ، الى حد جعل بعضهم يطعن فى بعض
وكل يدعى بأنه أحق وأجدر بمجلس الامام ! حتى لقد بلغ من شدة التطاحن على ذلك
المجلس أن رغب عنه كثيرون ابقاء لهيبة العلماء ورغبة فى عدم تجريح بعضهم بعضا .
وبالرغم من تنحى هؤلاء الكثيرين عن المطالبة بمجلس الشافعى ، فقد ظل أوار المعركة
على أشده بين « البويطى » و « ابن عبد الحكم » وراح كلاهما يؤكد أنه أحق من صاحبه
بمكان الامام !

وتصادف أن أبا بكر الحميدى ، وهو من المقربين الى الشافعى - كان بمصر فى تلك
الفترة .. وساءته المعارك الجدلية التى قامت بين الفقيهيين حول أحقية كل منهما بمجلس
أستاذة ..

ووجد الرجل أن من الضرورى حسم هذا الخلاف الذى طال أمده ، بالتوجه الى الامام
المريض نفسه وسؤاله عن أى الرجلين أحق من الآخر بمجلسه ؟!

وذهب الحميدى الى الامام ...

وعاد ليقول للقوم : أن الشافعى يقول « ليس أحد أحق بمجلسى من يوسف بن يحيى ،
وليس أحد من أصحابى أعلم منه !

وكان التصريح على جرأة مفاجئة للفقيهيين فاتحدا وثارا فى وجه الحميدى وربما

بالكذب ! فنارت بين ثلاثتهم مناقشة وتطول كل منهم بالسباب على صاحبه فغضب ابن عبد الحكم وترك مجلس الشافعى ، واتخذ له مجلسا بعيدا عن النطاق ..

وجودها « البويطى » فرصة ، فجلس مكان أستاذه .. وراح كل من الرجلين يلقي العلم على مريدبه من محاسنه الجديده فى صمتن جامع عمرو ، الذى أصبح فى ذلك الوقت مدرسة وجامعة علمية ؛ لها خطرها ولها أبلغ الأثر فى توجيه التيارات الفكرية التى سادت مصر فى تلك الآونة ؛ فجعلت بعض أحرارها يناقشون الحوادث التى كانت تدور فى دار الخلافه فى بغداد .. ويهتضون عليها اعتراضا تطور مع الزمن ومسيره الى ثورات دائمة أعلنت على الخلفاء العباسيين !

وكما اشتهرت مجالس العام وحلقات المذاكرة فى جامع عمرو ، اشتهرت كذلك مآذنه ، وأعمدته وسطحه .. وكان للناس فى الاعمدة والسطح روايات وأفاصيص تعدت حد التحيز والتحمس الى الحرافة فى كثير من الاوقات ..

وأول مئذنة أنشئت بمصر فى جامع عمرو هى تلك التى بناها مسلمة بن مخلد بأمر من معاوية بن أبى سفيان ؛ ليسمع الناس صوت المؤذن فى شتى البقاع ساعة ينادى : « هى على الصلاة » .. فيفدون سريعا الى المسجد الجامع لأداء فريضة الله ..

وبمرور الزمن وتكاثر الناس وامتداد العمران ، زاد مسلمة الى المئذنة الاولى ثلاث مآذن أخرى .. فأصبحت لجامع عمرو أربع مآذن سامقة تؤدى وظيفتها الندائية معا مرة واحدة فى كل وقت من أوقات الصلوات الخمس ..

ولعل مرجع زيادتها هذه كان الرغبة فى أن يعلو صوت المؤذنين على أصوات النواقيس التى كانت تدق فى الكنائس القريبة من القسطنطينية .. وأقيمت بعد ذلك للمسجد منارة خامسة فى وسطه ، كان مدخلها كمدخل بقية المآذن الاربع من الخارج ..

أما الاعمدة فكما ذكرنا — لم تكن معروفة للعرب ، ولم تكن لهم خبرة بقطعها ولا طريقة صنعها ، لهذا نقل معظمها من بيوت بعض السادات والبيع المهجورة والمعابد القديمة .. وجاءت فى مجموعها خليطا من شتى فنون بنائية ، بعيدة عن الذوق والفن العربى ..

وطبيعى أن عمرو بن العاص ، لم يهتم باقامة الاعمدة فى مسجده الصغير ، اذ لم يكن مستقوفا ولم تكن له باحة ولا ايوانات .. ولكن عمليات الزيادة والتوسيع المستمرة هى التى ألجأت الولاة الى اقامة تلك الاعمدة ، التى بلغت فى النهاية ثلاثمائة وثمانية وسبعين عمودا — اصطفت فى شكل بديع كان آية من آيات الذوق العربى الذى استكمل وجوده وظهرت مزاياه ..

وبالرغم من أن العرب فى أيام الخلفاء الراشدين ، لم يعرفوا هذه العمود ، ولم يستعملوها فى بناء .. فان بعض الاعمدة القائمة فى جامع عمرو بالذات لازمتها خرافات ، نذكرها

من باب الترويح ولعل أظهرها جميعا « العمود المسجون » !

ان لهذا العمود المسور بسياج حديدى ، والذي يقع الى يسار المنبر ، قصة غريبة مؤداها أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أراد ، يوم بنى عمرو جامع هذا ، أن يسهم معه فى البناء والتجميل ٠٠ وكان بمكة عمود فخم ، أحب أمير المؤمنين أن يرسله الى مصر ٠٠ فذهب الى ذلك العمود وأمره أن يسير لفوره من مكة الى مدينة الفسطاط ، ليأخذ مكانه فى جامع عمرو !

وكانما عز على ذلك العمود العتيد ، أن ينتقل من البلد الأمين ومن جوار بيت الله الحرام الى أرض بعيدة - لم يكن الاسلام قد انتشر فيها بعد ، فلم يطع عمر ولم يتحرك من مكانه وعاد عمر يأمر العمود العاصى بالمسير الى الفسطاط ٠٠ وكرر الامر ثلاث مرات مع الضرب ! ولكن العمود لم يتحرك من مكانه ٠٠ فلم يجد أمير المؤمنين غير أن يهدد العمود بأن يترك هو مكانه ويسرع الى الفسطاط !

وأطاع العمود أخيرا ٠٠ وانتقل من مكة الى جامع عمرو ٠ وقد بقيت على سطحه آثار الضرب الشديد ٠ متمثلة فى عروق ظاهرة خلفها السوط الذى ألهب به أمير المؤمنين ذلك العمود المسكين !

والقصة خرافة لا تحتاج الى تكذيب ، فالعمود ، لم يوضع مكانه من المسجد الا فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، خلال الزيادة التى زادها عبد الله بن طاهر فى المسجد ٠ وقد كتب فى وسطه مايل :

« الله ، محمد ٠٠ لا اله الا الله محمد رسول الله ٠٠ على ٠٠ محمد ٠٠ محمد ٠٠
عبد الباقي أحمد » (١)

وهناك أعمدة أخرى فى جامع عمرو ، لها قصص ٠٠ منها العمودان اللذان يكتنفان المحراب ، واللذان قال عنهما العامة : انهما « يشفيان مرض الكبد بمجرد لعقهما باللسان ، بعد وضع عصير الليمون على سطحهما » ! (٢)
وعموذا « كشف الخطايا » - وهما ثالث مجموعة من الأعمدة ذات الاقاصيص - فيقعان على يسار الداخل من الباب الغربى القبل الكبير ٠٠ ويزعم البسطاء أن المرور بينهما يستحيل على غير الطاهر من دنس الخطايا أيا كانت ٠٠ «٣»
ويبقى بعد هذا الحديث المستفيض عن «سطح» جامع عمرو ٠٠ حديث فيه طرافة ٠٠ وأدب ٠٠ وتصوف ٠٠

-
- (١) قامت وزارة الاوقاف بوضع سياج حديدى حول هذا العمود لمنع الناس من ضربه بنعالهم لعصيانته أمير المؤمنين عمر ٠٠ ولهذا سمي بالعمود الكافر او المسجون ٠٠
(٢) قامت وزارة الاوقاف بتسوير هذين العمودين ايضا لمنع انتشار الامراض
(٣) كان من جراء تكاثر الناس ومحاولتهم المرور بين العمودين لاثبات طهارتهم ، ان كاد يستفقد احدهما من مكانه ، لولا ان تداركته عناية وزارة الاوقاف بسياج من حديد ٠٠

لقد كان النيل يوم بنى الجامع فى أول عهده . وخلال عصور أخرى تلتته - يمر قريبا من المسجد ، وكان الصعود فى الاصائل فى بعض الليالى القمرء على « السطح » يكشف للعين منظرا طبيعيا رائعا يكتنفه جو شاعرى بديع . . . يثير ملكة التخيل عند بعض المتأدبين أو من أحبوا الطبيعة وجمالها . . . وكان السطح بمنابة « الروف جاردن » يقصده طلاب المنعة من الادباء وعلية القوم والمترفين ، وكانت تدور بينهم المحاورات الجدلية فى الشعر والأدب . . . كذلك التى حدثت ذات ليلة بين «ابن قلاقس» و «ابن المنجم» وقد كانا على « سطح الجامع » مع نفر من الاصدقاء ذات ليلة من ليالى رمضان . . . وقد غابت الشمس واختفت خيوطها الذهبية . . . لتترك للهِلال الوليد سماء . . . واقتراح جماعة على «ابن قلاقس» و «ابن المنجم» أن يصفيا هذا المنظر الرائع شعرا . . . فأتروا كل منهما مفكرا . . .

ثم رفع ابن المنجم رأسه وقال :

وعشاء كأنما الأفق فيه لازورد مرصع بنضار
قلت لما دنت لمغربها الشمس ولاح الهلال للنظار
أقرض الشرق صنوه الغرب ديننا را فاعطاه الرهن نصف سوار
وقال ابن قلاقس :

لأنظن الظلام قد أخذ الشمس وأعطى النهار هذا الهلالا
أما الشرق أقرض الغرب ديننا را فاعطاه رهنه خلخالا . . .

وهكذا ، كان الصعود الى سطح جامع عمرو نزهة جميلة ، وندوة لتطرح الشعر . . . وكان الصاعدون الى هناك يصلون من خلال واحد من أبواب ثلاثة : أولها سلم باب «قاعة الخطابة » ، وهو الذى اعتاد أن يسلكه المؤذنون فى يوم الجمعة ليصلوا الى المآذن المتعددة هناك . . .

أما ثانيها وهو « باب الفانوس » الكائن فى الناحية الشرقية ، اذ كانوا يستعملون « فانوسا » وهم يهرون منه الى « السطح » فى ليالى رمضان . . . أما الثالث فهو الكائن فوق غرفة الساعات . . .

واذا ما خلفنا الأدب وهوائه ، والشعر ومن يقرضونه فى سطح جامع عمرو وجدنا أنفسنا أمام الناحية « الصوفية » التى يوحى بها الوجود فى هذا المكان الجليل . . .

لقد روى البعض أن الصعود الى سطح جامع عمرو ثم الطواف به سبع مرات - تبدأ من « باب الخزانة » الاولى التى يستقبلها الداخل اليه وهو يتلو . . . الى أن يصل الى زاوية السطح اليسرى عند المئذنة المسماة «عرفة» ، فيقف عندها ويدعو بما أراد . . . ثم يمر وهو يتلو . . . الى أن يصل الى الركن الشرقى عند المئذنة الشهيرة بـ « الكبيرة » ويدعو بما أراد . . . ثم يمر الى الركن البحرى الشرقى فيقف فيه ، محاذيا لغرفة المؤذنين ويدعو بما

أراد ٠٠ ويمر وهو يتلو ٠٠ حتى يصل الى المكان الذى ابتدأ منه ٠٠ يفعل ذلك سبع مرات - فان حاجته فى ذلك الوقت تقضى » (١)

« ويستجاب الدعاء فى هذا الطواف بما يل :

« اللهم ياموضع حاجات المؤمنين ، ومنتهى مسائل السائلين ، وغياث المستغيثين ، ونور المستضعفين ، ومجيب دعوة المضطرين ، وكاشف الكرب العظيم - صل على محمد وآله الطاهرين ، وتولنى بحفظك وأحطنى بسرادق عرشك ، وأضرب على مدينة حصنك وأسبل على سترك ، ولا تفض عني طرفك ، ولا تولنى غيرك . واصرف عني شرار خلقك برحمتك يا أرحم الراحمين ٠٠

« ياودود ياودود ، ياذا العرش المجيد ، يا مبدى يامعيد ، يا فعال لما يريد ٠٠ أسالك بنور وجهك الذى ملأ أركان عرشك ، وأسالك بقدرتك التى قدرت بها على جميع خلقك ، وأسالك برحمتك التى وسعت كل شىء علما ٠٠

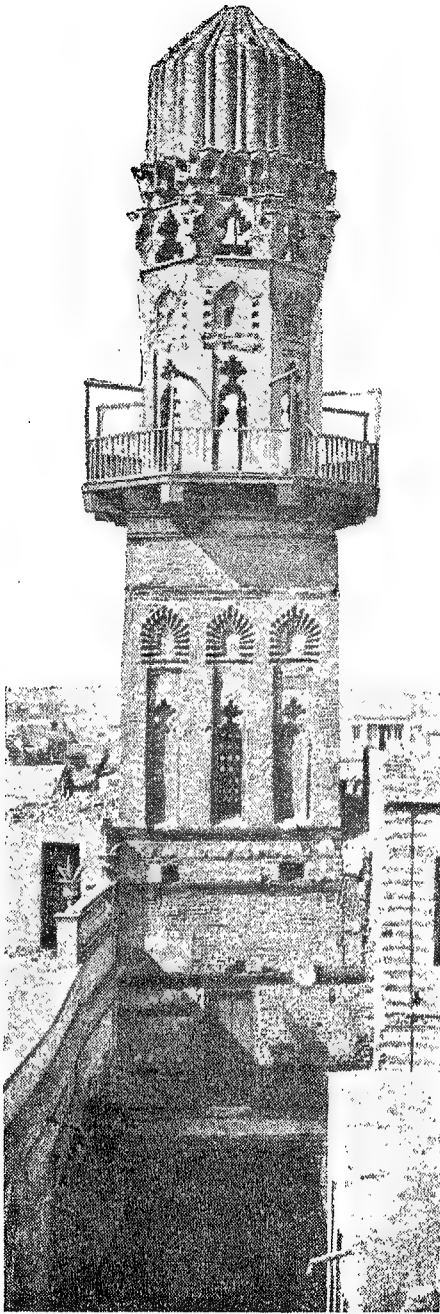
« لا اله الا أنت ، يامغيث أغثنى ٠٠ يامغيث أغثنى ٠٠ يامغيث أغثنى برحمتك » (٢)

تلك كانت شائعات متواردة ، وأقاصيص بلغ بعضها حد الايمان به ولكن ... استنارة البصائر ، ومحاربة البدع والضلالات كفلت القضاء على أمثال تلك الخرافات الشنيعة التى يبرأ منها الدين وأهليه



(٢) ابن دقماق

(١) المفريزى ج ٤



دُول تَدُول

أوصى الرشيد في حياته ، وإبان سطوته
وسلطانه ، بأن تكون الخلافة من بعده لأولاده
الثلاثة على التوالي : الأمين ، ثم المأمون ، ثم
المعتصم . . . وكتب بذلك كتاباً وأخذ عليه
بيعة الناس وكبار رجال الدولة ، الذين
أشفقوا فيما بينهم وبين أنفسهم من صراع
تصوروا قيامه بين الأخوة الثلاثة ، لاختلاف
في الطبائع وتفاوت في المعرفة ، وتباين في
المقدرة على تحمل التبعات ، خبروه عن كذب
في أبناء أمير المؤمنين . .

**ولقى الرشيد ربه . . ونودي بالأمين أميراً
للمؤمنين وبالمأمون ولياً للعهد ، ومن بعده
المعتصم . .**

وافتنح الأمين خلفته بما أساء رجال أبيه
وأشعر شعبه بالقلق ؛ إذ سارت الأمور في
أيامه على نهج خافة العقلاء ، لأن ابن الرشيد
من « زبيدة » الحصيصة الذكية ذات الدهاء
وصاحبة تدبير مصارع البرامكة - لم يكن
الخليفة الذي تمناه أبوه وتخيلته أمه . .

لم يكن الأمين العباسي غير وريث عابث لملك
عريض ، فلم يقدر جسامة التبعات ، ونسى
أمام بهرج السلطان ، العبء الثقيل الذي
ألقي على كاهله . . واعتبر الخلافة معبراً لبنا
مفروشاً بالورود ، يصل به إلى حيث كان

«مئذنة الصالح نجم الدين أيوب»

يريد ، ليحقق كل ماصبحت إليه نفسه من متع الدنيا وأهواء الشباب . .
وتماذى الوريث الطائش في غيه ، فراح يعيث بالتراث العظيم ويبدد المال دون وعي
ويركب رأسه دون خشية ، ويفعل مايشاء وكأنه لا يخشى لومة لائم أو عتب رقيب ،

وظن الامين امام يسر السبل ، وبساطة تحقيق المطالب أن بوسعه أن يفعل مايشاء وأنه لا سلطان لأحد عليه ، فانصرف بكليته الى الغى وسعى بالفساد . . .
ورأى وزيره « الفضل بن الربيع » أن يعيث به وأن يوجهه حيث يريد ، فأوحى اليه أنه من اللازم لاستكمال جلال سلطانه أن يخلع أخويه من ولاية العهد المتتابعة ، وأن ينادى بولده وريثا له . . .
ورأى الفكرة للأمين ، وأحب أن يبطش أول ما يبطش بأخيه المأمون ، فإذا ناله سكت المعتصم وسلم بما يكون . . .

كان المأمون وقتها يحكم باسم أخيه فارس وخراسان . . . وكان الشعب هناك يعتبر المأمون منه ، فامه فارسية ، وعصبته وخوولته من فارس التي قامت الخلافة العباسية على رماحها وجهاد شهابها . . .

ووصلت الى فارس أنباء مؤامرة الفضل بن الربيع النى سخر الامين لتفكيدها . . . فثار الشعب هناك ووقف الى جانب حاكمه يحميه ويدود عنه ويدفع العدوان . . . ثم ينصح برد الاهانة ويطالب بالهجوم على بغداد نفسها لخلع الخليفة ؛ لأنه تنكر للبيعة وأراد أن يغتصب الحق من صاحبه ، فلا أقل من أن يعزله صاحب الحق لأنه خان !

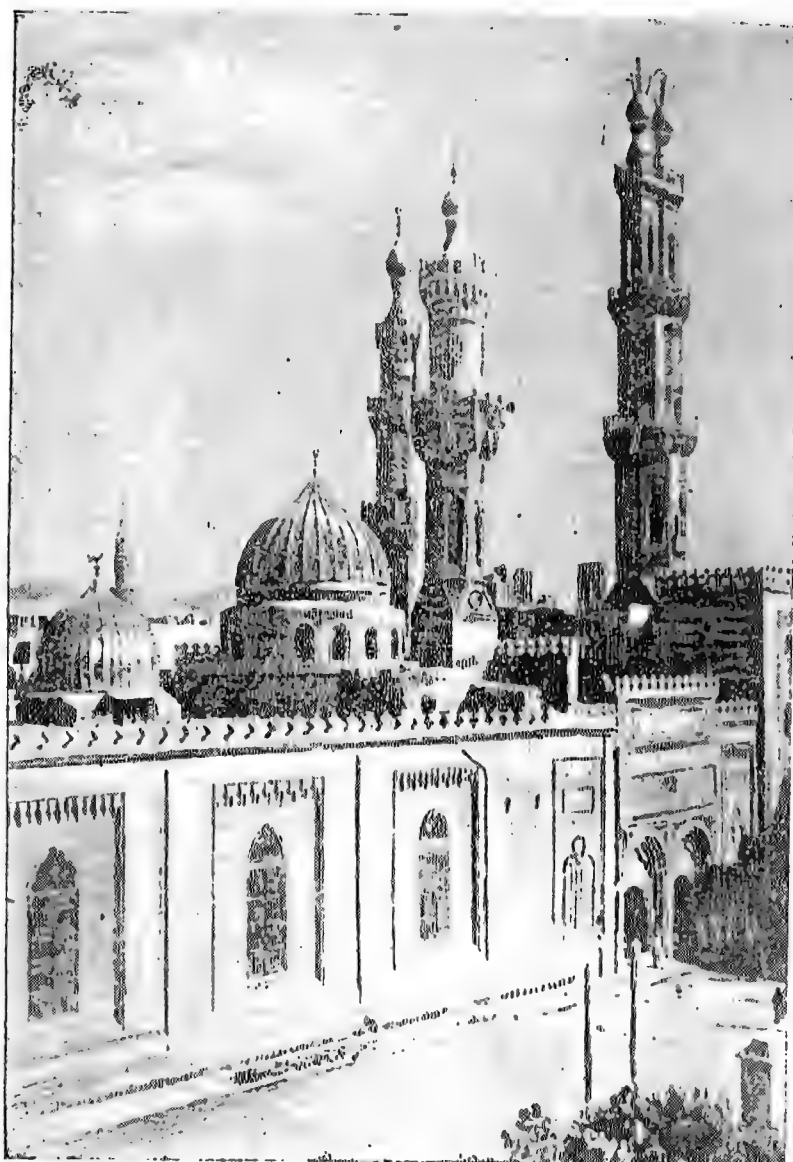
وحاصر المأمون ومن خلفه أهل فارس - أخاه الأمين ، وشدد عليه الحصار . . . فلم يجد الخليفة غير التسليم . . . ولكنه وقبل أن يصل أسيرا الى حيث كان أخوه المنتصر ، قتله بعض جنده فارس !

وخلص الأمر للمأمون . . . ونودى به خليفة فى بغداد . وأميرا للمؤمنين فى شتى الأمصار التى كانت تدين للعباسيين بالطاعة ، وفى جملة مصر . . .

وفوجئ المأمون فى أول خلافته بأن الأرض لم تكن مفروشة بالزهر والورد كما تصور بل بأشواك رهيبة تبث فى ثورات هنا وهناك وفى كل مكان . . . حتى لقد قضى السنين الأولى لحكمه فى احمادها واعادة الأمر الى نصابه عن طريق قائده الظافر « طاهر ابن الحسين » . . .

وثارت مصر فى جملة البلاد . . . وكانت ثورتها رهيبة ، لم تدفعها اليها الخلافات التى حدثت فى بغداد ، بل ضعف الولاة العباسيين فيها ، وقصر مدة حكمهم ، واعتبار كل منهم جانيا للمال فقط ، مهملأ ارادة الشعب ورغباته ، تاركا حبل الامور على غاربه الى درجة أطعمت بعض المغامرين فى تملك مصر ، فهاجموها وسقطت فى أيديهم الاسكندرية وغيرها من البلاد المجاورة لها . . .

وكانت تنازع الولاة العباسى على مصر قوتان مدمرتان ، أولاهما « عرب الخوف » المصريون الذين ثاروا عليه وعلى المأمون . . . وثانيتهما « القوة الاجنبية » التى استولت



المنظر الخارجى الجامع الأزهر

انشىء فى عصر الدولة الفاطمية عام ٣٥٩ - ٦١ هـ ٩٧٠ - ٧٢ م انشاء القائد جوهر الصقلى باهر مولاه المعز لدين الله الفاطمى اول الخلفاء الفاطميين فى مصر ليكون مسجدا جامعاً للقاهرة الفاطمية الجديدة ، اسوة بالجامع الطوائنى فى القطائع ، و بجامع عمرو فى القسطنطينية فكان أول جامع انشىء بمدينة القاهرة ، قصد يعقوب بن كلس من هذه التسمية اصابة هذين ، وارضاء طائفتين ، فالأزهر فى عرف العامة وشتى طبقات الشعب منسوب الى الزهراء البتول فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأزهر فى عرف الخاصة من الفاطميين منسوب الى « القصور الزاهرة » التى كان يسكنها الامام العزيز بالله ٠٠ وفى التسميات المسجد اليها ما بينه وبينها من ناحية السياسة والمذهب ! وهو أقدم أثر فاطمى قائم بمصر .

على الاسكندرية ؛ ممثلة فى أولئك المهاجرين الاندلسيين الذين كانوا يقودون تلك الحملة وأمام استفحال أمر الثورة فى مصر ، وخشية امتدادها واتساع رقعتها ، ورغبة فى تخليص الاسكندرية من غاصبيها - لم يجد المأمون غير أن يرسل قائده الظافر « عبد الله ابن طاهر » الذى وكل اليه أمر الشام ومصر ؛ ليأتى بجيشه الى وادى النيل ويضرب ضربته التى يستتب بعدها النظام وتهدأ الامور ويعود الأمن الى نصابه . .

وحضر عبد الله بن طاهر الى مصر بجيشه ، وكان قائدا يعرف كيف يحقق الانتصارات العظيمة فقمع ثورة المصريين وأخضع عرب الخوف ثم سار الى الاسكندرية ، ف ضرب الغزاة الغاصبين ضربة قذفت بهم الى البحر هاربين . . وخلص الثغر العتيق من طغيانهم واغتصابهم واعاد وادى النيل مرة أخرى الى السلطان العباسى . .

ولقد كان غريبا من القائد العباسى الظافر ، وقد بقى فى مصر متوليا شئونها ، أن يهمل أمر « العسكر » ويتجه بعنايته الى الفسطاط ، ويترك « جامع العسكر » ويولى وجهه شطر جامع عمرو . . ويرى بعين بصيرته النفاذة ، أن الخلود وبقاء الذكر وطيب الاحدوثة ، حيث ولى وجهه . . فأحب أن يكون له فى مصر أثر باق ، وأى أثر فى ناظرى ذلك القائد العظيم أخلد من الاهتمام بجامع عمرو ، باعتباره المسجد العتيق وأحب بيوت الله فى مصر الى قلوب المصريين . .



كان عبد الله بن طاهر بعيد النظرة صائبها . . وقد رأى بعينه بعد أن أخمى الثورات ووطد دعائم الأمن فى مصر ، أن جميع المصريين تقريبا قد نبذوا دياناتهم وهرعوا يبتغون رضوان الله ودخلوا فى دين الاسلام . . ورأى امام هذا النصر المقدس ، والتطور الاجتماعى الجديد أن يجعل من جامع عمرو خير مكان لصلاة الجماعة فى مصر ، خاصة امام هذا التزايد الدينى العظيم . . .

واستعرض عبدالله الزيادات التى تمت فى جامع عمرو بعد عمارة « قرة بن شريك » فوجدها زيادتين محددتين ، أولاهما قام بها « صالح بن على » والثانية « موسى بن عيسى الهاشمى » ولم تفتنه الزيادتان فى الواقع ولم تروقا له ، اذ تمناهما أكبر وأعظم . . ورأى أنه مادام قد فكر فى أمر عمارة المسجد الجامع وزيادته ، فيجب أن تكون الزيادة شاملة وفسيحة تتناسب ومكانته . بل ومكانة المأمون الذى ستتم فى عهده . .

وبعد مدارسة وتمعن واستشارات ، رأى عبد الله بن طاهر أن تكون الزيادة من السعة بحيث تضيف الى مساحة جامع عمرو مايساوى مساحته التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ! . .

ورسم الاخصائيون خطة العمل . . وبدأ عبد الله فى التنفيذ السريع ، وكان ذلك فى العام الثانى عشر بعد المائتين من الهجرة ، فهدم مؤخر المسجد كله وأدخل فيه كل

مساحة « زقاق البلاط » وقطعة كبيرة من مساحة « دار الرمل » حتى لم يبق منها غير « دار الضرب » . .

ولما رأى ان الزيادة التي تمت بعد هذا العمل لم تف بما كان يطمح فيه ، استمر في سياسته وراح يدخل في رحبة الجامع مساحات كثيرة وقسيحة أخرى مثل « قيسارية بدر » و « الميضاة » ورحبة كانت بين يدي « دار الرمل » . .

وامتدت العمارة بعد ذلك ، وكأنما طابت نفس الأمير لتلك الزيادات التي تمت على يديه ، فأراد أن يزيدها وأن يزيدها سعة ، فأدخل الى جانبها دارا كانت مملوكة الى « عمرو ابن محمد أبي ليلى الثقفى » كانت « سقاية » ويعلوها « مجلس السقاية » . . ودفع في هذه الدار ألف دينار تسلمها القاضى حارث بن مسكين المشرف على « أحباس » أبي ليلى ، وأمر أن يشتري بها دارا أخرى ، وعوض عن « السقاية » . .

ولكى تأخذ الزيادة سمحتها الصحيحة وتكون كاملة من شتى نواحيها ، اشترى عبدالله ابن طاهر دار « يزيد بن رمانة » وأدخلها في الزيادة ، وأضاف اليها دار « العجلان » - مولى « عمر بن الخطاب » ، وكانت يومها في يد بعض بنى وردان فأرضاهم بالمال .
وأدخل في الزيادة أيضا بعد هذا كله - دار « أم ابان » من بنى مسكين ، وعوض المشرفين على أحباسها بدارين آخرين في النجاسين ، تعرف احدهما بدار « قلية الخباز » ثم ضم الى هذه الدار دارا أخرى كانت تسمى « الفضل » عوض أصحابها دارين في « سوق بربر » وكانت هذه الدار مما خطه « عبادة بن الصامت » الصحابي الجليل .

ورأى عبد الله بن طاهر بعد هذا كله ، ورغبة منه في استكمال الزيادة الواجب أن تتم في جامع عمرو بن العاص أن تدخل فيه بضع دور باقية ، هي : دار عبد الله بن الحارث ، وحكيم بن يوسف ، وقطعة من دار قيس بن أبي العاص السهمي ، فاشتراها من أصحابها وهدمها سريعا . . وبذلك أصبحت لديه مساحة شاسعة مربعة ، كبرت بها مساحة المسجد ، حتى لقد تضاعف وزاد زيادة لم تكن على بال أحد من المصريين أنفسهم . .

وبدأ عبد الله العمل بهمة عرفت عنه ، وهو رجل العمل السريع الحاسم ، وسويت الأرض ، وراحت الجدر ترتفع وتتلاقى مع الجدر القديمة . . وسرعان ما صفت الاعمدة المتعددة الطراز وأقيمت البائكات . .

ولكن ، ونظرا لظروف خاصة طارئة ، عاد عبد الله الى بغداد قبل أن يتم ذلك العمل العظيم الذى شرع فيه وأوشك على الانتهاء منه . .

ولم يكد عبد الله بن طاهر يعود الى « دار الخلافة » حتى رفعت الثورة رأسها من جديد في مصر ، وامتد لحيبها ، واتسعت رقعتها وطرده الشعب رجال الخليفة وجباة وامتنعوا

عن دفع الخراج ٠٠ وشقوا عصا الطاعة في قوة ، حسب لها المأمون ألف حساب ، فأسرع بالحضور الى مصر هذه المرة بنفسه ٠٠

وكان المأمون حاسما شديدا الوطأة سريع العمل ، فلم يكد يصل الى مصر حتى جابه الثورة وراح يعمل على اخمادها بالعنف والقوة ٠٠ حتى قمعها وقضى عليها وجعل الأمن يستتب نهائيا في وادي النيل ٠٠

وعاد المأمون الى دار خلافته تجلله بنود النصر ، وترك على مصر واليا جديدا هو « عيسى بن يزيد الجلودى » ، الذى لم يكد يتسلم مقاليد الامور فى البلاد ، حتى اتجه باهتمامه الى جامع عمرو - وقد أحب أن يكون لاسمه شرف الخلود الى جانب الأسماء التى كان لها أثر فى تعمير ذلك المسجد العظيم وزيادته فكان أن أسرع يتمم العمارة الانشائية الكبيرة التى بدأها عبد الله بن طاهر ٠

واتسعت رقعة العمل ٠٠ وسارت عجلته بهمة لاتعرف الوهن ولا الكلل ، حتى كملت الزيادة التى أرادها القائد الظافر عبد الله بن طاهر ؛ فاتسعت رقعة جامع عمرو ٠٠ وبلغت مساحته الكلية بعد اتمامها أكثر من ثمانية وعشرين ألف ذراع !

وخلال هذه الفترة وما بعدها ببضع سنين ، تولى القضاء بمصر قضاة عرفوا بالعدل والاستقامة ، الى حد أن الكثيرين منهم لم يبقوا فى مناصبهم طويلا ، اما خوفهم من تحمل المسئوليات الجسام ، أو لتعارض سياساتهم مع سياسة الولاة العباسيين النجفة ٠٠ ومن أشهر القضاة الذين تولوا هذا المنصب الخطير فى مصر بأمر المتوكل العباسي ، القاضى المصرى « أبو عمرو الحارث بن مسكين » وكان له فوق مواقفه القضائية العادلة المشهورة ، يد فى زيادة جامع عمرو - قام بها فى السنة السابعة والثلاثين بعد المائتين من الهجرة ٠ وذلك بأن بنى فى المسجد الجامع رحبة فسيحة عرفت باسمه ٠ ورأى القاضى الصالح ، بعد أن أتم بناء الرحبة لتتسع لجموع الناس ، أن يحول « سلم المؤذنين » من مكانه الاصل الى الناحية الغربية لجامع عمرو ٠٠

ولم يكتف الحارث بما فعل ، بل قام يكسو « بالبلاط » زيادة عبد الله بن طاهر كلها ٠٠ ولم يغفل أمر اصلاح السقف ، ثم رأى بعد هذا أن يبني سقاية فى الحدائق ، ثم قام ببناء رحبة أخرى للمسجد من جهته القبلى والغربية (١)

وعند اتمام أعمال القاضى العادل أبى بكر الحارث بن مسكين وقفت الزيادات العباسية فى جامع عمرو ، ذلك لأن حبل الأمور فى بغداد بدأ يضطرب ، وقل اهتمام الخلفاء باختيار ولاتهم على مصر فكان عدم استقراهم فيها يهون عليهم أمر الاهتمام بصوالحها ، خاصة وقد عرف معظمهم أنهم ليسوا أكثر من جبابرة ضرائب للخليفة ولأنفسهم

(١) ابن دقماق ج ٤ ، القرئزى ج ٢



صحن الجامع الأزهر ومئارتا قايتباي والفورى

لقد استطاع الجامع الأزهر أن يحول الانظار الى القاهرة المعزية .. واصبح قبلة العلماء وطلاب العلم
والمعرفة من شتى الطبقات الاسلامية فكثر الخلفاء فى صحنه وأروفته .

وثمة تغير آخر تم في تلك الآونة ، وهو أن الخلفاء قد أبعدوا العرب عن مجالسهم . .
الى حد أنهم استغنوا عن خدماتهم ولجأوا الى الأتراك . . فكان منهم الولاة الأجلاف الذين
بغضوا أهل الأمصار في الحكم العباسي . .

ولم تشهد مصر ، بعد عبد الله بن طاهر ، حكما عباسيا عادلا غير حكم « عنبه بن استحق
ابن شمر » الذي تولى حكمها عام ٢٣٨ هجرية - وكان آخر عربي يحكم مصر باسم
العباسيين ، فكان صورة من الوفاء العربي وحب النجدة والتواضع والسهو على صوالج
الرعية . .

وابان حكم « عنبه » هاجم الرومان ثغر دمياط وضربوه . . وتقدمت جيوشهم الى
داخل البلاد ، حتى بلغت مدينة بلبيس . . واذا ذاك نهض عنبه للدفاع عن مصر . .
ولم يكن الرومان يرونه وسط جنوده وقد قدم ليلقاهم في « بلبيس » حتى فروا
هاربين وعادوا من حيث أتوا ولم يحاولوا الاقتراب من سواحل مصر مرة ثانية !

ولم يكن عنبه يفرغ من أمر الرومان ، حتى فوجيء في السنة التالية بخروج النوبيين
على الحكم المصري . . ورفضوا دفع الخراج المقرر لعنبه ، وجرؤ ملكهم « على بابا »
على الخروج بجيش لجب ، ذهب « اسنا وادفو » وتوغل في « الصعيد » . . واذا ذاك
طالب « عنبه » الخليفة العباسي بأن يرسل اليه مددا ليصد الزحف النوبي . .

ووصل المدد الى مصر . . وأسرع عنبه ليلقي « على بابا » فهزمه بعد حرب طاحنة
استتب بعدها الأمر لبني العباس . .

وبعد عنبه غير الخليفة المتوكل سياسته قبل مصر ، فولى عليها الأتراك من مماليكه . .
وكانوا جفاة غلاظا ، يسيرهم الجشع وتتحكم فيهم الشراة والرغبة في الأثراء . .
فراحوا يسرقون وينهبون ، ولا يجدون من يردعهم . . حتى القحط الذي عم البلاد ، لم
يكن ليوقفهم عند حدهم فاستمروا في سياستهم التعسفية غير مبالين بشيء !

وحكم مصر بعد عنبه من الولاة الأتراك « يزيد بن عبد الله » ومن بعده « مزاحم بن
خافان » ثم « أرخور » الذي انخفض الفيضان خلال حكمه . . وزاد نقصانه في عهد
الوالي الذي تبعه ، فقل الخراج وثار المتوكل ، وكان أن عين على ولاية مصر « أحمد بن المدبر »
الخلف القاسي المتكبر !

وجاء ابن المدبر الى مصر ولا رغبة له الا جمع المال بأي وسيلة . . ففرض ضرائب
جديدة ومكوسا باهظة ، واستبد بالشعب وأذاقه من ألوان الظلم ما لم يكن له عهد به من
قبل . .

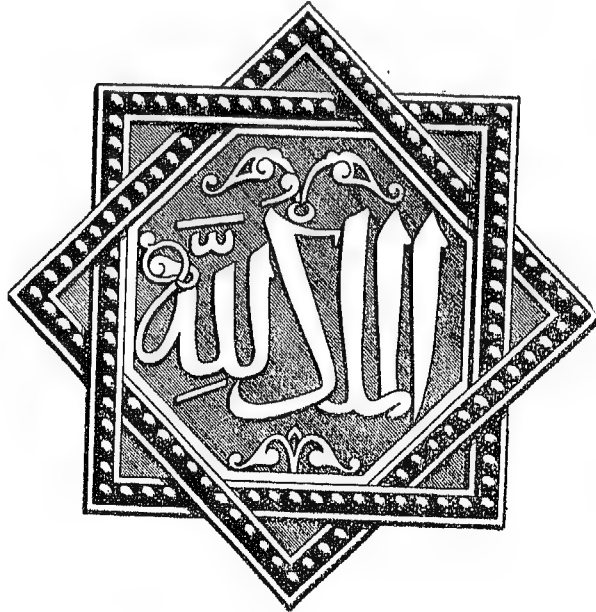
قحط ومسغبة ومظالم وجبروت . .

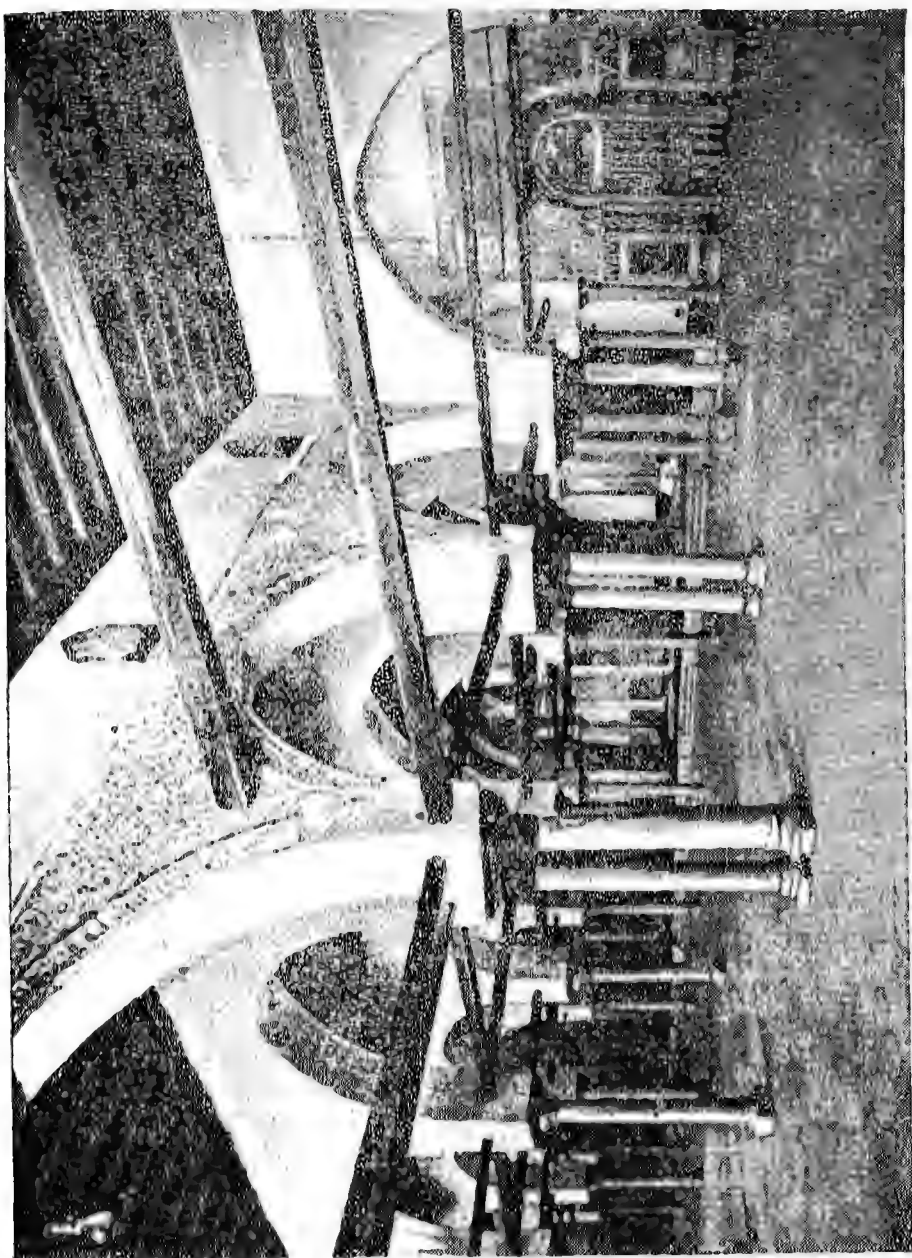
قلق واضطراب وحيرة . .

لا سلام ، ولا أمان ، ولا راحة !!
 طفاة قساة سلبوا الجياع أقواتهم في حين كادت تقتلهم التخمة !
 ترف و ثراء في ناحية .. وفقر مدقع يخيم بعدها على كل البقاع !
 زفريات حرى ، تتعالى الى السماء ..
 نفوس خاشعة وجلة تدعو ، وترجو ..
 قلوب تهفو الى المنفذ المنتظر ، الذى يخرج بالناس من هذا البلاء المقيت !
 وخيمت المظالم فوق الظلمات .. وأمير المؤمنين لاه عابت سعيد بالتفاف مماليكه
 الأتراك حوله فى العاصمة الجديدة « سر من رأى » - التى انتقل اليها وهجر بغداد ..

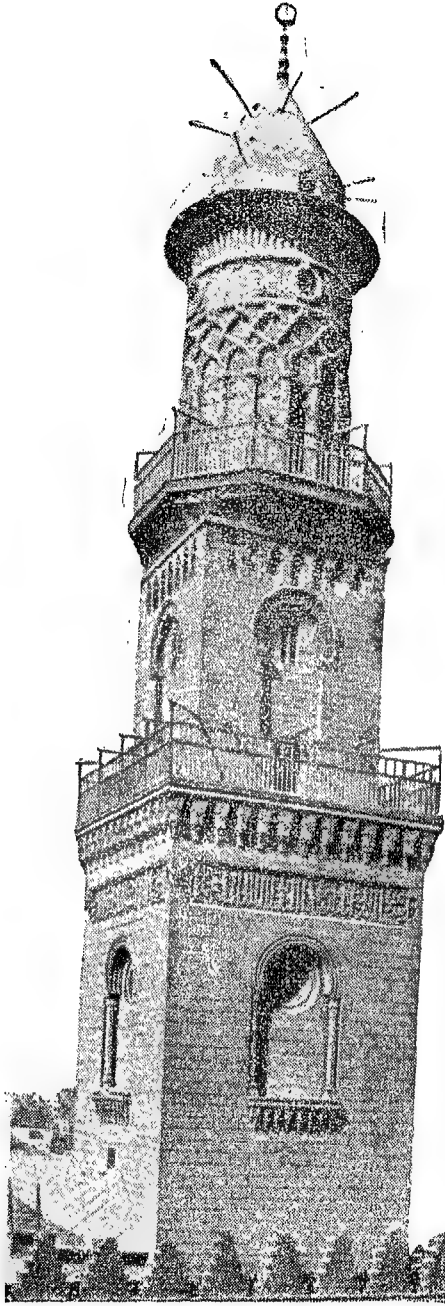
لقد كان « ابن المدبر » أفسى عقاب أنزلته الخلافة العباسية بمصر ، يوم أرسلته أميراً
 لخارجها .. فاستحل الحرام ، واستباح مالىس له .. وأسرف فى نهب أموال الناس ،
 لينعم خليفته بالذهب ويرفل فى الحرير ويجود على الجوارى باللكىء واليواقيت !
 وكان طبيعياً أمام الجشع التركى الذى أبداه ممالك المعتصم ، أن يتحول اهتمامهم
 الى المال ، فانصرفوا عن الاصلاحات انصرافاً تاماً .. ولم يحظ مسجد من المساجد بعناية
 واحد من هؤلاء النهابين ..

وشاءت الظروف فى تلك الفترة العصيبة ، وقد اشتد استبداد ابن المدبر بالمصريين
 - أن يهيم الله لها حاكماً جديداً ، أرسله الخليفة العباسى هو « احمد بن طولون » الذى
 كانت ولايته ايذاناً بنهاية دولة .. وبداية دولة جديدة .. دولة مصرية فى كل شئ ،
 بعيدة عن سلطان الخليفة العباسى ومماليكه الأتراك ..





الجامع الأزهر : أكبر أروقة القبة بالجامع الأزهر ، وبه أروقة أخرى لائناء كل إقليم أو قطر من الإقطار الإسلامية .



أحمد بن طولون

وصل أبو العباس أحمد بن طولون الى مصر ، وليست له يومئذ صفة رسمية ، ولكن الرسميين كلهم خرجوا يرحبون به ويتفننون في استقباله ويرجون له اقامة سعيدة هائلة في رحاب وادي النيل . .

وصل أحمد الى مصر وكل صفته أنه كان نائباً عن زوج أمه « الأمير بقيق » ، الذي أسند اليه المتوكل العباسي الولاية وشئون الخراج في تلك البلاد الوادعة الامينة التي طالما تاق أحرارها الى التحرر من ربقة هؤلاء الغاصبين اللصوص . .

كان ابن طولون شاباً لم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره ، وقد أدهش مقدمه الشيوخ ودهاقين الولاية . . وراوا في انابة « بقيق » له ، جراً على الاوضاع المألوفة ، واستهتاراً بتقاليد الحكم المتوارثة التي طالما حافظ عليها بنو العباس في مصر بالذات ، فقدموا الكبير على الصغير وسودوا الشيخ على الشاب . . ولم يحدث في يوم من الايام أن خرجوا على تلك الشرعة فجعلوا حدثاً في مثل سن أبي العباس يتصدر مجالس الحكم ، متقدماً في ذلك على من يكبرونه سناً ويفوقونه تجربة وخبرة ، ولهم في خدمة الخلافة ماضٍ معترف به !

« مئذنة السلطان المنصور قلاوون »

لقد كان مقدم أحمد مفاجأة لها صدامها

في كل مجال . . مفاجأة أذهلت رجال الحكم في مصر نفسها . . ورأى فيها الشعب المصرى اجترأ جديداً من الخليفة العباسي ، عزز به بغيه واستهتار من سبقوه بأقدار الشعوب !

وتلفت الناس بعضهم الى بعض يتساءلون فى دهشة ، عن عساه يكون ذلك الشاب
الخلو الملامح الفارع القامة ، الذى قدم الى مصر ليكون نائبا عن واليها الاصيل ، فى
الاضطلاع بشئون الحكم وتحمل ما يستتبعه من تبعات جسام ؛!

وأشفق الشعب مقدما على نفسه وبلاده - وقد تصور أبا العباس احمد بن طولون
عابثا جديدا ؛ جاء ليعزز مظالم ابن المدبر وليجمع بدوره من المال مايكفى نهم الوالى
الاصيل ، الذى فضل البقاء حيث هو وبعث الى مصر نائبا عنه !

وفى الوقت الذى استقر فيه احمد بن طولون فى دار الحاكم ، تسارع الناس متسائلين
ليعرفوا من هو . . وكيف ولماذا جاء !

كان احمد ابنا ، أو متبنى لمملوك تركى من « نجارى » ، أرسله حاكمها هدية للخليفة
المأمون . . وكان شجاعا ، جرىء القلب ، ثبت الجنان ، فأحبه أمير المؤمنين وقربه
وقدمه على كثيرين من أئدانه . .

وانتقل طولون الى المعنصم بعد موت المأمون . . ورحل معه فى جملة مماليكه الى
عاصمته الجديدة « سر من رأى » . . وهناك تربى احمد الصغير مع أترابه تربية عسكرية
وأظهر تفوقا فى علوم الدين ، وبرع فى اللغة وتفوق فى دراسة الشريعة . . وأظهر فى
كل مجال نشاطا وذكاء منقطعي النظير . .

ولما مات أبوه طولون ، ترك وراءه أم احمد ، وهى يومها أرملة جميلة ، راقت فى
عينى « بقيق » فأسرع يخطبها . . وعارض احمد . . وكره أن تتزوج أمه بعد أبيه ، ولكن
« بقيق » تزوج الأرملة وعمل فى ذات الوقت على إرضاء الابن الغاضب بإبعاده الى مصر
التي كان قد تقلد ولايتها ، ولم يذهب لتسلم مقبالدها مدة زادت على العشر سنين . .

وجاء احمد الى مصر وهو لا يملك غير نفس عالية ، وقلب جرسور فيه جراءة واستهانة
بالمخاطر ، وتطلع الى الأجداد . .

ولقد حذر القادم الشاب عند مقدمه من ابن المدبر ، وعرف مدى نفوذه وقوته ،
وما كان يستمتع به من ثراء . . فابتعد عنه الى حد ما ، خشية أن يقع بينهما فى البداية
تصادم ربما خسر فيه احمد بعض الآمال التي كان يعلقها على بقائه فى مصر . .

وبدأ احمد يعمل فى صمت وهندوء ويقظة ، يسمعه كاتم سره احمد الواسطى . . حتى
استطاع فى النهاية أن يجمع خيوط الحكم فى يديه ويسيطر على داخلية البلاد ، ويوجه
العمال فيها لتنفيذ ما كان يريد . .

وجمع أبو العباس المال . . وبالمال استطاع أن يعزز مركزه وأن يقوى نفوذه ، وأن
يرهب ابن المدبر . . ويحد من سلطانه ويشعره بأن الشاب المعدم ، الذى جاء نائبا عن
والى مصر - قادر على أن يملأ مركزه ويخيف الطامعين ويرهب من يفكر فى الخروج عليه
أو الحد من سلطانه أو شل حركته !

وتنفس الشعب الصعداء واتجه الى النائب الشاب بكل حواسه ، وقد رأى فيه شبه المنقذ الذى تصوره ..

وأحس أبو العباس أحمد باعجاب الشعب به ، فصمم على أن يستغل هذا الاعجاب ويجعل منه حبا يستعين به بعد ذلك فى مغامرات وتحاطرات .. ربما فكر فى القيام بها لصالح هؤلاء الناس الذين أولوه الحب واعتبروا وجوده حققا للآمال ..

وكان أحمد من الذكاء بحيث عرف كيف يغير اتجاه الريح ويجعلها فى ناحيته ، ليستطيع أن يسير بمركبه وسط البحر الصاخب المتعددالتيارات ، الذى كانت تمخرفيه سفن المطاعم والأهواء ..

وبدأ ينفذ الى الحياة العامة فى يسر من عرف دروبها وخبر مسالكها .. وأفلح فى اظهار نفسه للناس جميعا بأنه رجلهم وراعيهم وحارسهم ، الذى يعرف مدى خطورة مركزه ، وما يتطلبه موقفه من توضيحات ..

ونظر نائب الوالى حواليه .. وجعل يتحسس مواطن الأدوية ليصف العلاج ويحسم الخطر .. ويحارب وجوده ..

كانت مرافق مصر مهملة كلها ، لأن من تولوا خراجها لم يكن يهمهم الا جمع الضرائب وسلب مايشاءون منها لأنفسهم والتفضل بالبقية التافهة على الخليفة ورجال بلاطه السلايين .. فوجه ابن طولون اهتمامه الى الاصلاح ، فشق الترع ، وأقام الجسور .. وألقى أنواعا كثيرة من المكوس التى فرضت قسرا على العسامة ، ونظم جمع الخراج ، وأرسل عماله فى كل مكان ينشرون العدل ويشعرون كافة طبقات الشعب بالاستقرار والأمان ..

وانكمش ابن المدبر الطاغية الرهيب .. وراح فى صمت يحيك خيوط مؤامرة لاستعادة سلطانه ، بتدبير انقلاب يطيح بابن طولون الذى خرج على تقاليد ولاة بنى العباس وانحاز الى جانب الشعب ، تاركا جانب أعوان الخليفة وأتباعه ومواليه من الأتراك ...

وشاءت العناية أن تحرس خادم الشعب أحمد بن طولون من دسائس ابن المدبر ؛ فذهبت جهوده بددا .. وما لبث . وقد أسفر عن وجه مطامعه أن وجد خصمه أحمد ابن طولون أمامه وجها لوجه ، يخيره بين الوقوع فى يد العدالة لتقتص منه ، أو الرحيل عن مصر كلها ليتولى الخراج فى بلد بعيد !

وسلم ابن المدبر وألقى سلاحه فى يأس .. ورحل ذليلا صاغرا ، تاركا وراءه أبشع الذكريات !

وبهذا خلصت مصر لأبى العباس أحمد بن طولون ، فأصبح واحدها وصاحب الأمر والنهى فيها .. فراح يحصن مركزه فى البلاد ويقوى نفسه ليستطيع أن يقف ثانية

فى جولات قادمة لصالح الشعب الذى وهبه الولاء ومنحه خالص الحب والتقدير ..
وراح أحمد يأخذ من مصر ليعطى مصر .. وامتدحت يده فى كل مرفق وجبال ..
واقترنت باسمه الأعمال العظيمة ، وما قصر فى عمارة ولا رعاية ، وشمل بره الريف
والنصر ، وبنى وشيّد لشعوب الدين والدنيا ..

ألم يكن أحمد ممن درسوا الشريعة وعرفوا الفقه وتفقهوا فى علوم الدين ؟
فلم لا يتجه الى العناية ببيوت الله ؟! ولم لا يولى وجهه الى جامع عمرو بن العاص ..
لم يكن المسجد الجامع الشهير فى حاجة الى مزيد من العناية التى تستلزم توسعته أو
رفع جدرانه ، لهذا لم يفكر فى زيادته ، ولم يوسعها كما فعل غيره من ولاة أمية
وبنى العباس - بل أصغى الى رغبة حملها أفراد الشعب الى مسامحة . وكان أن أسرع
بتنفيذها .

لقد شكّا الناس الى ابن طولون من أن صحن جامع عمرو يتعرض فيه المصلون فى
شهور الصيف القائظة لحرارة الشمس المحرقة .. وسأله أن يعمل على حمايتهم من
شمواتّ الالهب الذى كان يصيب البعض بضربات الشمس المميتة .. فكان أن أصدر
أمره الى أبى أيوب « أحمد بن شجاع » أحد خلصائه ؛ ليفكر فى استنباط طريقة يحمى
بها جبهة المصلين من الشمس فى جامع عمرو ..

كانت تقاليد المساجد الجامعة فى تلك الاوقات تحتم تعرض باحة المسجد للشمس ،
شأنه فى ذلك شأن غيره من المساجد الكبيرة وعلى رأسها بيت الله الحرام ..

ولما كانت جوانب جامع عمرو تقوم على أعمدة مسقوفة ، فقد كان من العسير أن تمتد
هذه الأعمدة عبر مساحته كلها ليتم سقفها .. فكانت حماية المصلين اذن .. تستلزم
بعدهم عن الباحة المكشوفة ، وهذا أمر متعذر لكثرة الزحام خاصة فى المناسبات .

وفكر أبو أيوب فى طريقة يحمى بها المصلين من وهج الشمس دون ارهاق لبيت مال
المسلمين . ودون القيام بعمل انشائى جديد ربما ترتب عليه هدم بعض صحنون الجامع
وانهائه لتسوية البناء وإقامة سقف شامل له . وفى هذا خروج على التقاليد البنائية
السائدة فى ذلك الحين .

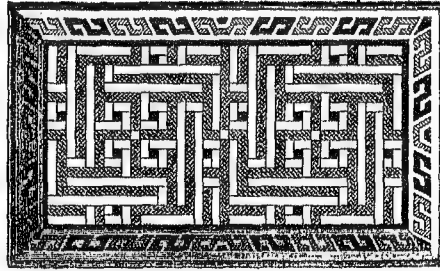
واهتدى تفكير أبى أيوب الى إقامة عمد خشبية عادية فى محاذاة العمد الحجرية
العديدة ، تصل بين بعضها قوائم خشبية مستعرضة ، تكون بمثابة معابر تحمل ستائر
قماشية تمتد فوقها فى شهور الصيف لحماية المصلين من الشمس ، وفى شهور الشتاء
تحميهم من المطر وتقلبات الجو ..

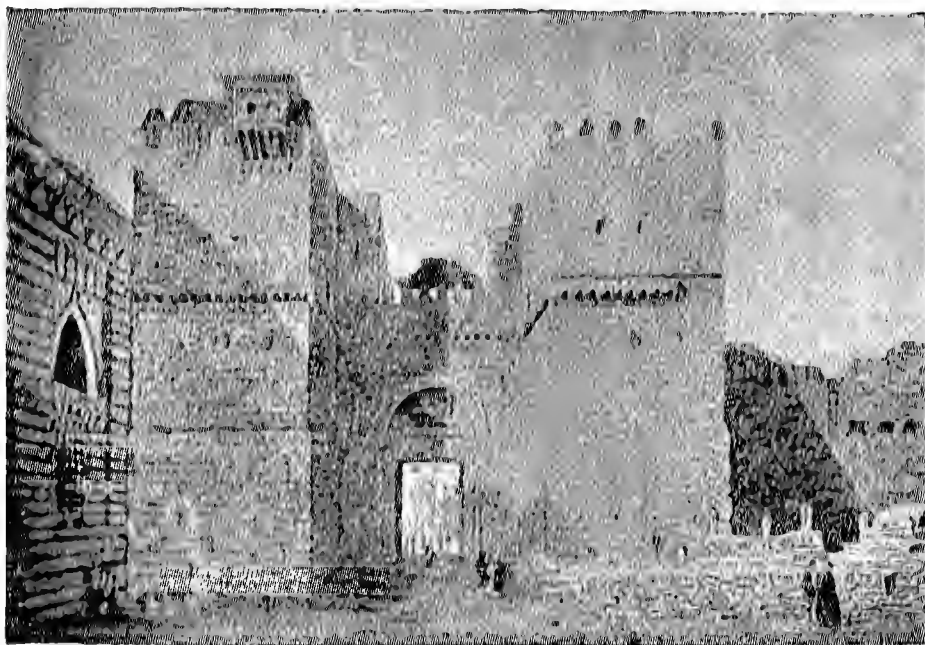
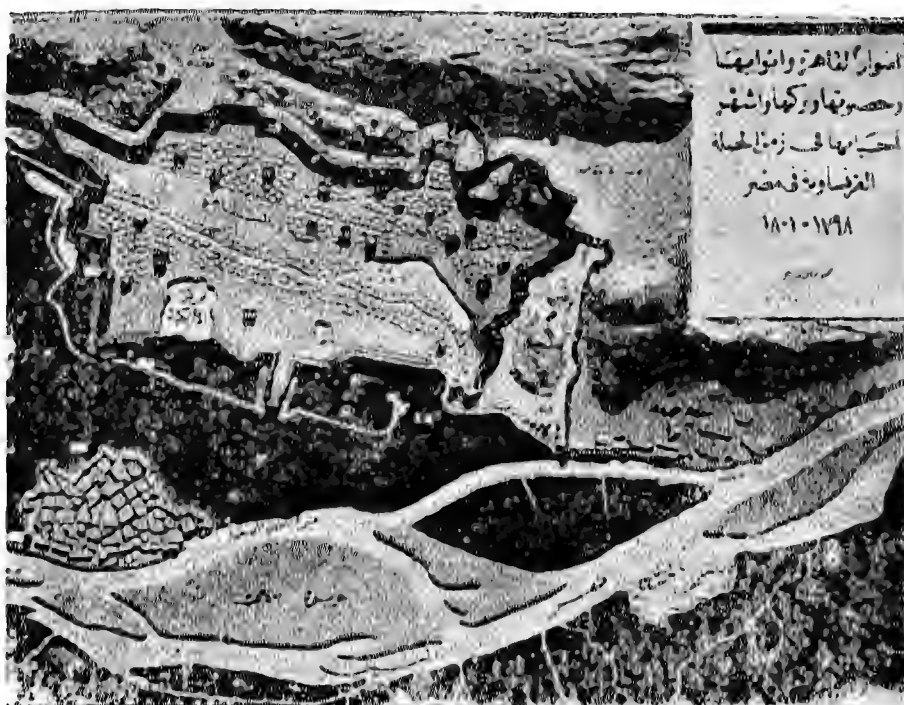
وأسرع أبو أيوب يعرض فكرته على سيده ابن طولون . فأقره عليها وأمره أن يسرع
بتنفيذها ولم يمض وقت طويل حتى خرجت الفكرة الى حيز الوجود .. ورأى فيها
الناس دليلا من دلائل الیقظة وحسن الرعاية ؛ فزاد التفافهم حول واليهم الشاب
وتضاعف حبه له ...

وهكذا شهد جامع عمرو سنة سبع وخمسين بعد المائتين من الهجرة نظام الستائر
لأول مرة .. فكانت آية جمال ودليل تفكير مستقيم ..

وكانما راق لأبى أيوب بعد ذلك أن يستمر سالكا سبيل الخير في تعمير بيوت الله ..
وأحب بدوره أن يخلد لنفسه هو الآخر اسما ، الى جانب اسم ابن طولون وغيره من
المقربين الصالحين الذين وسعوا الجامع وزادوا في أبيته ، وأقاموا فيه العمائر الشاحخة
.. فبدأ عقب وضع الستائر بعام واحد في إقامة عمارته الجديدة ..

واشتري أبو أيوب لتنفيذ خطته التي رسمها ، بعض دار « أم ابان » بنت الحارث
ابن مسكين ، التي أدخل عبد الله بن طاهر بعضها في زيادته المعروفة .. واشتري الى
جانبها دار « خارجة بن حذافة » ثم هدم الدارين .. وفي الفضاء الذي تغلف عنهما ،
أضاف الى جامع عمرو رجة فسيحة نسبت إليه ؛ فعرفت باسم « رجة أبى أيوب » ..

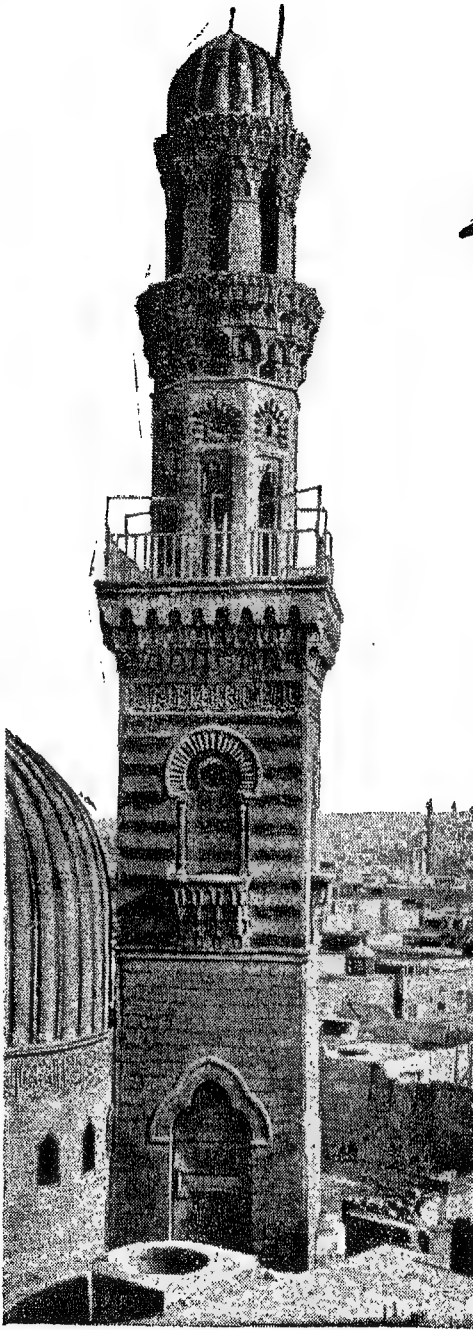




باب النصر

انشاء القائد « جوهري الصقلي » وقت تأسيس القاهرة وعندما جد « بدر الدين الجمالي » سور القاهرة
نقله الى مكانه الحالي سنة ٤٨٠ هـ ، ١٠٨٧ م .

التذ



كان الخليفة في « سر من رأى » من الضعف والهوان بحيث كان بلاطه مسرحا تحاك فيه المؤامرات علانية .. فلم يكن الامن مستتباً وكان من السهل الهين أن يقوم ذووا الجراة من مماليكه الاتراك على القتل ، غير عابئين بالسلطنة ، مستهينين بالأرواح ..

ولقد حدث خلال إحدى المؤامرات العديدة التي شهدتها دار الخلافة ، أن استقر الرأي ببعض مماليك المتوكل العباسي ، على التخلص من الأمير الطيب « بقيق » زوج أم احمد ابن طولون ، لحقدهم عليه وكرهيتهم له ، ولطمع فئة منهم في منصبه ومخصصاته .. فكان أن تكالبوا عليه وقتلوه !

ولما كان الخليفة يكره اقحام نفسه في أمثال هذا العبث الرهيب ؛ اذ كان يعتبر لونا من ألوان المنازعات الشخصية بين طبقة خدمه ومماليكه - فقد راح دم الأمير « بقيق » هدرا ، وختمت حياته على تلك الصورة الدامية الكريهة ..

وبموت « بقيق » التمس .. وهو يومه والى مصر وحاكمها الاصلى - سقطت نياباً الحكم عن ابن زوجته احمد بن طولون .. واذا كانت عائلة « بقيق » في « سر من رأى »

قد روعتها قتلته ، وقضت على أحلامها ،

وأمانيتها ، فان هذه القتلة المفاجئة كانت أقسى وقعا على احمد بن طولون ، اذ كان فيها ما يعنى القضاء على شتى أحلامه وأمانيه ..

كان على ابن طولون أمام ما حدث أن يدفن آماله وأحلامه في احناء صدره ، ويقضى عليها

« مئذنة سلارو سنجر الجاولى »

بأن تموت حبيسة وهى فى ريعان فتوتها ، وألا تحاول التطلع مرة ثانية الى النور !
وتلقى احمد الصدمة فى ثبات وهدوء كانا يخفيان تحتها بركانا متأججا بالحلم ..
وراح خلال لحظات صمته يسائل نفسه : أيسلم بما حدث ؟!

أيترك تلك الأرض الطيبة التى أحبها وأحس أن أمانيه وأحلامه ومستقبله مرتبطة بها
وأن سوادها العنبرى سوف يخرج ذات يوم زهور أمله ناضرة يفوح فى الوادى شذاها ،
ويستمتع به كل مصرى أحب أبا العباس وأخلص له ؟!

**وعز على الشاب الطموح أن تبديد أحلامه ، وأن تتبديد أصداء أمانيه الحلوة فى قفر
رهيب .. ونقل بأصرتيه فى الوادى الأمين الذى أحبه ، وقد احتبس فيهما الدمع الهتون
ولم يجد غير أن يرفع رأسه الى السماء ويُنذر للرحمن نذرا ، ان هو بقى فى مكانه -
ليئينن لله مسجدا ، لم تشهد مصر له شبيها فى الفخامة والعظمة والجلال .. وأن يلحق
به « بيمارستانا » يعالج فيه المرضى ، ويلحق به بيتا للغرباء ..**

كان ابن طولون قد رسم خطوط مستقبله على أرض مصر ، واعتبرها ميدان جهاده ؛
لهذا .. عز عليه أن يتركها وتزول صفته الرسمية بموت « بقيق » المسكين .. ولم يجد
وهو رجل الجد والعمل المستمر غير أن يتوجه الى الله بقلب خالص ليكون الى جانبه
ويحقق له أمانيه ..

واستجاب الله له ؛ فمنح الخليفة ولاية مصر للأمر « برقوق » .. و « برقوق » هذا
هو والد زوج أبى العباس احمد بن طولون ... ولم يكن « برقوق » من هواة ترك دار
الخلافة للتعليق بالحكم أو ممارسة السلطان، وقد أسعده أن كان صهره احمد لم يزل فى
مصر ، وأسعده أكثر أن الشاب فرح بأن يكون نائب « برقوق » على مصر ، كما كان
نائب بقيق ..

**وهكذا .. ثبتت ولاية احمد .. وقوى مركزه وعظم سلطانه وعلا نجمه الذى ظن
الحاسدون أنه قد أوشك على الافول ..**

**وهكذا ... وأمام عامل المصادفة المفاجئة ، زاد استقرار احمد فى مصر ، وتوطد
سلطانه وتزايد نفوذه ، وتراجعت عن طريقه الافاعى البشرية التى لا تعرف غير السعى
فى الفساد ...**

وأسعد ابن طولون ذلك الولاء الشعبى الذى أبدته شتى الطبقات من المصريين وحدهم
.. وأحب مرة أخرى أن يجعل من هذا الحب المتدفق تكتة يصل بها الى مزيد من القوة
والجاء ..

واستعرض الشاب الطموح أمام عينيه شتى الامور ، وجميع الاحتمالات ..
لقد كانت ولايته على مصر مجرد مصادفة ، منحة من منح الحظ ! التى قد تقبل فى أشد
الساعات حلوة .. وانها بعد اقبالها هذا قد تدبر وتتنكر ان لم يتخذ للاحتفاظ بها

حيطته ويعرف كيف يحافظ على نوبة المد ويحسن استغلالها ، لتسير به قدما الى حيث يريد ..

وانتقل ابن طولون بفكره عبر البلاد والامصار ، فرآها كلها تستظل بعلم مهلهل ، في يد قائد ماجن ضعيف كان يجهل أن احترام رغبات الشعوب وتوفير الحياة الكريمة لها سر بقاء الخلافة ودوام السلطان !

وامتدت عين احمد بن طولون فوصلت الى « سر من رأى » حيث الخليفة ومن حوله .. حيث الراس الفاسد والفئة الضالة المضلة .. وما لبث أن عقد المقارنة بينه وبين امير المؤمنين ..

لقد كاد موت « بقيق » يقضي على أحلامه وأمانيه ، وهو صاحب القلب الكبير ، الذي يفضل في طموحه وتوثبه وحبه للنجدة والاصلاح - ذلك العايب الجالس على عرش بنى العباس .. والذي لم تقدمه كفاءة ولا مقدرة ، ولم يسوده نبوغ ولا توثب ، بل خدمته ظروف رتيبة وراثية أورثته ملكا وجاها كانا لأبيه ، ومن قبل أبيه كانا لجاء الذي ورثهما هو الآخر ، وورث معهما ولاء الشعوب !!

أى حظ هذا الذي يحرم الكادح الكفء .. ويسرف في العطاء للعايب العاقل من كل كفاءة !! ..

وراح ابن طولون في غمرة أحلامه وطموحه يستعرض شتى أحوال الدولة العباسية ؛ ففكر .. ورأى أنه ليس هناك غير القوة ، هي التي سوف تحسم كل خلاف ينشأ بينه وبين الطامعين الذين يتاجرون بمصائر الشعوب !! وهي التي ستحقق أمانيه وتبقيه حيث يريد سييدا ، فردا ، حاكما على الوادى الحصيب دون اعتراف بتبعية لأحد ، أو أقرار لحاكم آخر بظل من سلطان على مصر ..

كان الاحتفاظ بمصر أعلى أمنية يرجوها أبو العباس ، ولو انقلبت « سر من رأى » من أجل ذلك رأسا على عقب !

انه يرى فيها جنته ومستقبله ومعقل آماله العظام .. ولقد أرادها لنفسه وأقسم أنه لن يتخلى عنها طوال حياته ليسلمها لبنيه من بعده .. ولو اضطرت الظروف الى الوقوف في وجه امير المؤمنين واعلان الخروج عليه !!

وكان احمد واثقا مما يقول ، مؤمنا بقدرته على تنفيذ ما يريد ، لان المال كان لديه موفورا .. والمال هو الاداة السحرية التي تستطيع أن تفعل ما تشاء ..

وراح ابن طولون يبذل المال لتوطيد الملك باظهار الولاء وتقديم الهدايا من ناحية ، في حين راح من الناحية الاخرى يشتري آلاف المماليك من العرب والديلم والعبيد .. حتى استطاع أن يكون لنفسه الجيش الأمين الذي لايعرف سييدا غيره .. وقرر أن يثب به الى حيث يريد ، ويوجهه كيفما شاء ، ليعزز به أمانيه ، ويقوى مركزه ويذود عن ملكه ..

وتغافل المصلح الشاب بعض الشيء عن الوفاء بنذره ؛ ليعبد الطريق أولا لاستكمال سلطانه ..

ولما كان العلويون قد استولوا على الاسكندرية وعزلوها عن بقية البلاد ، وأصبحت في أيديهم وتحت امرتهم ، فقد سارع ابن طولون باستردادها ، وضمها الى سلطانه .. وراح يطارد العلويين حيث كانوا في الصعيد ، ففضى على حركتهم وقلم أظافرهم .. وأثبت أنه القائد الماهر الذي يعرف كيف يسود الميدان ويتحكم في زمامه ..

وحدثت عندئذ هزة أخرى ..

لقد خلع الخليفة برقوقا عن ولاية مصر ، وأهداها لآخيه ، « الموفق » العباسي ! وأسرع ابن طولون يسترضى بالمال والهدايا أخ الخليفة الماجن الباحث عن المال .. فسكت عنه .. وترك له مصر ؛ لقاء خراج معين حددته وارتضاه ابن طولون مبدئيا كي لا يثير « الموفق » عليه ..

وأحسن ابن طولون - بعد ان احسن بدل المال لتوطيد مركزه ، أنه من اللازم أن يرسى دعائم سلطانه المظهيرية ويثبتها على أساس متين .. فرأى أن يبدأ أول ما يبدأ بمظاهرة تشعير الجميع بمدى سطوته وما يملك من مقدرة .. وذلك بأن يقيم له مدينة ، خاصة به وبماليكه وخلصاء رجاله ، الذين أصبحوا كثرة مدربة معتدة تخيف العدو .. فكان أن أعد فضاء رحبا كبير السعة ، خططه ومسحه ووضع عليه أساس عاصمته مقسمة الى « قطائع » ، يشبه كل منها حيا مستقلا ، أقطعها لرجالها لتتجمع كل فئة منهم في «قطاع» خاص .. واختار للمدينة « جبل يشكر »

ولم يكد يتم بناء « القطائع » على جبل « يشكر » وتقوم فيها أسباب العمران ، وتدب فيها الحياة ويصبح وجود رجال أبى العباس فيها متجمعين أشبه بعرض عسكري لقوة متحفزة - حتى تذكر ابن طولون نذره القديم - وهو بناء المسجد الجامع ؛ لتكتمل بنيائه صفة «القطائع» من الوجهة الرسمية فتنتقل اليها دواوين حكومته من « العسكر » . . ويكون في هذا الانتقال الرمزي مايعنى تبدل أساليب الحكم وشخصه وانتقاله من اليد العباسية الى يد أخرى .. تكاد تكون مصرية ، وان كان صاحبها من « نجارى » الا أنه تأقلم بأرض مصر ، وأصبح مصرية يعمل مخلصا من أجل البلاد التي رفعت له ليرد اليها جيلاها الخالد باسعاد شعبها الأمن ..

وشغلت فكرة اقامة المسجد الجامع نفس احمد بن طولون ، وراح يفكر في طريقة بنائه وطرازه وزينته وكيف يكون ..

كان قد تخير الأرض وأعد المكان الصالح ..

ولكن .. الخطة المدروسة كانت تعوزه ، والاعداد الفنية كان ينقصه ، والرأى الموحد لم يكن له وجود بعد ..

لقد تكلم الجميع . . وأشار البعض بكذا وكيت . . وقال كل من استطاع الكلام ماشاء له تطفله أن يقول ، فهذا يطلب رحبة فسيحة . . وذاك يجذب مسجدا مسقوفا . . وذلك يوصى بأن يكون ذا عمد سادقة وباحات وإبهاء . .

مجرد أوصاف يتخيلها القائلون . . أما كيف يمكن أن تصبح حقيقة قائمة ، فذلك مالم يفكر فيه أحد . .

ولما كان المشيرون قد أسهبوا فى وصف محاسن المسجد المنتظر اقامته - لو أكثر الأمير من اقامة الأعمدة فى أبهائه الفسيحة ، فقد راقى الفكرة له . . ولكنه تردد أمام العدد الذى كان يتطلبه اتمام البناء . . كانوا فى حاجة الى ثلثمائة عمود رخامى !

وحار الأمير ولم يدر من أين يمكن له استحضارها واعدادها . .
ومرة أخرى أشار الخاصة بأن يأتى بها من الكنائس والبيع والمعابد القديمة . .
وأبى ابن طولون أن ينساق الى هذا رأى مع القائلين به ، فهو لا يريد أن يذكر التاريخ عنه أنه أقدم على تلك الفعلة . . وأنه خرب بيوت العبادة ، ليعمر مسجده . . وهو الراعى المسلم ، الذى احترم دينه سائر الديانات ، ولم يتعرض لحرقاتها أو أن يقال عنه أنه استغل مركزه فى ذلك . . وأحب ابن طولون أن يتم البناء ولو دون أعمدة على الاطلاق . .

ومرة أخرى أشار بعض خاصة الأمير ، بأن يستعين « بمعمارى » مصرى سبق أن قام بخدمته . .

وتذكر ابن طولون الرجل . . لقد كان مبعدا مغضوبا عليه بأمره ، مضطهدا من أجل « مظنة » داخلت الأمير فى شأنه ، يوم شاد له سقاية فى مكان قفر للشراب ، وخانه الحظ فقصر بعض الشئ فى اكمالها بما يليق !

وفكر الأمير فى الامر . . وراجع نفسه فوجد أن المعمارى المصرى أنبه الجميع وأعلامهم فى الفن كعبا . . فأرسل فى طلبه وأمنه على نفسه . .

وجاء المعمارى المصرى وكله رغبة فى أن ينال رضا الأمير ، وأن يمحو من نفسه ماعلق بها من سوء الظن به . .

كان احمد بن طولون قد كره فكرة الاستعانة بالأعمدة . . وذكر ذلك للفنان المصرى ، فتصدى هذا للأمر . . وأخذ على عاتقه أن يبني المسجد دون أعمدة ، اللهم الا عمودين فقط على جانبى محراب المسجد . .

وحمل الرجل خطته الى أبى العباس - وقد صور هيئة المسجد على ورق من الجلد - وراح يشرح له نظريته فى العمارة . .

ان الثلثمائة عمود التى قرر الجميع بضرورة وجودها لاتمام البناء ، لن يكون لشيء

منها وجود مادام الأمير يكره نقلها من المعابد الى مسجده ؛ فيخرب مكانا ليعمر آخر . .
وأوصى الأمير الى المهندس الجريء الذى تعهد باستنباط وسيلة معمارية تغنيه عن
الاعمدة وتقوم مقامها ، وراح يشرح نظرية « العقد الخمسوس » . . وكيف يفاجئ بها
دنيا العمارة لأول مرة فى الوجود ، فينشئها فى المسجد الجامع . . ويقيمها على أعمدة من
الآجر المدعم . .

ورأيت الطريقة للأمير المشوق الى اتمام مسجده الجامع ، وأمر المهندس المصرى أن
يسرع فى التنفيذ ليفرغ من بناء المسجد فى أقرب وقت مستطاع . .
ووضع تحت تصرفه مائة ألف دينار - كدفعة أولى - ليتولى الانفاق على جميع
مستلزمات البناء . .

وبدأ العمل فى بناء مسجد احمد بن طولون فى السنة السادسة والخمسين بعد المائتين
من الهجرة - بهمة لا تعرف الكلل . . حتى لقد حدث أن زار الأمير العمال فى منطقة العمل
خلال شهر رمضان ، فراحه أنهم كانوا يعملون حتى بعد غروب الشمس . . فسأل :
- وكيف أذن يعدون افطارهم وافطار أهليهم اذا كانوا يعملون الى هذا الوقت ؟!

ثم أمر بأن يبدأ العمل مبكرا ، وأن ينصرف العمال قبل الغروب بزمن كاف ، ليكون
فى استطاعتهم اعداد مايلزمهم ويلزم أهليهم فى ذلك الشهر الكريم . .

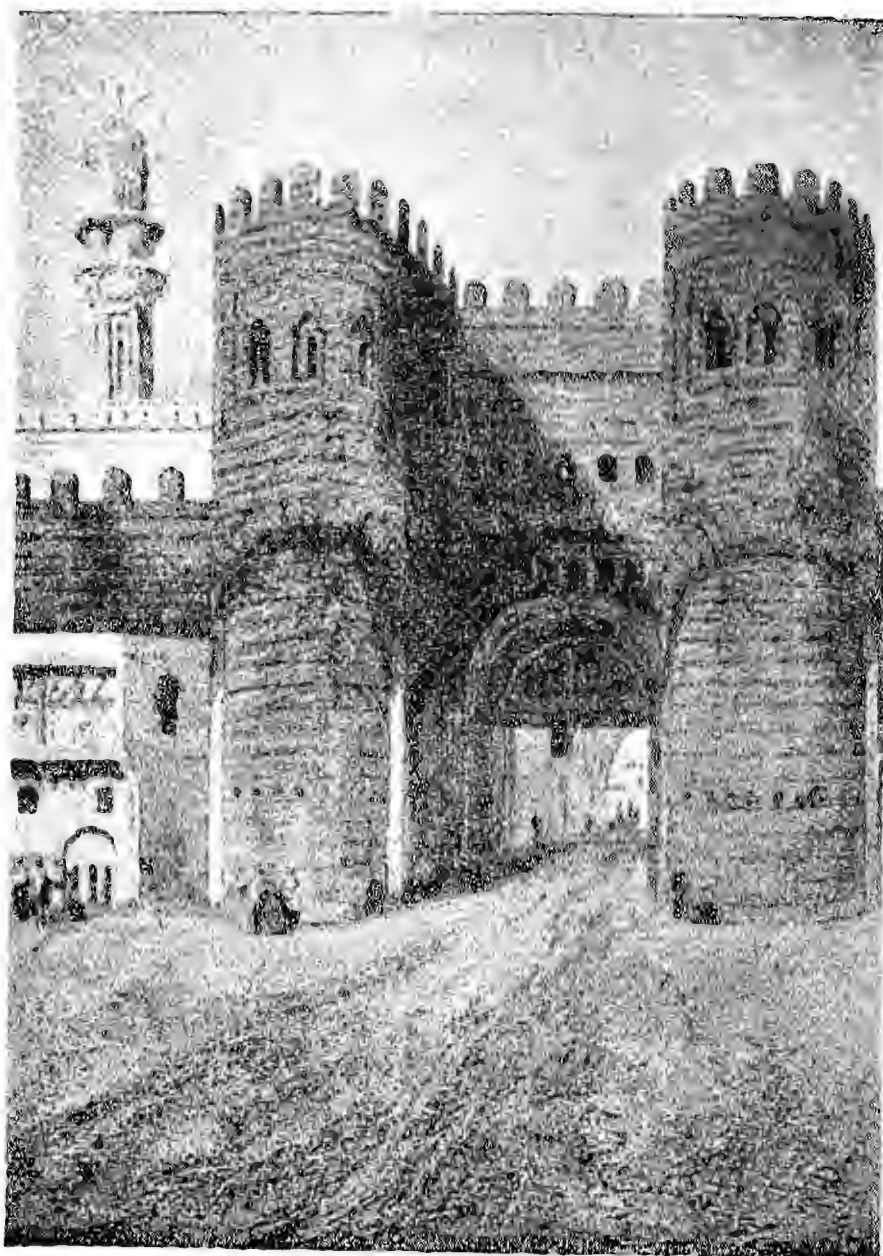
وكان المهندس المصرى الذى أشرف على تنفيذ البناء بعد وضع تصميمه - من الدقة ،
بحيث وزع الوقت على العمل توزيعا يكفل له ولعماله الراحة مع حسن سير العمل
وسرعة انجازه . . وراح ينشر الحجر من جبل « يشكر » فيرسله الى « الاشران » ، ليصنع
منه الجير الذى كان يقيم به البناء أولا بأول . .

وأخذت معالم المسجد تظهر فوق مساحته الشاسعة ، وراحت جدرانها ترتفع فى سرعة
واتقان ؛ مؤكدة فطنة المهندس المصرى الذكى وتمكنه من فن البناء . .

وقد تم بناء مسجد ابن طولون الجامع من « الآجر المصنوع » ودعائمه التى بها
النواصي الأربع عمد فى بناء قواعدها على نسق القواعد القديمة ، وتيجانها على شكل
نواقيس ، والزخارف التى تتحلل بها تلك التيجان على هيئة ورق النبات المسمى « شوك
اليهود » - التى تشاهد على العمدة القديمة ، وباطن العقود مشبك كثير الزوايا تحلى بنقش
عربى مفرغ فى الجص . . (١)

ورأى المهندس المصرى ، ألا تقوم الحوائط مصمطة ، بل من الواجب أن يتم تزيينها
وفق قواعد معمارية جديدة ، ابتكرها ونفذها فى هيئة « مناور » بلغ عددها مائة وثلاثين
« منورا » من الجص ، أقيمت فى كل من الجانبين : الشرقى والغربى للمسجد . . وقداحيط
كل « منور » من هذه « المناور » باطار نقشست فيه بالكوفية آيات من الذكر الحكيم .

(١) من تقارير هوقس باشا أحد قدامى مفتشى الآثار العربية الانجليز بوزارة الاوقاف . . .



باب الفتوح

احد ابواب القاهرة بشارع ابو الفتوح انشاء جوهر الصقلي عام ٤٨٠هـ - ١٠٨٧م . وجده
بدر الدين الجمالي .

وبالغ المهندس فى تنسيق هذه المناور وزخرفتها ، وأراد لجمالها ألا يظفى على شىء من أعماله التى كانت بالمسجد ، فجعل بينها شبه فاصل - يعطيها فرصة للظهور ، وللأعمال الأخرى نفس الفرصة .. وجعل المناور متداخلة من سطح الحائط ، لتظهر بذلك هيئة العمدة التى أقيمت وتبدو عقودها الزخرفية البديعة الصنع واضحة للعيان ..

وكان طبيعياً أن تغطى أبهاء العمدة المخموسة بأسقف تتمشى وجمال البناء ، فقطعت جلدوع النخل بكثرة ، وأنشئ منها سقف المسجد .. ثم كسيت هذه الجذوع من أوجهها الثلاثة بالأواح خشبية مزخرفة ، كانت آية من آيات الدقة فى الصناعة المصرية ..

وكان صحن الجامع من السعة ؛ بحيث كان من اللازم أن يتحول إليه الاهتمام لتجميله بأية طريقة من الطرق المعمارية .. فكان أن أنشئ فيه زخرف رائع على هيئة قبة مذهبة تنوسطه ، وقد شبكت من جميع نواحيها ، وأقيمت فوق عشرة أعمدة رخامية ، وأحيطت جوانبها بستة عشر عموداً أخرى مكسوة بالرخام ..

والقبة فى ذاتها كانت شبه مظلة فوق حوض من الرخام الثمين ، قطره أربع أذرع تنوسطه نافورة ماء بديعة ، فى وسطها قبة مزخرفة - يؤذن فيها ، وفى أخرى على سلمها وعلى سطحها علامات الزوال لتبيان الوقت .. وبأعلاها سياج .. (١)

ورؤى بعد هذا الجمال الفنى الذى استكمل أسباب وجوده وآيات ظهوره ، أن تكون للمسجد منارة فريدة فى كل شىء .. فكان أن وضع لها تصميم غريب ، لم تشهد له المساجد فى مصر ولا شتى البلاد الإسلامية ، مثيلاً له على الإطلاق .. ويقال أن الأمير هو الذى وضع خطوطه الأولى وأمر بتنفيذه ، وبأن تكون المنارة بعيدة عن صحن المسجد وعلى هيئة عمود سامق الطول يرقى إليه بدرجات حجرية ..

ونفذ المشرفون على بناء المسجد ما أمر به الأمير ابن طولون .. وأقيم بناء المنارة من الحجر المجلوب من منطقة البساتين ، وراحوا يرتفعون بها حتى بلغ علوها حوالى أربعين متراً .. وكونت من شبه طابقيين أو مصطبتين ، الأولى يصل إليها الصاعد بعد مائة وسبعين مرقة .. والثانية بعد ست عشرة مرقة فوقها ..

وتقوم المئذنة على مساحة تقرب من مائة متر مربع ، وهى من الضخامة والقوة وروعة الفن المعماري بحيث تعتبر آية فريدة من آيات الفن الإسلامى العظيم فى مصر ..

أما المحراب فروعت فيه الدقة .. ورأى الأمير أن يكون على نمط المحاريب الإسلامية فأرسل رساله ليأخذوا سميت محراب مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو مائل عن خط سميت القبلة المستخرج بالطرق الهندسية ، بنحو عشر درجات الى جهة الجنوب فكان أن وضع المحراب مائلاً الى الجنوب ..

وسرت الأقاويل عن هذا الميل ، وشاعت روايات تناقلها الناس فى ذلك العهد ،

(١) المزيوى وابن لقمان

أطرفها أن الأمير أحمد بن طولون رأى فى منامه النبى صلى الله عليه وسلم يخط له بيده
الطاهرة على أرض المسجد الجديد مكان القبلة ٠٠

فلما أصبح أصبح وذهب الى المسجد ، وجد صفا طويلا من النمل يسير فى خط مستقيم
حيث أشار رسول الله فى الرؤيا ، فأمر ابن طولون مهندساه بأن يحدد مكان القبلة فى ذلك
المكان بالذات ٠٠ حتى لقد أطلق على المحراب من ساعتها « محراب النمل » ٠

ولما كانت سنة التقاليد أن تقام فى المساجد الجامعة « مقاصير » خاصة ، يصلى فيها
الأمير ويكون بمنجاة من الغير ، اتقاء للمضايقة أو احتمال الاعتداء عليه من عدو له ،
فقد بنى الأمير أحمد بن طولون لنفسه مقصورة خاصة بمسجده الجامع قريبة من المنبر ،
يصل إليها من باب موصل بمنزله مباشرة ؛ فسار بذلك على نهج معاوية - أول من أنشأ
المقاصير فى المساجد ٠٠

واستكمالا لتهيئة المسجد بعد هذا كله أراد ابن طولون أن يجعل فيه شيئا جديدا
لم يفعل له قبله ، فأنشأ فيه ولأول مرة فى تاريخ المساجد الإسلامية « صيدلية » ٠٠
كانت نواة « البيمارستانات » التى تسبق الولاة على انشائها فى مساجدهم بعد ذلك
لتكون المساجد مكان « تطبيب » مادي ومعنوي ٠٠

وقد استكمل الأمير بناء « صيدليته » هذه ، وزودها بشتى أصناف الدواء اللازم
لكثير من العلل ٠٠ وأقام لها طبيبا خاصا ، كان لا يبرحها وخاصة فى أيام الجمعة عند
الصلاة وبعدها خشيية أن يحدث حادث مفاجئ لأحد المصلين ٠٠

وفرغ العمال بعد سنوات قاربت العشر من بناء مسجد أحمد بن طولون بما يتفق ومكانة
صاحبه وعظيم ثرائه ، وسرعان ما اتجهت النية الى استكمال زخرفته وتأثيثه ورصفه فى
أقرب وقت ممكن ليتم افتتاحه للناس لصلاة الجماعة ٠٠٠

وبنفس الهمة التى باشر بها المهندس المصرى أعمال البناء الاولى ، أشرف على « الانتهاء »
من أعداده للصلاة ٠٠ فآتم المنبر والمحراب ، وقام بنقش سور وآيات من الذكر الحكيم
على أيزار السقف ، وعلق فيه السلاسل والقناديل ٠٠ ثم حملت اليه المصاحف الغالية ،
وتم فرشته وتأثيثه وأصبح معدا للصلاة ٠٠

ورأى المهندس المصرى النابه أن يؤرخ لاتمام بناء مسجد الأمير أحمد بن طولون ،
فأنشأ لوحة تذكارية كانت الاولى من نوعها فى المساجد الإسلامية ونقش عليها ما يلى :

((بسم الله الرحمن الرحيم ، الملك الحق المبين ، الله لا اله الا هو الحي القيوم ،
لاتأخذه سمنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الارض ، من ذا الذى يشفع عنده
الا باذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء ، وسع
كرسيه السموات والارض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ٠٠
محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم
ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر

السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل ، كزرع أخرج شطاه فأزهره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليفيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجر عظيما . . كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم . . انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين »

« أمر الأمير أبو العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين أدام الله له العز والكرامة والنعمة . . فى الآخرة والاولى - ببناء هذا المسجد المبارك الميمون، من خالص مآفاه الله عليه ، وطيبه لجماعة المسلمين ابتغاء رضوان الله والدار الآخرة ، وإشاراً لما فيه تسنية الدين ، والفة المؤمنين ، ورغبة فى عماره بيت الله ، وأداء فروضه وتلاوة كتابه ومداومة ذكره ، اذ يقول الله تقدس وتعالى « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » ، يسبح له فيها بالغلو والاتصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والابصار ، ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب »

فى شهر رمضان سنة خمس وستين ومائتين « سبحان رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين »

« اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كأفضل ماصليت وترحمت وباركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم فى العالمين ، انك حميد مجيد »

وفتح ابن طولون أبواب مسجده للناس ليروا تلك الآية الاسلامية الشاهقة ، وذلكم الأثر الجليل ، واستمع لما يقال فى المسجد من عيوب . . فقال بعضهم : ان محرابه صغير ، وقال آخرون . ليست به « ميضاة » ، وقال غيرهم : ليس فيه أعمدة !! وأمر ابن طولون بجمع الناس . . وخطب فيهم ، فقال :

« أما المحراب فأنى رأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خطبه لى ، فأصبحت فرأيت النمل قد أطاف بالمكان الذى خطبه ، فبنيت المحراب على خط النمل » !!

أما « الميضاة » فقد أقامها فى مؤخرة المسجد . . ثم أعلن عن افتتاحه رسمياً للصلاة ناقلاً بذلك الصلاة الجامعة من جامع العسكر ، وإبقائها فى جامع عمرو وفى مسجده الجديد .

ولكن حدث حدث مفاجئ وغريب ، فقد أحجم الشعب عن دخول المسجد وامتنع عن إقامة الصلاة الجامعة فيه !!

وبهت الأمير لاحتجاج عامة الناس عن دخول مسجده للصلاة ، ونقصى الأمر ، فعرف أن فخامة البناء روغتهم ، وأن عظمتها التى لم يشهدوا لها مثيلاً أخذت بالسبابهم ، وبلبلت أفكارهم وجعلتهم يتساءلون : من أين لأحمد بن طولون الذى جاء مصر معهما لا يملك شروى نقيير - هذا المال الجبم الذى لا يحصيه عد ، والذى مكنه من بناء

**السقاية قبلا ، ثم هذا الجامع العظيم !! انه ولاشك مال مفتصب من أقوات المسلمين .
وأرزاقهم !!**

وعلى هذا فالصلاة محرمة في هذا المكان الذى بنى من دماء الشعب !!

وعجب أحمد للدعاية الرهيبة ، وكره أن تسنقر في أذهان الناس وتنتشر بينهم بالباطل . . وأحب أن يحاربها ويقضى عليها . فكان أن جمع الناس ، وخطب فيهم ليبدد ذلك الاعتقاد ويقضى عليه ، فأقسم بالله أنه قد بنى مسجده الجامع العظيم من حر ماله ، كما قرر ذلك صراحة على اللوحة التذكارية المعلقة فيه . . وأن هذا المال الذى أتم به البناء قد وجده بطريق المصادفة فى كنز أثرى كان فى حفرة عثر عليها صدفة ودون مقدمة ، وهو يجتاز بجواده منطقة الصحراء . . وأنه وجد فى تلك الحفرة من الدنانير اليوسفية الذهبية ما لا يحصى عد ، فحملها الى داره ، وبنى منها هذا المسجد الجامع الذى أراد به عز الدين وخير المسلمين !!

وكانت القصة من براعة السرد والسبك بحيث لم تجد صعوبة فى الوصول الى قلوب الناس فصدقوها ، وراقى لهم أن يؤمنوا بها ، خاصة وأن أحاديث الخرافات عن كنوز مصر القديمة وذهب ملوكها الأوائل وفراعيئها ، كانت شغل الناس الشاغل فى تلك الآونة . . وكان الادعاء بوجودها أمرا سهلا التصديق ، لا يحتاج الى جدل ولا يتطلب برهانا للاثبات . .

وهكذا أزال أحمد بن طولون عن نفسه شبهة اغتصاب أموال المسلمين ، وتفرد وحده بخراج مصر ، وأنه لم يشيد مسجده الا من مال حلال مبارك فيه ، فأعجب الشعب بروايته وأقبل على ارتياد المسجد الجامع الذى تم بناؤه من مال فرعون اللعين عدو الله !!

**وأصبح من السهل الهين بعد هذا ان يحدد موعدا جديدا لافتتاح المسجد للصلاة
الجامعة أن يضمّن الأمير اقبال الناس عليه . .**

وتحدد الموعد الجديد ، وافتتح المسجد رسميا للصلاة فى حفل رائع يليق بشراء ابن طولون ومكانته . . وتوافد الناس حتى ضاقت بهم رحاب الجامع . . وامتلات بهم باحاته وصحنه .

وارتقى المنبر الخطيب « أبو يعقوب البلخى » ، فخطب الخطبة التقليدية المعروفة فى أمثال هذه المناسبات ، فدعى للمعتضد العباسى أمير المؤمنين ولولده بالعز والبقاء ودوام السلطان . . واستمر فى خطابه وقد نسى الدعاء للأمير أحمد بن طولون ، الذى كره ذلك النسيان من خطيب لم يقدر المركز ولا المناسبة . . فلم يكذب ينتهى من خطبته التقليدية تلك ويفكر فى النزول عن المنبر ، حتى أشار الأمير الى غلامه أن يسرع الى ذلك الخطيب الغبى فيلهب بالسوط جسده لانه تجاهل وجود ابن طولون وكاد ينكر جهده فى بناء المسجد !!

وحدث والخطيب يترك منبره ، أن تذكر مانسيه ، فارتج عليه وخشى على نفسه
مفة ماحدث فعاد وارتقى المنبر من جديد وقال :

— الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد .. « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى،
ولم نجد له عزما » !!

« اللهم واصلح الأمير أبا العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين .. اللهم
واصلحه .. »

وزاد في الشكر والدعاء ، مما استقرت له نفس أحمد الثائرة ورضى عنه ، ونسى
إساءة الرجل، وغفر له زلته ، فنادى الغلام الذى وكل اليه ضرب البلخى خمسمائة
سوط ، فأمره أن يستبدل عدد السياط بدنانير !!

ثم أم الناس للصلاة « بكار بن قتيبة » فلما قضيت الصلاة الجامعة الأولى ، أمر
له ابن طولون بجائزة تليق بمقامه ..

وتجمع الناس بعد ذلك في صحن المسجد لسماع أول حديث دينى يلقي فيه ..
وتقدم الربيع بن سليمان ليلقى الدرس الأول .. وجلس أحمد بن طولون في
مقصورته ، ووقف وراءه وحواليه غلمانهم ومماليكه .. وتكلم الربيع في الحديث
الشريف :

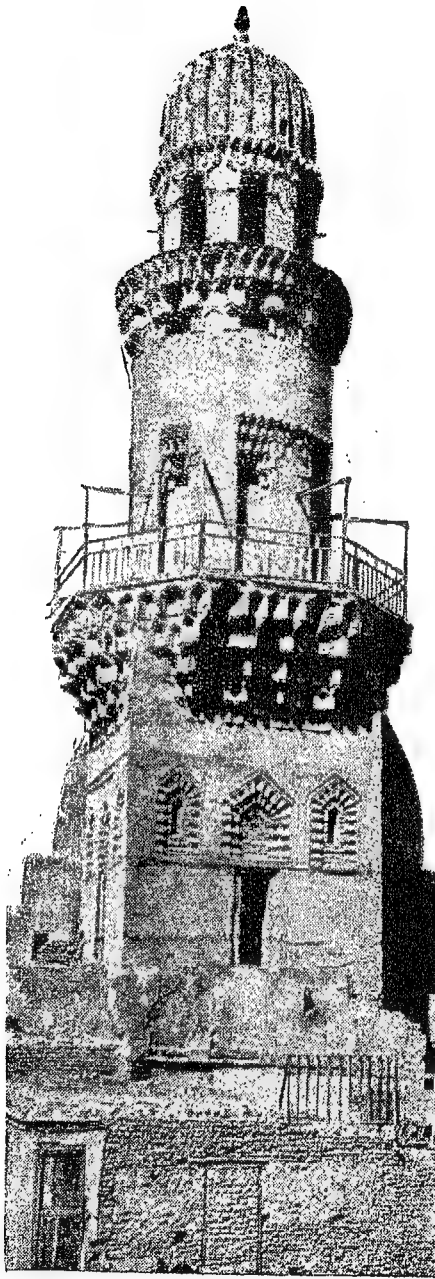
« من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة ، بنى الله له بيتا في الجنة » ..

وحدث الربيع واطنب ، وذكر بالخير عمارة أبى العباس ومسجده العظيم الذى
لا يشابهه مسجد على الإطلاق ، ورفع وأعلا من قدره وبشره بالمغفرة والرضوان
وبقصر سامق عظيم في جنات الله .. ثم دعى له بالعز والبقاء ولبنيه من بعده
بالمالك العريض ..

ولم يكد الربيع يفرغ من حديثه القيم الجامع ، حتى قام ابن طولون وأسرع من
باب المسجد القبلى الموصول الى قصره ، فدخله بعد أن أمر لصاحب الحديث بكيس
فيه ألف دينار من الذهب ، ومثلها لابنه طاهر .. وتصديق بعد ذلك على فقراء
المسلمين .. ثم أمر بأن يظل المسجد وصيدليته مفتوحين على الدوام ..

وخرج الناس من مسجد أميرهم أحمد بن طولون يتحدثون عن الفخامة والجلال
والكرم والبلذخ .. ويروون في ذلك أقاصيص ونوادر بلغ معظمها حد الخرافات ..
وبافتتاح مسجد أحمد بن طولون ، أصبح في مصر ثلاث مساجد جامعة ..
هى : عمرو بن العاص ، والعسكر ، وابن طولون ..

ولما كان الأمير قد ألقى إقامة الصلاة الجامعة في العسكر ، فقد أصبح هناك
مسجدان .. جامع عمرو ، وجامع ابن طولون ، الذى لم يقطع صلته بالمسجد العتيق
واعتاد أن يصلى فيه الجماعة كثيرا مع حاشيته ورجال أمارته ..



الفاطميون

لم يكن الادعاء بوجود كنز عشر عليه
أبو العباس أحمد بن طولون أثناء تجواله
في الصحراء ، غير أكذوبة سياسية ، أراد
بها أن يشغل الناس ويصرفهم عن التفكير
في أمر بدخه الطائل واسرافه لاتمام بناء
مسجده الذي كاد يستنزف مال الدولة
ويقوض اقتصادها !!

ولو كانت القصة حقيقية ، وكان لدى
ابن طولون فائض من أكداش الدنانير
اليوسيفية التي وجدها - كما ادعى -
لاستطاع أن يرسل بعضها الى دار الخلافة
ليسكت « الموفق » العباسي صاحب مصر،
وحاكمها الاصيل المولى عليها من قبل أخيه
الخليفة ..

ولكن العمائر والاصلاحات والبذخ
والعطايا التي وهبت لرجال العلم ولانشاء
جيش خاص ، استنزفت موارد الدولة
وخارجها الوفير ، حتى لقد عجزت عن أن
تسد مطالب رجلين في وقت واحد ..
أحدهما الأمير ابن طولون ، وثانيهما
« الموفق » . . الجشع الذي لم يكف عن
مطالبة نائبه أحمد بالمال الوفير ..

وهكذا تبدت الحقائق سافرة واثبتت
الشواهد غير ما أشاع ابن طولون ..

وكان ان قام الجفاء بين الرجلين .. ولم يلبث أن تطور تطورا خطيرا وصل الى
حد التهديد بالعزل وحشد الجيوش لطرد أحمد من مصر !!
لقد أقسم « الموفق » أن يطرد أبا العباس من مصر ويجره في الأغلال الى دار الخلافة

«مئذنة السلطان بيبرس الجاشنكري»

ليناقشه الحساب ، وينزل به أقصى عقوبة يمكن أن تنال نائباً تنكر لسيده وغصبه حقوقه كلها ، ولم يدفع له خراج البلدة التى يحكمها باسمه !!

وسخر أبو العباس علانية من تهديد « الموفق » .. وبقي حيث هو ينتظر مقدم الجيش العباسى المزعوم الذى سيخرجه من جنة الله فى أرضه ، ليبرهن للموفق ولأخيه أمير المؤمنين نفسه ، أنهما أعجز من أن يقدموا على تلك المغامرة - وأنهما لو ركبوا رأسيهما وأهدما عليها فإنه يعترف كيف يرد لهما الصاع صاعين بما لديه من رجال وعتاد ..

ولما طال انتظار ابن طولون للجيش القادم .. الذى حال عجز « الموفق » المالى دون خروجه ، أحب الأمير الجرىء أن يرهب الدولة نفسها ، ويخيف أعوان الخليفة ويستعرض قواته علانية . ليعرفوا أى رجل أصبح صاحبهم .. فكان أن خرج هو بجيشه اللجب المدرب الى الشام ، ليستولى عليها ويعين نفسه حاكماً لها بعد موت حاكمها «ماجور» ، مدعياً فى ذلك أن أمير المؤمنين المعتضد العباسى قد وعده بولايتها ..

ولم يكد ابن طولون يقترب من دمشق حتى خرجت على بكرة أبيها تستقبله مرحبة فاتحة أبوابها ، اذ سبقته إليها أنباء كرمه وشجاعته وحبّه للنجدة ومعرفته بأقدار الرجال .. فولى نفسه على الشام برغم دار الخلافة .. وبقي هناك قريباً منهم ، متحفظاً ينتظر أن يحاول جرىء من رجال أمير المؤمنين أن يقدم على مغامرة .. ولكنهم جميعاً وفى جملةهم « الموفق » الرهيب ، آثروا السلامة وتركوا الشام لأحمد بن طولون !!

وبقى أحمد فى الشام حتى سمع أن الشيطان قد غرر بولده العباس ، فخرج على طاعة أبيه وسلطانة ، واغتصب الحكم وقرر عزل أبيه العظيم - واذا ذلك غادر الأب الذى فجع فى أكبر أبنائه ، بلاد الشام بعد أن ترك حاميات فى « الرقة » و « حران » و « دمشق » ، لتعزيز سلطانه هناك .. وعاد مسرعاً الى مصر ، ليؤدب ابنه العاصى الذى فر الى « برقة » ، وظل بها قرابة عامين يناوئ والده العظيم الذى تمكن فى النهاية من اخماد ثورة ولده وقبض عليه وزج به فى السجن حتى مات !!

وكانت قوة جيش أحمد بن طولون مشجعة له على الاستمرار فى مزيد من الفتح ، ليوسع رقعة ملكه .. فتحصى الروم بعد أن تحدى الخلافة ، وخرج بجيشه ليلقاهم .. واستنطاق أن يضربهم فى « طرسوس » ضربة رهيبية ، قضت على قوتهم وسلطانهم ومكنته منهم ومن أموالهم الوفيرة وأعلنت صيته وجعلت اسمه مصدر رهبة للجميع .. وكان أحمد خلال هذه الانتصارات المتتالية قد أجهد نفسه ، اذ لم يعرف الراحة منذ قدم الى مصر ، ووهب نفسه وحياته وجهاده لخدمتها وتحريرها وإعلان استقلالها .. فغلبته العلة ، ودغمه مرض كان من القسوة بحيث لم يحتمله المحارب

الشجاع الذى لم يكن قد بلغ الخمسين من عمره .. فكان أن حمله رجاله على محفة من «طرسوس» التى سلمت واستسلمت ، الى « القطائع » مدينته وعاصمته ، عساه هناك يستطيع أن يلقى الراحة ويساعده الأطباء على أن يهزم العلة الرهيبة ..

واضطربت مصر لمرض أبى العباس .. وخرج الشعب بشتى طبقاته ومملته ونحله ، هذا يحمل قرآنه ، وهذا انجيله ، وذلك تورآته .. وكلهم يدعون الله أن يمن على أحمد بالشفاء ..

وصلى الجميع صلاة جامعة للتوسل والرجاء ..

ولكن الأجل كان قد حان .. وكانت الإرادة قد سبقت الرجاء .. فمات ابن طولون تاركا الأحدوثة الطيبة ، والذكر الحسن ، والملك العريض لوريثه « أبى الجيش خمارويه » الذى كان نعم « الشبل » فملأ مكان الأسد ، وعزز ذكرى أمجاد أبيه الحربية ، وقضى على مؤامرات رجال الخليفة وخرج اليهم فطاردهم حتى قرب « سر من رأى » ..

ثم ، واعتزافا منه بفضل أمير المؤمنين ومكانته ، أبى أن يتقدم وعاد ، فولاء الخليفة مصر والشام وشتى عواصم الأمصار الواقعة على الحدود الرومانية لمدة ثلاثين عاما ..

ولما أراد المعتضد العباسى أن يتزوج لم يجد بين الرجال من يعدله ويستحق شرف مصاهرته ، غير « أبى الجيش خمارويه » .. فبعث يخطب إبنته « قطر الندى » ويعين يوم زفافها ..

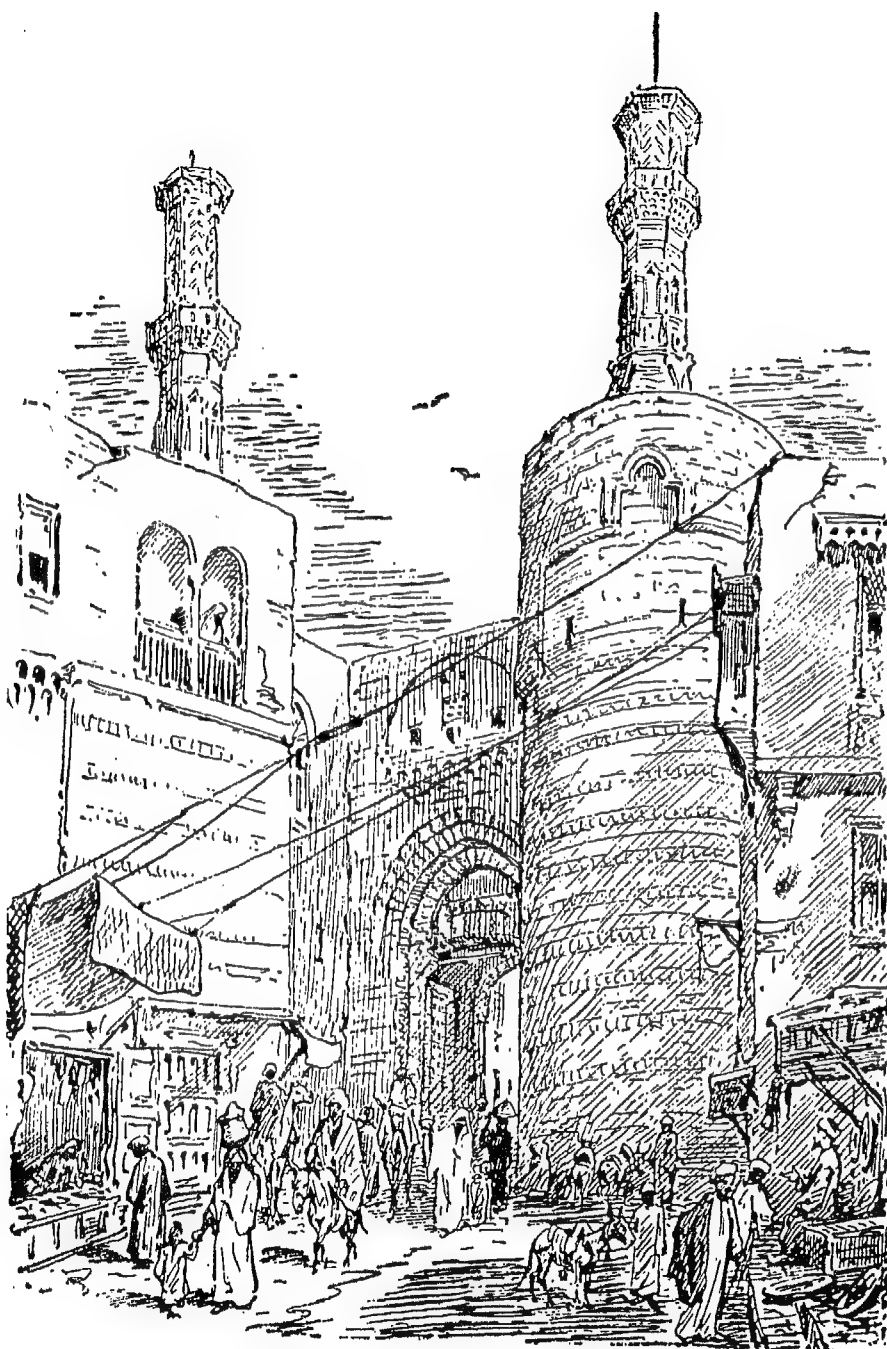
* * *

وسافرت « قطر الندى » الى دار الخلافة فى موكب خيالى .. وأقام لها أبوها عند كل مبيت ليلة ، قصرا مشابها لقصره فى كل شيء !! ونشر الذهب وتعالى فى نشره وحمل الخزائن ماكدت تنوء به .. وكانما حلاله أن يوصف بالبذخ والشراء ، فاستمر على سياسته هذه : يبنى وينشئ ، ويقيم العمارات ، ويخطط الحدائق ، ويكسو سوق الأشجار بأغطية من نحاس مذهب !!

ولم يقتصر اهتمام خمارويه على الانشاءات الخاصة ، بل بذل للمساجد بعض عنايته ..

ولم يكد يسمع بوقوع حريق فى مؤخرة جامع عمرو بن العاص أتى على مساحة عظيمة من بنائه - شملت معظم الزيادة التى أنشأها عبد الله بن طاهر - حتى أسرع يعمر ماتخرب ويعيد ماتهم من البناء المقدس الجليل ..

وكلف «خمارويه» أحد رجاله المسمى « أحمد بن محمد العجيفى » أن يشرف على العمارة الحديدية التى أراد اجراءها فى جامع عمرو ، وطالبه بأن يتم البناء فى أسرع وقت ممكن حتى لا تتعطل شعائر الصلاة الجامعة فيه .. فقام الرجل بالعمل



باب زويلة

أحد أبواب القاهرة بشارع تحت الربع أنشأه جوهر الصقلي عام ٤٨٤ هـ ١٠٩٩ م .

الموكل اليه على خير وجه ، حتى أعاد الحنايا الثلاث التي تهدمت من باب النحاسين الى رحبة الحارث — الى ماكانت عليه قبل الحريق ..

واكمل لجامع عمرو بذلك بهاؤه القديم .. وأعيدت اليه مراسيم العبادة وتم افتتاحه للصلاة من جديد ، وبلغ ماأنفق «خمارويه» السخي الكريم في هذه العمارة والاصلاحات ستة آلاف وأربعمائة دينار ، أتم بها انشاء «رواق» عظيم السعة ، نسب اليه وكتب عليه اسمه . وكان ذلك في السنة الخامسة والسبعين بعد المائتين من الهجرة ..

واستمر «خمارويه» على حاله من البذخ .. وأفرغ همه بعد ذلك في تنميق حدائقه وتزويدها بأعجب الازهار وأندرها .. وملأ «قصره الذهبي» بتمائيل صنعها لزوجاته وقيانه وجواريه وأقامها في أبهاء القصر وباحاته ..

وكان من جراء افراطه في اللهو ، أن أصيب بأرق مزمن .. فأنشأوا له بحيرة من الزئبق في حديقة القصر ، تحف بها أعمدة من الفضة ، شد اليها سريريه بخيوط من حرير ، ليستطيع النوم !!

ومات خمارويه مسموما بتحريض بعض جواريه وهو في طريقه الى دمشق .. وخلفه ابنه الأكبر « أبو العساكر جيش » ، وكان طفلا في الرابعة عشرة من عمره .. لاهيا ، عابثا ، منصرفا الى لذائذه .. فخلعه جنده بعد أشهر قلائل من ولايته !!

وأخذ أمراء بيت ابن طولون يتنافسون على الولاية .. وكانوا من الضعف بحيث لم يستطع أحد منهم أن يحتفظ بالعرش الذي شديده أحمد بن طولون بقائم سيفه ومضاء عزيمته ، فتحركت المؤامرات من دار الخلافة وهبت ريج الانتقام .. وأطمع ضعف الولاة الخليفة العباسي في مصر مرة ثانية ، وأراد أن يريح نفسه من بيت أحمد بن طولون الى الأبد .. فكان أن أرسل الى مصر جيشا عباسيا يقوده «أحمد ابن سليمان» ، هزم الطولونيين وبدد ملكهم الذي استمر قرابة الأربعين عاما كانت مصر خلالها شبه مستقلة عن الخلافة في كل شيء ..

ونكل القائد العباسي بأعدائه تنكيلا رهيبا — لم يصل الى حد ابادتهم بعد الهزيمة فحسب ، بل تعداه بأن أمر باحراق « القطائع » الحديثة البناء وهدمها بما حوت من قصور ودور ومبان .. ولم يسلم من شره جامع أحمد بن طولون !!

ومرت السنون .. وضربت الفوضى أطنابها في ربوع الوادي الذي أعاد اليه أحمد بن طولون شبابه ..

ثم شاءت ارادة أمير المؤمنين أن يرتد أسفل سافلين .. حتى المسجد الجامع الذي بناه أحمد العظيم ، وكان مصدر فخر وآية جلال . عدا عليه العدوان فتخرب !!

اجل .. لقد تخرب جامع أحمد بن طولون ، وفقد بهاءه ، وأصبح اطلالا دارسة

يثير مرآها الشجون ، ولما يكمل له من الوجود نصف قرن من الزمان !!
وبلغ المسجد الجامع الذي صرف أبو العباس في عمارته دنائير لا يحصرها عد ، حدا
من الهوان لم يلفه مسجد قبله ، اذ أصبح مناخا للابل ومأوى للمشردين !!

ثلاثون عاما مرت على ذلك الانحطاط الرهيب .. حتى تمكن في النهاية مغامر اسمه
«محمد الخالنجي» من جمع جيش دخل به مصر ، وأعاد الخطبة الى بيت « طولون »
وحكم مصر باسمهم ثمانية أشهر ..

وجاء الخليفة « الراضى » - ومصر نهب مشاع لأجناد الدولة ، ومثل رهيب من
أمثلة الفوضى والاضطراب : جيوش الفاطميين الطامعين تناوش حدودها ، وتصل
جموعها الى مقربة من الفيوم .. والخليفة العباسى وجنده أعجز من أن يطردوا هؤلاء
الفاطميين .. فلم يجد «الراضى» غير أن يولى على مصر حاكما جريئا هو «محمد بن طفج
الأخشيدي» من أبناء أسرة ملكية كانت تحكم فرغانة ذات يوم ..

وكان الأخشيدي جريئا شجاعا محاربا من الطراز الاول ، وان كان من عادته ايشار
السلم على الحروب ..

وبوصوله الى مصر استتب الأمن وعاد الهدوء ينشر ألويته على ربوعها ، ودخلت
في طور جديد وحكم جديد ..

لم يوجه الأخشيدي اهتمامه لشيء قدر اهتمامه بأن يعزز مركزه ويمد سلطانه على
الشام ويتفرد بحكم مصر ، على النسق الذى اتبعه أحمد بن طولون ، وقد فعل حتى
صارت مصر والشام في عهده شبه مستقلة عن الخلافة الضعيفة في كل شيء ..

ولما كان مسجد العسكر ومسجد ابن طولون قد تخربا وأهملأ ، فقد اتجه الناس
بكليتهم الى جامع عمرو ، الذى زاد رواده ، واتسعت دائرته .. وكثرت حلقات
العلم فيه وزادت زيادة ملحوظة ..

وكان المجلس الذى اعتاد التدريس فيه الامام الشافعى ، اشهر زوايا العلم في جامع
عمرو بن العاص .. وكانت لأتباع المذهب الشافعى حوالى خمسة عشر مجلسا ، ومثلها
لأتباع مذهب الامام مالك . ولم يكن لأصحاب أبى حنيفة وأتباع مذهبه أكثر من
ثلاثة مجالس ..

ولطالما حدثت معارك جدلية بين أتباع مالك والشافعى ، كانت تتطور في صحن المسجد
الى معارك دامية يستعر خلالها القتال بين الطائفتين !!

ولقد حدث ابان حكم الأخشيدي أن استفحل أمر هذا الخلاف المذهبى بين الطائفتين ،
فنشب بينهما قتال طال أمده ، ورأى الأخشيدي أن خير علاج لحسم هذا النزاع هو
اغلاق جامع عمرو بن العاص دون طلاب العلم - وخاصة أتباع الشافعى ومالك ،
فكان أن نزع حصرهم ومساندتهم وأغلق الجامع الا في أوقات الصلاة !!

وكانت هذه الزجرة من جانب الأخشيذ كافية لردع المتخاصمين من الطائفتين المالكية والشافعية .. فاستتب الأمر ، وشعر طلاب العلم والمعرفة بهول الهوة التى حفرتها حماقاتهم وتحزبهم ، فأرسلوا الى الأخشيذ من يسأله العفو ، والأمر بإعادة حلقات المدارس الى ما كانت عليه .. فاستجاب لهم بعد أن وعدوه باحترام بيت الله من اللغو والمشاحنات ..

وعاد الهدوء ينشر على جامع عمرو وظله الوارف، فكثرت فيه مجالس العلم والمدارس فى الفقه والشريعة وقواعد اللغة وعلم العروض .. ونبغ فيه علماء مجتهدون ، وتوافد عليه الناس من كل حذب وصوب للتبرك والصلاة وتحصيل العلم .. وإذا كان الولاة من بنى الأخشيذ فى ذلك الوقت قد أهملوا عمارة المساجد ، فان القضاة المعينين من قبل الخليفة العباسى ، أظهروا بحكم مراكزهم الدينية ، اهتماما بالغا بجامع عمرو بن العاص ..

وكان « أبو حفص عمر بن الحسن » الذى ولى القضاء سنة ست وثلاثين بعد الثلاثمائة من الهجرة - أكثر القضاة اهتماما به .. وكان من آثاره الباقية - بناؤه الحجرة التى كان يؤذن فيها المؤذنون فوق سطح المسجد ..

وكانت آخر زيادة ألحقت بجامع عمرو بعد ذلك ، هى الزيادة التى بداها « الخازن أبوبكر محمد بن عبد الله » الذى أقام فى المسجد ، سنة سبع وخمسين بعد الثلاثمائة - عمارة عظيمة ، كان الغرض منها انشاء رواق واحد متسع هو « الرواق ذو المحراب » و « الشباكان » ، المتصل برحبة « الحارث » ومساحته تسعة أذرع ..

ولم يهل الموت أبابكر ليرى الرواق الفخم الذى بدأ عمارته .. فمات قبل أن يتمه .. ولكن ولده « عليا » كان من البر بذكرى أبيه بحيث أخذ على عاتقه مهمة اتمام بناء ذلك الرواق .. وراح يعمل فيه بجد ونشاط حتى فرغ من بنائه فى رمضان من العام التالى لتاريخ بدء أبيه فى عمارته ..

وشغلت الاضطرابات السياسية والفتن الفكرية الناس وحكامهم عن العناية بأمر المساجد فى مصر ..

ومات الأخشيذ بعد أن أخذ البيعة بالولاية لابنه من قادة الجند وأشراف القوم وكبار أعيانهم ..

وتولى «أبو القاسم أنجور» مكان أبيه ، وظل يحكم مصر أكثر من خمسة عشر عاما .. ثم مات .. وجاء من بعده أخوه « أبو الحسن على » ، فحكم مصر أربع سنوات .. وكان كلا الحاكمين حدثا صغيرا فحكم تحت وصاية العبد الحبشى أبى المسك «كافور» .. ومات أبو الحسن .. وخلصت مصر من بعده لوصيه كافور ، الذى نسب نفسه الى الاخشيذ واعتلى العرش بموافقة الخليفة العباسى ..

ولما كان كافور عبدا رقيقا ، فقد كان مصابا بعقدة نفسية خطيرة هى الشعور بالنقص لوضاعة أصله !!

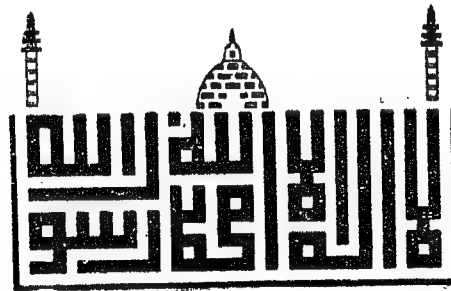
فصرف عنايته واهتمامه الى محاولة شراء الذمم وتجميع الناس حوله ، وخاصة الشعراء ليمدحوه ، ويحاولوا بأكاذيبهم واسرافهم فى الخيال أن يصوره فى الصورة التى كان يحب أن تكون له ! !

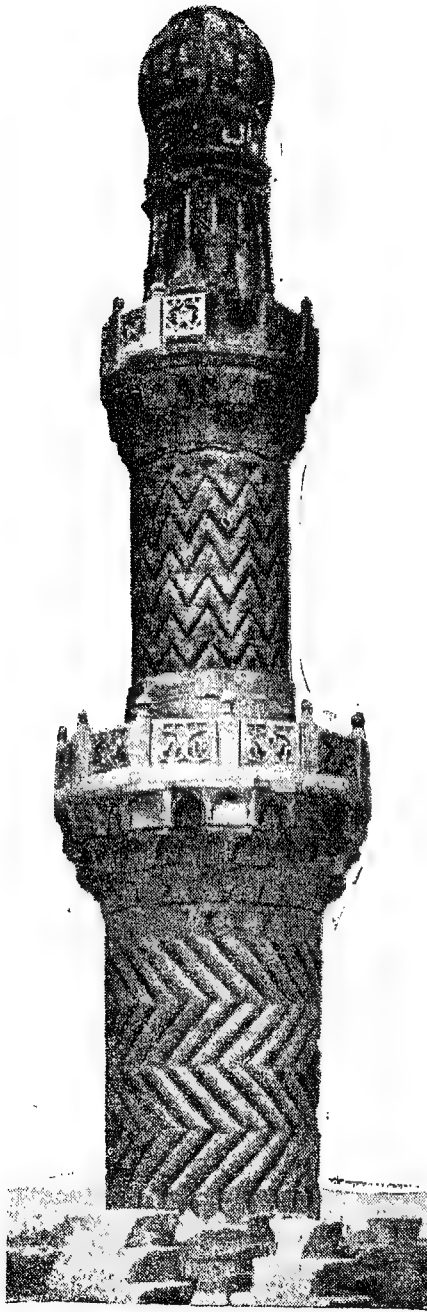
وهكذا انصرف «كافور» هو الآخر عن تعمير المساجد ، ولم يهتم بأمرها من تعمير أو إنشاء أو حبس أموال عليها ، اذ وجه جل اهتمامه الى اللهو والبذخ .. ثم السهر على حراسة الحدود المصرية من مظامع الفاطميين ، الذين كان جواسيسهم وعيونهم يعملون فى مصر ، يمهدون لغزو - آخر موعده وجود كافور على عرش البلاد .

وظل كافور الأخشىدى يحكم مصر شبه مستقل عن الخلافة قرابة اثنين وعشرين عاما ، يدير شئونها ويتصرف فيها وفى أموالها وخراجها تصرف المالك الذى لا يسأل عما يفعل ، حتى مات .. فاضطرب ميزان الأمور واختلت أحوال البلاد .. واجتمع رجال البلاط من تلقاء أنفسهم امعانا منهم فى الفوضى ، وعينوا من بنى الأخشىد حاكما لمصر دون الرجوع الى الخليفة العباسى ، كما انتخبوا له ولما للعهد ..

وسمع المعز لدين الله الفاطمى وهو فى عاصمته بما حدث .. وقيل له يوما : « ان الحجر الأسود » قد زال .. وقصد بالحجر الاسود « كافور » العبد !!

فكان أن امر الخليفة قائده جوهر الصقلى بأن يتحرك بالجيش لفتح مصر .. وارساء قواعد الخلافة الفاطمية فى ارضها الخصيبة وفتح أبوابها لحكم ودولة جديدين ..





قاهرة الدنيا

دخل جوهر الصقلي مصر باسم سيده
المعز لدين الله ، فاتحا ومبشرا بمذهب غريب
لم تسمع به البلاد من قبل ..

وتم لجوهر الفتح المنشود ، الذي كان
يحلم به الفاطميون - دون قتال ولا مقاومة ،
اذ مهدت الدعاية لمقدم الغزاة ، وجعلت
الشعب الذي برم بالفوضى وسوء الاحوال ،
يرجو على أيدي الفاتحين الجدد استقرارا
هو في حاجة اليه ..

وسر الشعب ، لأن الفاتح صاحب الجيش
اللبج ، لم يرهب الناس .. ولم يفرض
على الأهليين قوانين استثنائية ، ولم يقيد
لهم حرية أو يحد من رغبة .. بل أذاع
فيهم « مرسوم امان » ، أصبح المصريون
بمقتضاه آمنين على أموالهم وأنفسهم
ودياناتهم وكل مايملكون ..

ووضع «جوهري» أساس القاهرة العاصمة
الفاطمية ، واخذ في بنائها .. مما أشعر
الناس أن القادمين يرغبون في الاستقرار
والسلام ، فزادت طمأنينة الشعب
واستشعر أمنا فقد سنين طوالا .. وتطلع
الى مستقبل مرموق بدت في الافق طلائعه
اذ انتقلت مصر نفسها من طور الى طور
وتغيرت الأوضاع السياسية فيها ، وبعد
أن كانت ولاية تتبع الدولة العباسية
أصبحت دار خلافة شابة يرجى على
يديها الخير الكثير ..

« مئذنة السلطان الناصر محمد بالقلعة »

وفي الوقت الذي راح الشعب يتحدث فيه عن التطور الوضعي الذي تم ، سارع
جوهري الداهية فخرج الى الصلاة الجامعة في جامع عمرو بن العاص ، ليعلن عن طريق

«خطبة الجمعة» منهاج الدولة الجديدة وطرفا من سياستها العامة ، وماسوف تحدثه من تغير بعد أن قطعت الخطبة عن العباسيين ..

لم يكن الشعب في مصر حتى تلك اللحظة يعرف من هم « الفاطميون » .. كما لم يكن أحد بين الناس يتصور أن هؤلاء القوم الذين راسلوا « أشراف مصر » ولقبوهم بأبناء عمومتهم - لهم مذهب ديني فيه خروج على ما عرفه المصريون من تقاليد الاسلام ..

لهذا .. لم يكد الشعب الذي امتلأ به صحن جامع عمرو يرى « هبة الله بن أحمد » خطيب المسجد يخرج من جيبه طرسا مطويا ، وقد راح يقرأ منه نص الدعاء - حتى تولتهم الدهشة وراحوا ينصتون مستنكرين ماكانوا يسمعون .. وراح الرجل يقول : « اللهم صل على عبدك ووليك ثمرة النبوة ، وسليل العزة الهادية المهديّة عبد الله الإمام معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين ..

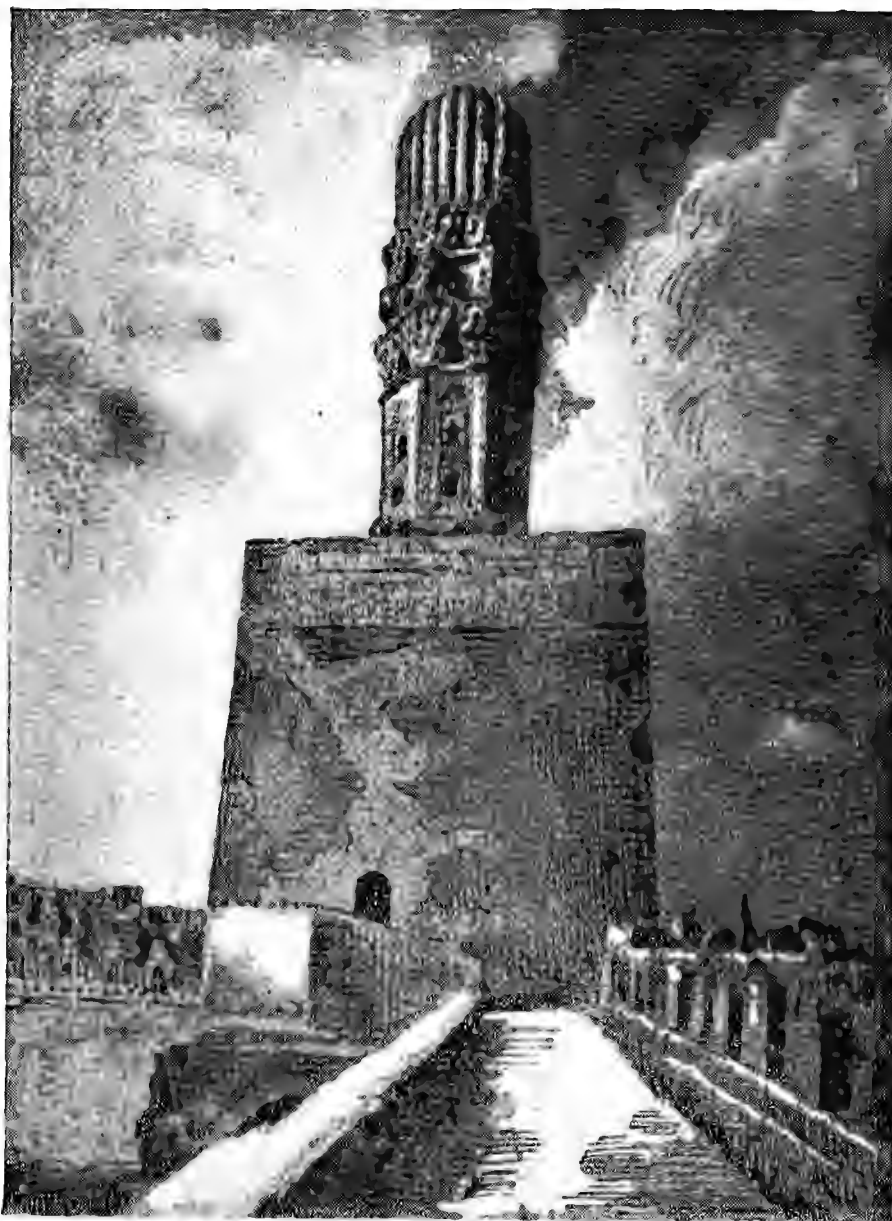
« اللهم ارفع درجته ، وأعل كلمته ، وأوضح حجته ، وأجمع الأمة على طاعته ، والقلوب على موالاته ومحبته ، واجعل الرشاد في موافقته ، وورثه مشارق الأرض ومغاربها ، واحمده مبادئ الأمور وعواقبها ، فانك تقول وقولك الحق » ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون .. »

وقبل أن يستفيق المصريون من دهشتهم ، سمعوا امرا آخر أكثر غرابة .. لقد أمر جوهر أن يمتنع المسلمون في يوم الجمعة عن قراءة « سبح اسم ربك الأعلى » !! وحرم التكبير بعد صلاتها .. وهدد بالويل من يلبسون السواد !!

وخرج الناس بعد اتمامهم صلاة الجمعة ذات الطقوس الغريبة ، يتساءلون عن الإباحة والتحرير .. وكلهم يود لو يعرف شيئا عن تلك الغوامض التي تبدت في الدعاء ، وكان أغربها الصلاة على « الإمام » معد أبي تميم وعلى « آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين » .. وأقبل بعضهم على بعض يتهايمسون ليعرفوا شيئا عن هذه « الامامة » المستحدثة .. ومن يكون أولئك الأئمة الراشدون !!

وطال بالمصريين التساؤل .. وتملكهم العجب .. ولم يجدوا المرشد الهادي الذي يجلو لهم هذه الغوامض التي أذهلتهم وحيرتهم .. واذا بهم ذات مرة وهم في صلاة الجمعة أيضا يفاجأون بدعاء آخر غريب ، راح الخطيب يردده من طرس مكتوب أيضا ويقول :

« اللهم صل على محمد النبي المصطفى .. وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا .. »



المنارة البحرية لجامع الحاكم

بدأ في بنائه الخليفة العزيز بالله الفاطمي سنة ٣٨٠ هـ ، ٩٩٠ م واتمه ابنه الحاكم بأمر الله ثالث الخلفاء الفاطميين بمصر سنة ٤٠٣ هـ ، ١٠١٣ م وسمى باسمه وهو ثاني الجوامع الفاطمية بالقاهرة بشارع المعز لدين الله

« اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين .. »

ووقف المصريون ثانية في دهشة وعجب أمام أولئك ((الأئمة)) الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين .. وتساءلوا : من يكونون ؟ من هم ؟ من أين لهم صفة الإمامة هذه ؟ !

ولم يطل بالقوم تساؤلهم اذ جاءهم الجواب .. ووافتهم المعرفة .. وانكشف الستر عن حقيقة الأئمة الهادين الذين يبدأون بعلي المرتضى ، الذي انتقلت امامته الى ولده الحسن المجتبى ، ومنه الى شقيقه الحسين الشهيد ، ومنه الى ولده على زين العابدين السجاد ومن بعده محمد الباقر ، ثم جعفر الصادق يتلوهُ موسى الكاظم ، ثم على الرضى ، ومحمد التقي ، وعلى النقى يتلوهُ الحسن العسكري الزكى .. وأخيرا «محمد المهدي» الذى اختفى !! والذى سيظهر فى آخر الزمان معلنا قيام الساعة فيملأ الارض عدلا ونورا!! . أولئك كانوا الأئمة الاثنى عشر ...

ولكن .. أين مكان آباء أمير المؤمنين منهم ؟!!

ان الفاطميين يقفون عند جعفر الصادق .. ويبدأون من عند ولده اسماعيل بن جعفر ، حتى يصلوا الى المهدي المنتظر ، الذى سيملا الدنيا عدلا .. وهو الرضا من آل محمد الذى دعا الدعوة له فى كل مكان أيام عز الدولة العباسية وسلطانها ..

فالمهدي المنتظر اذن ، هو جد الفاطميين المباشر الذى دعا له أبو عبيد الله الشيعى فى المغرب .. ومهد له الأرض ، وبذر بذور الدعوة لمقدمه .. فكان أن جازاه بالذبح !! أولئك كانوا هم الأئمة .. واليهم نسب المهدي نفسه رغم الشكوك التى حامت حول أصله اليهودى .. أو ملته الثنوية .. أو لب دعوته الباطنية المنسوبة زورا الى اسماعيل بن جعفر .. والتى يدعى انها تنكر أول ماتنكر صفات الله جل وعلا ، قائلة : انه فوق متناول العقل العاجز عن ادراك كنهه ، المقر بأنه لم يخلق العالم خلقا مباشرا ، وانما أبدع العقل الكلى بعمل من أعمال الارادة وهو « الأمر » فأصبح هذا «العقل الكلى» محلا لجميع الصفات الالهية .. بل هو الاله ممثلا فى مظاهره الخارجية !!

« وصارت للعقل تبعاً لهذه الصفات عدة أسماء منها « المحل » و « الحجاب » و « الصلة » و « النفس » و « الاول » ..

« وأن هذا العقل الذى أبدع النفس الكلية ، وخاصيتها الرئيسية هى الحياة ، وأن العلم خاصية العقل .. فاذا كان العقل غير كامل فى علمه فهو يحاول بلوغ الكمال .. وبهذا تحدث حركة مضادة لحركة الصدور ..

« وهناك بعد هذا ، كائنات واجبان ، هما المكان والزمان .. وأن اتحاد هذه الوجودات فى العقل تحدث عنه تحركات الأفلاك والطبائع ..

« أما ظهور الانسان فيعللونه بحاجة « النفس الكلية » الى بلوغ « العلم الكامل »

حتى تسمو الى مرتبة « العقل الكلى » .. فاذا ماوصلت الى تلك الدرجة تبطل كل حركة ..

« ولبلوغ السعادة فرض على الانسان أن يحصل العلم .. وأنه لا يستطيع تحصيل ذلك الا بحلول العقل فيه ..

« والعقل لا يحل الا في « نبي » ، وفي « الأئمة » الذى يخلفونه .. وهم الذين يطلقون على العقل « الحال » اسم « الناطق » الذى يكون « أساسه » النفس « الحالة » .. « والأول » هو « النبی » الذى يبلغ الكلام المنزل .. والثانى هو الذى يفسر هذا الكلام اعتمادا على التأويل ..

« وأركان الدعوة ثلاثة : « الامام » و « الحجة » و « الداعي » .. ويقولون بعد هذا كله : ان « عليا » هو « الأساس » ، وأن « محمدا » هو الناطق !! « ولهم بعد هذا في الامام تأويلات وصفات ومزايا ترفعه الى مصاف المنزه عن الأخطاء ، المعصوم من الخطايا .. الذى يفعل مايريد ولا يسأل عما يفعل !! وأن طاعته واجبة دون نقاش .. وأن روح الله التى انتقلت الى آدم ، حلت بعده في « على » !! ثم سكنت جسد هذا الامام !!

فهو والحالة هذه شبه رب معبود قادر ، يعيش بين الناس لهدايتهم والخروج بهم من الضلالات الى الهدى ، ومن الظلمات الى النور » !!

أولئك كانوا هم الأئمة .. وعلى هذه الصورة من التردى الفكرى ، كان مذهبهم « الرافضى » الباطل .. دعوة جريئة ظاهرها الغيرة لدين الله ، وباطنها الرغبة في تقويض أسسه وتاليه العبد !! وهى أمور نفر المصريون منها وكرهوها ، لأنهم طالما كانوا أهل دين وإيمان .. وكان من الصعب أن يتحولوا عن مذهبهم أو عقيدتهم الى هذا المذهب الجديد الخطير ، الذى يرفع بشرياقه يكون دونهم عقلا وإيمانا .. الى درجة الإمامة القريبة من الربوبية !!

وهكذا عرف المصريون عن أولئك القادمين من المغرب أشياء كثيرة أربنتهم في نواياهم ، وبعدت بهم عنهم وعن مجالسهم وسماع آرائهم .. وبالرغم من هذا البعد ، راح المصريون يرقبون أعمال جوهر القائد فى شىء من الإكبار والاعجاب ..

لقد شيد العاصمة الفاطمية وأسماءها « القاهرة » .. قاهرة الزمان .. وبنى فيها مسجدا فخما يتناسب وعظمتها وينطق بشراء أصحابها ..

ولما كان جوهر القائد رجل حرب وجلاد ، فقد كان من الطبيعى أن يقيم حول « القاهرة » سورا منيعا ، ويحفر فى جبتها الشرقية خندقا ليحمى القصرين الكبير

والصغير .. وأن يقيم بين القصرين ميدانا فسيحا يكون مكان عرض للجنود في الاعياد.

وتم بناء القاهرة .. وكمل مسجدها الجامع .. وقسمت العاصمة الى حارات متعددة ، حملت أسماء من سكنوها من وحدات الجيش الفاطمي ، مثل « الروم » و « زويلة » و « البرقية » وغيرها .. ودبت الحياة في العاصمة العظيمة .. وغصت أول ماغصت بالفرياء الذين جاء بهم جوهر .. وكانوا من الكثرة بحيث لا يحصرهم عد على الإطلاق !! ..

وأرسل القائد الى سيده وامامه ومولاه المعز لدين الله ، يطلب منه - بعد أن بشره قبلا بالفتح والاستقرار - القدوم الى عاصمته الجديدة ، التي أصبحت بما حوت ، أليق مكان لنزوله ، وأخصب تربة لنشر دعوته ..

وحضر المعز الى « القاهرة » .. فاهرة الدنيا .. فلم يرقه موقعها على الإطلاق !! ولا م جوهرها على سوء اختياره لها ، اذ كان يريد لها قرية من شاطئ النيل .. ولكنه دخلها دخول الظافر .. وأسرع الى قصره الكبير ليستقبل وجوه البلاد وأشرفها .. وليتسلم من قائده جوهر مقاليد السلطة التي ظل يمارسها أربعة أعوام كاملة ..

وكان حضور المعز الى عاصمته معناه انتقال السلطة الزمنية اليها .. وهو أمر لم يكن يعنى الرجل في شيء قدر ما يعنيه القيام بمظاهرة سلمية ، تكون دليلا لانتقال السلطة الروحية الى القاهرة ..

وأعد المسؤولون في الدولة الجديدة حفلا لافتتاح المسجد الجامع ، يؤم فيه المعز الناس في صلاة جامعة ، ويدعوهم الى وليمه فاخرة ، يكون انتهاءها اعلان بداية لانتقال السلطة الروحية والدينية الى القاهرة .. واستقرارها في جامع القاهرة بالذات باعتباره مسجد الدولة الرسمي ، ومقر صلاة الجماعة فيها ..

كانت أيام شهر رمضان تتناقص .. وكان عيد الفطر يقترب ، فرؤي أن يكون مقدم العيد موعدا لافتتاح المسجد الجامع ، وأن تكون صلاة العيد الجامعة ، أول صلاة « جماعة » تقام فيه ، وأن يكون الامام المعز أمير المؤمنين امام « الجماعة » في هذه الصلاة ..

ونودى بذلك في القاهرة .. وعرف الناس أن صلاة العيد ستكون بمثابة استقبال رسمي للامام الجديد ، فأسرعوا الى هناك ، ليروه ويسمعوه ، ويشاهدوا أمجاده وصفاته ..

وضاقت القاهرة على سعتها بالناس .. واحتشد الخلق في المسجد بكثرة هائلة .. ووصل موكب أمير المؤمنين .. فكان في هذا اعلان لبداية سلطان « جامع القاهرة » وتفرد بالزعامة على المساجد كلها في مصر ، بل في العالم الاسلامي الذي كان يستظل بالراية الفاطمية في ذلك الوقت ..

وصلى المعز لدين الله بالناس اماما في ذلك اليوم .. وكانت صلاته طويلة ، فقرأ في الركعة الاولى أم الكتاب «الفاتحة» ثم «الغاشية» ثم كبر بعد القراءة وركع فأطال. وسجد فأطال ..

وفي الثانية « بالفاتحة » و « الضحى » وكان يطيل الركوع والسجود والجلوس .. وكان يبلغ عنه التكبير « النعمان بن محمد القاضي » الذي جاء معه من المغرب .. ولما تمت الصلاة ، صعد المعز الى المنبر - ومعه جوهر القائد ، وعمار بن جعفر ، وشفيق حامل المظلة .. وسلم الامام على الحضور يمينا ويسارا ونشر الرايتين على جانبي المنبر ، وابتدأ مستفتحا وراءهما خطبته الاولى بسم الله الرحمن الرحيم .. ثم كبر مرتين وراح بعدهما يتكلم ..

وكان بليغا في عباراته ، خاشعا في نطقها ، فائز في الناس وأبكاهم ..

وعاد الامام بعد الخطبة الى قصره تاركا للناس حرية الكلام عنه .. والواقع أنهم لم يجدوا مايقولون عن المعز الخطيب المفوه والمتحدث البليغ ، الذي لم يكد يصعد درجات المنبر حتى استطاع في سر ودون غناء أن يملك زمام القلوب، ويهر بللاغته الأبواب ، كما بهرهم في صلاته وخشوعه !!

وتحفظ الناس في حديثهم عن الامام الذي لم يأتهم بجديد .. وكان من الحكمة وبعد النظر بحيث لم يفاجئ العامة بتطور مذهبي أو دعوة الى اتباع سنة جديدة .. ذلك لانه رأى بثاقب بصره أن يعد « الدعاة » للعمل في الارض الخصيبة ، راجيا أن يتمكنوا من اقناع المصريين باتباع مذهب «الامامية» ويستبدلون به مذاهبهم «السنية» التي علمهم اياها ائمة عظام وأعلام أجلاء ، يتبعون مذاهب ، مالك وأبى حنيفة ، والشافعي ..

كان المصريون أهل علم .. وكانت لهم ثقافة دينية معروفة .. وكانت عقلياتهم من الاستنارة بحيث لا تتقبل الدعوة «الامامية» ، وتنكرها بشدة .. لهذا كان على المعز أن يعد « جيشا » من دعائه ورجاله ، ليمهد للفتح المذهبي الذي يرجوه .. لم يكن هذا الامر سهلا فقد كان واجبه الأول هو الاعداد .. وحشد القوى ، استعدادا للزو الفكرى الجديد ..

لقد كان تغيير « الأذان » وطريقته .. والتعديلات التي أدخلها جوهر قبلا ، لا شيء بالنسبة لما كان يعده الخليفة .. لهذا - وخشية احداث هزة فكرية ، أو ثورة دينية - ترك الناس على ما هم عليه ليفاجئهم بعد ذلك بما كان يريد ..

كان المعز يعرف أن ماتقبله الناس في الشمال الافريقى ، لايمكن أن يرضاه المصريون لاختلاف الثقافات والمعرفة ولتباين درجات العلم .. ففتح أبواب جامع القاهرة أول مافتح لرجاله ، ليجعلوا منه مكانا لدراسة الدعوة الفاضلة ، وجالا لدراسة مذهبهم

الخطر ، حتى يعظم شأنه وينتشر شيئا فشيئا بين شتى طبقات الشعب في مصر . .

* * *

وهكذا ثبتت لجامع القاهرة من أول أمره صفته التي أرادها له بانيه بأمر سيده . .
وقدر له بعد افتتاحه مباشرة أن يلبس مسوح الداعية ، وأن يكون مجال نقاش
مذهبي ودعوة خاصة ، لا مسجدا جامعا يأتيه الناس للصلاة دون تعرض لمذهب ،
أو جدال في رأي . .

وأوحى الامام المعز الى قاضيه النعمان بن محمد القيرواني المعروف « بابن جبون » ،
أن يعقد حلقات للدرس في صحن الازهر ، يدعو اليها الخاصة ليسمعه وهو يحدثهم
عن أسرار مذهبهم ويعرفهم به على نمط جديد . . ليعتقوه عن اقتناع وإيمان . .
ولم يقتصر منصب الأستاذية في المسجد الجامع على القاضي النعمان فقط ، اذ كان
هناك ولده الحسن . . والحسن يومها قطب من أقطاب المذهب ومن أشد غلاته
والمستسكين به ، فكان أن تصدر هو الآخر إحدى الحلقات . . وراح يقرأ لمريديه
من أهل المغرب ومواليهم كتاب « الاختصار » ، الذي وضعه أبوه في الفقه الشيعي ،
وأورد فيه أسرار المذهب الفاطمي ومراميه وأغراضه ، وما تهدف اليه هذه
المرامي والأغراض . .

وهكذا ، ولثلاثة أعوام تلت مقدم المعز الى القاهرة ، أصبح مسجدها الجامع
مدرسة خاصة للفقه الفاطمي . . لأولئك القادمين من المغرب مع امامهم ، الطالبين
مزيدا من المعرفة . . الراغبين في الاستزادة من بحور العلم . . ثم التطوع بعد ذلك
للتبليغ والإرشاد . .

ولم يكن غريبا أمام هذا السياج المذهبي الذي فرض على المسجد ، أن يتباعد
المصريون عنه تباعدا ملحوظا ، سيما وقد خاض القوم بالاقوال في أصل المعز ونسبه . .
حتى لقد تبدت صورته الحقيقية للناس في هيئة من يريد بالاسلام شرا مستطيرا !!
لقد عرفه المصريون عن طريق دعائه الاوائل ، وأعدائه الحاليين الذين عرفوا باسم
« القرامطة » ، والذين وجدوا منه تنكرا للدعوة التي بثها آباؤه وأئمة
الدعوة ، فجاءوا الى مصر بجيوشهم ليناقشوه الحساب ويثبتوا كفرانه وتنكره
وخروجه عن المذهب الرافضي الخطير . .

وثبت المعز للحملات المزدوجة ، داخلية وخارجية . . ونثر ذهبه ليسكت القالين،
وسل سيفه من غمده ، ليرهب الخارجين . . واستمر في دعوته وجهاده على طريقته . .
وخرج المعز للقرامطة ، فهزمهم جدليا وهزمهم حربيا . . ثم أجلاهم عن ثغور
مصر ، وطردهم بعيدا . . ولكن بعد أن أحدثوا له حدثا رهيبا ، وبعد أن جعلوا
حقيقة الفاطميين تتكشف للناس . .

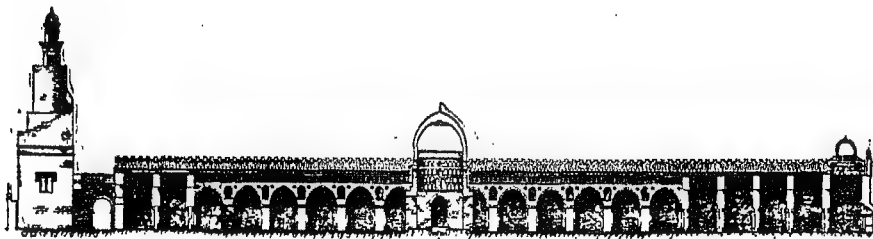
لقد عز على الامام أن يسكت عن ابلاغ الدعوة ، وكبر في عينيه ألا تنتشر في مصر

منذ اليوم الاول .. ولكنه امام اصرار الشعب على البعد عنه ، واجتناب دعوته ، سكت على مضض ، وراح يتلمس الوسيلة ، ويروج للدعوة في الخفاء ..

واستمر المسجد الجامع في أداء رسالته الدينية ، وتكاثر الدعاة في حلقاته ، وتزايد المريئون .. ولم يكن بينهم مصرى واحد ، بل كان « الطلاب » من جيش المعز نفسه ، وقد أحبوا أن يزدادوا معرفة بالامامية .. فيتعاضد ايمانهم بالأئمة الطاهرين، ويكونوا بعد ذلك عوناً والسنة ناطقة بايجاد الامام الحالى المعز لدين الله ..

وحصر المعز كل اهتمامه بالدين والدعوة في مسجده الكبير .. ولم يظهر من ناحيته اى اهتمام بغيره من المساجد .. واكتفى بأن يظل مسجده هو المسجد الرسمى للدولة .. حتى الجامع العتيق في الفسطاط ، لم يفكر في زيارته أو الصلاة فيه ، لأن سياسته كانت سياسة التعالى والتفرد والبعد عن الناس ، اكتساباً للقداسة التى كان يتطلبها مركزه الدينى للدعوة ، باعتباره « اماما » قبل أن يكون اميراً للمؤمنين .. وللإمام فى صلب الدعوة اعتباره الدينى ومكانته العالية ، التى تقتارب ودرجة الألوهية فى نظر الفاطميين !!

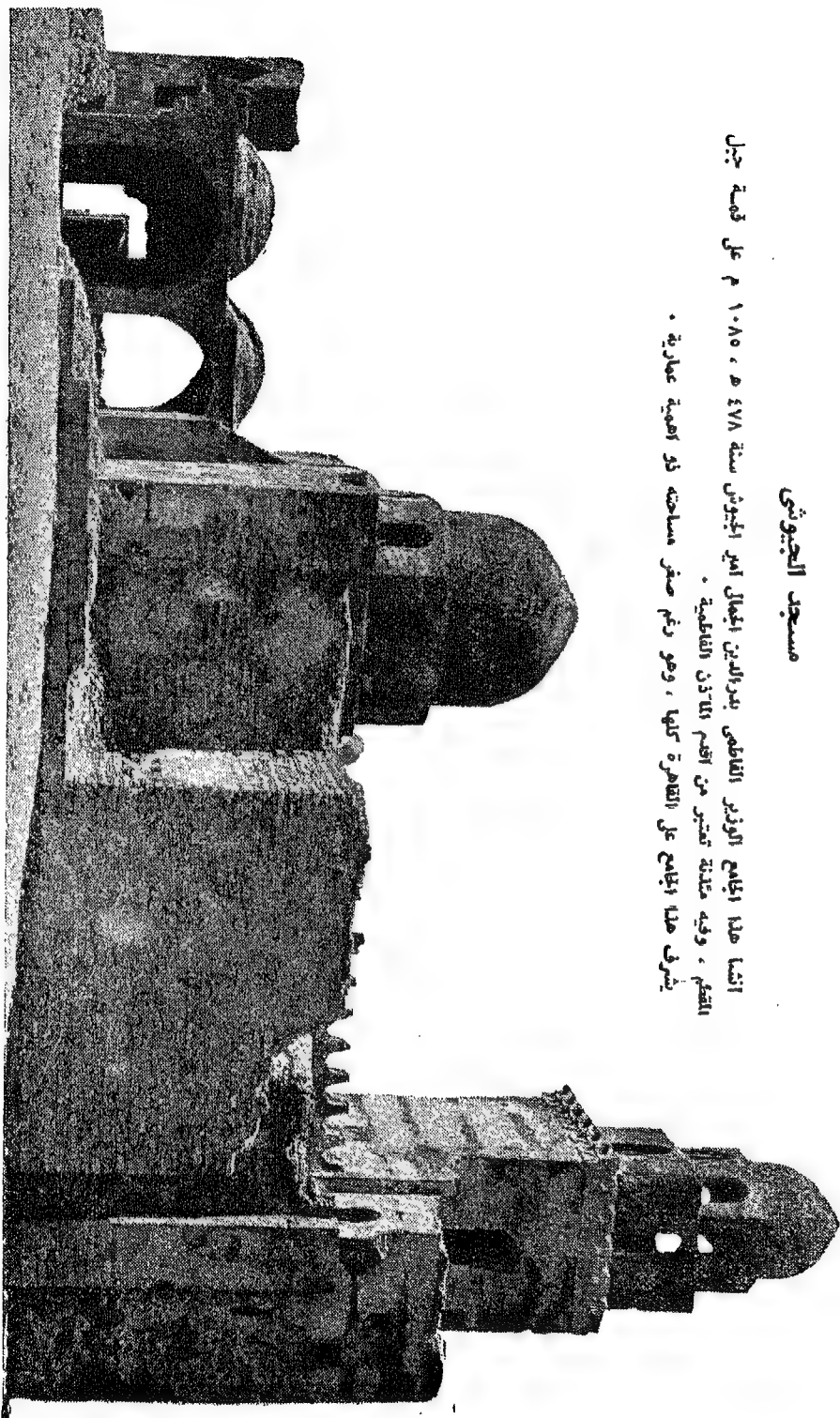
وعلى هذا النحو .. واعتماداً على التخصيص الذى أرادته المعز لمسجد القاهرة الجامع - أصبح هذا الأخير بالنسبة للمصريين ، وبالنسبة لجامع عمرو نفسه هو « مسجد ضرار » !! وكانت هذه الإشارة وحدها كافية لصرف الناس عنه الى الفسطاط .. الى الجامع العتيق ..



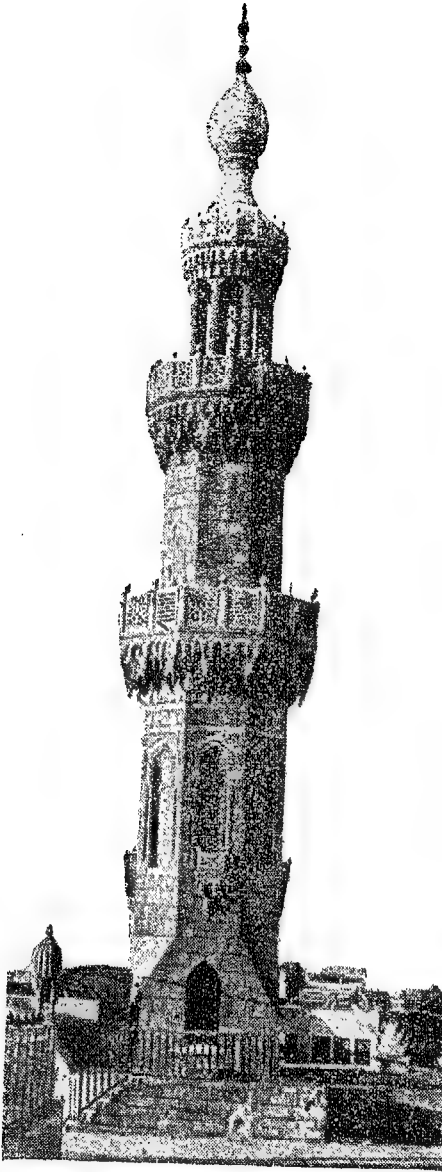
قطاع رأسى بالريشة لجامع أحمد بن طولون

مسجد الجيوشي

انشا هذا الجامع الوزير الماظمي بوزالدين الجمال أمير الجيوش سنة ٤٧٨ هـ ، ١٠٨٥ م على قصة جبل
القطم ، وفيه مئذنة تعتبر من اقدم المآذن الماظمية .
يشرف هذا الجامع على القاهرة كلها ، وهو رغم مساحته ذو أهمية عمارة .



الأزهر



« مئذنة الطنبغا المارداني »

عندما هرب اليهودى الحاقد يعقوب بن
كلس من مصر ، حتى لا يظفر به أعداؤه
فى بلاط كافور الاخشيدي ، ووصل الى
المغرب مركز الدعوة الفاطمية ، ليحرض المعز
على غزو البلاد التى آوته وأعلت من قدره ،
لم يكن يبغى الا أن يتم الفتح الفاطمى ليعود
ثانية الى مصر وقد نال من ساداته الجدد
ثمن خيانتته ، فيصبح من المقدمين فى الدولة
الجديدة ..

ودخل المعز مصر فاتحاً .. ووطد فيها
دعائم خلافتته ، وفشل فى تثبيت امامته ..
وبقى يعقوب حيث هو .. مقرباً عزيزاً
ولكن بلا عمل ..

ومات المعز .. وجاء ابنه العزيز من بعده
اماماً للدعوة ، وخليفة على البلاد .. وجاء
معه فى مكان الصدارة والقيادة يعقوب بن
كلس فظفر ببغيته ونال أبعد مما كان يريد
لقد وجد اليهودى الطامع فى الدعوة
الامامية بقيته .. وكان نطقه بالشهادتين
يوم أشهر اسلامه ، معبراً الى التمكن
والسيادة ، ووسيلة انتهازية للتقدم فى
صفوف الدعوة .. حتى لقد تمكن ، وهو

حديث العهد بالدين والدعوة ، من وضع مصنفات فى فقه الشيعة ، وشتى أهدافها
السرية التى لا يصل الى معرفتها والعلام بها غير أصحاب الخطوة من المقدمين القريبين
من الامام !!

لقد حالت بعض الظروف المذهبية الخاصة دون يعقوب والظهور فى حلبة الحكم أيام
المعز .. وبرغم هذا لم يتبرم ولم يحاول أن يرفع رأسه ، بل تصاغر وتراجع واعتزل ،

واعتبر تلك الفترة فترة استجمام ورغبة في الاستفادة الكلية من ذلك الاعتزاز بأن
راح ينقب ويبحث ويدرس ..

واستطاع يعقوب في عزلته تلك أن يدرس اتجاهات الحكم الفاطمي الجديد وأسس ،
ويعرف مرامي خطته الهادفة الى تعميم المذهب ونشر الدعوة .. ليضع على ضوئها
خطا وبرامج يقوم هو على تنفيذها اذا ماواتته الفرصة ذات يوم وأصبح من أهل
الحل والربط في البلاد ..

فلما دانت الفرصة للرجل .. ووصل الى بغيته ، وتحققت أمانيه ، وتقدم الرجال
في زمن العزيز بالله ، راح يستلهم تجارب الماضي في تعبئة المستقبل .. ورجع الى
خطته القديمة التي لم تخرج في مجموعها عن ضرورة تعزيز أداة الحكم ودعم الصلة بين
الامام وشعبه الجديد ..

انه يريد ان يفرق بين شخصيتين .. أولهما تولت ، والثانية أمامها المستقبل ،
هي شخصية العزيز ، عليه أن يقدمها للشعب في صورة جديدة ومحبوبة ..
لقد كان المعز لدين الله رجل طقوس دينية غريبة ، والغاز وغموض واطلاق شائعات
عن الربوبية والقدرة والصعود الى السماء والحياة بين السحب !!

وهي أمور ان كان أهل المغرب قد آمنوا بها وارتضوها وسجدوا لصاحبها القادر
المقتدر .. فانها أحدثت بين عامة شعب مصر تأثيرا عكسيا ، جعل الناس ينصرفون عن
الخليفة الاله ويجنون في الابتعاد عن مجالسه مغنما وحفاظا لأصول الدين ..

هذه الشخصية القائمة المخيفة ، أحب يعقوب أن يجلوها للشعب ، وأن يصل بينها
وبينه بروابط من البساطة تحفظ على الامام هيئته المذهبية ، ومكانته الدينية الخطيرة ..
وفي نفس الوقت تقربه الى قلوب الشعب ..

وبدأ أبو الفرج يعقوب بن كلث خطته ، بأن فكر في تغيير بعض الشكليات حتى
يشعر الشعب بأن ثمة تغييرا شاملا في طريقه الى الظهور ، وهذه طلائعه فعلا ..
ورأى الرجل أن يغير أول ما يغير اسم مسجد القاهرة ، لان تخصيصه للعاصمة
وحدها واطلاق اسمها عليه يجعله محدود الرسالة ..

وأحب يعقوب أن يطلق على المسجد الجامع اسما محببا الى العامة والخاصة على السواء ..
وكان أن اختار له اسم « الجامع الأزهر » !!

وقصد ابن كلث من هذه التسمية أن يصيب هدفين ويرضى طائفتين ، « فالأزهر »
في عرف العامة وشتى طبقات الشعب منسوب الى الزهراء البتول ، بنت رسول الله
صلى الله عليه وسلم « فاطمة » الأثيرة المحبوبة ، زوج الامام الأكبر على المرتضى ، وأم

الامامين : الحسن المجتبى ، والحسين الشهيد ، وجدة الامام على زين العابدين السجاد ، ثم جدة الائمة الطاهرين آباء العزيز وأجداده !!

و « الأزهر » في عرف الخاصة وعلى رأسهم الامام العزيز بالله ، منسوب الى « القصور الزاهرة » التى كان يسكنها الامام ، ويحيا في مغانيها حياة الترف والبذخ . وان في انتساب المسجد اليها ما يصل بينه والقصور من ناحية السياسة والمذهب ، وما يؤكد لسكان هذه القصور وصاحبها أنه هو المتحكم في سياسة المسجد التقليدية الخطيرة التى سوف تستررها مخادعات وادعاءات ذات لون جديد

ولم يكذب يعقوب يسر برغبته هذه الى سيده ، شارحا له سياسته وأهدافه من التغيير البسيط . . حتى أقره العزيز عليها وباركها . . وهكذا أصبح اسم مسجد القاهرة الجامع الذى بناه جوهر القائد هو « الجامع الأزهر » . . .

وكما لقيت هذه التسمية الجديدة هوى في نفوس الخاصة ، كذلك كان وقعها طيبا في نفوس عامة الشعب ، اذ أثارت كوامن الذكريات وهيجت حب الناس وتحنانهم الى أهل البيت ، وخاصة فاطمة الزهراء - أحب خلق الله الى رسول الله . .

وبقيت بعد هذه الخطوة التمهيدية الأولى ، الخطوة العملية الثانية ، وهى فتح باب الأزهر نفسه للجميع على السواء دون تمييز عنصري أو طبقي . .

لقد رأى أبو الفرج يعقوب أن الخطوة التى اتبعها المعز لدين الله بجعل مسجده الجامع مدرسة خاصة بفئة معينة من أهل المغرب الذين جاءوا معه ليدرسوا أسرار المذهب الفاطمى ، خطوة قد استنفذت أغراضها وأصبحت مع مطلع العهد الجديد وولاية الخليفة الجديد ، غير ذات موضوع . ذلك لان الخاصة قد تعلموا « وتفقهوا » . ثم ولما لم تكن قد أعدت لهم ميادين نشاط ومجال عمل مثمر ومفيد ، فقد تعطلوا وتكاثر جموعهم . وكان من المؤسف أن تقف جهودهم عند حدود الانتظار . .

لقد كان من واجب الامام ومستشاريه اذن ، أن يجد عملا لهؤلاء الدعاة . . ولكن الحذر كان يتحكم في مفكرى البوالة الجديدة ، وكان ينقصهم جريء يرتب الأمر ويعد العدة للهجوم الفكرى المنتظر في صورة منظمة لا تثير ريبة ولا شكا ولا امتعاضا ، ولا تبعد الناس عن الفاطميين كما حدث وأبعدتهم من قبل . .

ووضع أبو الفرج خطته ، وأعد العدة للكثائب كى تتحرك وتنفذ في شتى الطبقات . . فبدأ بإزالة الفوارق التى أسدلها المعز . . ورفع عن الأزهر حجاب التخصص الذى أقامه ، ليشعر الناس جميعا أن المسجد لهم دون تمييز . .

وفتحت الأبواب . . وأعدت مجالس العلم للجميع . . وكان في إباحتها هذه تشجيع لكثيرين من مثقفى الشعب كى يرتادوها فى يسر وينهلوا من مواردها فى سراحة . . واتسعت الحلقات . . وكثر الرواد . . ووفدت على الجامع الأزهر وفود من شتى الطبقات

والاجناس لتتشف وتتعلم .. فوجد الدعاة عملا .. ووجدت الشريعة الفاطمية طريقا ممهدا لظهورها وانتشارها بين الجميع ..

ورأى الداهية الحصيف بعد ذلك أن هذه الحلقات يجب أن ترتبط بسياسة توجيهية ثابتة ، ونظم مدعمة تربط المدرسين والعلماء بنظام خاص ، فكان أن قرر لهم رواتب ثابتة وحقوقا معلومة ، تضمن حضورهم ومداومة مدارسهم وتشقيفهم للناس ، وتكفيهم مؤونة البحث عن الرزق في مكان آخر ..

وانتشرت في طول البلاد وعرضها ، بل في كثير من الاقطار المجاورة المستنظمة بالراية الفاطمية ، شائعة تقول أنه قد أفردت بالجامع الازهر دراسات تشقيفية لاعداد طائفة من الدعاة المتنورين وأصحاب الرأي والمكانة العلمية .. وان الدولة قد كفلت لهم الارزاق أثناء الدراسة ، وبعدها ..

وكان مجرد اجراء الرواتب على الدعاة والمتحدثين من العلماء كافيا وحده لان يخلق طبقة من الراغبين في أن يكون لهم مثل هذا الحق .. ومن هنا كثرت طائفة الطلاب الذين يمموا وجوههم شطر الازهر للدراسة والبحث ..

وأصبح من الضروري أمام هذا الاقبال المنقطع النظير على الازهر ، أن يفكر المسئولون في انشاء « أروقة » متعددة بصحنه الفسيح ، تكون بمثابة منازل لجموع هؤلاء الطلاب الوافدين عليه من كل البقاع - فريبها والبعيد - وأن تخصص لكل فئة منهم أروقة وايوانات خاصة بهم ، فلا يحسون اغترابا ولا لوعة ، ويشعرون بأنهم يعيشون في قطعة حية من بلادهم التي تركوها في سبيل العلم ..

لقد أراد رعوس الفاطميين أن يكون الجامع الازهر مقر دعوتهم المذهبية. وعلى هذا الأساس وضع يعقوب بن كلس خطته مع المسئولين .. ولكن الازهر أصبح شبه جامعة غصت بالطلاب .. الذين كان الواجب - تمشيا مع الخطة التي رسمها يعقوب - يقضى بحسن اختيارهم أولا لدراسة المذهب السرى ..

ومن هنا سنت القوانين ، ورتبت المجالس .. وروعى فيها اختيار طبقات الطلاب ومدى استعدادهم للفهم وتقبل المذهب الجديد ..

ولكن المصريين أقبلوا على الدراسة العامة .. وانصرفوا عن البحث في الدراسات الخاصة المذهبية التي توفر عليها الطلاب من البلاد البعيدة ، كالمغرب وفارس وغيرها ..

وهكذا تحولت الانظار الى القاهرة المعزية .. وأصبح جامعها الازهر العظيم قبلة العلماء وطلاب المعرفة من شتى البقاع الاسلامية ، فكثرت الحلقات في صحنه وأروقته ، وعظم خطرهما .. وبدأت تعد العقول والافهام لنور خيط من أدوار الرقى العقلى فى عصر زاهر من أرقى وأزهى عصور الاسلام ..

ولما كان العزيز بالله سخيا بطبعه كريما بفطرته ، فقد وجه الى طلاب العلم وأساتذتهم

جل اهتمامه ، فكان اذا حل «الأضحى» مثلاً بعث اليهم «الأضاحى» ، ليحسوا بفرحة العيد وجميل الرعاية الخليفية ، التى كانت تتعداهم – بعد أن ينالوا كفايتهم – الى الغير من فقراء الشعب ..

ورأى العزيز بالله أن سياسة «فتح الأبواب» هى خير ما يجذب الناس اليه والى خلافته .. ولما كانت سياسة فتح أبواب الجامع الأزهر قد آتت أكلها وأثمرت ، فقد رأى أن يفتح مزيداً من الأبواب التى تقرب بين وجهات النظر ، وتجمع الناس كلهم على شىء واحد ، وتشعرهم بالحب والمساواة وزوال نظام الطبقات .. فكان أن أوحى لكبار رجاله بأن يفتحوا للشعب أبوابهم .. وأن يقووا صلاتهم بالأفراد ..

وكان يعقوب بن كلس وراء هذه الحركة الأخيرة .. وكان هو أول من فتح أبواب بيته للناس ومد لهم موائده العامة .. ثم ساقهم عن رغبة وحب الى «المنابر الفقهية» و «المجادلات المذهبية» .. وقرأ عليهم آخر ما كتب فى فقه الشيعة وأصول الدعوة ! وعلى هذه الصورة من صور التطور فى أساليب الحكم والفكر ، أصبحت القاهرة دار دعاية فاطمية مركزها الجامع الأزهر ، ودعاتها أسانذته وعلمائه ، و «الأغراب» من طلابه بصفة خاصة ، اذ أهلهم علم الاستقرار وانعدام الرخاء فى بلادهم الى تقبل كل غريب فيه ثورة .. أى ثورة ، حتى ولو كانت على الافكار المتوارثة

ولم يرد يعقوب بن كلس ، وقد حول شتى مجال النشاط الدينى والفكرى الى الجامع الأزهر ، أن يقال عن امامه وسيدته ومولاه العزيز : انه اتبع سياسة تحويل الناس الى مسجده الرسمى ، حتى لقد أهمل مساجد أخرى لها خطرها وماضيها ، وأهمها جامع عمرو بن العاص ، فوجه اليه بعض العناية الفاطمية ..

كان الفاطميون يذكرون أن جامع عمرو هو أول مسجد جامع أنشئ فى مصر .. وأنه أول مسجد استقبلهم عند قبورهم .. وفيه أقيمت أول صلاة جامعة مذهبية ، فاجأ جوهر القائد الناس فيها ببعض مبادئ المذهب الفاطمى ..

لهذا .. ولكانة جامع عمرو فى النفوس .. اتجهت الخلافة اليه ببعض اهتمامها المعمارى الذى أرادت من ورائه أن تستر شتى مجالى نشاطها ..

وبأمر العزيز بالله الفاطمى ، ذهب أبو الفرج يعقوب بن كلس الى جامع عمرو ، ليرى ماذا يمكن أن يزيد فيه أو ينشئه الفاطميون من عمارة ..

كان المسجد على حاله من الجلال والروعة ، فسيحاً رحباً ، متعدد الأعمدة . كثير الابهاء . واسع الصحن .. تأخذ روعته بمجامع القلوب % وقد أكسبته الزيادات المتعددة فخامة وإبهة ، حتى لقد حار ابن كلس ، لانه لم يجد فيه مكاناً لجديد ! ولكن ابن كلس كان يريد أن ينشئ فى جامع عمرو ما يخلد به ذكر سيده وذكره هو الآخر الى جانب امامه العظيم ..



الجامع الاقصي : بناه « الاموي باحكم الله » سابع الخلفاء الفاطميين في مصر عام ١٠١٩هـ - ١١٢٥م .
اشتهر بتناسب اجزائه وكثرة زخارفه - جده الوزير يثينا السالي في عهد السلطان الظاهر بروجي
سنة ٧٩٩هـ - ١٢٩١م وقد ظل هذا الجامع عاكفا على بعض سمات فاطمية تجلي فيه ...

ولم تطل الحيرة بأبى الفرج .. اذ اهتدى الى عمارة جديدة .. ان لم تكن
ستضيف الى المسجد الجامع جديدا فانها ستكون ذات جمال وروعة كفيلين بتخليد
الذكرى لمنشئها ..

لقد رأى يعقوب أن يقيم تحت قبة بيت المال « فوارة » ..
انها شئ جديد بالنسبة للجامع العتيق .. وستكون ملفتة للنظر بصورة واضحة جليلة
وتم بناء « الفوارة » الفخمة ذات الشكل الهندسى البديع .. ثم رأى يعقوب بعد
ذلك أن يتغالى فى تنميقها ، فزاد الاسقف الخشبية المحيطة بها والتي تعلوها .
وكلف المقدسى الاطروش ان يقوم بهذا العمل وان يشرف على اتمامه ..
ولما كان للمقدسى خبرة بهذا اللون من الفن ، اكتسبها من تجاربه السابقة فى بيت
المقدس - فقد جاءت « المساقف » تحفة فنية رائعة .. وصارت « الفوارة » بعد ذلك
معدة للاستعمال ووضعت فيها « الجرار » الرخامية المليئة بالماء ، لتكون مشربا
للعطشى ..

وهكذا استطاع يعقوب بن كلس بهذا العمل المعمارى المتواضع ، أن يوجه الى امامه
والى نفسه الأنظار ، وأن يزيد أعجاب الناس بشخصه فجعلهم يتحدثون عنه وعن
جهوده الموفقة التى قربت بين الخليفة والناس ..

ولم يكد العزيز بالله يفرغ من اتمام هذه الخطوة التى أظهرت اهتمامه بجامع
عمرو - حتى ولى وجهه ثانية شطر الجامع الأزهر ، وقد أحب أن يزيد فى تبعاته
العامة تبعة أخرى ، تزيد الرابطة بين الخلافة والشعب قوة ، وتجعل من هذا الجامع
العظيم ، فوق كونه مقرا للدعوة فى لبها - مكانا لاحتفالات دينية خطيرة الشأن ،
ترتبط بمناسبات مرموقة لها اثرها فى كيان « الفاطميين » وفى نفوس الشعب ذاته ..
وأهمها بل وأولها الاحتفال بالمولد النبوى ..

وسرت فى الشعب هزة عارمة من هزات الفرح ، اذ سيقدر لهم أن يحتفلوا بمولد
الرسول .. وراوا فى هذه السنة الجديدة التى استئنأها الفاطميون ، دليل خير جديد ،
يقرب بين الشعب والحاكم العزيز بالله الذى عرف كيف يجذب الشعب اليه ، وكيف
يثير فى نفسه أقدس الذكريات وأجملها !!

ان الاحتفال بذكرى مولد سيد الخلق ، محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، أمر
لم يكن معروفا فى العالم الإسلامى قبل الخلافة الفاطمية .. ولا شك أن استئنائهم
له يقوى من مركزهم الدينى ، ويعطيهم صفة حبسية مقربة الى شتى القلوب ..
فوق ما فى الاحتفال من فوائد جمّة وأثر جليل يجنيه الناس فى العبرة بالماضى العظيم،
حين يستذكرون حياة رسول الله وما حفلت به من جهاد شريف ومثل عليا وقدوة
حسنة ، لتكون نبراسا لأمتة ، وهدى للمسلمين على كر العصور !!

واستن العزيز بالله تقاليد الاحتفال بالذكرى العطرة .. ورأى أن يبدأ فى اليوم المتعارف

عليه ، وهو الثاني عشر من ربيع الاول - بعد صلاة العصر مباشرة ، فيخرج الموكب متجها الى الجامع الازهر - وعلى رأسه القاضي . . وما أن يصل الى هناك حتى يأخذ رجال الدولة مجلسهم التقليدى فى صحن الازهر حول القراء الذين يأخذون فى ترتيب آيات الذكر الحكيم . .

وبأمر العزيز بالله ، وقد انتظم الجمع فى المسجد الجامع - بأن توزع عليهم الحلوى الخليفة الفاخرة . . فيأكلون منها ما يأكلون ، ويحملون ما يستطيعون حمله الى بيوتهم ليشعر أولادهم وأهلهم بنفس الفرحة التى أحسوا بها هم ، ويلمسوا كرم الخليفة الامام العزيز فى مناسبة الاحتفال بذكرى مولد جده العظيم، أبى الزهراء البتول!! وبعد أن تتم قراءة القرآن والتهام الحلوى ، يصطف الموكب ثانية ليخرج من الجامع الازهر الى دار الخلافة ، وفيه القاضى الاكبر ، وداعى الدعاة ، والقراء ، والخطباء . . فيقفون تحت «المنظرة» الخليفة ، حيث يجلس العزيز وخاصته . . فتفتح احدى النوافذ باذنه ويهل على الموكب ومن فيه بطلعته ، فى اللحظة التى يخرج فيها أحد رجاله ، يده من النافذة ، مشيرا الى الحشود المتراصة بأن مولاهم السعيد بولايتهم ، يرد عليهم التحية والسلام !

ولما كان الجامع الازهر مكانا للاحتفال بذكرى المولد النبوى ، فانه أيضا أصبح كعبة الشعب فى احتفالاته الموسمية المتعددة التى ابتكرها الفاطميون ومنها « لىالى الوفود الاربعة » وهى : مطلع هلالى رجب وشعبان ، ومنتصف كل منهما . . وكانت كلما اهلت مناسبة من هذه المناسبات امتلأت الطرق بالناس وذهبت الجموع الى الازهر الذى يضاء بالمشاعل على واجهته ومداخله وصحنه والطرق المؤدية اليه . . « وتوضع حول صحنه التناير والقناديل والشموع والاطعمة والحلوى والبخور فى مجامر من الذهب والفضة . . ويطاف بها على الحضور ، وفيهم قاضى القضاة وشهوده ووجوه البلاد ، حيث تقدم لهم سلال الحلوى والطعام . . ويبدأ القراء والمنشدون قراءاتهم وانشيدهم ويستمررون فى سمرهم واحتفالهم هذا حتى منتصف الليل . » (١) وكما حظى الازهر بمكان الصدارة فى هذه المناسبات الموسمية ، فكذلك كان حاله فى أيام رمضان - فقد كره العزيز بالله الاسراف فى احتفالات مواكب الرؤيا وغيرها - واستن سنة خروج الخليفة لصلاة الجمعة فى الازهر كتقليد واجب الاتباع فى البلاد . « واعتاد العزيز بالله أن يخرج فى موكبه العظيم لصلاة الجمعة فى الجامع الازهر من باب الذهب ، وعلى رأسه المظلة وهو فى ثياب حريرية بيضاء بسيطة ، فيعبر الدروب السبعة الى رجة الجامع ، وحواليه الجنود و « الركابية » . . ويدخل من الباب البحرى مجتازا ممرا صغيرا الى القاعة المغلقة الخاصة به . . « ويقرأ المقرئون . . وتفتح أبواب الجامع حينئذ للناس بعد غلقها ووضع الحجاب

عليها قبل مقدم الخليفة ، وتتخذ الأهبة منذ الصباح لاستقباله . .
 « ويأتى صاحب بيت المال وبين يديه الفرش الخاص بالخليفة بأيدي الفراشين
 المميزين ، ملفوفاً في « العراضى الديبقيّة » فيفرش في المحراب ثلاث « طراحت »
 فاخراش واحدة فوق الأخرى . . ويعلق ستران مئنة ويسرة مكتوب على أولهما بالحرير
 الأحمر سورة الفاتحة وسورة الجمعة ، وفي الستر الثاني سورة المنافقين كتابة واضحة .
 « فإذا حان وقت الصلاة أذن مؤذنو القصر كلهم على باب مجلس الخليفة وعندئذ يصعد
 قاضى القضاة الى المنبر ، وفي يده مدخنة لطيفة من الخيزران يقدمها صاحب بيت
 المال وفيها ندى خاص بالخليفة ويخمر بها أعلا المنبر وهو يقبل درجاته ثم يدخل مقصورة
 الخليفة مسلماً بقوله « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى الخطيب ، ورحمة
 الله وبركاته . . الصلاة يرحمك الله . . »

« فيخرج الخليفة وحوله الاساتذة المحنكون والوزراء والامراء والحرس المسلح
 ويصعد الى أعلا المنبر ووجهه اليه ، فإذا جلس أشار الى الوزير بالصعود فيصعد
 اليه ويقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ثم تزر القبة حتى تصبح كالهودج ، ثم
 ينزل مستقبلاً الخليفة ويقف ضابطاً المنبر . .

« وينهض الخليفة فيلقى خطبة قصيرة من مسطور يعده له ديوان الانشاء . فيها
 آية من القرآن الكريم ثم يصلى على أبيه على بن أبى طالب وجده النبى عليه الصلاة
 والسلام ويعظ الناس وعظاً بليغاً موجزاً ويذكر من سلف من آباءه حتى يصل الى
 نفسه فيتوسل بدعوات تليق به ثم يدعو للوزير وللجيوش بالنصر والظفر على
 الكافرين والمخالقين ثم يختم بقوله « اذكروا الله يذكركم . . » فيصعد اليه الوزير
 ويفك أزار القبة ويعود القهقرى وينزل الخليفة ويقف للصلاة فوق الطراحت المذكورة
 في المحراب وحده اماماً ، وخلفه الوزير والقاضى ، ومن ورائهما الاساتذة والامراء
 وأصحاب الرتب والمؤذنون بترتيب مخصوص . .

« فإذا سمع الوزير ، أسمع القاضى ، وأسمع القاضى المؤذنين ، فأسمعوا الناس ،
 ويقرا الخليفة فى الركعة الاولى ما هو مكتوب على الستر الايمن وفى الركعة الثانية
 ما هو مكتوب على الستر الأيسر . . فإذا انتهت الصلاة خرج الناس وركبوا تبعاً . .
 ثم يعود الخليفة بموكبه الى القصر والبوقات تضرب ذهاباً وإياباً » (١) . .

وهكذا . . بتفسير اسم جامع القاهرة الى الجامع «الأزهر» ، وبفتح أبواب «الأزهر»
 لكشتى طبقات الشعب ، وإباحة الجلوس الى حلقات الدرس فى صحنه . .
 وبهذه السلسلة من الاحتفالات الموسمية زاد التقارب بين الشعب والامام العزيز ،

وقويت بينهما الصلة وأصبح من السهل الهين ، أن تنفذ مع ذلك الود ومضات من الرسالة الغامضة .. فتستقر في أحشاء القلوب ..

ومع ذلك ..

هل اكتفى العزيز بهذا ؟! أم تراه كان يطلب المزيد !!

لئن قيل ان الدعاية المذهبية في مصر قد وجدت الجو الصالح لتنمو بعض الشيء ، مما أسعد أمير المؤمنين وأقر عينيه ، فان ما يقال عن يعقوب بن كلس كان العكس تماما ..

لقد كان اليهودى القديم الذى تظاهر بالاسلام ووجد فيه متنفسه وذريعته الى المطامع مازال يفكر بعقلية اليهود الذين قال الله فيهم : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود » !!

ومن المؤسف أن الرجل وجد سلاحه البتار في الدعوة الفاضلة ، فأراد أن يشحنه .. وأن يوجهه الى أهداف أقرب ، ليصيب ويدمى ويقتل .. ويشفى غليل العداوة من المسلمين الذين آووه وأكرموا !

كان - يعقوب الداهية - هو من أشار باتباع سياسة التقرب تلك .. وقد نجحت خطته نجاحا أكبر مما توقع !!

وانه اليوم ليوحى بضرورة اتباع سياسة جديدة أخرى ، يشد بها أزر الجامع الازهر ويعينه على أداء الرسالة ويهبه مزيدا من القوة والتقدم . وذلك بانشاء مسجد جامع جديد ، يطلق عليه اسم جامع العزيز بالله .. ويكون دارا خاصة يدرس فيها نوابغ طلاب المعرفة الفاطمية أسرار الدعوة ، ويرقون فى مدارجها السرية الى أعلا المراتب والدرجات ..

وكما راقى أفكار أبى الفرج لسيده العزيز مرات ومرات سابقة من قبل ، فانه لم يكذب يسمع منه مشروع اقامة المسجد الجامع الجديد ، حتى سارع بالموافقة وطالب بالاسراع فى التنفيذ ..

واستطاع أبو الفرج فى سر أن يجد مكان الجامع الجديد .. وسرعان ما أعدت خطوط بنائه وشتى صفاته وهيئته ..

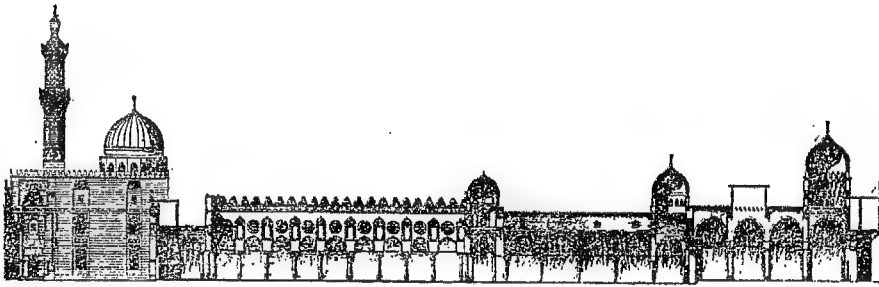
ولما كان المال موفورا والصناع على قدم الاستعداد للعمل ، فقد بدأ العزيز فى اقامة معالم مسجده العظيم ..

وسار العمل فى همة ونشاط .. وارتفعت الجدران ، وكان ارتفاعها مثار أحاديث الناس وأعجابهم بهؤلاء الفاطميين الذين وفدوا على مصر فاتحين بانين ، جالبين معهم كل غريب وطريف ..

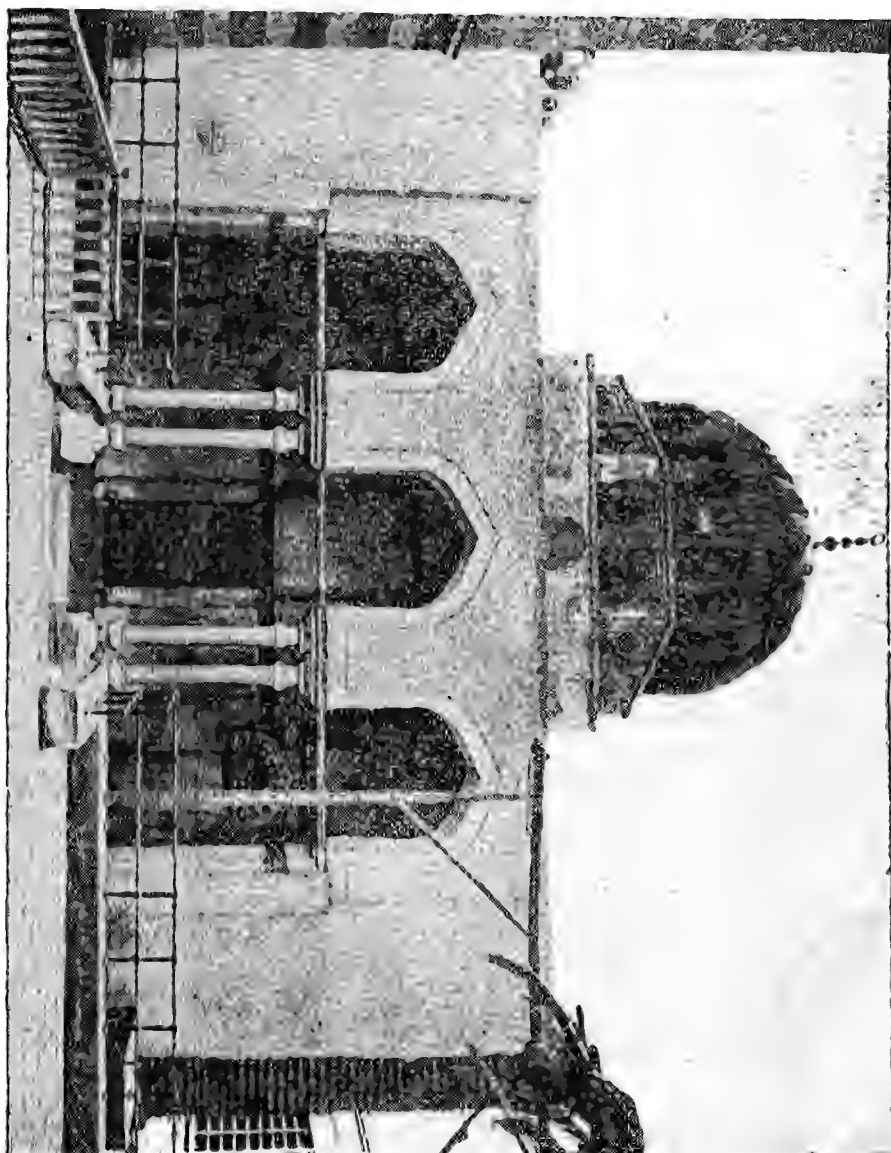
وكاد المسجد الجديد يستكمل وجوده ، حين فوجيء الناس ذات صباح نبأ مثير !
لقد قيل ان أبا الفرج يعقوب بن كلس قد مات !! وطويت صحائف أعماله وأصبح
في ذمة التاريخ !!

فتوقف العمل في المسجد بعض الشيء .. وعم البلاد حزن شامل !!
وكان العزيز بالله أشد الناس حزنا على دأعيته ووزيره ومشيره وساعده الايمن ،
فلم يكده يعود الى قصره بعد أن واره التراب ، حتى احتجب واعتزل شئون الحكم ..
فكان لا يرى أحدا ولا يراه أحد طوال ثلاثة أيام !!

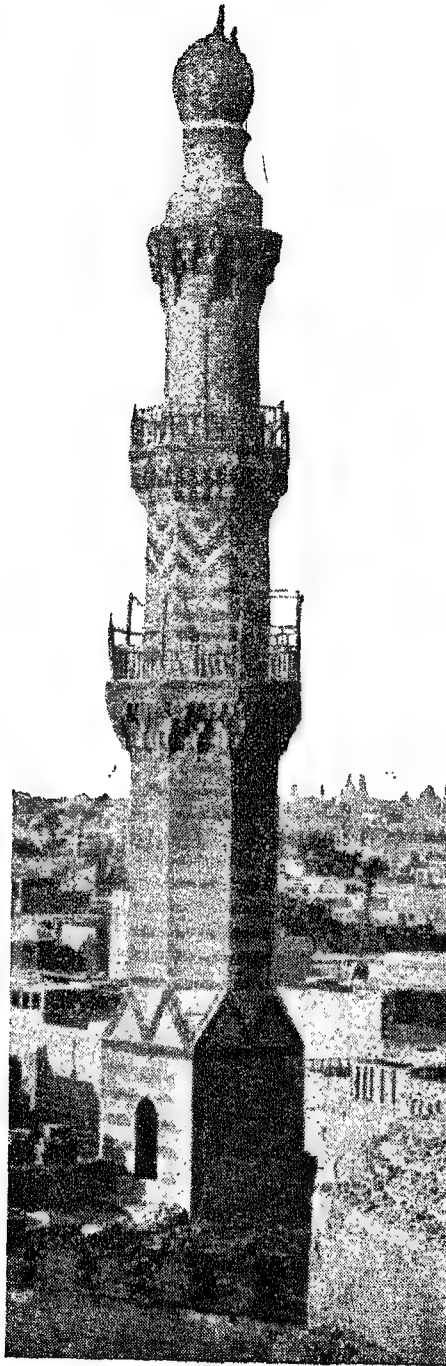
ومر الزمن .. بل مرت أيام قلائل ، وكانى بالقدر عندما ربط بين الرجلين في
ميادين الجهاد والعمل ، أراد أن يربط بينهما الى الأبد ، فكان موت يعقوب يحمل
في طياته نذير موت العزيز بالله ، الذى قضى هو الآخر وهو في مدينة بلبيس ،
وحمل جثمانه الى القاهرة .. ونودى بولده ووريثه خليفة للمسلمين واماما للدعوة
باسم « الحاكم بأمر الله » ..



« قطاع رأسى للجامع الأزهر »



مشهد السيدة رقية بنت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمها فاطمة الزهراء بنت رسول الله ..
انتهى عام ٥٢٧ هـ ، ١١٣٣ م أيام المماليك لدين الله تبارك وتعالى ، المماليك بنصره ..



« مئذنة الأمير صرغتمش »

مسجد وجامعة

دعت الظروف ، لصفر سن أبي على المنصور الذي نودي به أميراً للمؤمنين باسم « الحاكم بأمر الله » - إلى أن يوضع تحت وصاية أستاذ الدولة « برجوان المغربي » ، الذي راح يباشر شئون الحكم وتبعات الإمامة نيابة عن الخليفة الصغير المرحف الحسن ، الشديد الذكاء .. الذي لم يمنعه صغر سنه عن تعرف دقائق الأمور في دولته المترامية الأطراف .. وغوامض أسرار الدعوة التي نودي به إماماً لها ..

وقد كان مجرد احساس الحاكم بأمر الله ، بأنه أصبح إماماً للدعوة .. وأن الإمام له العصمة ، وله السلطة النافذة على الأرواح قبل الاجساد - كان هذا كافياً لأن يضيف إلى سنه أعواماً ، تشعره بكثير من الاحساس بالجبروت والفتوة والجلال ، وتدفع به إلى محاولة الاستزادة من ذلك المنهل المقدس ، الذي علا به فوق رقاب البشر ووصل به إلى مرتبة .. كان آباؤه يخافون أن يقولوا أنها مرتبة الاله !

وهكذا قضى الإمام الصغير سنى الوصاية عليه في دراسة الرموز ، ومحاولة اكتساب خبرة ومقدرة .. فلم يكن الوريث العايب ، ولا الشاب الماجن ، بل كان رغم صغره .. الإمام الخطير ، الذي يعد نفسه لتحمل تبعات الجسام ..

ولقد كان جميلاً من « برجوان » خلال وصايته على سيده الحاكم بأمر الله ، أن يوجه عنايته الانشائية أول ما يوجهها - لا إلى الازهر مسجد الإمامة الرسمي ومستقر

نشاطها العظيم وموجهه؟! ولا الى اتمام المسجد الجامع الذى بداه مولاه العزيز بالله ومات قبل أن يتمه؟! - بل وجهها الى مسجد آخر.. هو مسجد الفسطاط العتيق المنسوب الى الصحابى الجليل عمرو بن العاص ..

وراح «برجوان» الذكى يجدد فى جامع عمرو باسم سيده وامامه الحاكم بأمر الله ، فأمر بطلاء جدرانه كلها وتجديدها .. وخلع بعض « الفسيفساء » التى كانت تزين جدران بعض أروقة المسجد ، وغطى مكانها بالطلاء ، استكمالا للوحدة التى أرادها فى تزيين المسجد بهذا التجديد ..

ثم اتجه الى تجميل أبواب المسجد الخمسة الشرقية ، فأصلحها وطلاها ، وجدد ماكان فى حاجة الى التجديد .. ثم أعد خمسة ألواح ، نقشت كلها وزخرفت وطلبت بالذهب ، وزينت بها الابواب الخمسة المذكورة ..

ولم تفت برجوان فرصة اشباع غروره .. فكان أن نقش اسمه على هذه الألواح الخمسة المذهبة تخليدا لذكراه فى هذا الأثر الجليل وإشارة الى ما فعل فيه من تجديد وتجميل ..

وكان الخليفة الصغير ، ينظر الى أعمال وصيه فى صمت ، وكانما غر العبد بعد هذا سكوت سيده الصغير وتفاضيه على الكثير من تصرفاته ، فاشتتط ، وتطاول وتمادى فى تنفيذ رغباته دون أن يقيم وزنا لولى الامر ولا للرعية ..

ولما بلغ به الطمع مداه .. كان الامام أمير المؤمنين يلقظ العارف أسرار وصيه قد أعد عدته للتخلص منه ..

وما هى الا أيام حتى ذهب الوصى ضحية تطاوله وأطماعه ..

وترك المسرح خاليا من كل الشخص ، الا سيده وصاحبه ومالكة امام الدعوة الخطير ، الحاكم بأمر الله الفاطمى ثالث ثلاثة حكموا مصر ، أولهم بالغموض والرهوبوت والثانى بالسماحة فى مراعاة رغبات الشعب ..

ولم يكد الامام الشاب ينفرد بالسلطان والحكم وحده ، حتى شغله الفكر واحتواه الصمت ، كمن راح يسترجع الماضى ليستهدى به فى حاضره .. وأحب أن يتخذ من أبيه مثلا يحتذيه فى سياسته الهادفة دائما الى الجديد من الاعمال ..

ان الجامع الازهر - مقر النشاط ، ومركز الدعوة والدعاة - أخذ مكانه اللائق ، ومكانته المرموقة .. وأما المسجد الذى بداه أبوه وأراد له اسم « الجامع الانور » لم يكتمل بناؤه بعد ..

وان من أبسط حقوق الأب على ابنه أن يكمل ما بداه الأب ، وأن يحسن ويكمل فى ذلك الأثر الجليل ليكون جديرا بالانتساب الى والده العظيم ..

وأمر الحاكم المشرفين على الاعمال الانشائية والعمارات فى دولته أن يولوا اهتمامهم بالجامع الأنور ، وأن يحشدوا له العمال وأهل الكفاءات المعمارية لاتمام بنائه فى أقصر

وقت ممكن .. وأن تفرغ خلاصة العقربة والخبرة ليكون آية من آيات الصنع
وليظهر في أروع صورة عرفتها المساجد في الدولة الإسلامية .

ولم يقصر الحاكم بأمر الله - خلال فترة اتمام الجامع الأنور - اهتمامه على اتمام
جامع أبيه ، بل وجه عنايته أيضا الى المكتبة الملحقة بالجامع الازهر ، اعترافا منه
بخطورتها ومكانتها وعظم الدور الذي تقوم به في ذلك الانقلاب الفكرى الذى بداه أبوه
الراحل .. فزودها بالمصنفات الفريدة ، والمخطوطات النادرة ، والكتب الجامعة ،
والأسفار الشهيرة .. حتى غدت بما حوت وما جمعت من أمهات التواليف - أغنى
وأعظم مكتبة في العالم الاسلامى بعد مكتبة قرطبة ، التى أنشئت قبلها بعدة سنين ..

وانتجى الحاكم خلال هذه الفترة أيضا الى جامع عمرو بن العاص .. فكان أن أمر
بأن يمحي اسم «برجوان» !! المنقوش فوق كل لوح من الألواح الخمسة المذهبة ، كي
لا يذكره الناس بعد أن قتله أمير المؤمنين !!

ولم يكد الاسم البغيض يمحي من الألواح ، حتى تنفس أمير المؤمنين الصعداء ..
ووجد الفرصة أمامه متسعة للتفكير من جديد فى عمارة المسجد العتيق ..

كان ذلك فى سنة ست بعد الاربعمئة من الهجرة عندما أمر الحاكم باقامة رواقين رحيبين
فى صحن المسجد .. ولم يكد يتم بناءهما ، حتى أحب أن يستكمل زينة المكان كله
بطلاء العمدة الخشبية ، التى أمر أحمد بن طولون باقامتها لتكون فوقها الستائر التى
تحمى الناس شر حرارة الصيف ..

وأراد الحاكم أن تلون هذه العمدة الكثيرة باللونين : الاحمر والاخضر .. ولكنها كانت
من القدم والبلى بحيث كان من الصعب أن يثبت فوقها الطلاء .. فأمر الحاكم
بخلعها من أماكنها ، وتوجيه العناية الى الرواقين الجديدين وتجميلهما حتى يكونا
لائقين بمقام أمير المؤمنين ..

وباقامة هذين الرواقين أصبح جامع عمرو يحتوى حتى الآن على أربعة وعشرين
رواقا .. سبعة فى مقدمته يتكون منها « الايوان الشرقى » ، وسبعة فى مؤخرته
يتكون منها « الايوان الغربى » ، وخمسة فى شرقيه هى « الايوان البحرى » ، وخمسة
أخرى فى غربيه ومنها يتكون « الايوان القبلى » .

ورأى الحاكم بعد هذا ألا يقصر اهتمامه على مكتبة الجامع الازهر ، وأن ينقل الى
جامع عمرو بعض نفائس من مكتبة الازهر ..

وهكذا حمل رجال الحاكم - بأمر منه الى جامع عمرو ١٢٩٨ مصحفا ما بين
«ربعات» و «ختمات» قيمة ، منها ماهو مزخرف ، ومنها ماهو مكتوب بالذهب ..
وأباح للناس جميعا أن يقرأوا فيها بجامع عمرو ..

وبهذا اكتملت زينة جامع عمرو ، ماديا ومعنويا ، واستكمل بهاءه .. وأصبح غاصا بالأروقة والأبهاء والأعمدة ، والحنايا المتعددة التي تشبه النوافذ الحصينة التي تقام بأعلى جدران الجامع ، وقد صار عددها في ذلك الوقت ثمانى وسبعين حنية موزعة على الوجه التالى :

سبع عشرة حنية فى الجدار القبلى .. ومثل هذا العدد فى الجدار البحرى ، بعضها كان مستورا بجدار سلم السطح وديوان استيفاء الاحباس ..
واثنتين وعشرين فى الجدار الشرقى ، يستر بعضها أيضا ديوان الاحباس .. ومثل هذا العدد موجود فى الجدار الغربى ، يسر بعضه مدار السلم ، وفى كل حنية من حناياه عمودان ..

وخلال فترات العمل التوجيهى والانشائى هذه ، كان « الجامع الأنور » قد كمل بنيانه .. وبدأ شامخ البناء كالطود العظيم ، جليلا مهيبا ، رائع المدخل ، متعدد الابواب ، كثير الأبهاء ، واسع الصحن ، جميل المنارة .. فراقى فى عيون الناس ، بدرجة لم ترق لهم معها تسميته « الجامع الأنور » فأسموه « جامع الحاكم » !!

وافتح الامام امير المؤمنين الحاكم بأمر الله ، مسجد أبيه العزيز بالله فى حفل عظيم .. كان محور احاديث الشعب فى القاهرة وما جاورها من ضواحي وبلدان ، حتى لقد قيل : ان المسجد الجديد سيكون مسجد الدولة الجامع .. وأنه ان لم ينتزع الزعامة الدينية من الجامع الأزهر اليوم ، فسوف ينتزعها مع الفد القريب !!

والواقع أن فكرة انتزاع مقود الزعامة من الجامع الأزهر ونقلها الى « الجامع الانور » لم تخطر ببال الحاكم أصلا .. بقدر ماخطرت بباله فكرة « التخصيص » بين المسجدين ، وذلك بأن يفتح المسجد « الأنور » للصلاة العامة ، ويخصص « الأزهر » لحلقات الدراسة واعداد دعاة المذهب الفاطمى ، وتقام فيه الى جانب هذا الصلاة الجامعة فى مناسباتها المعروفة أيام الجمع والأعياد ..

وعاد الحاكم بأمر الله يفكر فى شىء جديد .. شىء دعت الضرورة الى وجوده ، وقصر الجامع الأزهر عن أدائه ..

انه « دار الحكمة المذهبية » ، لتقام فيها حلقات الدراسة الخاصة ، التى كان يعقدها قاضى قضاة الشيعة فى القصر الخليفى لـ « خاصة الخاصة » وكانت تسمى « المجالس الفلسفية الحكيمة » ..

وانشئت « دار الحكمة » .. وخصصت لها الدراسات الجديدة .. المغايرة لتلك التى عرف بها « الجامع الأزهر » فكانت « دار الحكمة » منافسا خطيرا للأزهر ، فقد استطاعت أن تجذب اليها الكثيرين من هواة المعرفة وطلاب العلم ، ليتعلموا هناك « الرياضيات » و « علم الفلك » و « الطب » وتحركات النجوم ..



المشهد الحسيني من الداخل : انشي سنة ٥٤٩ هـ ، ١١٥٤ / ٥٥ م لينقل اليه راس الحسين بن علي بن ابي طالب ، نقله الى مصر طلائع بن رزيق وزير الخليفة الفاطمي « الفاتح بنصر الله »



محراب المسجد الحسيني

وزود الحاكم دار الحكمة بكل مايمكن أن تحتاج اليه من مؤلفات وأساتيد ومراجع . .
وأباح الدراسة فيها للجميع ، دون التقييد بالتقييد المذهبي الذى فرض على رواد
حلقات « الأزهر » . .

وأشرف « قاضى القضاة » على سير الدراسة فى دار الحكمة ، وعين لها رئيس ،
أطلقوا عليه اسم « داعى الدعاة » . . وكان له ولدان الحكمة بين وظائف الدولة ديوان
خاص ، لان الدراسة انما كانت على النفقة الخليفية ، وكذلك نفقات الطلبة وأهل
البحث ، الذين أخذوا يقدون على الدار من كل فجاج الارض - وكانهم جموع الحجيج
فى كثرتهم وتشوقهم الى الدراسات الميسرة !!

ولما كان الحاكم بأمر الله - خليفة عرفت عنه الجراة ، وحب التجديد واحداث
المفاجآت ، فقد كانت مفاجاته التى أرادها لدار الحكمة ألا تكون الدراسة فيها مقصورة
على الرجال وحدهم . . بل هى مباحة أيضا لمن يريد طلب العلم من النساء !!

وأولى الحاكم بأمر الله الجامع الأزهر اهتماما كبيرا ، فرصد له الأجاس «العينية»
وأوقف عليه دخل عقارات معينة فى أول «وقفية» عرفها التاريخ الإسلامى ، جاء فيها :

« هذا كتاب أشهد قاضى القضاة مالك بن سميد بن مالك الفارقى على جميع
مانسب اليه مما ذكر ووصف فيه من حضر من الشهود فى مجلس حكمه وقضائه
بفسطاط مصر فى شهر رمضان سنة أربعمائة ، أشهدهم وهو يومئذ قاضى عبد الله
ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين بن الامام العزيز بالله صلوات الله
عليهما ، على القاهرة المعزية ومصر والاسكندرية والحرمين حرسهما الله وأجناد
الشام والرقبة ونواحي المغرب وسائر أعمالهم وما فتحه الله وما يفتحه لأمر
المؤمنين والشرق والغرب بمحضر رجل متكلم ان صحت عنده معرفة المواضع الكاملة
والحصص الشائعة التى يذكر جميع ذاك ويحدد هذا الكتاب أنها كانت من أملاك
الحاكم الى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة والجامع براشده والجامع
بالمقس للذين أمر بانشاءهما وتأسيس بنائهما وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى
وقفها والكتب التى فيها قبل تاريخ هذا الكتاب منها ما يخص الجامع الأزهر والجامع
براشده ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة مشاعا ذاك غير مقسوم . . »

وحدد بعد ذلك الهبة التى أوقفها على الجامع الأزهر وحده وهى : « جميع الدار
المعروفة بدار الضرب وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف وجميع الدار
المعروفة بدار الحزق الجديدة الذى كله بفسطاط مصر . . »

وكما حبس الحاكم على الجامع الأزهر ما ذكرنا من أجاس عينية محددة ، كذلك
أوقف على «دار الحكمة» وغيرها أجاسا أخرى ، تعينها على أداء رسالتها التى تطورت
واتسعت رقعتها ، وتحولت مع مرور الزمن وتوفر الطلاب فيها من دائرة «العمومية»

الى «التخصص» المريب في دقائق المذهب الفاطمي نفسه ، وأسرار «الامامة» ذاتها .. وما يجب أن يعرفه المريدون عن « الامام » وصفاته ومكانته المقدسة !!

أما هذه الاحباس فكانت كما وردت في « الحجة الرسمية »

وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة « محبوسة » ، لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تملكها .. باقية على شروطها ، جارية على سبلها المعروفة في هذا الكتاب ، لا يوهنها تقادم السنين ، ولا تتغير بحدوث حدث ، ولا يستثنى فيها ولا يتبادل ، ولا يستغنى بتجديد تجبيسها مدى الأوقات ، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الارض والسموات على أن يؤجر ذلك في كل عصر من ينتهي اليه ولايتها ويرجع اليه أمرها بعد مراقبة الله واجتلاب ما يوفر منفعتها من اشهارها عند ذوى الرغبة في اجارة أمثالها ..

وحددت « الحجة » بعد ذلك كيفية صرف « ريع » هذه الاوقاف في وجوها التي حددت لها ..

ومرت مواكب الزمن ..

واذا باتجاه الرياح ينعكس ودورات الفلك تتحول في غير الاتجاه ، ويحدث - بعد مرور خمسة وثلاثين عاما على انشاء « الجامع الازهر » ، مسجد الدولة الفاطمية الرسمي ومنبر دعاياتها العظيم - أن يجد الى جانبه منافسين خطيرين ، ينازعانه الزعامة والصدارة - هما « دار الحكمة » و « الجامع الحاكمى .. »

أما دار الحكمة فكانت قد استأثرت بطبقة النوابغ من الطلاب .. وأما الجامع الحاكمى ، فقد شاعت ارادة الحاكم ذات يوم من أيام الجمعة من شهر رمضان ، أن يتحول من مسجد عادى الى مسجد جامع ، اذ اتجه اليه موكب أمير المؤمنين لأداء الصلاة الجامعة .. فكان هذا الحدث ايدانا ببدء التحول ، واعلانا بأن « الأزهر » قد أصبح له شريكان في الصدارة والصلاة الجامعة ، هما : جامع عمرو ، والجامع الحاكمى !!

ولقد سارع الحاكم فافر هذا التقليد في صلاة الجماعة ، فأصدر أمره بأن توزع صلاة الجمع الثلاث في رمضان من كل عام على المساجد الجامعة الثلاثة ، حسب الترتيب التالى : الحاكمى ، فالازهر ، فجامع عمرو ..

واعتاد الحاكم ، خضوعا لهذا التقليد المستحدث الذى استنه - أن يفتتح أول صلاة للجمعة من رمضان في المسجد الحاكمى ، فيخرج للصلاة في موكبه وهو في ثوب خليفى كامل مطرز بالذهب .. أما الجمعة الثانية فيصلحها في « الجامع الازهر » وعليه ثوب خليفى عظيم من المخمل الشعرى الفاخر ، وعليه المنديل والطيلسان .. وتبقى

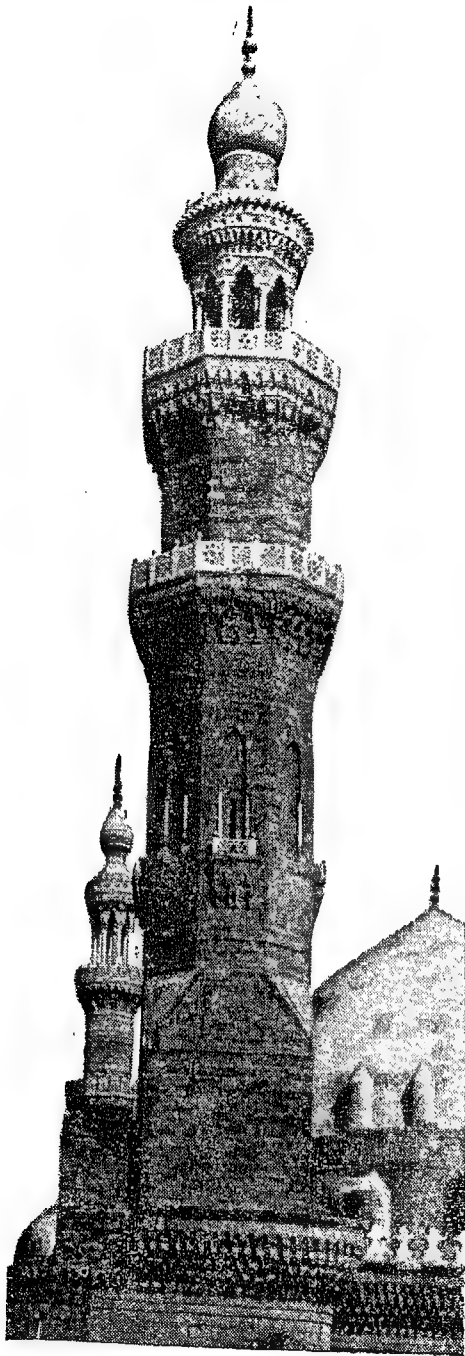
بعد ذلك الجمعة الاخيرة من رمضان ، وهى المسماة « الجمعة اليتيمة » ، وهذه كان يصلّيها فى « جامع عمرو » وعليه ثياب بيضاء ناصعة من خالص الحرير !
ولما كان « الحاكم بأمر الله » أجرا أئمة المذهب الفاطمى ، وأقواهم شكيمة وأشدّهم مراسا .. فقد أبى أن ينكر لب مذهبه كما أنكره جده ولم يصارح به العامة ، وإن احاط بالتقديس نفسه ..

وفى ذات مرة كرد الابن أن ينزل الى ترضى الشعب كما كان يفعل أبوه ..
فكان أن جاهر بالحقيقة ، وأطلق دعائه فى كل مكان يتحدثون عنه .. عن الامام المعصوم ، الذى حلت فى جسده روح الله ، منتقلة من « آدم » الى « على » ثم اليه ..
دون البشر اجمعين ! !

وكانت جراءة الحاكم هذه سببا فى قيام نزاع رهيب بينه وبين الشعب -
الذى انفض عنه ، ليخلص بدينه من الأوشاب .. ثم وقف موقف المتوثب ليدافع عن جلال الدين أمام من ادعى الربوبية علانية ولم يكن له صمت جسده ولا دهاء أبيه !!



احلى مشكاوات مسجد الناصر محمد



أَسْوَارُ الْقَاهِرَةِ

ذهب الحاكم ..

وفي أمر ذهابه تبللت الأفهام ..
قيل : مات !! وقيل : قتل !! وقيل :
اختفى .. الى يوم معلوم .. يعود فيه الى
الظهور ثانية ليملا الارض عدلا ونورا !!
ألم يكن اماما ، حلت فيه روح الله ؟!
فكيف يكتب عليه الموت .. ويكون كغيره
من البشر ، سواء بسواء !!

ذهب الرجل الجريء ، الذي أبى عليه
وفاؤه لمقيده ومذهبه ، أن يكون مثل
جده وأبيه .. فجاهر برأيه ، واستعمل
سلطانه في اجبار الناس على الايمان بما
كان يؤمن به .. فكتب بذلك خطوط
نهايته القامضة !!

وجاء « الظاهر » من بعده ، وهو لما
يزل بعد في طفولته .. فتولت الوصاية
عليه عمته « ست الملك » الفاطمية ، التي
كان لها ولابن دواس معها ، أكبر ضلع في
القضاء على الحاكم والتخلص منه !!

ومرت السنون .. وشب الظاهر ..
وراح يمارس سلطانه بنفسه دون وصى
أو رقيب ..

وتقلد منصب « الامامة » ، وعرف
الكثير عن جرأة أبيه وصراحته واستمساكه
بحرية رايه .. فسار على نفس المنهج ..
وبلغ من تشييعه للمذهب الفاض أن

أصدر أمرا خليفيا بأن تقتصر الدراسة في « الجامع الازهر » وفي « دار الحكمة » على
كنايين وحيدين ، أولهما : « دعائم الاسلام في الحلال والحرام ، والقضايا والاحكام ،

« مئذنة السلطان حسن »

من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله « مؤلفه » قاضى قضاة الشيعة الأول النعمان القيروانى «

وثانيهما : « الرسالة الوزيرية » ، التى كتبها « يعقوب بن كلس » ..

وبلغ من تحمس « الظاهر » لهذين المؤلفين الغامضين أن رصد المال على المهتمين بدراستهما .. بل لقد خصص رواتب ثابتة ومغرية لمن يحفظ أحد الكتابين أو كليهما من طلاب « الجامع الأزهر » أو « دار الحكمة » !!

وتولت أيام الظاهر ومضت سننى حكمه .. وذهب كما ذهب الحاكم أبوه .. ولكن دون أن تذهب فى أمر موته الظنون ..

وتولى الخلافة والامامة من بعده ولده « المستنصر »

وجاء المستنصر بالله الفاطمى وكأنما جاءت معه السنون السبع العجاف ، التى أكلت الزرع والضرع .. ولم تبق على يابس ولا أخضر .. حتى لقد كاد الناس يأكل بعضهم بعضا فى أيامه .. ولم يتعففوا عن أكل السكاب والقطط ، والدواب على شتى أنواعها ، وزاد الطين بلة فى تلك الأيام السود أن اضطرب جبل الأمن ، ودب الخلاف بين جنود المستنصر ، وكانت فتنة خطيرة قاست البلاد من شرها الشئ الكثير ، إذ اتحد مماليكه المغاربة والترك ، وطاردوا السودان الى الوجه القبلى .. فانقسمت الدولة بذلك الى قسمين .. شمالها فى أيدي الترك وحلفائهم ، والجنوب فى يد السودان !! واستمر طغيان الجنود الترك بعد ذلك فى كل مكان .. حتى لقد اجتروا على المستنصر نفسه ، فهاجموا قصره وسرقوا مافيه من النفائس ومنها مكتبة القصر التى كانت عامرة بالنادر والطريف من التصانيف والأسفار !!

وزاد القحط .. وعمت الشدة .. وتضاعفت سطوة الجند وطغيانهم ، فلم يجد المستنصر غير أن يستعين بمملوك أرمنى ، أعلن اسلامه وتسمى باسم « بدر الدين الجمالى » - وكان وقتها يحكم « عكا » - فأمر أن يأتى بعسكره الى مصر .. وأن يتصرف فى أمورها بما يراه ، ليعيد الأمن الى نصابه ويقضى على حركات المتمردين .. وأعاد بدر الدين الجمالى للدولة هيبتها ، وللخلافة الفاطمية سلطانها القديم .. واستطاع أن يعيد للخليفة سابق أمجاده .. حتى النفائس التى سرفت من قصره عادت اليه وعوقب اللصوص الخونة !!

وكانما كان مقدم بدر الجمالى بشرى عودة الخير والخصب الى مصر من جديد ، فتحسن الحال .. وعلت مناسيب النيل التى ظلت منخفضة سنين طويلا .. فاخضر الزرع .. وأينع الثمر .. وسمن الضرع .. ورفرفت السعادة على الوادى من جديد ..

وراح بدر الجمالى يفكر ويعمل بعقلية القائد المحنك الذى يرى أبعد من يومه ..
فكان أن حصن القاهرة التى كانت مفتوحة الجنبات ، فبنى أسوارها الشاسخة على
نمط الحصون « البيزنطية » ، وشيد بواباتها الضخمة الشهيرة ، « الفتح » و « النصر »
و « زويلة » ..

وصفا وجه الزمن للمستنصر بالله الفاطمى .. وبدأ بعد المحنة والشدة ، يستشعر
الراحة والنعمة .. ويرى أكداس الذهب تتلىء بها خزائنه من جديد ، فاستيقظت
فيه سجية آبائه ، واتجه الى الإصلاح والتعمير ..
وكان المستنصر بالله أول حاكم لمصر بعد زوال الدولة الطولونية يهتم بالمسجد
الجامع الكبير الذى بناه احمد بن طولون ..
وكان اهتمامه بهذا المسجد بمثابة اعلان للبعث الجديد ، واثباتا لوجوده ، وايدانا
بزوال الشدة وعودة الرخاء ..

ولم يجد المستنصر فى جامع ابن طولون ما يحتاج الى التجديد أو العمارة ، لهذا
استقر رأيه على انشاء « محراب » يليق بمكانته فى التاريخ .. فوكل الى متولى شئون
العماير فى دولته بأن ينشئ المحراب ..

واختير للمحراب المستنصرى مكان رحب فى منتصف البائكة الشرقية من جهة
الصحن بجامع ابن طولون .. ووضع صانعه فيه خلاصة مهارته الفنية الدقيقة ونقش
عليه بالخط الكوفى آيات من القرآن الكريم ، قسمت الى ثلاثة أقسام لكل منها
مكانه وصفاته ..

القسم الاول داخل اطار كبير كتب فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بانشاء هذا المحراب خليفة فتى مولانا أمير
المؤمنين (١) الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات عليه وعلى آبائه الطاهرين
وابنائهم المنتظرين السيد الأجل الأفاضل سيف الامام ، جلال الاسلام شرف الانام
ناصر الدين » ..

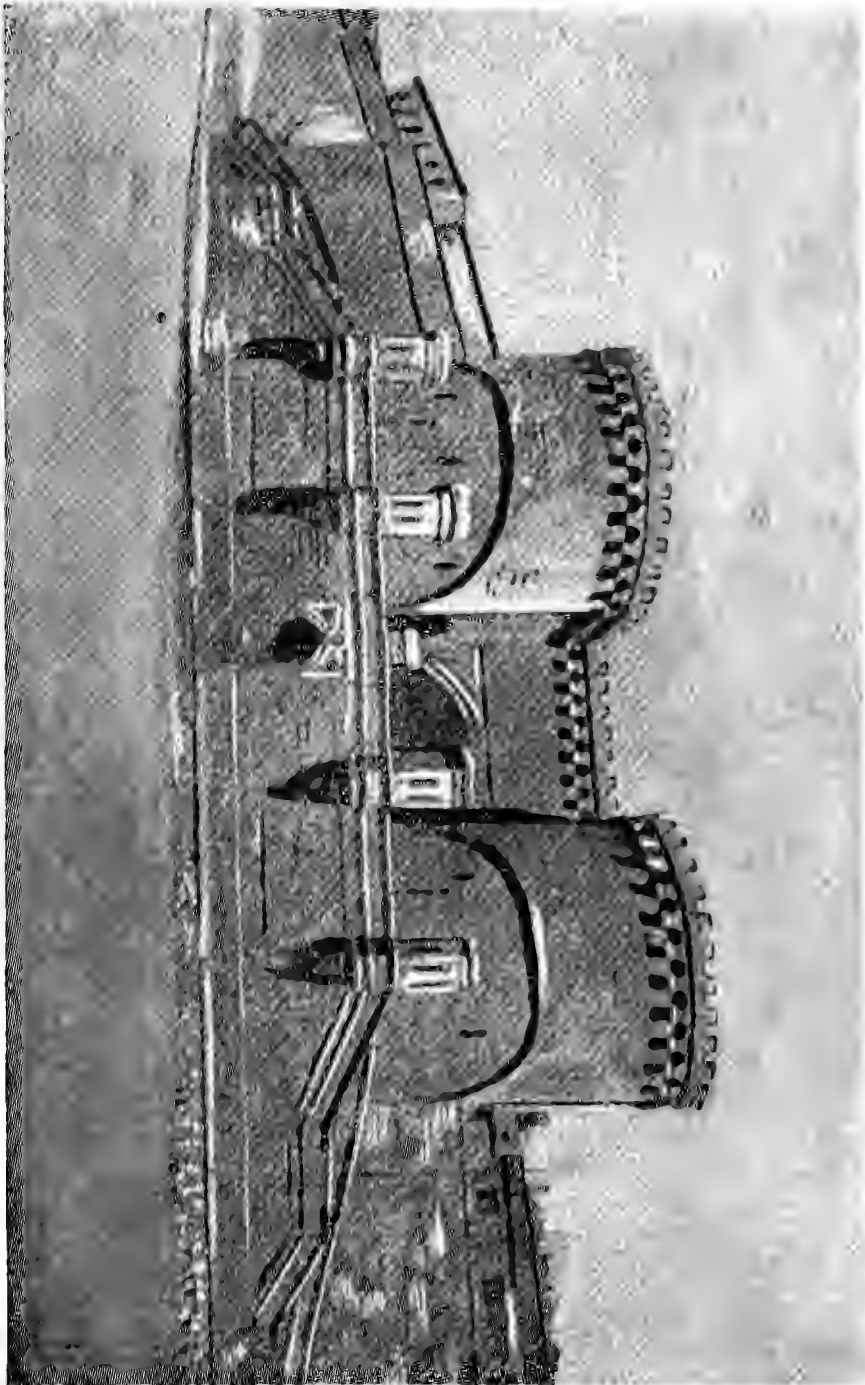
أما القسم الثانى فكان فوق المذموس ، وقد كتب فيه :

« الله أوحى اليه من الكتاب : « وأقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ،
ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون » ..

والقسم الثالث فيه كتابة تحت المذموس جاء فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، ان ربنا
لغفور شكور ، الذى أحلنا دار المقامة من فضله » صدق الله العظيم ..

(١) كان فتى أمير المؤمنين هو بدر الجمالى ، وخليفته هو ولده الأفاضل شاهنشاه



باب العزب بالقاهرة

قلعة الجبل : أقيمت على جبل المقطم وأراد « صلاح الدين يوسف بن أيوب » أن يجعل منها حصنا له فامر وزيره قراقوش في البدء في البناء سنة ٥٧٩هـ ١١٧٩ م . كما أمر ببناء سبور يحيط بالقاهرة والقاهرة وبمعمر ولكنه مات قبل أن يتم القلعة والسور فلما تولى « الملك الكامل » أكمل بناء القلعة سنة ٦١٤هـ ١٢٠٧ م وأنشأ بها قصورا للتر ملكه .

ولم يكد المستنصر يقيم هذا المحراب الرائع الدقيق الصنع في الجامع الطولوني ، حتى رأى أن يوجه كثيرا من اهتمامه المعماري الى المسجد العتيق . . وكان أن اتجه الى جامع عمرو . .

كانت زيادات **العزیز بالله ، وابن كلس ، والحاكم بأمر الله** - لم تزل قشبية رائعة . . فأحب الحفيد أن يخلد ذكره الى جانب جديه ، فكان أن امر باقامة الحجرات المقابلة للمحراب . . ثم رأى أن يوسع المقصورة ، فزادها من ناحيتي الشرق والغرب ، حتى اتصلت بالحدائين في جانبها . .

وأولى المستنصر اهتمامه بعد ذلك لمحراب جامع عمرو - وهو مقدر لما له من مقام تاريخي جليل ومكانة عظيمة ، اذ **أشرف على اقامته ثمانون صحابيا جليلا . .** فركب في صدره منطقة من الفضة ، وطوق عموديه بطوقين من الفضة أيضا وكتب اسمه على المنطقة المرقومة . .

وبعد عامين من قيام المستنصر بهذه الاعمال ، كلف نفس الرجل الذي أشرف على الاعمال الاولى - وهو « عبد الله محمد بن عبدون » - بأن يقوم بالإشراف على تجديد الخزانة ، الواقعة في مواجهة ظهر المحراب الكبير . . فقام بتنفيذ ماطلب منه على أسرع وجه وأحسنه . .

ثم عاد المستنصر بعد هذا فأمر الرجل بأن يشرف على طلاء بقية الجدار القبلي بالذهب ، وأن يمد الطلاء من جدار الخزانة التي جددتها الى نفس المنبر . . ونفذ الرجل أمر مولاه ، وتم الطلاء فأضفى على المحراب الكبير بجامع عمرو ابن العاص رواء وروعة . .

ومر عام . . واذا بالمستنصر يكلف القاضي « أبا عبد الله أحمد بن زكريا » بأن يشرف على تعمير غرفة المؤذنين الكائنة بأعلا المسجد ويقوم بتجميلها وتحسينها بأن يفتح لها بابا يوصل الى « مشربية » تشرف على صحن الجامع ، لتكون وسيلة تجميل ، وتستعمل في نفس الوقت ممرا يصل الى بيت المال ، ويجعل أعلا المسجد مرقاة من الخزانة الجديدة الواقعة خلف المحراب الكبير . .

وبعد ثلاث سنوات من اتمام هذه العمارة في جامع عمرو ، امر ببناء مئذنة تتوسط المئذنة الكبيرة ومئذنة عرفة . .

ووجه المستنصر بعد هذا اهتمامه الى « الجامع الأزهر » ، و « دار الحكمة » بالذات . . ولم يكن هذا الاهتمام ، خاصا بزيادات أو انشاءات جديدة ، بل بالدراسة نفسها في المعهدين الفاطميين الخطيرين . .

ومرت السنون . . والبلاد ترفل في حلل من الرخاء . .

وأرسل المستنصر بالله عرب بنى هلال الى المغرب ، ليستردوه من غاصبيه ويعيدوه الى الخلافة الفاطمية ..

ونجح فرسان بنى هلال : الحسن بن سرحان ، وأبو زيد ، ودياب .. وغيرهم - في الوصول الى قلب المغرب وردوه الى المستنصر .. وكانت لهم فيه وقائع أسطورية يشيب لهولها الولدان !!

ونودي باسم المستنصر على منابر الشام .. ومكن له الدعاة في « مكة » وعلا صيته في كل مكان ..

واستطاع « الأزهر » و « دار الحكمة » في أيام المستنصر ، أن ينجبا أعظم العلماء ، فكان من بينهم الفقيه « الحوفي أبي الحسن على بن ابراهيم » الذي تصدر مجالس الدراسة في « الأزهر » ، وكانت له في علوم اللغة والنحو والصرف مصنفات عظيمة وباع طويل ، ومن بينها كتابه الفريد « اعراب القرآن » ..

وفى عهد المستنصر ظهر على العالم بتواريخ الامم « الامير المختار عز الملك المراني » الذي عرف باسم « المسبحى » .. وقد أخرج كتاب « أخبار مصر » ، متضمنا تاريخ الوادى الخصيب من فجر التاريخ حتى خلافة الفاطميين .. وفى « الأزهر » تخرج « أبو الحسن طاهر » الذي عرف باسم « ابن باشا » .. وقد بلغ من تقدير المستنصر له أن جعله على ديوان الانشاء .. كما كانت للرجل فى علوم اللغة ونحوها وصرفها جولات وآراء وفتوح ..

ونبع في الحديث والفقه ، وخاصة مذهب الشافعى - العلامة « القضاى » صاحب « الشهاب » و « مناقب الامام الشافعى » و « أنباء الانبياء » و « عيون المعارف » و « المختار في ذكر الخطط والآثار » ..

وبلغ من اعزاز المستنصر للقضاى واعجابه به ، أن أخذه من مجلس الدراسة من صحن الأزهر الى مقعد القضاء ، اعترافا منه بفضلته ودقته وتحريره للحقائق وابتغائه وجه العدالة .. ثم عاد وجعل منه سفيرا ، أرسله الى « تيودورا » امبراطورة الدولة الرومانية الشرقية ، ليتفاوض معها على إبرام تحالف بينها وبين المسلمين لاقرار السلام واجتناب الحروب ..

وكما اهتم المستنصر بالانشاء والتعمير ، فقد أحب وزيره الاكبر « بدر الجمالى » أن يترك مؤقتا بناء الحصون والاستحكامات ، وينشئ له فى دنيا المساجد أثرا يتحدث عنه من بعده ، ويذكر صلته الطيبة بالدين ومدى اعزازه للكرام البررة من أهل البيت .. وبدر الجمالى هو الذى أدخل الجامع الحاكى فى حدود القاهرة عندما بنى سورها العظيم ، وكان قبلا خارجها .. وقد جعل السور ملاصقا له من ناحيته الشمالية وأزال ماحوله من أبنية ، فتبدى منظره الرائع وظهرت مناراته العظيمة ..

واتجه بدر الجمالى بعد هذا الى المشهد النفيسى ، الذى دفنت فيه نفيسة العلم
عالية المقدار ، جليلة الشأن ، الطاهرة بنت المطهرين السيدة الصوامة القوامه
« نفيسة ابنة الامام الحسن الأنور بن الامام زيد بن الامام الحسن المجتبى بن الامام
أمير المؤمنين علي بن أبى طالب » ..

وكانت السيدة نفيسة قد وفدت الى مصر مع زوجها « اسحق المؤمن بن جعفر
الصادق بن محمد الباقر بن السجاد على زين العابدين بن الحسين الشهيد » ..
ومكثت بمصر حياتها كلها ، وكان بيتها كعبة القصاد وطلاب الحديث ..

ولما توفيت نفيسة بمصر ، أنشأ لها « السري بن الحكم » مشهدا يليق
بها دفنت فيه ..

ثم مرت السنون .. وبلى المشهد ولم يعد يليق بالطاهرة الثقية ، فكان أن تولى
الوزير الخطير بدر الجمالى أمير الجيوش انشاء هذا المشهد من جديد ..
وقام بدر الجمالى بعد ذلك بمظاهرة مذهبية ، هزت القلوب والأفئدة .. وأعادته
من جديد ذكرى حادث كربلاء الرهيب .. فأشاع بين الناس أن أمير المؤمنين قد
رأى أن ينقل الى مصر « الرأس الطاهر » - رأس الامام الحسين الشهيد ، الموجود
بالمشهد المعروف - فى عسقلان ، خشية أن يعدو عليه جند الصليبيين !

وقيل بعد هذا أن الموابك أعدت لاتمام هذه المظاهرة الخطيرة .. ولكن الظروف
أخرتها لبضعة أعوام قادمة ..

وطال الزمن بالمستنصر .. وظل فى دست الخلافة قرابة الستين عاما ، اذ وليها
وهو ابن سبع سنوات .. وكانما كان حظه واقبال دولته رهينا بحياة «بدر الجمالى» ،
اذ لم يكد الوزير الخطير يلبي نداء ربه ، حتى لحق به المستنصر .. فشابه فى هذا
جده الأكبر العزيز بالله يوم لحق بوزيره الخطير ابن كلس بعد موته بقليل !!
وتولى امامة المذهب بعد المستنصر ولده المستعلى بالله ، ونودى به أميرا للمؤمنين ..
وسارت حياته وحكمه رتيبين .. حتى ذهب ..

وتولى بعده ولده الذى تسمى باسم « الأمر بأحكام الله » ..
والأمر بأحكام الله هذا ، لم يكن له من الخلافة الا التحلى بشاراتها فقط .. ففى
عهده دالت دولة « دار الحكمة » وأغلقت أبوابها ، بعد أن استطاعت فى زمن جده
المستنصر أن تخرج عباقرة مخلصين للمذهب ، أظهرهم « ناصرى خسرو » والداعية
الخطير « الحسن الصباح » ..

وبالرغم من أن دار الحكمة أغلقت أبوابها فى زمن « الأمر » ، الا أنه وجه اهتمامه
بعدها الى الجامع الأزهر .. وكان أن أقدم على توسيع بنائه الرحب وأنشأ الى
جانب بابه الغربى مقصورة فخمة بالغة الروعة ، أسماها مقصورة «فاطمة الزهراء» ..
وعلى هذه التسمية بأنه رأى « الزهراء البتول » فى منام له وهى جالسة تصلى فى ذلك

المكان ، فاسرع يكرم النسبة الشريفة ، تعظيما لابنة سيد الخلق أجمعين ، فأقام هذه المقصورة ، وأطلق عليها اسمها الشريف ..

ولم يتجه الأمر بعد اهتمامه بأمر الجامع الأزهر الى أي مسجد جامع آخر ، حتى لقد تضاءلت بل اختفت في زمنه بعض الاحتفالات الموسمية ، مثل « ليالى الوفود » التى أعادها وزيره « المأمون البطايحي » ، الذى كان من الاخلاص لسيدته الأمر بحيث أعاد له الكثير من سلطانه الذى زال ، ومكنه من مباشرة سلطات الخلافة ، وتبعات الامامة .. وسار المأمون فى الشعب بسيرة التقريب والارضاء حتى أحبه الناس وقد أحب المأمون أن يصفى على جامع عمرو مسحة مذهبية من الدعوة الفاطمية ، فأعد له ذات يوم موكبا عظيما ، ذهب به لزيارة الجامع العتيق ، حيث قدم له القاضى « المكين بن حيدرة » مصحفا قيل فيه أنه مكتوب بخط الامام المرتضى على بن أبى طالب ، ليضاف الى جملة المصاحف النادرة التى كانت موجودة بجامع عمرو (١) ..

وتقبل المأمون البطايحي المصحف فى شيء من الاكبار الشديد .. ووهب الى من قدمه اليه من ماله الخاص ألف دينار !!
وراح الوزير الامين يجمع لسيده مقاليد السلطة ، ويضعها فى يديه .. ثم كان جزاؤه القتل !!

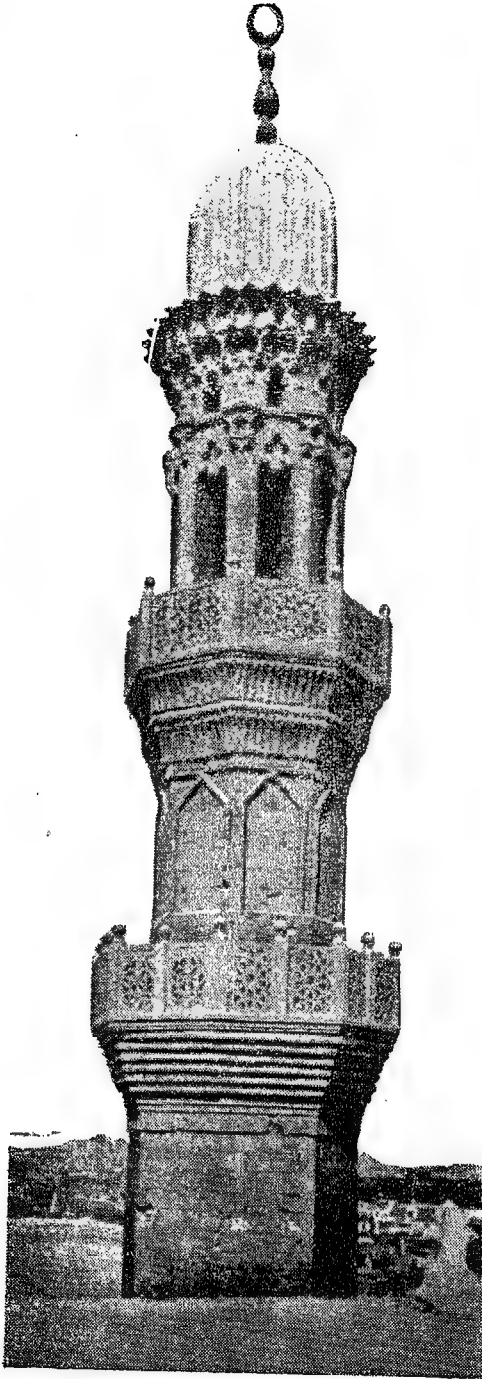
وفرغ « الأمر » بعد ذلك الى نفسه ، واتجه الى العمارة والانشاء .. ورأى أن يقيم له هو الآخر مسجدا ، فكان أن بدأ ، عام اثنى عشر وخمسمائة هجرية - فى بناء « المسجد الأحمر » .. وأنفق فى بنائه مائتى ألف دينار .. وكان للمسجد وقت بنائه صهريج يملئ من مسارب الجامع الحاكمى ..

والجامع « الأحمر » كان طرازا فريدا من المساجد الفاطمية يوم انشائه ، اذ لم تكن له ضخامة الجامع الحاكمى ولا جلال الجامع الأزهر .. ولكنه كان من الدقة والروعة وحسن البناء ، بحيث تميز بالجمال ، وخاصة واجهته الحجرية الفريدة ، التى أفرغ الصانع فيها أبعد مايمكن أن يفرغ فى زخرفة بناء من ضروب التحسين والتجميل والعبقرية الفنية !!

وقد حوت الواجهة كتابات دقيقة بالكوفية ، ونقوشا وزخارف ليس فيها التكرار الرتيب ، بل الاختلاف الواضح الدال على التمكن والقدرة ..
وبقى الأمر بالله فى مركزه الخطير ، حتى وثب عليه بعض عبيده ذات ليلة وهو عائد من احدى نزواته ... فقتلوه !!
وفتحوا باب الحظ لواحد من أبناء المستنصر تولى الامامة والخلافة باسم « أبى الميمون عبد المجيد الحافظ لدين الله » !!

(١) هذا المصحف والآخر المنسوب الى الشهيد عثمان بن عفان ، موجودان بخزانة المحفوظات بالمسجد الحسينى

غروب



لم يكن « ابو الميمون الحافظ لدين الله »
أسعد حظا من الأمر بأحكام الله ، اذ لم يكن
للرجل من الخلافة الا اشاراتها وشعارها ..
اما السلطة فكانت في يد الفير ، واما
« الامامة » وزعامة المذهب فقد ذهبت هي
الأخرى الى غير رجعة ..

لقد فقد الخليفة الفاطمي التعس كل
شيء كان له ولأجداده وآبائه من قبل ..
وغدت الصفة الزمنية رمزا .. كذلك
تلاشت الصفة الروحية .. وانهارت هي
الأخرى ، ولم يستطع أن يرفع من شأنها
سلطان الحافظ باعتباره خليفة وزعيم
دعوة ، لها دعاة ومريدون وأنصار وأعوان !!
وبلغ من ضعة الحافظ وهوانه ان امتنع
الشعب عن دفع الخراج ، وتحزبت ضد
الخليفة كل القوى ، وأصبح وجوده لاقيمة
له .. وكأنه لاشيء !!

وكان طبيعيا أن ينصرف هذا الضعيف
التعس الذي لا مال له ولا نفوذ ، عن التعمير
والاصلاح .. ولكنه رغم هذا لم يستطع
أن يحول دون نفسه وحب اهل البيت
الذين كان يدعى أنه منهم ، فكان ان وجه
اهتمامه الى شخصية لها قداستها ، فبنى
لها مشهدا قريبا من المشهد النفيسي ..

لقد ادعى الفاطميون أنهم أبناء الزهراء
البتول «فاطمة» .. ووصلوا نسبهم اليها
باسماعيل بن جعفر الصادق .. وظل هذا
الادعاء قائما حتى جاء الحافظ فوجه

« مئذنة منجك اليوسفي »

اهتمامه الى « رقية بنت الامام علي » من زوجه الزهراء .. وقال الحافظ لدين الله
في تفسير اهتمامه بها : انها هي جدة الفاطميين ..

ومشهد السيدة رقية يمثل بصغر مساحته ودقة بنيانه شيئين هامين - أولهما تناقص الثراء الفاحش عند الخليفة الفاطمي وضيق ذات يده ضيقا لم يمكنه من بناء مشهد مماثل للمشاهد ، أو المساجد الضخمة التي عرف بها هذا العصر . . وثانيهما الدقة المعمارية وجمال رونقها عند الفاطميين . .

والمشهد كان فضاء رحبا ، يهبط اليه القادم بوضع درجات ، ليجد أمامه إيوانا ذا عقود دقيقة محمولة على أعمدة رخامية مزدوجة ، وصدره على جانبيه شبه محرابين مزخرفين ، وبوسطه باب يؤدي الى الضريح . والقائم الخشبي الذي فوقه مطعم بالأصداف ومنقوش نقشا جميلا . .

وفوق المشهد الذي نسبه الحافظ لدين الله الى السيدة رقية ، قبة فريدة في هندستها ، مما يدل على التمكن والقدرة المعمارية ، فهي مضلعة ، يحيلها قائم مثنى الاضلاع ، بكل ضلع من اضلاعه الثمانية نافذتان مطليتان بالجص ، وراء كل منهما دلافة من الخشب المتداخل الدقيق الصنع . .

أما المحراب الكبير الموجود في صدر المشهد ، فهو مطلى بالجص ، وصناعته وزخرفته تدلان على طول الباع والتمكن الرائع من فن هذه الصناعة بما يقطع بتفوق معمارى رائع . .

والحافظ لدين الله الفاطمي عندما أنشأ هذا المشهد الجليل ، ونسبه الى السيدة رقية بنت علي بن أبي طالب ، قد جانب الصواب في الاختيار . . وأراد أن يضيف الى التاريخ اكنوبة كبرى ، فالطاهرة رقية بنت الزهراء لم تظأ أرض مصر في يوم من الأيام . .

والأشد من هذا غرابة أن اسم رقية نفسه ، لم يرد على لسان أحد طوال عصر الفاطميين بالذات . . ولا حتى على لسان مؤرخى العصور التي سبقت خلافتهم هذه !! والادعاء بوجود قبر رقية بنت الزهراء البتول في مصر ، يحدد ولا شك تاريخا سابقا لحكم الفاطميين بزمان بعيد ، أعنى أنه كان من اللازم أن يشار الى وجود هذا إبان الخلافة الأموية أو العباسية أثناء حكمهما لمصر - ولكن شيئا من هذا لم يحدث على الإطلاق . .

ولو أن قبر رقية كان موجودا بمصر فعلا ، يوم دخلها جوهر الصقلي فاتحا باسم مولاه الامام المعز ، لكان من أبسط مبادئ الوفاء لجدة سيده الكبرى ، أن يتوجه الى مشهدها ليؤدي واجب الزيارة ، ويصل بزيارته هذه بين الخليفة الذي لم يأت مصر بعد ، وجدته المستقرة في رمسها منذ مئات السنين !!

والمعز ، والعزیز ، والحاكم - على مالهم من ثراء خيالي ، وعلى جبههم للعمارة الضخمة - أكان يرضيهم أن يتركوا مشهد جدتهم مجهولا في بقعة مهجورة مجاورة

لخرائب الطولونيين ، حتى يأتى الحافظ لدين الله فيقيم لها هذا المشهد المتواضع ؟!

وخلال الفترات الذهبية في عصر الفاطميين بالذات ، وخلال فترات الصراع المذهبي التي كانت تحدث بين أهل السنة وأتباع المذهب الفاطمي من التشيعيين لـ «علي» والأئمة المنحدرين من صلبه - لم يعرف الناس ، خاصتهم ولا عامتهم وأهل العلم فيهم ، غير مشهدين اثنين هما : مشهد السيدة « نفيسة » ومشهد « كلثم » ، لأنه طالما حدثت عند باب هذين المشهدين مذابح كان يتعرض لها كل من يرفض من الشيعة أن يعترف بأن معاوية بن أبى سفيان هو «خال» المسلمين و.. أيضا خال علي بن أبى طالب !!

ولكن الحافظ لدين الله أراد لصاحبة هذا المشهد الصغير الرائع ، أن تكون رقية.. بنت الامام على بن أبى طالب من الزهراء فاطمة .. وجدة الفاطميين .. فكانت كما أراد .. واصبحت حقيقة أحنى لها التاريخ رأسه وسجلها !!

فصدق الناس ما قيل وتوارثت الاجيال هذا الادعاء الجريء الغريب ..

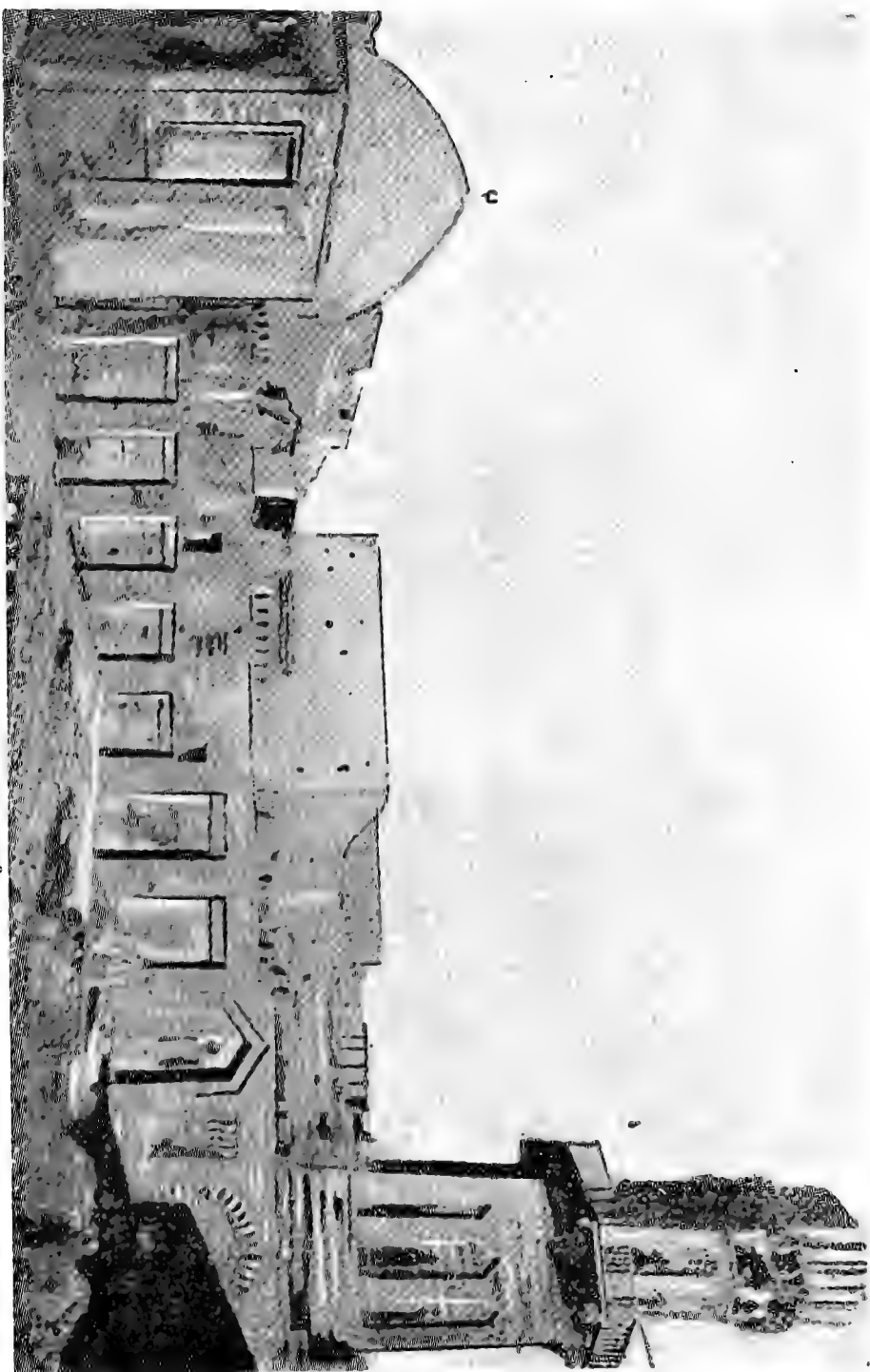
ولكن ، من هى «رقية» هذه ؟! وهل تمت المظاهرة « الحافطية » وموت بسلام .. وأقر بها التاريخ معترفا بصحة حوادثها وصدقها الناس !!

عندما قتل الامام على بن أبى طالب مات عن ثلاثين ولدا وبنتا ، منهم رقية هذه .. وتلقب بـ « رقية الصغرى » لأن رقية الكبرى كانت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزوج عثمان بن عفان ، وماتت وهى فى عصمته خلال غزوة بدر الكبرى .. ورقية الصغرى لم تكن بنت فاطمة الزهراء ، بل بنت « أم حبيب الصهباء التغلبيية » وكانت فى جملة سبايا « الردة » ، فاشتراها الامام «علي» فكانت جاريته .. ونسبت رقية الى أم أخرى هى « أسماء بنت عميس » ولكن الراجح أنها كانت بنت الصهباء ..

ورقية الصغرى لم تكن بنت فاطمة الزهراء ، بل بنت « أم حبيب الصهباء التغلبيية » وسبب إقامة المشهد لها أن « الحافظ » أرسل ذات ليلة فى طلب « عبيد الله ابن سعيد » أحد التقاة المقربين فى عصره ، وقال له : انه رأى فى نومه سيدة تلتف بأزار ، فسألها من تكون ؟! فقالت : أنا رقية ، بنت الامام على بن أبى طالب .. وأنها أرشدته الى موضع معين فقام الخليفة ومن معه وأمروا بحفر ذلك المكان فلم يجدوا به قبراً ، فأحب أن يسجل هذه الرؤيا الطيبة ، فأمر ببناء ذلك المشهد المعروف الذى نسب الى رقية بنت على من زوجه الصهباء ، لا من فاطمة الزهراء البتول !!

ومشهد السيدة رقية المقول بانشائه فى السنة السابعة والعشرين بعد الخمسمائة

الدرسة الصالحية : يشاع بين القصرين ، أنشأها « الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل » في سنة ٦٤١ هـ ، ١٢٤٢ م وقد خصصت للدراسة المذهب الإباضية . وهذه أول مرة يقر فيها ذلك في مدرسة واحدة . ومنذ سنة ٦٤٨ هـ . ١٢٥٠ م انضمت المدرسة مقرا لتواب المبل « محكمة شرعية » للانضام في القضاة والطلاب



من الهجرة ، كان أهم وأعظم عمل ظاهر تم طوال خلافة الحافظ لدين الله - التي كانت بداية المنحدر الذي انزلت عليه خلافة الفاطميين وسارت منه الى الزوال ..

وذهب الحافظ لدين الله .. وورث الخلافة وامامة المذهب من بعده ابنه ، الذي تسمى باسم « **الظافر بالله أبى المنصور اسماعيل** » .. والذي بلغ من مجونه وتهوره أن ترك الخلافة وتصريف شئونها الخطيرة ، وانصرف الى اللهو ، مع «نصر» ابن وزيره عباس ، الذي كان قد استبد بالأمور واستأثر بكل شيء فى الخلافة .. واكتفى بأن ترك لأمير المؤمنين ولده الأثير المحبوب !!

وكان طبيعيا والحالة هذه ، أن تتفشى المظالم ويخيم الجهل ، وتنتشر الخرافات الى حد القول بأن أحد خدم قصر الظافر شاهد من كوة تشرف على حظيرة للماشية جزارا يذبح أحد خرافه ، فلما انتهى من الذبح ترك الذبيحة وذهب لبعض شئونه وترك السكين الى جانب تلك الذبيحة ليذبح بها كبشا آخر عندما يعود ..

والغريب الذى حدث بعد هذا أن «رأس» الذبيحة قد انتقلت من مكانها وأمست بالسكين فى فمها وذهبت فألقت بها فى بالوعة قريبة ثم عادت مكانها !

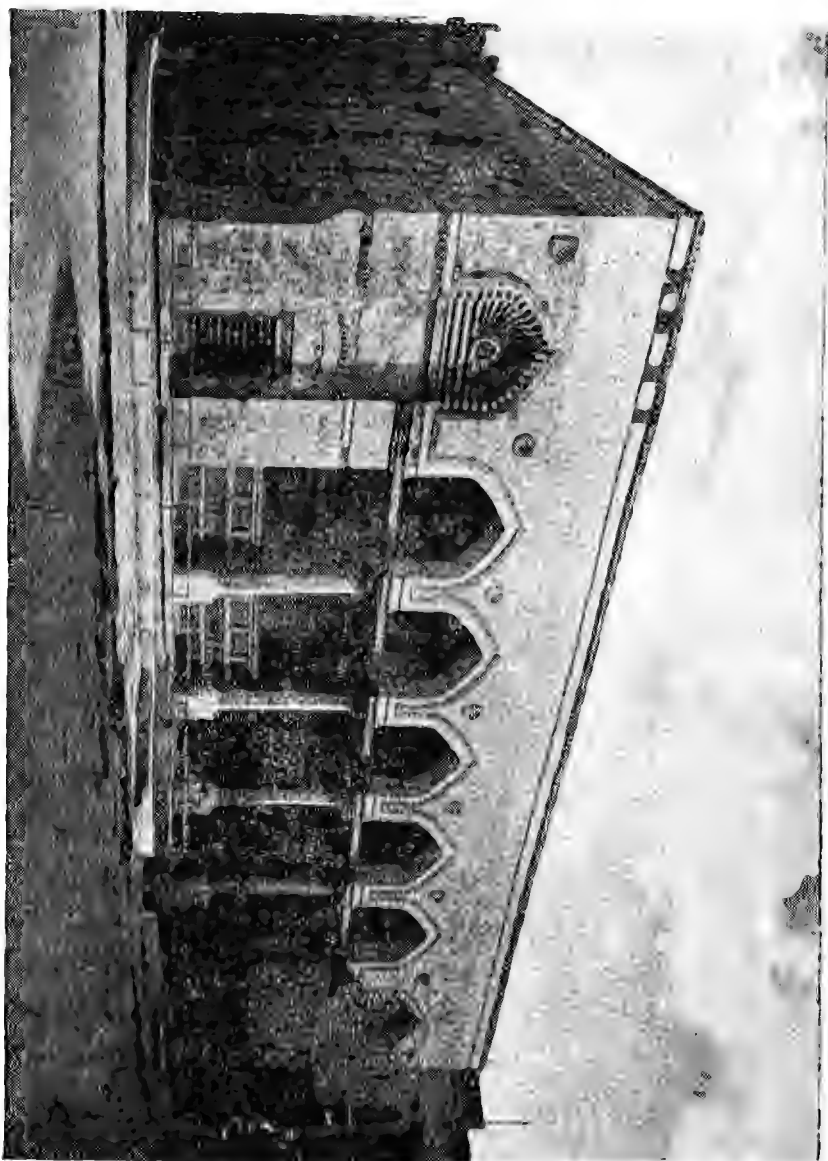
فمعجب خادم القصر لما رأى ، وتزايدت دهشته وظل مكانه ليرى ماذا سيحدث بعد ذلك .. حتى جاء الجزار ، وعبثا حاول أن يجد السكين ، وبالتالي لم يذبح الكبش الآخر ! !

ونقل الخادم مارآه الى سادة القصر .. واعتبر السذج الذين كانوا يحكمون ويتحكمون أن ماحدث كان « كرامة » واجبة التسجيل والاشهار ، فكان أن أمروا « الجزار » بأن يترك « الحظيرة » وما حوت ويذهب الى مكان آخر .. وفعلا حدث هذا !!

ورؤي أن يقام مكان الحظيرة مسجد فخم ..

ولقد كان من الغريب أن يهتم الظافر الضليل ببعض شئون الدين ، وأن يفكر فى مسامرة سنة آبائه فى اهتمامهم بالعمارة وتشيد المساجد العظيمة ، فكان أن بنى له هو الآخر مسجدا سمي وقتها باسم « **المسجد الافخم** » .. ولكن الله المنتقم قد أبى ، جلست ارادته ، أن ينسب هذا البيت الطاهر الى بانيه الماجن ، فكان أن نسب الى مجهول لا جاء له ولا سلطان ، وسمى من وقتها باسم « **مسجد الفكهاني** » ، وأوقفت عليه الحوائث الواقعة اسفله ..

وكان من آيات غضب الله على الظافر ، أن تأمر عليه وزيره عباس وولده نصر الأثير المقرب من الخليفة الماجن .. فاستدرجاه وهو خارج من أحد أماكن لهوه فى قصرهما وقتلاه ، وألقيا بجثته فى بئر .. ثم أشاعا بعد ذلك أنه ركب مركبا غرق به .. وناديا بورثته أميرا للمؤمنين واماما للمذهب الفاطمى باسم « **الفسائز بنصر الله** » !



مسجد الصالح طلائع بن رزيق وزير الملك بنصر الله الفاطمي وهو آخر جامع انشي في عهد الدولة الفاطمية سنة ٥٥٥ هـ ، ١١٦٠ م وهو على رأس تقاطع شارع الدروب الاحمسي ..

وشب الفائز بنصر الله ، وكابوس عباس وولده نصر يجثمان على صدره ، ويملآن أحلامه بالرعب والفرع ، ويشعرانه بأنه ليس أكثر من العوبة تافهة في أيديهما القوية . . . وأنهما اللذان غمراه بفضل منهما واحسان يوم رفعاه الى سرير الخليفة وأعطياه ملك أبيه . . . تكرما منهما ولم يرسلاه الى حيث ذهب الماجن العرييد أبوه !!

* * *

ولقد مرت السنون و « الفائز » مستسلم الى طغيان عباس وولده ، وقد أرغماه على الاعتقاد بأن واجب الوفاء لصنيعهما أن يسكت ، وأن يرضى بالتسليم ويطلق أيديهما الملوثة بدم أبيه تتصرف في شتى الأمور !!

ولكن . . . لم يكن سليل الفاطميين بهذه البساطة التي تصورها كل من الفاصيين السفاكين ، اللذين نسيا أن الحية لا تلد غير الحية . . . وأن حفيد المهدي الذي قتل داعيته ، لا بد وأن ينتقم ، وبنفس الوسيلة . . . وأن الدم الذي جرى في عروق الحاكم برجوان ، والآخر الذي غدر بالأفضل ، وتلاه بالمأمون البطيحي — هو نفسه الدم الذي يجري في عروق الفائز ، دم الغدر والتوئب وحب الاغتيال !!

وهكذا أخذ الفائز يتربص الدوائر بفاتلى أبيه ، وعرف كيف يتخير الأداة القاطعة التي وجدها في شخص حاكم اقليم « المنيا » طلائع بن رزيق ، فأرسل في استدعائه هو ورجاله وعبيده ، ليقوض سلطان عباس الخائن ، وينتقم للدم المسفوك !!

وحضر « طلائع » الى القاهرة . . . وما أن دخلها حتى فر عباس وولده . . . وصفا الجو للفائز ووزيره الجديد ، الذي كوفى أعظم مكافأة ، وقدمه أمير المؤمنين على شتى رجال الدولة وأضفى عليه الرتب والألقاب وسمح له بأن يسمى نفسه « الملك الصالح » فارس المسلمين « نصير الدين طلائع بن رزيق » . . .

وأخلص « طلائع » لسيده . . . واستطاع بصبره وجلده أن يطعم الدولة المحتضرة بدم جديد ، كفل بقاءها لبضع سنوات . . . فراح يعمل ويوطد ، ويرسى دعائم العرش القلق المضطرب ، حتى ضمن للفائز أن يستقر في سلام ، وأن يفكر في التعمير . . . في الوقت الذي كانت فيه البلاد المقدسة مسرحا لتطاحن ديني رهيب ، أثارته أوروبا وحركة تعصب « باباوات » روما ضد سماحة الدين الاسلامي ، فدفعوا الفرسان والمتحمسين من الملوك والامراء الى ما أسموه « الحرب الصليبية » لاستخلاص قبر السيد المسيح ! !

وكانت «عسقلان» في تلك الفترة بالذات مهددة بالسقوط في أيدي الصليبيين الذين استولت قواتهم المحاربة على بيت المقدس ، وأسسوا لهم هناك ملكا ، أحاطوه بأمارات متعددة في البلاد التي سقطت في أيديهم . . .

و «عسقلان» التي كان الخطر الصليبي يتقدم منها ، كانت مدينة لها قداستها عند

المسلمين بصفة عامة ، والفاطميين بصفة خاصة ، اذ كان بها مزار يحوى رأس الامام الحسين ..

وكان مجرد تقدم الصليبيين الى هذه المدينة ذات الصفة الخطيرة ، رغبة في احتلالها وتكوين امارة صليبية بها - كافيا لأن يثير الذعر من أجل المشهد الطاهر والرأس الشريف الموجود فيه .. واذن فمن الحكمة القيام بعمل حاسم وسريع والا وقعت الواقعة !!

وكان طلائع بن رزيق فى هذه الآونة قد وصل الى اعلا مراتب المذهب الفاطمى ، ووصل الى درجة خطيرة من درجات « الارتقاء » المذهبى .. ولهذا فقد اثاره أن يسمع بتقدم الصليبيين من عسقلان ، وفيها مزار الامام العظيم الحسين بن على .. وخاف أن تقع المدينة فى ايدي العدو المهاجم فتحدث الطامة ، ويستولون على المشهد والرأس الشريف !!

ورأى طلائع بن رزيق أن يعرض الأمر على الخليفة « الفائز » ، ناصحا بأن يسرع بالامر لنقل الرأس الشريف الى القاهرة ، لما فى هذا من دعاية مذهبية له ، واكتساب لعطف المسلمين ..

وبارك الفائز الفكرة .. وأسرع طلائع فنقل الرأس الطاهر فى موكب فخيم ، اثار الشجون ، وجدد ذكريات « مناحة عاشوراء » حتى وصل الى القاهرة فى تابوت من الفضة ، حيث دفن أول مادفن فى « قصر الزمرد » وفى سرداب سرى فيه ..

وقد اراد الصالح ، تحمسا منه لمذهب الامامية الفاطمى ، أن يقيم للرأس الطاهر مسجدا يليق بمكانة صاحبه الشهيد سبط الرسول ، فكان أن رصد له المال اللازم ، وأمر بالاسراع فى اقامته .. فتم ذلك فى عام خمسة وخمسين بعد الخمسمائة من الهجرة .. وافتتح لأداء الشعائر ، وجلس فيه للوعظ والارشاد والدراسة أول من جلس الفقيه « زين الدين الواعظ » وقد اعتاد الصالح طلائع أن يحضر مجلسه ..

ومسجد الصالح طلائع بن رزيق يمتاز عن شتى المساجد التى أنشئت فى العصر الفاطمى بدقته وبكثرة « العقود » التى تزين واجهاته الثلاث. والمسجد مبنى بالحجر، وبابه الرئيسى فى الجهة الغربية ويوصل الى « رواق » محمول على أربعة أعمدة من الرخام تعلوها « عقود » مزخرفة ، وعلى « أفاريزه » كتبت آيات من القرآن الكريم بالخط الكوفى ..

وعلى الواجهة البحرية كتب اسم الملك الصالح طلائع منشىء المسجد ، وألقابه التى كان يتسمى بها وتاريخ الإنشاء ..

والمسجد يتكون من « ايوانات » أربعة يتوسطها صحن كبير به « صهريج » كان يتلىء من ماء « الخليج » أيام الفيضان ..

ولما كان الصالح طلائع من غلاة المتشيعين للمذهب الفاطمي ، فلا بد وأنه قد جلس في مسجده هذا للدراسة في كتابه الفقهي « الاعتماد في الرد على أهل العناد » ، ليجادل الناس في امامة سيدنا على المرتضى والاحاديث الواردة المثبتة لهذه الامامة .

والغريب بعد هذا أن الرأس الشريف لم يدفن بهذا المسجد ، ، ولعل الخليفة الفائز رأى لبعض اعتبارات تتعلق بمكانته ، أن يقوم هو ببناء مشهد خاص ينقل اليه الرأس من قبر « قصر الزمرد » بدلا من المسجد الذي أنشاه الوزير طلائع . .

فقد بدأت الخلافة تدرس اقامة « المشهد الحسيني » حيث هو . . ونقل اليه رأس الامام الشهيد في موكب حافل جديد ، حيث استقر في مكان حوى الجمال ودقة الصنع ، حتى لكأنه روضة من رياض الجنة !!

وغير المشهد الحسيني ، ومسجد الصالح طلائع ، لم نسمع بوجود نهضة معمارية في عهد « الفائز » . . الذي ما أن مات حتى جاء بعده ولده العاضد . . وكان وزيره ومشيره هو الصالح طلائع ، الذي لم يعرف الخليفة الجديد كيف يحتفظ به ، ليكون دعامة لبقاء ملكه . . فكان أن حاك مؤامرة للقضاء عليه ، ثم كمن له في بعض « دهايلز » القصر عدد من عبيد العاضد ، وثبوا عليه وقتلوه !!

قتل الصالح طلائع والصليبيون يتقدمون . . كانت عسقلان قد سقطت في أيديهم . . وكان الطريق قد انفتح أمامهم لغزو مصر والاستيلاء عليها وهي يومئذ سهلة ، اذ لا خليفة قوى ، ولا وزير محنك ، ولا جيش منظم موحد القيادة !!

وكان أنسط مايمكن ان يترضى به العاضد ، ابن وزيره طلائع — هو أن يجعل الابن في مكان ابيه . .

وهكذا تولى « العادل رزيق » الوزارة . .

ولكن . . هل سكتت عنه مؤامرات الخليفة الضعيف المستسلم الى اهل الكيد وصناع المؤامرات ؟ !

لقد استعان العاضد برجل من حاشيته امتاز بالدهاء وعرف بسرعة الوثوب على ضحيته ، هو « شادر بن مجير السعدى » ، فجعله ينازع العادل رزيق الوزارة . . حتى تغلب « شادر » في النهاية وقتل العادل !!

ولكن الله كان بالمرصاد للقاتل ومن حرصه على ارتكاب جريمة القتل وسفك الدم الزكى ، الذى عرف صاحبه كما عرف أبوه بالوفاء والأمانة والاخلاص ، وسرعان ماظهر لشادر خصم رهيب هو « ضرغام » حاجب الخليفة !

واستبد النزاع بين « شادر » و « ضرغام » الذى استطاع في النهاية أن يزيع منافسه من طريقه ، وقضى على آماله فى الحكم . . فكان أن أقسم « شادر » المغلوب ، على الانتقام ، وأسرع فاحتفى بالسلطان « نور الدين محمود » صاحب حلب . . وتوسل إليه ان يمه بحملة قوية تعزل « ضرغام » المغتصب وتعيد اليه مركزه المفقود . .

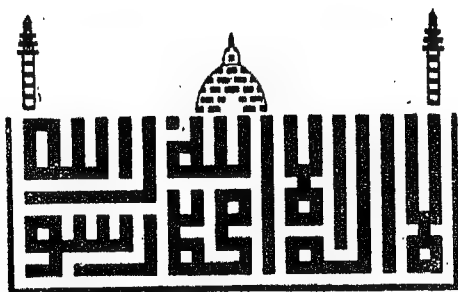
وأثار عمل «شادر» حنق ضرغام .. وأسرع دون الرجوع الى مشورة الخليفة ، فاستنجد بالصليبي «أمورى» حاكم بيت المقدس المنتظر في عسقلان والطامع فى غزو مصر ..

وتحرك الصليبيون نحو الهدف .. وأسرت قوات السلطان نور الدين لتلحق بهم تحت قيادة أسد الدين شيركوه .. فهزمت الصليبيين وقوات ضرغام الموالية لهم .. وقتل ضرغام .. وخلا الجو لشادر من جديد .. ولكن طبيعة القدر سرعان ما عاودته ، فأراد التخلص ممن أنقذوه وأعادوه الى السلطان ، فكاتب الصليبيين ليعودوا من جديد !!

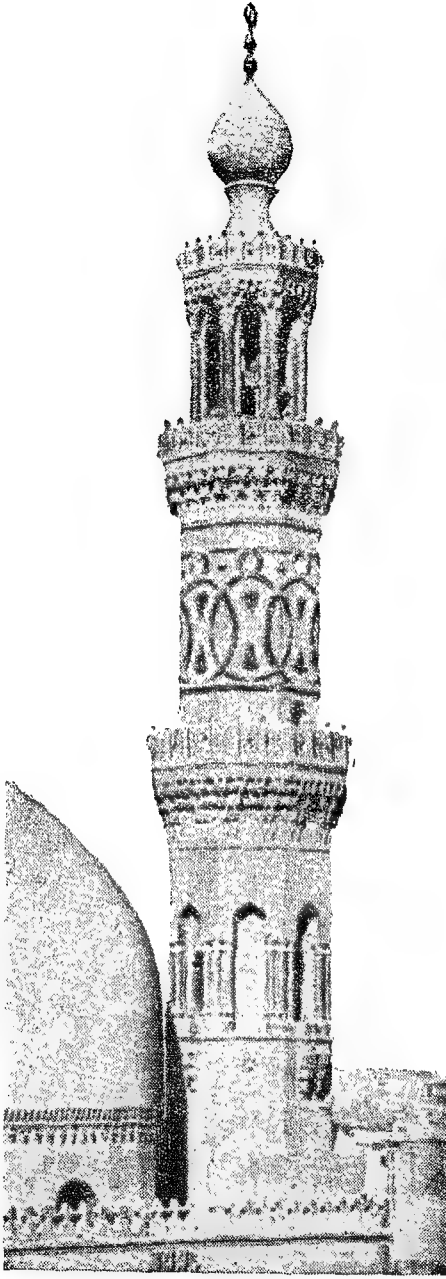
واستمرت المناورات .. وتطور النزاع .. وعاد الصليبيون الى مصر غازين بعد أن هزمتهم قبلا قوات شيركوه .. وخشى شادر من تقدمهم الذى اقترن بالفظائع .. ولما كانوا قد وصلوا فى زحفهم الى الفسطاط أمر بإحراقها .. فأحرقها زبائيته ، وظلت النيران مشتعلة بها خمسة وأربعين يوما !!

وأكلت النيران الفسطاط ، المدينة المصرية العربية الحبيبة .. ولم يسلم من شرها مسجدها الجامع العظيم الذى أنشأه عمرو بن العاص وخصه الولاة والخلفاء بكل اهتمام فى شتى العصور التى تلت الفتح الإسلامى ..

لقد خشى مؤمن الخلافة جوهر أن تعود فيه الخطبة لبنى العباس ، فأقسم ليركته قاعا صفصفا .. فأمر «ابن سماقة» أحد أتباعه بأن يشعل فيه النار ففعل !. واستنجد الخليفة العاضد بالسلطان نور الدين محمود .. فعاد شيركوه ودخل بقواته مصر وكان فى بطانته ابن أخيه صلاح الدين .. وعلى هذه الصورة من صور الصراع ، بدأت شمس الفاطميين تغرب ، ويتلاشى شعاعها الى الأبد ..



شروق



عندما نودى بالحاكم أميرا للمؤمنين بعد
أبيه العزيز بالله ، سأل بعض خاصته أن
ين عليهم بتسمية ، وأن يحرر لهم مكتوبا
يحوى عدة نعوت وصفات تضاف على
الخلفاء الفاطميين في مصر على كر الدهور .
فراقت الفكرة للحاكم وراح يلى على تابعه
عدة القاب كثيرة ، كان فيها « الظاهر »
و « المستنصر » و « الأمر » وغيرهم . . حتى
وصل في النهاية الى « العاضد » ثم توقف !!
وعاد التابع يسأل مولاة مزيدا من القاب
الخلفاء . . ولكن قريحة الحاكم لم تسعفه
بشيء بعد « العاضد » فقال : ان هذا يكفى
وكانما كانت تلك الكلمة نبوءة من الخليفة ،
سرعان ما حققتها الظروف نفسها ، لأن
« العاضد » فعلا كان آخر أمير للمؤمنين
من نسل الفاطميين . .

لقد كانت حياة العاضد حياة مضطربة
قلقة . . وكانت خلافته فترة من فترات
الاضطراب الرهيب على الجاه والتسابق
على السلطة بين خاصته وأتباعه ، الذين
صغر أمير المؤمنين في أعينهم فلم يحسبوا
لوجوده أي حساب . . وبلغت منهم الجراءة أن فاوضوا « الغير » على دخول
مصر . . وأباحوا لهم تملكها والخليفة على قيد الحياة !!
وقتل ضرغام . . ولحق به « شسادر » الطامع الذي باع مصر للصليبيين . . وقفز

« مئذنة السلطان برقوق »

الى مكان الصدارة « أسد الدين شيركوه » قائد السلطان « نور الدين » ، فأصبح ،
وهو التابع لصاحب حلب وزيرا للعاضد الفاطمي ..

ومر عام .. ومات شيركوه ، وسرعان مافتح المجد ابوابه لصالح الدين ابن أخيه ،
فأصبح بين يوم وليلة قائد الجيش السلجوقي التابع لسلطان حلب .. ووزير
الخليفة الفاطمي العاضد ..

وكان العاضد من الهوان بحيث لم يحفل به أحد .. واتفق وزيره الكبير
صالح الدين مع سيده الأول الأصيل «نور الدين» على الحكم باعدامه « أدبيا » ..
وذلك بأن تقطع « الخطبة » عنه .. وتكون للسلطان نور الدين التابع للخليفة العباسي
في بغداد ..

وترث صلاح الدين .. وراح يعمل في حكمة وحذر ليرضى كلا الطرفين ، ودون
أن يثير أحدهما عليه .. فذكر اسم العاضد في الخطبة أولا ، وأمر بالدعاء بعده
للسلطان نور الدين - مع بعد الفارق بين مذهبي الرجلين ، فأولهما فاطمي شيعي ،
وثانيهما « سني » يعتبر الاول من الروافض !

وسار صلاح الدين سيرة العدل ، ولكنه أحس بأن أفعى المؤامرات بدأت ترفع
رأسها في القصر من جديد ، فأخذ حذره وهو الشاب الفطن الذي لم يكن قد تخطى
الثلاثين من عمره وقتها ، والذي علمته الحروب التي خاضها كيف يتقى الهجوم
المفاجيء .. وكيف يفاجيء عدوه ويقضى عليه ..

ولما كان « جوهر » مؤتمن الخلافة ورئيس حرس الخليفة الذي أمر قبلا باحراق
جامع عمرو أيام حريق الفسطاط - هو الذي يقود الفتنة ضد صلاح الدين ، وينسج
شباكها لاغتياله ، فقد عجل الشاب « فتغدى بالعبد الخائن قبل أن يتعشى هو به » !

ورأى صلاح الدين بعد هذا ان يسفر عن وجهه ووجه سياسته ، وأن يترك
جانب مجاملة العاضد الضعيف الخائن الذي لا يعرف غير المؤامرات ولا يستمع لغير
الخونة .. فكان أن استجاب لمشورة سيده الأول « نور الدين » فقطع الخطبة عن
العاضد .. وكان قطعها بمثابة المنادة بخلعه وتجريده من سلطانه ..

ولم يعمر العاضد بعد قطع الخطبة عنه واعادتها الى الخليفة العباسي ، غير يوم
أو بعض يوم ..

ولقد قيل انه مات ، وقيل انهم دسوا له السم ، وقيل انه انتحر حزنا ولما ..
وأبى القائلون بانتحاره الا أن يكون انتحارا فخميا ، لا يشبه انتحار العاديين من
الناس بالسم أو السلاح ، بل قالوا : انه انتحر بابتلاع قطعة كبيرة من الماس تقدر
بمئات الألوف من الدينار !!



قبة الامام الشافعي : انشأها الملك الكامل المظفر في الدولة الايوبية سنة ٦٠٨ هـ ، وانشأ بجوارها السلطان صلاح الدين الايوبي المدرسة الصلاحية لتدريس الفقه - والامام الشافعي هو الامام أبو عبد الله محمد ابن ادريس الشافعي القرشي يجتمع نسبه لآبيه مع رسول الله في « عبد مناف » واهه فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وسواء مات العاضد أو انتحر ، فان ذهابه كان ايذانا بذهاب دولة الفاطميين ، التى حكمت مصر والشرق أكثر من قرنين ونصف قرن.. وايدانا باشراف مجد صلاح الدين المحارب الشاب الذى أحس أن فى مصر مجده ، فراح منذ اللحظة الاولى لتولية السلطان يعمل على استتباب مركزه وتقويته بثتى الأسباب ..

وهكذا ، ومع مطلع هذا العهد الجديد فقدت مصر مركزها كدار خلافة وعادت الى مركزها الاول ، ولاية محكومة تدين بالطاعة لسلطان الخليفة العباسى الذى كان يتحكم فى أقداره السلاطين السلاجقة التابعين له ، والذين كانوا يحكمون باسمه سائر أمصار الدولة الإسلامية ..

وتبدى لصلاح الدين حرج مركزه فى مصر من اللحظة الاولى ..
كان سنيا ، وكانت مصر فاطمية شيعية ..
وكان عليه - كرجل حرب - أن يدحر القوى الفكرية والمذاهب الدينية التى تخالف مذهبه ..

ولكن .. ماذا كان عليه أن يفعل ؟ !
أكان يستطيع فى لحظة واحدة أن يقضى على آثار غرسها الفاطميون فى أرض مصر طوال قرنين ونصف قرن ؟ !
أكان بوسعه فى كلمة واحدة يصدرها أن يحرك العقول والأفكار ، ويعلم زوال المذهب بعد زوال سلطان أصحابه ؟ !

كل شئ فى مصر كان فاطميا صرفا : العاصمة .. مساجدها الجامعة .. جلسات العلم فيها .. آراء الناس .. معتقداتهم !!
وظل صلاح الدين يفكر .. وراح يسائل نفسه من جديد : أيترك «القاهرة» ليبعث له عن مكان جديد ينشئ فيه عاصمة جديدة ومسجدا جامعا هو الآخر !!
لم تكن الظروف تسمح بمثل هذا العمل اطلاقا .. كان التغيير الجديد يتطلب الثبات والاستعداد ، فالدولة الجديدة دولة حربية ، ان لم تكن قد دخلت فى ميدان حرب فهى انما تستعد لخوضها فى القريب ضد قوات الصليبيين ..

اذن ، فالواجب هو القضاء على المذهب الفاطمى نفسه شيئا فشيئا ، ارضاء للخليفة العباسى وللسلطان نور الدين .. وفى ذات الوقت لعدم ازعاج شعب مصر واجباره على اتباع مذهب جديد ..

لقد أحس صلاح الدين بعجزه أمام القاهرة ، فلا هو استطاع أن يهجرها ، ولا هو استطاع أن يغير مذهبها الفاطمى .. فتركها على حالها وراح يبعث عن أخطر عدو له ليحاربه .. وأى شئ كان أخطر من الجامع الأزهر فى حلبة الصراع ؟!

كان الأزهر مركز الدعاية الفاطمية ومدرستها الخطيرة ، التي كان يخرج فيها الدعاة ، ويتعلم الناس منه أسرار المذهب .. فالضربة اذن يجب أن توجه من صلاح الدين الى هذا الجامع الخطير !!

وبدأ صلاح الدين بالأذان الفاطمي ، فأصدر أمرا بالفائه .. ثم ألقى من بعده جميع الشارات والشعائر والطقوس التي استنتها الفاطميون .. ثم ألقى منصب داعي الدعاة ، وأسند منصب قاضي القضاة الى فقيه شافعي ، هو « عبد الملك بن درباس » .. فكان في هذه الأعمال مجتمعة مايعنى اعلان بطلان المذهب الفاطمي وطقوسه .. وفيه أيضا دعوة تلميحية للناس أن يتبعوا السياسة الجديدة ، والمذهب السني الجديد .. ولا بأس من أن يتبعوا مذهب الامام الشافعي بالذات ، لانه معروف لهم جميعا كامام مجتهد كانت له آراء وتعاليم ودراسات في مصر نفسها .. ثم انه مدفون في أرضها الظاهرة ..

وظن صلاح الدين أنه استطاع أن يكسب الجولة الاولى .. ولكن خاب ظنه ، اذ لم تكد احدى المناسبات الموسمية تقبل ، حتى اتجه الشعب بجميع طبقاته الى الجامع الأزهر للاحتفال بها ، جريا على العادة المتبعة ، فخرجت المواكب وأضيء الجامع الشامخ العتيذ وتألقت أنواره ، وأضيئت الطرق المؤدية اليه ، وامتلات باحاته وصحنه بالناس .. بل واتجهت مواكبهم بعد هذا الى قصر الخليفة الذي كان قد مات .. فابوا في حفلهم التقليدي الا أن يبعثوا ذكراه من جديد !!

وتبدى الجامع الأزهر في صورة العدو العملاق الذي عز نيله على صلاح الدين !! ما العمل اذن ؟ !
أ يكون حاكم مصر سني المذهب ، وسيده السلطان نور الدين سنيا أيضا ، وخليفته عباس يكره الشيعة ويحرم اتباعها ، ثم تكون مصر فاطمية شيعية ، حتى بعد زوال الخلافة وشخص الخلفاء ؟ !

ولئن كانت القوى المادية قد عجزت عن الوقوف أمام سلطان الأزهر المتمكن في النفوس ، فلم لا يستنجد صلاح الدين بسلطان الشريعة نفسها ويلجأ الى حكم الدين ، فقد يجد فيه منفذا الى تحطيم هذه الدعوة التي لا سند لها من الدين !!
ولم يجد حاكم مصر الشاب من يلجأ اليه في حيرته تلك غير قاضي قضائه الشافعي عبد الملك بن درباس ، فبعث اليه وشرح له الأمر وسأله فيه المشورة .. وحكم الدين !!
كان ابن درباس يعرف مدى خطورة الدور الروحي الذي يقوم به الجامع الأزهر في الحياة العامة .. وكان يعرف ماكان يرمى اليه الحاكم السني من رغبة في تقويضه ..

سلطان الأزهر باعتباره منارة المذهب الشيعي المناويء لمذهب الدولة الرسمي ..
فكان أن نصح صلاح الدين بأن يتحول الى الجامع الحاكمي فيؤدى فيه صلاة الجماعة
في المناسبات وايام الجمعة ..

وأطاع صلاح الدين وتحول الى الجامع الحاكمي .. وتحولت معه الدولة بالتبعية
من كبار الاعيان والشخصيات وجماهير العامة .. ولم تمض مدة وجيزة حتى أصبح
الجامع الحاكمي هو مسجد الدولة الرسمي ..

وسأل صلاح الدين صاحبه الفقيه القاضي ابن درباس أن يخطو خطوته الثانية
نحو هدفه الاصيل ..

ووجدها الرجل فرصته بعد التمهيد الأول ، فكان أن أصدر فتوى على المذهب
الشافعي تقضى بعدم جواز اقامة خطبتين للجمعة في مسجدين يقعان في بلد واحد !!

وكانت هذه الفتوى بمثابة صك حرمان للأزهر ، وتجريد من النفوذ ، وإبطال
لصلاة الجماعة فيه ، مادام الجامع الحاكمي قد أصبح المسجد الرسمي للدولة !!

واتجه صلاح الدين - بعد أن أغلق أبواب الأزهر دون صلاة الجماعة - الى مسجد
آخر ، وقد استقر عزمه على أن يبعثه من جديد وأن يجعل الحياة تدب فيه ..

كان هذا المسجد هو جامع عمرو بن العاص الذي احترق يوم حريق الفسطاط
وهو يومها امام المساجد وأشهرها .. أما اليوم فانه خراب بلقع معطل عن أداء
الشعائر كلها بما فيها حلقات الدراسة التي اشتهر بها وعرفت عنه ..

ولقد كان اتجاه صلاح الدين الأيوبي الى جامع عمرو بالذات لتعميره واعادة سابق
عزه اليه ، ضربة سياسية موفقة ، وكافية لأن ترد عنه ماكان يستطيع قلاته أن
يرددوه من افك وضلال .. وادعاء بأن رجل الحرب الطامع ، لم يكتف بأن قوض
عرش الفاطميين وأذهب عنهم ملكهم .. بل راح يحارب أعظم مساجدهم وهو
الجامع الأزهر ، ليقضى على سمعته ويهدم مكانته بتحريم أداء صلاة الجمعة فيه
وتحويلها الى مسجد آخر لا يدانيه مرتبة ولا يقف الى جانبه في مجالى الشهرة
وبعد الصيت ! !

* * *

وبدأ صلاح الدين أول مابداً من اصلاح في جامع عمرو بن العاص ، فأعاد بناء
الصدر والحراب الكبير وكساه بالرخام وزينه ونقش عليه اسمه والمناسبة التي دعت
الى هذا التجديد ..

وفي «سقاية» قاعة الخطابة ، أوصل صلاح الدين قسبة تصل الى أعلا المسجد ،
ليعم الانتفاع بها هناك ..

وكانت تحت المئذنة الكبيرة «منظرة» تهدمت ، فعمرها أيضا وجعل فيها سقاية ..

وكذلك جدد في كتف دار عمرو بن العاص الصغرى من ناحيتها البحرية ، وزاد فيها قسبة أخرى حتى وصلت الى محاذاة السطح ، وجعل لها مرفقا يوصل اليها . .
 ووجه عنايته بعد ذلك الى المكان الذى كانت تحفظ فيه المزاويل ، فعمره وحسنه وأصلح المزاويل نفسها ، وضبط مواقيتها واتجاهاتها الشمسية وأعادها الى العمل من جديد . .

وأمر صلاح الدين فنزعت المناطق الفضية التى كان المستنصر الفاطمى قد جمل بها صدر المحراب الكبير والعمودين المحيطين به . . ثم أمر بأن تنزع هذه المناطق أيضا عن جميع أعمدة المساجد فى القاهرة . .

وهكذا . . وبعد أن أعاد صلاح الدين لجامع عمرو سابق روائه ، وبعث فيه الحيوية من جديد - أمر بطلاء جدرانه كلها وتجديدها . . وعهد الى تنظيف أعمدته الكثيرة وأصلح رخامها واستبدل المهدم منه بآخر جديد . .

ورأى أن يعم التججيل كل شئ فيه . . حتى أرضه ، فقد أشار بأن تفرش كلها بالرخام الناصع . .

وبدا الجامع وكأنه لثىء حديثا . . وأقبل عليه الناس فرحين داعين للحاكم الشاب الجديد ، الذى أضفى على الجامع العتيق روعة وجلالا . .

وأصبح لجامع عمرو بن العاص بعد اتمام هذه الزيادة الايوبية عدة أبواب ، هى :
 الباب المعروف بباب « الزير تحت » فى الجانب ، وهو الباب الذى اعتاد أن يدخل منه الخطيب . .

وثلاثة أبواب فى ناحيته الغربية ، اولها ناحية الزيادة الشرقية ، وثانيها فى الزيادة الغربية - وهو الموصل الى مجلس الحكم الشافعى ، وثالثها فى بقية الزيادة الغربية . .
 وخمسة أبواب فى الجانب البحرى على صف الطريق العام - وهى :

باب الشرايين ، وباب زاوية فاطمة ، وباب عمرو - وهو المقابل لداره الصغرى ، وباب الحلوانيين ، والباب الجنائزى - الذى تدخل منه الجنائز ، ويعرف أيضا بباب الكحل . .

وأربعة أبواب فى جانبه الغربى ، اثنان منها فى زيادته الغربية ، والثالث باب سوق الغزل ، والرابع باب الاكفانيين . .

وفتح المسجد بعد هذا للصلاة . . وعادت اليه حلقات الدراسة التى اشتهر بها . . واستعاد عزه وقديم مجده على يد صلاح الدين .

ثم رأى السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، بعد أن شجع على إعادة الدراسة فى جامع عمرو - أن يستمر فى محاربة الجامع الأزهر ، لا بتحريم جلوس العلماء فى

باحاته وصحنه ، ولا يحظر الدراسة فيه ، ولا باغلاقه نهائيا في وجوه الطلاب .. بل بسلاح العلم نفسه ..

لقد أفتى ابن درباس بتحريم الصلاة الجامعة في الجامع الأزهر ... فلم لا يقوم العلم بدوره الى جانب الدين في محاولة تجريد الجامع الأزهر من جلاله العلمي كمدرسة عظيمة الشأن ، لها صيتها في شتى جوانب العالم الاسلامي .. واليهما يفد الطلاب وراغبو المعرفة من شتى الجهات والبقاع !!

واستقر الرأي على انشاء عدد من المدارس ، تقوم المناهج الدراسية فيها على انقاض المذهب الفاطمي .. وتقضى على كل اثر لدعوة الشيعة .. حتى تحررت مصر من كل اثر يتصل بالفاطميين وتقاليدهم وأعيادهم وعاداتهم التي استحدثوها في المجتمع المصري ، واستطاعوا مع الزمن أن يغرسوها في النفوس ، فأصبحت بضعة من كيان الشعب ..

وهكذا أخذت المدارس « السنية » تنتشر في مصر ..

وكان صلاح الدين عمليا الى حد بعيد ، فأنشأ المدرسة « الناصرية » وكان مركزها مدينة « الفسطاط » على مقربة من « جامع عمرو » وقرر على الطلاب فيها دراسة مذهب الامام الشافعي ..

ولما رأى صلاح الدين أن الاقتصار على فقه الشافعي ومذهبه كمادة للدراسة لا يفي بالفرض الذي أراده ، عمل على توسيع اختصاص المدرسة والحق بها مدرسة أخرى ، قرر على الطلاب فيها دراسة مذهب الامام مالك .. وحبس لهاتين المدرستين أحباسا كثيرة من أرض زراعية وعقار ، ومنح طلابهما في سخاء أكثر مما كانوا ينتظرون ، الى حد أنهم أطلقوا على الدار التي كانوا يدرسون فيها فقه مالك « المدرسة القمحية » ، لأنها اعتادت أن توزع القمح على أساتذتها وطلابها مما كانت تقله الأرض الزراعية الموقوفة عليها في اقليم الفيوم ..

واتجه السلطان الجديد ، بعد أن أغلق الأزهر وأنشأ المدارس ، ليتحول الطلاب اليها - الى أمهات الكتب والمصنفات التي أخرجها كبار فقهاء الشيعة وأئمة المذهب الفاطمي ، ففرض عليها ، اما بالاحراق أو الاخفاء فارتكب بذلك خطأ تاريخيا جسيما ، اذ سد الباب أمام الباحثين عن حقيقة المذهب الفاطمي الذي نشأ غامضا ، واستمر غامضا .. وقضى وهو أشد مايكون احتفاظا بغموضه !!

ولكن ، هل أفلحت القوة ووسائلها في صرف الناس عن الجامع الأزهر وجالسي العلم التي ظلت قائمة في صحنه برغم كل ماحدث ؟!

كلا ؛ فقد عاد للأزهر مكانه العلمي ، بعد أن خلع عنه رداء « المذهبية الشيعية » وظل مفتوح الأبواب لاستقبال طلاب العلم الذين لم تنقطع به صلتهم وظلوا يفدون

عليه من شتى بقاع العالم الاسلامى ، على الرغم من اهمال الدولة له ، واغتصابها
الأحباس العديدة التى أوقفها الخلفاء الفاطميون عليه !!

وبالرغم من وجود المدارس الجديدة التى افتتحها السلطان صلاح الدين ..
وقيمتها الرسمية وخطورة الدور الذى كان عليها أن تقوم به - فانها لم تستطع أن
تنافس الازهر فى مكانته العلمية فى العالم الاسلامى ، أو تدانيه شهرة ..
ولقد وفد على مصر فى تلك الحقبة بالذات علماء أجلاء .. كان التقليد الرسمى
يوجب ذهابهم الى تلك المدارس والجلوس فى قاعات العلم بها لمحاضرة الطلاب ..
ولكن هذا لم يحدث ، اذ انصرفوا عنها بطبيعتهم واتجهوا الى الجامع الازهر
وجلسوا فى صحنه العتيد ، وحواليهم الطلاب ، يفترقون من بحور العلم ويصفون
الى روائع الآيات ..

ومن أشهر من وفد على مصر فى تلك الآونة وجلس فى صحن الجامع الازهر
للمدارسة ومحاضرة الطلاب ، العالم الأشهر « أبو القاسم الرعيني » الذى عرف باسم
« الشاطبى الضرير » ، وكان حجة فى علوم القرآن وسندا فى أصول القراءات ، ومقرنا
فحلا له خطره ..

واعتماد الطلاب أن يتجمعوا حول الرجل العلامة ، وفيهم كثيرون من طلاب مدرستى
صلاح الدين أنفسهم ، ليتعلموا ما لم يكونوا يعلمون ، وما لم يكن مقدرا لهم أن
يعرفوه لو لم يجلسوا الى « الشاطبى الضرير » الذى جعل منهم رسل وصل لعلمه
وخبرته للأجيال القادمة ، حيث ترك لهم قصيدته الشهيرة فى علم القراءات، والمعروفة
باسم « حرز الامانى ووجه التهاني »

وفى هذه الحقبة بالذات أيضا ، وبرغم انصراف الدولة عن « الجامع الازهر »
جلس فيه للمدارسة والقاء المحاضرات العلمية المؤرخ العظيم « ابن خلدون » .. كما
التف الطلاب فى هذه الاثناء أيضا حول عالم النحو والصرف « ابن الدماميتى » وحول
حلقة أستاذهم وسيد أهل زمانه من أهل القراءات « الفخر البلبيسى الضرير » ..

ومن الغريب أن الجامع الازهر الذى حاربتة الدولة من أجل المذهب الشيعى ،
فاخر بوجود جهابذة العلم وأئمة البلاغة فيه .. وتحدى الدنيا قاطبة بأسمائهم ، فى
الوقت الذى لم تستطع فيه المدرسة الناصرية بقسميها : الشافعى والمالكى - أن
تتقدم باسم واحد شهير من أساتذتها وعلمائها !!

وأبى « الازهر » فى مطلع عصر صلاح الدين الايوبى ، الا أن يساير سنة التقدم
والتطور برغم الركود الذى فرض عليه ، اذ أخذ فيه باتباع نظام جديد مع طلابه
النوابغ الاوفياء الذين كانت تنتهى دراساتهم على خير وجه ، فمنحهم المشرفون على

الدراسة اجازات علمية . تبيح لهم أن يتصدروا حلقات العلم ، وأن يتولوا تدريس المواد التي تخصصوا فيها لمن يقصدهم في مجالسهم الجديدة من الطلاب ..

وكانت « الشهادات » الدراسية التي اعتاد الأزهر أن يمنحها لنوابغ طلابه ، آية صدق ودليل نبوع لمن كانوا يحملونها في العلم الذي تخصصوا فيه .. وكانت هذه الشهادات من الندرة بمكان بحيث لم تمنح الا لمن كان يستحقها عن جدارة ..

وكان غربيا من الدولة التي تعمدت صرف الناس عن مجالس الدراسة في الأزهر ، أن تهتم « بخريجيه وحملة شهاداته » فكانت تتلقاهم بالتمجيد - وتتلقفهم بالاعجاب .. وتسارع باخذهم في صفها لتستفيد في مدارسها من علمهم وخبرتهم وما اكتسبوه طوال فترة دراساتهم هناك ..

و « القلقشندي » صاحب « صبح الأعشى » كان من نوابغ خريجي « الأزهر » وأبر طلابه به ، وقد تتلمذ على يد العلامة سراج الدين أبي حفص الشهير بابن الملكن ..

ومن العجيب أن القلقشندي تخصص في دراسة فقه « الشافعي » ونال اجازته العلمية فيه .. ولكنه لم يجلس في الأزهر ولم يحاول أن يكون من علمائه ، اذ أغرته الدولة على الانضمام الى مدارسها ، فكان من أنبغ أساتذتها وأخطر محاضريها ..

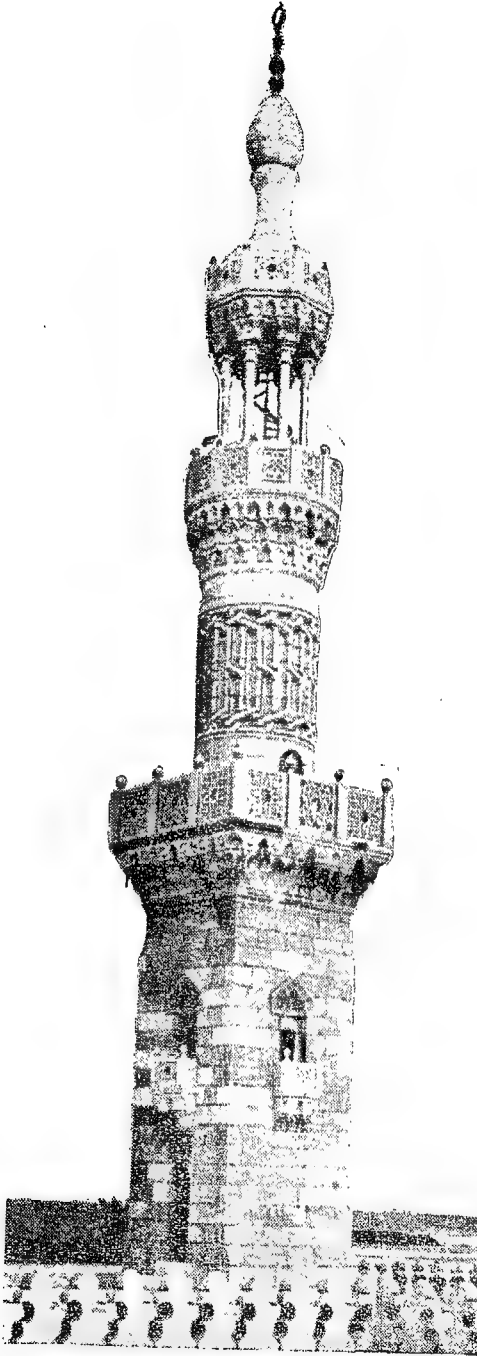
وقد تخرج في الأزهر خلال هذه الفترة أيضا « المقرئ » و « بدر الدين العيني » و « شرف الدين المنادي » و « جلال الدين السيوطي » و « سراج الدين البلقيني » و « شمس الدين السخاوي » ..

وكما فعل القلقشندي فعل هؤلاء ، فتركوا الأزهر الى مدرستي صلاح الدين الأيوبي ، ومعهم زميل لهم هو « ابن حجر » الذي تولى لفترة ما وظيفة الخطابة في الأزهر ..

لقد أراد صلاح الدين الأيوبي أن يقضي على المذهب الشيعي ، فحارب الأزهر بالمدارس .. حتى شاء الله فاخفت المذهبية التي كان يحاربها في الأزهر ، وصار عهده عهد شروق وانتعاش لعلوم الدين التي بعدت عن المذهبية والتحيز ، واختطت طريقا قويا ، كفل للأزهر البقاء على كر العصور ..



عُروبٌ وحُصُونٌ



مضى موكب الزمان في مسيره الرتيب ،
ودارت عجلة الحوادث بين اسراع وابطاء ..
واستطاع صلاح الدين أن يستشف الفيب
ويصل ببصيرته النفاذة الى ماكان يفكر فيه
سيده صاحب حلب ، السلطان نور الدين .

لقد أحس السلطان أن تابعه الشاب قد
قفز الى مكان الصدارة ، وأنه أصبح من
المنعة والقوة بحيث يستطيع أن يتزعم
الشرق كله !! فلديه القوة والمال ، وهو
يملك الأرض الخصيبة ، ذات الموقع الممتاز
والمكانة التي لا تعدلها مكانة ..

وشعر صلاح الدين أن سيده انما قد
سكت عليه مرغما ، ولم يرد أن يتورط
معه في نزاع يوم يصدر أمرا باستدعائه
من مصر ، فقد لا يطيع الشاب الطموح
أوامره ، وقد يشتد بينهما النزاع وينقلب
الى عدااء صريح لا يفيد منه غير العدو
المتربص الذي يتمنى وجود ثلثة ينفذ منها
الى الكتلة الإسلامية المتراسة التي تجمعت
وقامت لتندفع عن العروبة والاسلام عدوان
من أسموا أنفسهم صليبيين !!

ولقد حمد صلاح الدين لسيده سكوته
عليه وتركه اياه في مصر برغم توتر
العلاقات بينهما ، ليقوى نفسه ويحصن
مركزه ، ويبنى لفده المأمول الذي أحكم
ارساء قواعده لتكون مصر الغنية له وحده
ومن بعده لبنيه ، فجعل يتودد الى سيده

« مؤذنة السلطان الأشرف برسباي »

القديم متبعا سياسة الدهاء والتظاهر بالخضوع ، في الوقت الذي راح فيه يدعم
ملكه ويوسع رقعته ويمكن لسلطانه ، لا في مصر وحدها بل في بلاد النوبة واليمن أيضا !

لقد تفالى صلاح الدين في أرضاء سيده السلطان نور الدين .. أعلن زوال الخلافة الفاطمية ، وحارب المذهب الشيعي الفاطمي ، وأغلق الأزهر دون صلاة الجماعة ، وأعلن الحرب على حلفائه الدراسية الذهبية بإنشاء مدارس جديدة في برانجها ونظمها . وهما هو ذا اليوم وقد نفذ سياسة نور الدين التي أشار بها ، ينتجه إلى سياسة جديدة ، هي سياسة التقرب من الشعب وأرضاء كافة طبقاته ..

وبدأ السلطان الملك الناصر صلاح الدين في سياسته الجديدة بإلغاء المكوس العديدة التي كانت مفروضة على الناس ، ف جذب إليه قلوب الشعب وروضهم على حبه والتفوا حواليه وقد زادوا به عزا ومجدا لهم ولوطنهم العظيم ..

ولم يكن صلاح الدين يضمن لنفسه ولاء الشعب وحبه حتى اتجه إلى تقوية مركزه كرجل حرب وكفاح ، بأن وسم خطة لتحصين القاهرة نفسها ، وأعزاز مركزه الحربي فيها ، لأن في هذا التعزيز ما يؤيد بقاءه وصد أي عدوان عنه ..

وأسرع صلاح الدين يبنى سور القاهرة كاملا .. ويقويه من بعض جهاته ، متبعا نفس السياسة الاستراتيجية التي اتبعها قبله بدر الدين الجمالي أمير الجيوش .. ورأى بعد أن أقيم السور وتعززت مراكز المراقبة فيه ، وسلحت بواباته بالحديد - أن يبنى لنفسه قلعة تكون مقر حكمه .. وفي نفس الوقت تتحكم في القاهرة كلها وما حولها من الضواحي ، وتكون من المناعة والقوة بحيث تصمد لأي هجوم خارجي عليها ..

واتخذ صلاح الدين « النسر » شعارا له ولملكه .. والنسر ملك الطيور وسيدتها الذي يميزه حبه للعلا ، وغرامه الدائم في أن يبنى عشه على القمم العالية فلا تفصل إليه يد .. ويستطيع أن يشرف من مكانه الأشم على كل من تحته من الكائنات ، أشرف السيد العظيم ..

لقد كان النسر الأدمي من الحذر واليقظة بحيث لم يفته شيء مما كان يحدث في رقعة العالم الفسيح المنبسط أمام عينيه الحادثين .. فعرف .. وأخذ حذره .. بل واستعد لكل الاحتمالات ..

لقد كان صلاح الدين يعرف أن دولته الجديدة التي قامت على أنقاض الخلافة الفاطمية ، إنما هي دولة حرب ، وحصون وقلاع .. فاتم إنشاء الحصون ، وأحكم بناء القلاع ووقف ينتظر الحرب - وهو مستعد لها ، سواء هبت من المعسكر الصليبي ، أم من ناحية سيده نور الدين ..

والواقع أن السلطان نور الدين كان يتمنى لو يقضى على ذلك التابع الصغير الذي أصبح نسرا جارحا يهدد سلطانه ، ولكنه كان أضعف من أن يقدم على مجاهرته بالعداء ، أو حتى إعلان عزله عن قيادة الجيش المرابط في مصر ، لأن الجيش لم يعد جيش نور الدين ، بل جبهة من الأكراد قوية لا تعرف لها سيدا غير صلاح الدين !!



مسجد ومدرسة السلطان قلاوون بشارع القصرين انشأها سنة ٦٨٤ هـ ، ١٢٨٥ م السلطان الملك « المنصور سيف الدين قلاوون » كان مملوكا للأمير علاء الدين « آق سنقر » اشتراه صغيرا بالف دينار ، ولقب بالالفي من أجل ذلك - ثم مملوكا للملك « الصالح نجم الدين أيوب » في سنة ٦٢٧ هـ ، ١٢٧٩ م وقد ترقى في جملة وظائف حتى تولى ملك مصر ولقب بالملك المنصور ، وكان عهده عهد رخاء وانتصارات على التتار . . وقد ضم إلى بناء المسجد بيمارستانا « مستشفى » ومدرسة لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة ودروسا في الطب ، وكان المستشفى معيدا للجراحة والرمد ومختلف الأمراض . وهو حاليا مستشفى لامراض العيون فقط . . دفن بمسجده هذا سنة ٦٩٠ هجرية .

ومرت فترة خيم فيها الصمت الرهيب الذى يسبق هبوب الاعصار .. فلا الصليبيون تحركوا ، ولا نور الدين تجاسر وأقدم على عمل .. ولكن صلاح الدين يقظ كان يرقب ويتعرف اتجاهات الرياح وهو على أتم استعداد للنضال .. ومات نور الدين .. وتولى العرش ابنه الملك الصالح ..

وكان الصالح من الضعف وفساد رأى بحيث تحكمت فيه الخاشية ووجهته أسوأ توجيه ، فكان أن اتسعت الهوة بينه وبين صلاح الدين ، وكان من اللازم للقضاء على خطورة هذا الاتساع المفاجيء ، أن يختفى من الوجود أحد الرجلين !!

وضرب النسر بجناحيه فى الفضاء الرحب ، وقد تملكته رغبة فى أن يكون وحده السيد بلا منازع ، ولو كان ذلك المنازع هو الملك الصالح بن سيده نور الدين .. ولم يلبث أن صرخ صرخة الحرب .. وخرج على رأس كتائبه وجيشه ليؤدب الملك الصالح وأولئك الأشرار الذين أغروه وجعلوه يمسك بالمعول ليهدم وحدة المسلمين !!

لقد أراد صلاح الدين أن تظل العلاقة بينه وبين الملك الصالح قائمة ، كما كانت أيام نور الدين .. ولكن السلطان الشاب ركب رأسه ، فكانت الحرب التى توقاها أبوه .. ثم الهزيمة النكراء التى لم يتوقع نزولها بجيشه .. ثم استيلاء تابعه صلاح الدين على دمشق وإعلانه نفسه سلطانا وحاكما بلا منازع ولا شريك ، لا على مصر فقط ، بل على الشام أيضا .. وبموافقة الخليفة العباسى الضعيف الذى أقر ماحدث وباركه !!

بل لقد حدث بعد هذا أن مات الملك الصالح نفسه ، فخلا التجو لصلاح الدين ولهم يجد صعوبة فى ضم « حلب » إلى ممتلكاته وفرض سلطانه عليها وادخالها فى حوزته .. ثم أخذ بعدها « الموصل » وأصبح السيد المطاع فى تلك البقاع جمعاء ، والأمير الخطير المتحكم فى سياسة الشرق كله .. وبهذا حقق السياسة التى طالما عمل نور الدين على تحقيقها ، وهى تقوية الكتلة الإسلامية وتوحيدها وانتظامها جميعها فى كتلة واحدة ، تحصر ممتلكات الصليبيين بينها !!

وهكذا أفلحت سياسة القلاع والحصون والحروب ، وبسط النسر جناحيه على الشرق ، ووقف وهو على أتم الاستعداد للانقضاض على العدو الاجنبى الخطير ..

ووات صلاح الدين فرصة .. وهيات له الظروف أن يحثك بالصليبيين ، يوم تعرض « ريجنولد » صاحب حصن « الكرك » لقافلة من حجاج المسلمين كانت فيها أخت صلاح الدين ، وما لبث النسر أن ضرب بجناحيه فى سرعة وانطلق نحو القريسة .. وكان اللقاء فى « حطين » ، حيث حطم الصليبيين وقضى عليهم وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف محارب !!

وسقط « ريجنولد » في يد صلاح الدين أسيرا .. وضلت أحلامه الطائشة يوم ادعى أنه سيعيد خطة لتدمير مكة والقضاء على المدينة .. وسبق في الأغلال ذليلا مع حليفه « جى دى لوزيان » ملك بيت المقدس !!

وانفتح الطريق بعد هذا أمام قوات النسر الظافر .. وسلمت له عكا ، و نابلس ، وقيساريه ، ويافا ، وبيروت - وكلها حصون كان لها خطرها ، ولكنها سلمت لصلاح الدين دون مقاومة ، فتملكها وسار منها الى بيت المقدس ، ففتحها وتملكه .. وظهر روح التسامح الاسلامي مع غلاة الصليبيين ، فأعطاهم مهلة أربعين يوما لاختلاء « بيت المقدس » ، وفرض على القادرين منهم جزية كان يدفع بعضها عن كثيرين منهم ..

وتمادى صلاح الدين في كرمه ، فأطلق سراح أسيره « جى دى لوزيان » - بعد أن أقسم أنه لن يحارب المسلمين ..

وعلا نجم السلطان المنتصر الذي طهر الأراضي المقدسة كلها من دنس الاحتلال الصليبي الذي لم يبق تحت سلطانه غير مدينة « صور » ..

وهز نصر « حطين » أوروبا كلها .. وجمع سقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين ملوكها ، وجعل امبراطور ألمانيا « فردريك باربروس » وملك فرنسا « فيليب أغسطس » و « ريتشارد قلب الاسد » ملك الانجليز - يكونون جبهة واحدة ، غرضها استرداد الارض المقدسة من صلاح الدين وانزال الهزيمة بجيوشه الظافرة .

وشاء القدر أن يهلك الامبراطور الألماني غرقا ، وأن يختلف فيليب وريتشارد ، فعاد الاول الى فرنسا ، وبقي الثاني ليفامر في الارض المقدسة أمام السلطان صلاح الدين ..

وطالت الحرب ولم تقع فيها معارك فاصلة .. ورأى ريتشارد الذي تغيب عن بلاده أن يعود ، فأبرم مع صلاح الدين الشهم الكريم صلح « الرملة » ، وبمقتضاه أبرمت هدنة بين المسلمين والصليبيين كانت مدتها ثلاث سنوات وثمانية أشهر !!

ومات صلاح الدين بعد صلح الرملة بعام واحد .. وتنازع الملك أولاده الثلاثة الذين ورثوه وجلسوا بالتتابع على عرشه .. ولكن ، كان هيهات لاحد منهم أن يملأ مكان أبيه !!

ومرت السنون .. وتولت عهود ورثة صلاح الدين من بنيهِ ، واستقر الملك في بيت اخيه وقائده الظافر « سيف الدين » فأعاد الهيبة للبيت الايوبي ، وعرف كيف يوحد الجبهة التي تفتتت ، لتستطيع أن تصمد للصليبيين الذين خرجوا على المعاهدات وعادوا يكونون الجيوش لحرب المسلمين ..

وكانت الخطة الجديدة التي اتبعتها الصليبيون ، أن يتركوا الأرض المقدسة ذاتها ، ويهاجموا السلطان الأيوبي في مصر .. ففي زعزعة مكانته واحراز أي نصر عليه ، نصر لهم ، وخطة في سبيل استرداد بيت المقدس ..

وفي أواخر حكم سيف الدين هاجم الصليبيون بقيادة « جان دي برين » - ثغر دمياط .. فسقط في أيديهم ، وارتكبوا هناك من الفظائع ما يشيب من هولاء الولدان !! وأخذوا الأبهة بعد ذلك للزحف الى القاهرة نفسها ..

ومات سيف الدين خلال هذه الأزمة .. وتولى العرش ابنه « السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد » .. فواجه الموقف بثبات ، وبعث يفاوض الغزاة في الصلح .. فأبوا الا التقدم ، فخرج ليصدهم ومعه قوات جاءت لنجدته من شتى بقاع العالم الاسلامي ..

وشاء الحظ أن يضل « الصليبيون » طريقهم .. كما أن الفيضان كان قد جاء أوانه ، فقطع المصريون عليهم الجسور ، وحاصرتهم المياه من كل جانب .. وقضى على حملتهم بالفشل ، فبعثوا يطلبون الصلح ، الذي مالبتوا أن نقضوه سريعا في هيئة حملة جديدة جاءت بقيادة الامبراطور الالماني « فردريك الثاني » ، صهر جان دي برين ، والذي كان محروما من الكنيسة ..

واستطاع السلطان الكامل أن يتفادى الحرب وصالح الامبراطور ، وعقدوا معاهدة ، تنازل الكامل بمقتضاها عن بيت المقدس ، مقابل تعهد فردريك بأن يكون حايثه ومساعدته اذا نشبت بينه وبين الغير أي حرب ، ولو كان أعداؤه هم الصليبيين أنفسهم !! وأغضبت شروط الاتفاق المسلمين والصليبيين على السواء .. ولكنه نفذ في امانة ودقة بين الجانبين ..

ولعله مما يذكر للكامل أنه هو الذي اختط مدينة « المنصورة » وبنائها وعمرها ، وجعل بها أسواقا ومناجر عظيمة ..

ولما كانت الحروب المستمرة قد شغلت بنى أيوب عن اقامة العمائر الضخمة والمساجد العظيمة ، ووجهتهم الى اقامة الحصون والقلاع والاستحكامات - فان فترة السلام التي تلت المعاهدة التي تمت بين السلطان الملك الكامل ، والامبراطور فردريك جعلت السلطان يفكر في بناء أثر ديني يذكر له ويقرن باسمه ..

ولما كان بنو أيوب في حربهم التي شنوها على المذهب الفاطمي الفاض ، قد تعمدوا احياء فقه الشافعي ومذهبه - فقد كان طبيعيا أن ينتجه السلطان الكامل الى « مقام الامام » بتفكيره ، ليقيم فوقه بناء فخما يليق بمقام صاحبه ومكانة بانيه ، خاصة وأن كرام أهليه قد دفنوا هناك بالذات في رحاب الشافعي ، وكان منهم السلطان الملك

العزیز عثمان بن صلاح الدین ، والملكة « شمس » أم الملك الكامل نفسه ..
والامام محمد بن ادريس الشافعی مات بالفسطاط ، وحمل على الاعناق بعد موته
الى حيث كانت السيدة نفيسة ، فصلت عليه .. ثم حملت جثمانه الطاهر الى مقابر
بنى زهره - حفدة عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف - فدفن هناك ..
ورأى الملك الكامل أن يكرم الامام العظيم ، وأن يرفع من قدر أهليه من الايوبيين
الذين دفنوا في رحابه .. فكان أن أمر بإنشاء قبة ضخمة فخمة فوق قبر الشافعی
والقبور الايوبية المجاورة له ..

ورصد الكامل لبناء قبة الامام الشافعی مبلغ خمسين ألف دينار ، وأمر بأن يتم
البناء سريعا ، وأن تخلى الارض المجاورة للقبر الطاهر والقبور الايوبية ، وأن تنقل
منها رفات الموتى الى مكان آخر في المقابر القريبة ..

وارتفع البناء .. وتم كما أراد السلطان الملك الكامل .. وأقيمت القبة ، التي
جاءت آية من آيات البناء .. وأنشئت هناك أكثر من «خلوة» لجماعات المتصوفين ،
وأقيم حمام كامل تصل اليه المياه عن طريق قناة متصلة ببركة « الحبش » ، التي
كانت تمتلئ في أيام الفيضان ، ثم ترتفع مياهها بعد ذلك عن طريق «سواقى» لتصل
الى قبة الشافعی ..

وأنشأ الكامل بعد هذا حوضا على الطريق للسابلة ، ووضع فوق القبة قاربا له
هيئة الهلال ، كان يملأ بالحجوب لغذاء الطير !

وجاء بعد الكامل ابنه العادل ، فحاربه أبوه الصالح نجم الدين وسجنه .. وتولى
الملك بدلا منه باسم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ..

وعلى نفس النهج الذي سارت عليه السلطنة في أيام الملوك السابقين من بنى أيوب ،
نار الصالح : حرب وجهاد ، وطموح وتوئب ..
ولقد توج الملك الصالح جهاده بأن استرد بيت المقدس من الصليبيين وأعادته الى
المسلمين ..

وقد كان هذا العمل وحده كافيا لأن تتحرك حملة جديدة لانتقام من الصالح في عقر
داره .. في عاصمته نفسها !!

ووصل لويس التاسع وحملته الى دمياط .. وكانت حملة ارتجالية ، وقعت في
نفس الخطأ الذي وقع فيه من قبل جان دي برين ، فضلت الطريق بعد أن استولت
على دمياط .. ووقفت قبالة « المنصورة » .. ثم كانت الحرب ، التي انتهت بهزيمة
الصليبيين وسجن ملكهم الأبله لويس !!

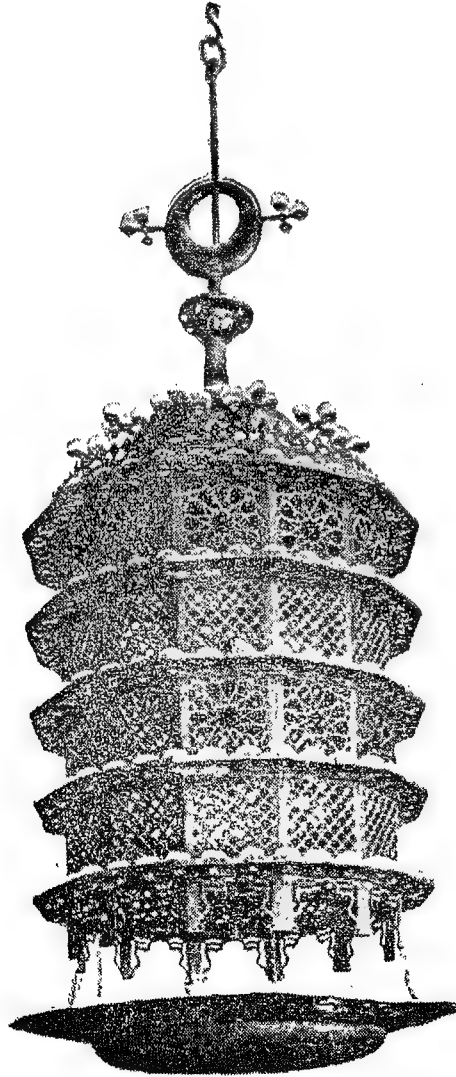
واسرف السلطان الملك الصالح في شراء المماليك ، ليكون منهم جيشا لا يدين لغيره
بطاعة أو ولاء ..

واشتهر في زمانه فوارس مغاوير من أولئك المماليك ، منهم « أقطاي » و « بلياي »
و « بيبرس » و « لاجين » و « ايبك » و « سنقر الرومي » ..

وعلى يد هؤلاء تم النصر على الفرنسيين بعد موت الصالح ..

وعلى يدهم تم قتل ابنه ووريثه طوران شاه ..

وعلى يدهم زالت شارات الملك عن بني أيوب ، وانتهى عهد الحصون والقلاع
والحروب !!



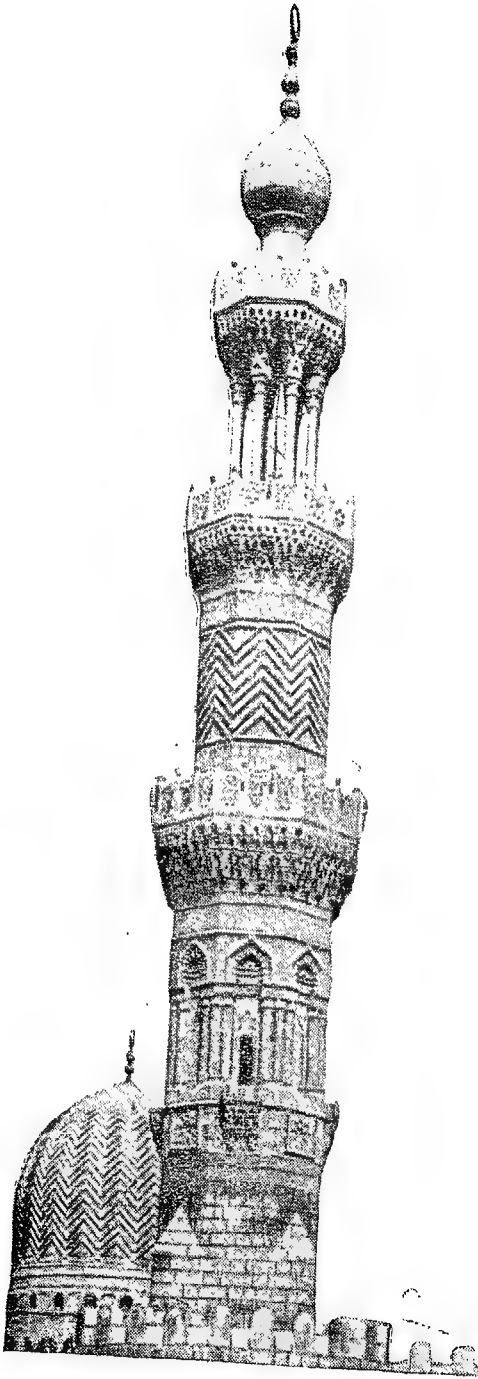
« إحدى ثريات مسجد قوصون »

الناسِر صَلَاحُ الدِّين

لئن كانت الدولة الأيوبية لم تهتم بالعمائر
الفخمة الجليلة ، قدر اهتمامها بتشديد
الحصون .. ولم يوجه سلاطينها عنايتهم
الى بناء المساجد قدر ما عنوا بتحسين البلاد
وتكوين الجيوش — فانه يكفى هذه الدولة
العظيمة فخرا أنها حمت الاسلام وبيوته
ومقدساته ومساجده من الاعصار الصليبي
الدمر .. فردته وكسرت حدته ، وحفظت
للشرق هيئته وجلاله ولقنت العادين الطغاة
درسا لم ينسوه على كر السنين ..

وبالرغم من اهتمام الايوبيين بالحرب
وتتبع فلول العدو والقضاء على محاولاته ،
فانهم لم يغفلوا شئون الأمن ، ووجهوا
عنايتهم الى رفاهية الشعب، ماديًا ومعنويًا
.. فاهتموا بالتجارة ، ولم ينسوا انشاء
المدارس وترغيب الناس في العلم ، مبينين
فائدة المعرفة ، وكيف أنها السبيل الوحيد
الى الرقي والوصول الى اعلا مناصب
الدولة ..

لقد كان للايوبيين فضل تذكير المسلمين
بسابق امجادهم ، فعرفوا أن الاتحاد قوة ،
وأن الاستمسك بعروة العروة ورابطة
الدين ، أقوى من ترديد الادعيات والاستسلام
الى القدر .. وأن القوة يجب أن تدفعها
القوة ، وأن الأهواء والصوالح الشخصية
يجب أن تزول أمام الصالح العام الذي
يعود بالنفع على الجميع ..



« مئذنة السلطان المؤيد »

ولقد كان من المؤسف أن يرث أمجاد الايوبيين في النهاية وريث عابث كطوران

شاه ، أشاع الفرقة ، وكاد يقضى على الوحدة ٠٠ لولا يقظة الفوارس وغيره المحاربين الجراء الذين خشموا أن تنهار الصفوف المتراصة ، فتقدموا وأبعدوا الوريث الماحن ، وأخذوا مكانه ليسيروا بالموكب الزاحف نحو الوحدة والمجد الى الامام ٠٠

ومارست السلطة بعد مقتل « طوران شاه » زوج أبيه الملك الصالح « شجرة الدر » ، ذات الدهاء والفطنة والمقدرة ٠٠ فقد استطاعت أن تقود معركة المنصورة وتوجه الفرسان للقضاء على حملة لويس التاسع ، التي انتهت بأسره وطرده الصليبيين من مصر نهائيا !

ولقد أخطأت شجرة الدر يوم قبلت أن تشرك معها في تحمل أعباء الملك « أنابك » ، زوجها عز الدين أيبك التركماني ٠٠ وضاعفت من خطئها هذا ساعة أن قبلت الزواج منه ، إذ سرعان ما جنت ثمرة هذه المشاركة غيرة وتحسرا ، وانصرفا عن شئون الملك الى شئون الهوى والتربص بالزوج والتآمر عليه وقتله !!

وكما قتلت شجرة الدر صاحبها أيبك ، فقد انتفمت « أم علي » زوج أيبك الاولى ، من ضررتها ، فكادت لها وأغررت بها من قتلها فتخلصت منها ٠٠

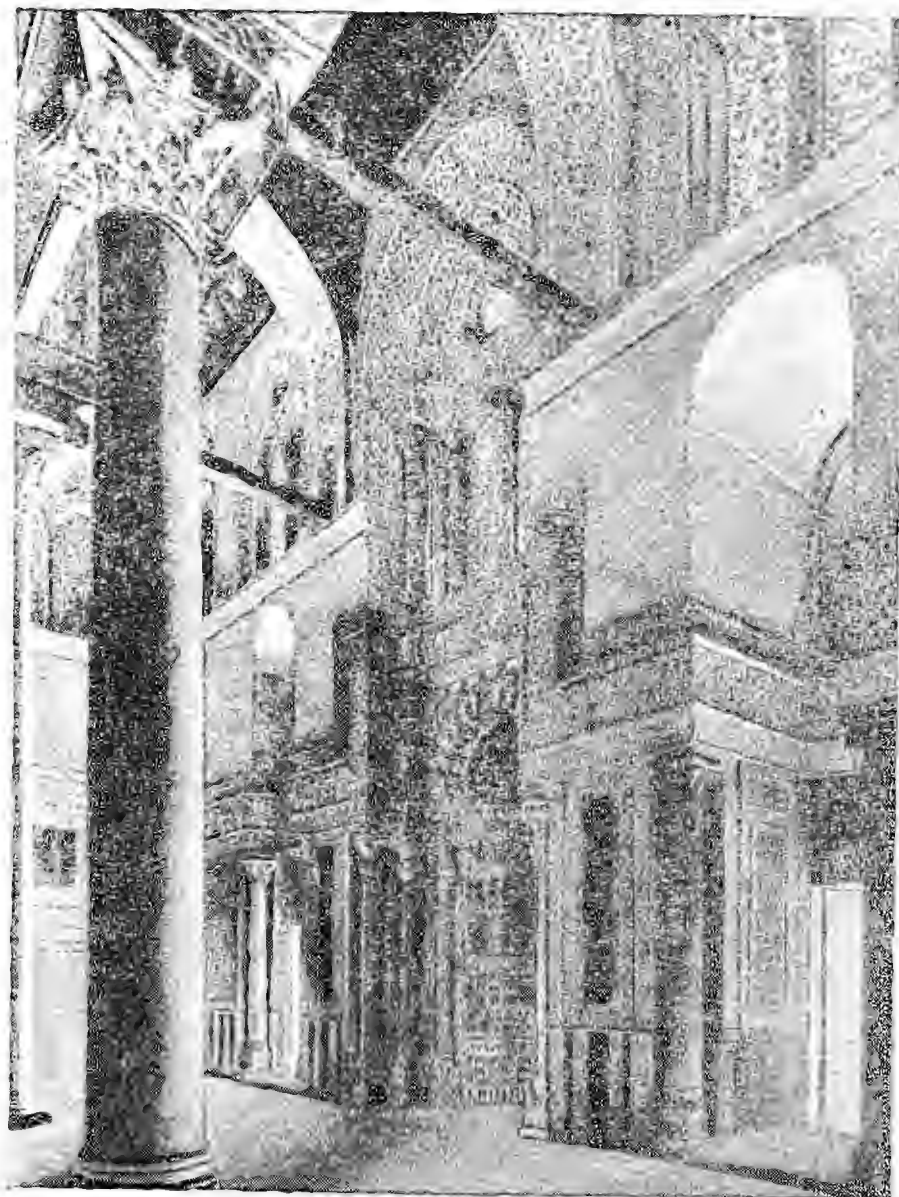
وخلص عرش الايوبيين لابنها « علي » الذي تسمى باسم الملك المنصور نور الدين ٠٠ وكان الملك المنصور عابثا مستهترا ، فخلعه مهاليسكه واختاروا من بينهم سلطانهم الجديد المملوك « قطز » ، الذي اتخذ لنفسه لقب الملك المظفر !!

وعرف قطز كيف يسود مصر بهائه ، فتفادى التيارات المتعددة ٠٠ ووحده الجهود ٠٠ وقوى الجبهة ودانت له الظروف القلقة ، وخضع المماليك المتمردون ، واستسلم له أمراؤهم الدهاقين الأشداء والتفوا حول رايته ، فعرف الهدوء طريقه الى البلاد ، واطمان الناس على أموالهم وأعراضهم ورفرفت السكينة ، وخيم السلام على مصر للمرة الاولى بعد زوال ملك الايوبيين ٠٠

وفي الوقت الذي نعمت فيه مصر بالسلام والامن والطمانينة ، هب على الشرق اعصار مغولى من أواسط آسيا ، ظلت قواته الرهيبة تزحف ، مكتسحة في طريقها كل شيء ، فلم تبعأ بحضارات ولا علم ولا تمدن ، ولم يوقفها دين ولا عرف ولا حضارة ٠٠ واستمرت في زحفها البربرى الغاشم وكأنها قضاء الله ٠٠

وسقطت بغداد ٠٠ بل أحرقت !! ودالت البقية الباقية للخلافة العباسية ٠٠ وزحف الاعصار المغولى بعد سقوط « بغداد » الى « الشام » الآمنة ، ليكون له فيها ما كان في أختها عاصمة الرشيد !!

وقامت مصر لتدفع العدوان ٠٠ لا عن بغداد ولا عن الشام ، بل عن الدين الاسلامي والملة المحمدية ٠٠



قبة السلطان المنصور قلاوون

اقیم فی وسط هذه القبة قبر الملك المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد - وقد كتب عليه اسم السلطان قلاوون وبعض ابوابه قرآنية . ويحيط بهذا القبر مقصورة من الخشب من اعمال الناصر محمد سنة ٦٨٣ - ٦٨٤ هـ ، ١٢٨٤ - ١٢٨٥ م

وخرج السلطان الملك المظفر « قطز » .. ليرد على اهانة « هولاكو » الجرىء .. وليكيل له بنفس الصاع الذي كال به للحضارة الاسلامية ، ويحارب به بنفس سلاحه قبل أن يتقدم نحو مصر ..

وعرف « قطز » كيف يواجه « التتار » .. بل وحاربهم بسلاح السرعة العاصفة في الكر والفر واحداث الثغرات وشطر الفرق وتمزيقها .. فهزمهم ومزق جموعهم اللجبة في « عين جالوت » ففضى عليهم وأعطاهم درسا لن ينسوه !!

وفر لصوص الحضارات وطفاتها ناجين بمن تبقى من معسكرهم الكثيف .. وعاد « قطز » الى مصر ظافرا منصورا ، وقد حمى الاسلام وحفظ على المسلمين هيبتهم وكأني بامراء المماليك بعد هذا الانتصار الذي حققه « قطز » ، قد كرهوا أن تصفر له قلائد المجد ، وأن يحقق ما يشبه المعجزة ، وأن يقال عنه انه طارد التتار ، وقضى على أحلام « هولاكو » .. واذا بصاحبه وصفه ومشيريه وقائده « بيبرس » ، يهاجمه وهو يطارد أربابا برياء في بلدة « القرين » .. فاحتز رأسه !



وقتل « قطز » .. وجاء السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري العلاني النجمي « الى العرش » ..

وبيرس كان له من اسمه صفات « الفهد » وجراته وبطشه .. وسرعان ما قبض على ناصية الملك ، وأعاد كل شيء الى وضعه الطبيعي .. فخيم السلام من جديد وبدأ الناس يشعرون مؤمنين بأن صلاح الدين الايوبي قد بعث من جديد ، وأنه قد عاد الى مصر في اهاب الظاهر بيبرس ، فتنفسست مصر الصعداء وهي تشهد مطلع عهد جديد ..

ولم تكد الامور تستقر في مصر ، حتى هبت من الغرب أعاصير أخرى !!
لقد تكتلت القوات المسيحية في الاندلس ، واتحد الامراء الاسبانيون .. وراحوا ينتزعون منهم عواصمهم العتيقة ، الواحدة تلو الاخرى ، غير عابئين بمرور السنين التي كانت تزيدهم منعة ، وتزيد العرب المتخاصمين هناك ضعفا ووهنا !!
والى مصر الآمنة - كنانة الله في أرضه - اتجهت أبصار العالم الاسلامي ..
لقد سقطت « بغداد » ..

وان قواعد الملك العربي في الاندلس لتنهيار شيئا فشيئا ..
فلا ملاذ للهاربين من « بغداد » أو الفارين من « الاندلس » غير مصر .. المضيفة التي تعرف حق الاخوة في اللغة والدين !



احترقت بغداد .. وسقطت الاندلس .. ومالت موازين القوى في الشرق والغرب

.. وأمام طوفان الغزو الرهيب والدمار وآيات القسوة ، فر الناس هارين هنا وهناك
ينساءلون الى أين المفر ؟!

ان مصر هي المنجأ الامين حين تضيق الارض بالاحرار .. وانها لقلب العروبة
النابض واليها يجب أن تنتقل زعامة الشرق المادية والروحية !
وهكذا فتحت مصر خلال تلك المحنة الرهيبة ابوابها للوافدين عليها من القطرين
العريزين .. وفيهم كبار العلماء ، ودهاقين السياسة وأهل الصدارة والنبوغ الفكري،
الذين كانوا يعرفون الجامع « الازهر » بالاسم ، ويسمعون به ، فلما وفدوا على القاهرة
وعاينوه ، اتجهوا اليه ، واعتبروه قبلتهم العلمية وميدانهم الدراسي ..

وكان طبيعيا أمام هذا الوضع الجديد الذى نشأ عن هجرة أهل العلم وأصحاب الثقافات
الى مصر ، أن تكون مصر مركز عرفان مدعم بالكفايات ، التى بعثت فى الجامع الازهر
حياة جديدة جعلته ينبض بالشباب والحركة ويستشعر هزة النشور التى مشت فى
أوصاله ، فهب مرة أخرى لياخذ مكانه القديم ..

لقد كانت تلك الهجرة المباركة نقطة تحول خطيرة فى الحياة المصرية ذاتها ، ومن
الغريب أنه لم يحس بخطرورها الواقعية أحد فى مصر غير شاب واحد ، هو نائب
السلطنة « عز الدين ايدمر » الذى كان قصره يجاور الجامع الازهر .. فاستطاع أن
يستشف وجه الخطورة فى ذلك الاقبال من ناحية العلماء الضيوف من جهة .. واقبال
جماهير الشعب على حلقاتهم من جهة أخرى ..

انها صلة مباركة ، يجب أن تدعم .. وانها لقوة يجب أن تؤيد ، لتكون درعا
للمسلمين جميعا .. وان هذا التطور فى ذاته ليدل على أن مصر قد أصبحت مركز
الثقافات الاسلامية وكعبة العلم فى هذا الشرق العظيم ؟!

وراح نائب السلطنة الظاهرية يطلب الامر على وجوهه ، ويستعرض هذا الاقبال -
ويدرسه ، ويضع له المقدمات والنتائج .. ويعتبره تيارا من تيارات المد الواجب
استغلاله فى تسيير سفينة الصدارة المصرية الى المقدمة ، لتعود الى مصر امجادها
القديمة ، والى الازهر عزته ..

لقد رأى عز الدين ايدمر فى اقبال العلماء المهاجرين على الازهر دون غيره من بيوت
العلم ، اعترافا بمكانة هذا المعهد الجليل ، ورغبة فى وصل ما انقطع بأحياء تراث قديم ،
فى أصح مكان للاجتماع بطلاب العلم والمعرفة وممن لا يحبون التقييد بالتوقيت الدورى
أو النظام الدراسي المفروض فى المدارس ..

وأمام تلك الحقائق التى تبدت لعينى عز الدين ايدمر ، راح يتذكر ماضى الازهر ،
خاصة وقد درست معالم المذهب الفاطمى ولم يمد أحد يده من المصريين ، اذ تولت
أجياله وانقضى عهده ..

وآمن نائب السلطنة بأن الدولة فى أشخاصها شىء ، والعقيدة فى ذاتها شىء آخر ..
وان الدولة تبنى ، أما الدين ، فهو الذى يبقى على كره العصور ، وهو الذى يجمع بين
القلوب ويوحد الافراد ..

ووجد الرجل الواسع الافق ، ان الواجب يقضى بأعادة النظر فى الفتوى القديمة التى
أصدرها ابن درباس ، والعمل على ابطالها بفتوى مشابهة ، تعيد للازهر مسابق مجده
وتفتح للطلم والصلاة الجامعة أبوابه ..

وتحمس عز الدين ايدمر لفكرته ، ولم يلبث أن وجد نفسه يعرضها على سيده
« الظاهر بپرس » ، راجيا منه أن يرد الى الجامع الازهر اعتباره .. فلم يكن السيد اقل
تحمسا للفكرة من نائبه ، ولكنه توقف .. حتى لا يصطدم بالسلطة العليا ، وهى سلطة
رجال الدين ..

واكد الظاهر لنائبه أنه يسعده أن ينفذ رغبته .. ولكن يجب أولا وقبل كل شىء
أن يجد فتوى جديدة تلقى الفتوى التى أصدرها ابن درباس منذ مائة عام !!
وراح الامير يهد لخطته .. واتصل سرا بكثيرين من العلماء ، ولمح لهم بما انتواه ..
وأخذ يعد العدة فعلا لتنفيذ ما اعتزمه ، بأن التفت الى الجامع الازهر نفسه ..

كانت أبنية المسجد العتيق قد هدمها الزمن وعامل الاهمال ، فوجه اليها عز الدين
ايدمر همته ونشاطه فأزال الجدر القديمة المتداعية وأقام غيرها وأصلح « الأسقف »
وزاد فى « علوها » إذ كانت منخفضة بعض الشىء ..
ولم تكد تتم « العمارة » التجديدية ، حتى التفت الامير الى زخرفة المسجد وتنميقه
وفرشه ، فأتم هذا كله على خير وجه وأكملة ..

ونظر فى أحباس الازهر من المقارنات الوفيرة ، التى أوقفها عليه الفاطميون والاستيلاء
.. فوجد أن كثيرين من الناس قد اغتصبوها لانفسهم ، فكان أن أمر بردها الى
« الأصل » وأعادها لتندر الخير على المسجد الأشهر ومن يهتمون فيه ..

وأبى الامير الا أن يترك لنفسه اثرا ظاهرا فى المسجد فكلف كبار المعمارين بتصميم
« مقصورة » رائعة ، ومنبر فخيم .. ونفذت رغبته ، وبنيت المقصورة والمنبر ..
ولما كان عز الدين ايدمر رجل حرب وجلاد ، فقد أحب أن ينفذ الى غرضه بعد
أن تهمت المناورة الأولى ، وذلك بتنظيم « طلائع » لاستكشاف الطريق ، ودراسة
معامله .. وفى ذات الوقت يجس نبض السادة الشافعية ، أصحاب فتوى « تحريم
إقامة خطبة للجمعة فى مسجدين داخل مدينة واحدة » !!

وأمر عز الدين ايدمر بأن يرتب فى صحن الجامع الازهر درس للفقهاء الشافعى ،
وعين لهذه المهمة بعض كبار علماء الشافعية .. كما اختار الى جانبهم محدثا من
السادة العلماء المتكئين من الحديث النبوى ، ليرويه للحاضرين من الطلاب وغيرهم

ممن اعتادوا التردد على حلقات الدراسة في الأزهر ..
 وأشعارا من نائب السلطنة بالخطبة التي أقرها الظاهر بيبرس لحياء أجداد الأزهر ،
 أصدر أمرا بتعيين سبعة من مشاهير القراء ، يتولون قراءة القرآن في صحن المسجد ،
 وتحفيظه للراغبين من الطلاب ..

**وأحب أيدمر بعد هذا أن يستصير الفتوى بإباحة الصلاة الجامعة في الجامع
 الأزهر .. وفي الجامع الحاكمي في وقت واحد !!**

وأقر السادة علماء الحنفية إقامة الصلاة في المسجدين .. ولكن تاج الدين ابن بنت
 الأعز قاضى قضاة الشافعية ، عارض في صحة الفتوى ، وأصر على قيام البطلان
 الذى قال به ابن درباس منذ مائة عام .. واستمسك برأيه وجاهر به الى حد
 أغضب منه السلطان الظاهر ، فصمم فى نفسه على عزل تاج الدين من منصبه ..

وأبى عز الدين أن يتراجع أمام فتوى ابن بنت الأعز .. وأخذ بفتوى السادة
 الحنفية بإجازة إقامة الصلاة وخطبة الجمعة في الجامع الأزهر .. وتم تنفيذ هذه
 الإجازة في يوم من أيام الجمعة من شهر ربيع الأول سنة ٦٦٥ في حفل عظيم ، كان
 موضع حديث الناس وحماستهم ، مع المأدبة الفخمة التى أقامها الأمير بعد الصلاة
 مباشرة ، بمناسبة نجاح مساعيه في رد اعتبار الجامع الأزهر اليه !!

وبالرغم من أن بيبرس ، كان يقف خلف الإصلاح الذى تم ، والافتتاح الذى
 تحققت معه فتوى إعادة الصلاة الجامعة الى الأزهر - فإنه لم يشهد صلاة الجمعة
 الأولى فيه ، خشية أن يقال أن السلطان سخر من فتوى قاضيه ابن بنت الأعز -
 وهو يضمر له العزل !!

ولما كان السلطان قد أسرها في نفسه لرجل الدين ، الذى عارض نائبه وتحدا -
 فلم تكد تمر بضعة أسابيع حتى كان قد صدر أمر بعزل القاضى الشافعى الأكبر
 من منصبه !!

**ولئن كان « بيبرس » قد حقق في نفسه على ابن بنت الأعز ، إلا أن آثار هذا
 الحقد لم تلبث أن زالت بعد أيام من عزله ، فأعاده الى منصبه ومباشرة شئون
 السادة الشافعية في مصر ..**

ولما كان للشافعية مجلس معلوم في صحن جامع عمرو ، فقد كان طبيعيا أن يتجه
 قاضى القضاة الشافعى بكل اهتمامه الى المسجد العتيق ، بوصفه ناظرا لأوقافه ،
 والمشرف على تنفيذ الأوقاف المحبوسة على عمارة الجامع وإصلاحه ..

ورأى ابن بنت الأعز أن جدران جامع عمرو من ناحيته البحرية قد تهدمت ، كما
 تداعت مؤخرته ومالت حوائطها ، مما جعلها معرضة للسقوط بين لحظة وأخرى !!
 ولاحظ قاضى القضاة أن « سطح » المسجد قد امتلأ بحجرات عديدة ، بعضها

منقوش ومعنى به .. فكبر لديه أن يبلغ استهتار الناس بجلال المسجد الى هذا الحد ، فكان أن أمر بهدم هذه الحجرات كلها ، وألقى ماوجده فيها من أثاث وثياب في صحن المسجد .. ولم يسمح بأن يبقى على « السطح » سوى حجرة المؤذنين القديمة ، وثلاث غرف أخرى مجاورة لها ، كان يستعملها المؤذنون أيضا .. وبدأ ابن بنت الأعز يستغل مال الاوقاف الذى كان تحت يده فى اصلاح جدران المسجد المتداعية ، فشد بعضها وقوى البعض الآخر .. وأمر بسد نافذتين كانتا فى الجدار البحرى ، زيادة فى التقوية ..

ثم رأى أن تعمل « صلبات » فى بعض الاماكن ، وخاصة فى ناحية الزيادة البحرية ، لتقوية الجدار البحرى .. وزاد بعد ذلك فى عدد الأعمدة ليقوى هذه « الصلبات » .. واستعان بكبار المعماريين فى عصره لمعرفة أسباب ضعف جدران المسجد وتشققها وميلها ، فاجتمع رأيهم على سد القناة التى كانت توصل مياه النيل الى « الفوارة » ، فعمل برأيهم وأمر بسد القناة .. فاستطاع بعمارته هذه أن يحفظ جدران جامع عمرو من الانهيار لبعض الوقت ..

ومرت الشهور .. وعاد قاضى القضاة يتفحص جدران المسجد ، فاذا به يكتشف أن ثمة اصلاحات أخرى يجب أن تتم على الفور ، والا تداعى المسجد العتيق وأنمحى من الوجود أثر من أعظم الآثار الاسلامية ..

وأحب ابن بنت الأعز أن يبدأ عمارة جديدة بالمسجد مما لديه من أموال الأوقاف .. ولكنّه وجد المال من القلة ، والعمارة من السعة ، بحيث يستحيل عليه أن يتمها ، فشاور صديقه وزميله « صاحب بهاء الدين على » فى الامر .. واستقر بهما الرأى على مخاطبة السلطان الملك الظاهر فيه ..

وأصغى بيبرس الى قاضى قضااته .. وأسعده أن يولى جامع عمرو بمثل هذا الاهتمام ، وأحب فى الرجل غيرته على الأثر النفيس، فما أسرع مااستجاب له ، وأمر بعمارة المسجد على نفقته الخاصة ..

وتنفذا لسياسة الاصلاح الجديدة التى أمر بها بيبرس ، هدم الجدار البحرى للمسجد كله ، وأزيلت الأعمدة و « القواصر » العشر التى كانت قائمة ، كما رفع « اللوح الاخضر » .. وبدأ المعماريون يقيمون الجدار من جديد مرة أخرى ، ثم أعادوا الأعمدة و « القواصر » العشر واللوحة الاخضر ..

ورفعوا اللوح المرقوم ووضعوا مكانه آخر جديدا ، طلى بماء الذهب وكتب عليه اسم « السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى » ..

واستكمالا لسنة تجميل الجامع كله ، طليت جميع العمدة التى كان يحتويها حتى بنت براقه زاهية ، ثم تم طلاء المسجد كله .. وأقيمت فيه شعائر الصلاة فى



خانقاه ومسجد السلطان بيبرس الجاشنكير كان احد ممالك المنصور قلاوون انشأ مسجده هذا عام ٧٠٦ هـ ، ١٣٠٦ م ليكون «خانقاه» للصوفية . لقب بالملك المظفر وبدأ اول عمل له بان عين سلار نائباً له . . ولم يدم ملكه طويلا حيث قتل في سنة ٧٠٩ هـ ، ١٣١٠ م .
ثم لم يلبث ان تورط في عدة مطالب وجهها اليه سيده السابق الناصر محمد في هيئة انذار وتهديد . . فكان ان خلع نفسه وترك « القلعة » - دار الحكم - في الوقت الذي كان يتقدم فيه « الناصر » في طريق عودته الى السلطان من جديد . . .

شهر رمضان ٠٠ ثم استمرت بعد ذلك كالمعتاد ، وقد أصبح جامع عمرو في هيئة وشكل جديدين ٠٠

وبالرغم من أن « الدراسة » كانت قد استؤنفت في صحن الجامع الأزهر الذي جلس فيه العلماء الأجلاء ، وتولاه السلطان ونائبه عز الدين بالعناية والرعاية - فان جامع عمرو ظل كما هو ، مفتوح الأبواب لطلاب العلم ، عامر الحلقات ، كثير « الزوايا » للطلاب ، وقد بلغ عددها في عهد بيبرس ثمانى :

الأولى - « زاوية الامام الشافعى » ، التى ظلت محتفظة بطابعها القديم منذ جلس فيها الامام الشافعى للدراسة أول مرة حين وفد على مصر ٠٠

الثانية - « الزاوية المجدية » وهى فى الصدر وتجاور المحراب الكبير ، وقد رتبها للعلم والمدارس « مجد الدين أبو الاشبال الحارث » ، وزير الملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر الايوبى ٠٠

الثالثة - « الزاوية الصاحبية » وهى حول مئذنة « عرفة » ٠٠

الرابعة - « الزاوية الكمالية » المجاورة لباب سوق الفزليين ٠٠

الخامسة - « الزاوية التاجية » وهى امام المحراب ٠٠

السادسة - « الزاوية المعينية » وهى فى الجانب الشرقى ٠٠

السابعة - « الزاوية العلائية » ٠٠

الثامنة - « الزاوية الزينية » ، وهى كسابقتها لقراءة « ميعاد » ٠٠

واستمر بيبرس بعد ذلك فى اصلاحاته وانشاءاته العظيمة ، من داخل البلاد ، فى نفس الوقت الذى كان فيه رجل الحرب والجهاد من الخارج ، فحارب التتار وفرق شملهم وشتت قواهم ، وجمع شمل المسلمين وجعلهم جبهة قوية متحدة ٠٠ ولم يهمل المحارب الباسل أمر القلاع والحصون ، فحوى حصون القاهرة وزاد فيها ٠٠ وبنى كثيرا من الحصون فى سوريا وقواها وجعلها على أتم استعداد للدفاع واللقاء ٠٠

وأدى بيبرس فريضة الحج وجدد فى بناء المسجد النبوى الشريف ، وجدد عمارة قبة الصخرة فى بيت المقدس ، وزاد فى الأوقاف الخاصة بخليل الله ابراهيم عليه السلام ٠٠

واتبع بيبرس سياسة الأيوبيين ، فأنشأ باسمه مدرسة بين القصرين الى جانب المدرسة الصالحية التى أنشأها الصالح نجم الدين أيوب ٠٠

وقد حفل عصر الظاهر ببيرس بكبار أهل العلم ومشاهيرهم ، ففى أيامه وجد « عز الدين بن عبد السلام » من كبار فقهاء الشافعية ، وكان يسمى « سلطان أهل العلم » . . وكان هناك الامام « أبو شامة » و « مجد الدين بن دقيق العيد » و « الامام القرطبى » صاحب التفسير الشهير ، و « ناصر الدين الطوسى » ، و « اللورقى » . . وغيرهم كثيرين ممن دوت أصواتهم فى صحن الجامع الازهر وجامع عمرو والمدارس التى كانت معروفة فى ذلك الوقت . .

وأحب ببيرس - بعد أن شيد ماشيد وعمر ما عمر ، وبعد أن أرجع المجد والعز الى مصر - أن يقيم باسمه مسجداً ، يكون أثراً من بعده وذكرى طيبة له . . فكان أن سأل كبار رجال دولته أن يبحثوا له الأمر ويقيموا هذا المسجد . .

وأقيم « جامع الظاهر ببيرس » فى ميدان كان يعرف باسم ميدان « قراقوش » . . وقد كان قبل اختياره لاقامة المسجد بستاناً خاصاً لبيرس ، وملعباً كان يمارس فيه لعبة الكرة والعباب الفروسية ، التى كان يتقنها واشتهر بها منذ كان مملوكاً شاباً مع ممالك السلطان الملك الصالح « نجم الدين الايوبى » - سيده الاول وأستاذه . .

« وقد رسم ببيرس الجامع فى ركن من الميادين ، وأوقف بقيته « حكراً » على المسجد . . وفحص بنفسه « تخطيط » الجامع قبل اقامته ، فأشار بأن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية ، وأن يكون على محرابه قبة عظيمة مشابهة لقبة الامام الشافعى . .



« وكتب ببيرس من وقته الكتب الى البلاد ، باحضار العمدة الرخامية والآلات الحديدية والاخشاب النقية ، لتصنع منها أبواب المسجد وسقفه . . وشرع فى البناء والعمارة سنة ٦٦٥ هجرية . .

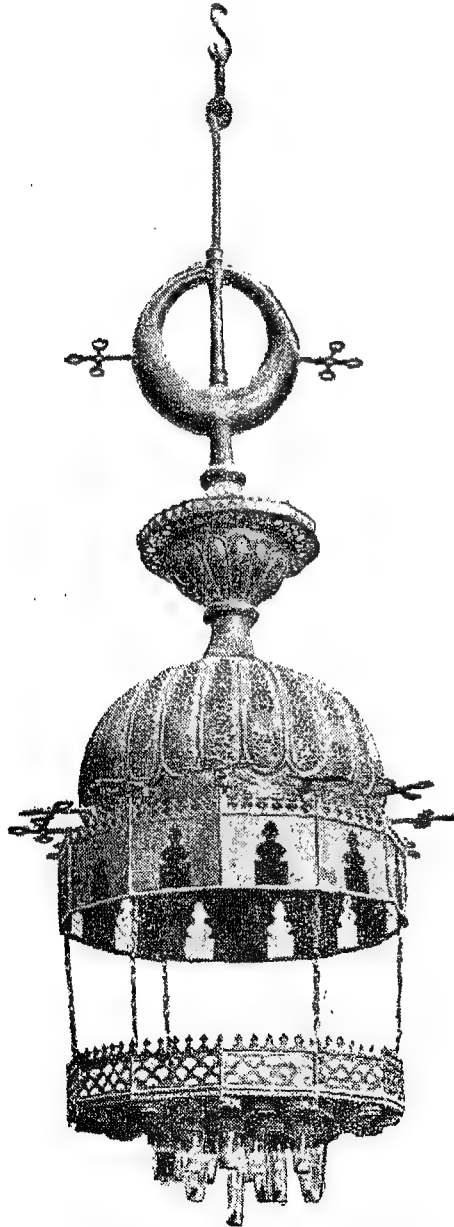
ثم سافر بعد ذلك بعام واحد الى مدينة يافا ، ليتسلمها من « الفرنجة » . . فهدم قلعتها وقسم أبراجها على الأمراء . . وأخذ من أخشابها ومن ألواح الرخام التى وجدت فيها وملاً منها مركباً الى القاهرة . .

وشيد ببيرس من خشب قلعة يافا مقصورة مسجده ، ومن رخامها بنى محرابه . . ولما تم بناء المسجد الفخم رتب له خطيباً من السادة الحنفية . .

وقد بنى المسجد من الحجر ، وكانت واجهته آية من آيات الاتقان وحسن الصنعة وجمال الزخرفة . .

أما محرابه فقد كان مثبلاً من أمثلة الدقة ، وقد علقت فوقه تحت القبة لوحة
رخامية كتب فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم - أمر بإنشاء هذه القبة المباركة مولانا السلطان الملك
الظاهر ركن الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس الصالحى ،
قسيم أمير المؤمنين فى سنة ست وستين وستمائة » .



أحدى ثريات مسجد السلطان حسن



عَمَارَةُ فُلَاوُون

تولى ملك مصر بعد بيبرس ابنه الأكبر
« بركة خان » ، الذى تسمى باسم « الملك
السعيد أبى المعالى » ..

وكان شابا ، ليس فيه من والده المصلح
المحارب شيء على الإطلاق ، فلقد نشأ فى
أحضان النعمة ، فلم يمر بفترات عصيبة
كتلك التى مر بها أبوه .. ثم ورث ملكا
ممهنا ، وسلطانا باذخا وثراء لا حصر له ،
فرغبه الفرور .. وظن أنه وحده السيد ،
والناس جميعا عبيد !!

وتجبر السعيد أبو المعالى وظلم ، وقسا
على الرعية واستبد ، وأبعد الثقة المخلصين
الذين كانوا عون أبيه وبناء ملكه وشركاءه
فى كل انتصاراته .. وراح يرمى بالاحرار
فى أعماق السجون لمجرد الشك ، أو الرغبة
فى التخلص من أصحاب النفوس الأبية !!
وسار الوريث الشاب فى السلطنة أسوا
سيرة ، حتى شاء حسن الحظ أن تتخلص
البلاد من طيشه ونزقه ، يوم سقط عن
جواده وهو يعدو به فى أحد ميادين قلعة
الكرك ، فمات لساعته ..

وورثه أخوه الملك العادل « سيف الدين
سلامش » الذى عرف باسم « ابن البدوية »
وعلى النقيض من السعيد أبى المعالى ،
كان سلامش أخوه : رضى الطباع ، سمح
الخلق ، لطيف المعشر .. يميزه عن الملوك
ههنا وادع ، وطيبة قلب نادرة ، جعلته
ينفض يديه من شؤون السلطان ، مكتفيا
من الحكم بلقبه ، تاركا تصريف الأمور كلها إلى حكمة مملوكه الذى اختاره ووثق فيه ..

« مئذنة قايتباي بقلعة الكيش »

وكان المملوك « قلاوون » على عكس مآثره سيده سلامش الطيب ..
كان طموحا أنانيا ، فراح يبنى لنفسه ويجمع مقاليد السلطان في يديه .. حتى
لقد استبد بشتى أمور الملك ، وأصبح سلامش لا شيء الى جانبه ، مما جعله
يتماذى في طغيانه ، فيقدم على خلع سيده المسكين ، ويصدر أمرا بنفيه هو
وعائلته .. بل وان يسجنوا أجمعين !!

وتولى قلاوون مقاليد السلطة بعد خلع سلامش ونودى به سييدا للبلاد باسم
« السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون أبى المعالى الصالحى النجمى » !!
وافتح قلاوون عهده الجديد بالتقرب الى الشعب ، فألقى بعض الضرائب ، ورفع
كثيرا من الالتزامات التى كان الشعب يئن منها ، وأشعره بالأمن والرخاء ..
ثم التفت الى الحدود فحصنها .. وسرعان ما وجد نفسه يتبع سياسة
القلاع والحصون ..

كان الخطر التترى مازال جاثما على الشرق .. وكان هؤلاء القوم المحاربون
بفطرتهم ، يجوسون خلال الديار بالشر والفرع والتقتيل .. فلم يجد المنصور قلاوون ،
الا أن يخرج على رأس جيشه لردهم ومحاولة القضاء عليهم .. فأسعده حظه وأنتصر
على التتار بفضل الخبرة التى اكتسبها هو وجنوده أثناء عملهم تحت قيادة المحارب
المحنك « الظاهر بيبرس » ..

وكما فرت جيوش التتار أمام المنصور قلاوون فى « حمص » ، تفرقت صفوف
الصليبيين فى عديد من المواقف .. فاستتب بذلك الأمن ، وبدأ السلام يرفرف على
الشرق جميعا ، ويخيم على مصر بوجه خاص ..

ولقد كفل الرخاء العام والأمن المستتب لقلاوون ، أن يفكر فى الإصلاح الداخلى
للبلاد ، وأن يتجه ناحية الانشاء والتعمير ويبنى لنفسه أجيادا خالدة تحمل اسمه
على كر السنين ..

وتذكر حادثا وقع له ذات مرة وهو فى « دمشق » أثناء وجوده مع عسكر سيده
الظاهر بيبرس ..

كان قد وقع فريسة مرض عضال ، نقل من أجله الى « بيمارستان » - أنشأه
السلطان نور الدين محمود - حيث عولج هناك حتى أبل من مرضه وأصبح صحيحا
معافى ..

وتصور حالته كمريض وهذا « البيمارستان » غير موجود !!
ورأى فيه يدا حانية تأسو جراح الانسانية وتخفف من الآلام بتقديم العون ..
وأكثر قلاوون فى نفسه منشىء ذلك المصح .. واقتنع بأن انشاء مثله يعود بالنفع
على كثيرين حيث يمنحهم الشفاء والعافية ويطلق السنتهم بالدعاء .. ثم يكون بعد
ذلك ذكرى طيبة خالدة .. وتمنى لو كانت له الأسباب التى تمكنه من اقامة مثل

هذا الاثر الجليل .. ثم نذر بينه وبين نفسه أنه لو أسعده حظه وكان له سلطان مصر وأصبح ملكا عليها .. فسوف ينشئ بيمارستانا يشابه بيمارستان « نور الدين » - يكون مباحا للجميع دون تمييز ، ومزود بكل ما يحتاج اليه المرضى من أدوية وعقاقير وأطباء ..

وابتسم الحظ ذات يوم للمملوك قلاوون ، وواتاه بما كان يحلم ، وأصبح سلطان مصر ، وسيد ممالكها .. فتذكر نذره وصمم على بناء « البيمارستان » في أقرب وقت ..

ولما كان ميدان التنافس في البناء في تلك العصور المضطربة ، يدور حول اقامة المساجد الجامعة ، فقد أحب قلاوون أن تكون « عمارته » الجديدة حاوية جامعة بين الدين والدنيا ، وأن يكون فيها طب القلوب والابدان ..

وهكذا رسم المنصور قلاوون خطته الرائعة ، فقرر أن يشيّد بناء عظيمًا ، يجمع بين « البيمارستان » و « المدرسة » و « القبّة » التي تظلل قبره ، ثم « المسجد » الذي تؤدي فيه شعائر الصلاة ..

ولم يطل به البحث عن المكان ؛ اذ وجده في دار كانت معروفة بـ « دار فخر الدين جهاركس » ، ثم سميت بعد ذلك باسم « دار موسك » ثم نسبت الى الملك المفضل بن العادل أيوب وأطلق عليها اسم « الدار القطبية » - وكانت قبل هؤلاء جميعا ، قاعة خاصة بابنة العزيز بالله الفاطمي « ست الملك » !!

واستولى المنصور قلاوون على الدار وعوض صاحبها « القطبية » بجزء من قصر « الزمرد » ، الذي درست معالمه ، وأهملته الدول المتعاقبة بعد دولة الفاطميين ، وخصوصا بعد أن نقل صلاح الدين الايوبي « دار الحكم » منه الى قلعة الجبل

وهدمت دار القطبية .. وتولى الامير « علم الدين سنجر الشجاعى » الاشراف على اقامة البناء الجديد بتكليف من سيده المنصور « قلاوون » ..

وسار العمل بهمة لاتعرف الكلل ، حتى تمت المجموعة الانشائية الضخمة العظيمة بعد وفاة منشئها بقليل ، فدفن بجامع القلعة حتى تم بناء قبره هناك تحت القبّة الباذخة الفخمة ، فنقل اليها في المحرم سنة ٦٩٠ هـ ..

ومسجد « البيمارستان » القلاووني ، عمل من أجل الاعمال الانشائية وأفخمها ، لا فى دولة المماليك البحرية فحسب ، بل فى شتى العصور التى سبقتها . وهو بفخامته وشدة اتساعه وتنوع الأغراض التى أنشئ من أجلها ؛ يدل على ماكانت عليه مصر من ثراء ، شجع السلاطين على الاسراف فى البناء ، اسرافا جعلهم يقيمون مثل هذا الصرح العظيم الذى كان فى مجموعه وتفصيله آية للدقة والروعة والفن الأصيل ..

والعمارة القلاوونية الضخمة ذات واجهة عظيمة : جزؤها البحرى هو القبة ، ومدفن قلاوون ، ومنارته الفريدة . وجزؤها الثانى القبلى هو المدرسة . وفيما بين القسمين المميزين الباب الكبير الذى يوصل الى « البيمارستان » ، والى القبة والمدرسة أيضا . .
ومنارة المسجد طريفة دقيقة ، تتميز بأنها لا شبيه لها بين منائر مصر . . وهى فى تفردھا الصناعى هذا تشبه منارة الجامع الطولونى . . ببناء حجرى ضخم مكون من ثلاث طبقات . .

وقبة مدفن قلاوون هى الاخرى تحفة جميلة ، لا شبيه لها بين القباب فى مصر على الاطلاق . . وترجع فى أصلها المعمارى الى قبة الصخرة فى بيت المقدس ، وهى مكسوة الجوانب بالرخام الدقيق المطعم بالصدف ، وبسقفها نقوش ذهبية ، وبها منافذ عديدة من شتى جوانبها ذات عقود وزخارف ، يحليها الزجاج الملون . .

ومحراب القبة هو الآخر فريد فى صنعه لا نظير له بين محاريب مساجد القاهرة ، يكسوه الرخام المطعم بالأصداف ، وله عدة أفاريز خشبية عليها كتابات مذهبة بالخط الكوفى . .

وقد رتب فيها الملك المنصور دروسا فى المذاهب الأربعة ، ودرسا للطب ، ودرسا للحديث ، ودرسا للتفسير ، فيه مدرس ومعيدين وثلاثون طالبا . . وجعل بها خزانة للكتب . .

وحبس المنصور على هذه المجموعة الانشائية العظيمة أموالا طائلة ، يقرب ايرادها السنوى من عشرة آلاف دينار . .

وقد شهد المنصور قلاوون تحقيق حلمه العزيز ووفائه بنذره ، يوم افتتاح مجموعته الرابعة هذه . .

وأمر يومها بأن يحضروا له قدحا من شراب يقدمونه للمرضى المترددين على البيمارستان ، فشربه . . ثم قال :

« قد وقفت هذا على مثلى ، فمن دونى . . وجعلته وقفا على الملك والملوك ، والجندى والامير ، والكبير والصغير ، والحر والعبد ، والذكور والأناث » . .

ثم رتب فيه العقاقير والأطباء ، ومكانا لتكيب المعاجين والادوية ونحوها ، ومكانا للخزن ، ومكانا لتوزيع الادوية ، ومكانا لدراسة الطب . .

وجعل النظر لنفسه ، ثم لأولاده ، ثم لحاكم المسلمين الشافعى . .

وضمن وقفه كتابا تاريخه « يوم الثلاثاء ، ثالث عشر من صفر سنة ثمانين وستمائة » وبلغ مصروف الشراب منه فى كل يوم خمسمائة رطل ، سوى السكر . . ورتب فيه عددا من العاملين ، ما بين أمناء ومباشرين للإدارة واستخراج مال الوقف والمطبخ وعمارة الأوقاف . .



مسجد ومدرسة سلار وسنجر الجاولى انشاه الامير علم الدين سنجر الجاولى سنة ٧٠٣ هـ ، ١٣٠٣ م
كان مملوكا لاحد امراء الظاهر بيبرس ، وانتقل بعد موت صاحبه الى بيت قلاوون وظل به حتى
وصل الى مرتبة الامراء وكان صديقا حبيبا للامير سلار احد مماليك المنصور قلاوون الذى اعتقله الملك
الناصر - اثر فتنة - مدة ثمانى سنوات ومات يوم الفرج عنه .. وقد نسب هذا المسجد الى «سنجر»
دون «سلار» مع ان سلار كان اعظم جاها واوفر مالا . ولكن ظروفه حالت دون تاييد نسبته اليه .
الكتابات الموجودة بالمسجد .

وعين في القبة خمسين مقرئاً - يتناوبون القراءة ليلاً ونهاراً ، وإماماً راتباً ، ورئيساً للمؤذنين ..

وعين بمكتب السبيل معلمين يقرئان الأيتام ، وجعل لكل يتيم رطلين من الخبز يومياً ، وكسوة الشتاء والصيف » (١)

وبالرغم من عظم التبعات التي تحملها المنصور قلاوون ؛ لاتمام مجموعته البنائية الخالدة هذه - فإن الرجل لم يقصر في رعاية ماكان في حاجة الى رعاية من مساجد القاهرة الاخرى ، فأولاهها عنايته ، لاسيما جامع عمرو بن العاص ، الذي كان قد ساء حاله في تلك الاثناء ، وعدت عليه يد البلى ؛ فتداعت جدرانه حتى كادت تنساقط ؛ لان المشرفين عليه أهملوا رعايته ، وتهاونوا في تحصيل ايراد أوقافه الكثيرة ، وتركوا الاحباس نفسها في يد مغتصبها من الناس ..

حتى تقدم تقى الدين أبو القاسم بن عبد الوهاب ابن بنت الاعز ، قاضى قضاة الشافعية وناظر أحباسها والمشرف على جامع عمرو - بشكوى الى السلطان المنصور ، عرض فيها لكل شئ : المباني المتداعية ، والاهمال الشنيع ، والاحباس المغتصبة .. وطالب بنجدة سريعة لانقاذ جامع عمرو ..

وعين القاضى للمسئولين مكاناً خصباً ، اغتصبه الناس وهو موقوف على «الشافعية» ومدرستهم التي كان مقرها « جامع عمرو » .. وطالب برد هذه الاعيان المغتصبة ، وكانت أرضاً زراعية شاسعة في « جزيرة الفيل » ..

فأسرع المسئولون بإجابته الى طلبه وردوا اليه تلك الاعيان .. وعاد تقى الدين مرة ثانية يطالب بأموال متجمدة من أحباس مسجد عمرو ، قدرها ثلاثون ألف درهم ، فتصرف في اصلاحه .. فلم يجبه أحد الى طلبه ..

ثم حدث بعد هذا أن أصدر قلاوون أمراً الى أحد نوابه ، المسمى « عز الدين الاقزم » ليقوم باصلاح جامع عمرو على النفقة السلطانية .. فأسرع المملوك الى تنفيذ أمر سيده - ولكن في غير مراعاة لواجب الذمة والأمانة ، اذ رسم بينه وبين نفسه أن يراعى فائده هو أولاً ، وما سوف يعود عليه من ربح عن طريق مباشرة هذه العمارة أولاً وقبل كل شئ ..

وبدأ عز الدين الاقزم عمله أول مابداً بجرد الاحباس الموقوفة على المسجد ، وقام بحصر ايراداتها .. ثم أمر بجمعها ليفتصب معظمها ، ويجود بالبقية التافهة على الاصلاح الذي أمر بأجرائه !!

(١) ظل هذا « اليمارسطان » يؤدي وظيفته الانسانية الحققة على كمر العصور ، مستعيناً في ذلك بإيراد أوقافه حتى تسلمته وزارة الاوقاف ، وبدأت اشرافها عليه ، فاستمر يؤدي وظيفته التي انشأ من أجلها .. ثم خصصته في النهاية وجعلته حتى يومنا هذا مستشفى لأمراض العيون

ولقد كان غريبا أن ينصرف المملوك الشره عن ترميم الجدران الآيلة للسقوط ، ويعمد الى طلائها من الخارج بالملاط ، وحشو الصدوع والشقوق ، وتزينها بعد الطلاء بما يخدع البصر ويوهم بتمام « الترميم » !!

وأمر عز الدين الأفرم بأن تطلّى واجهة حجرة « المزاوى » .. ثم طلب من العمال أن يعملوا على إعادة جريان الماء من البئر والساقية الواقعتين بزقاق الاقفال - الى المسجد مرة أخرى ..

ولما رأى عهد المسجد كثيرة .. واصلاحها يكلف غاليا - أمر العمال بتنظيف هذه العمد حتى منتصفها .. فبدأت في منظر ينبو عنه النوق السليم !!

واكتفى المملوك من اصلاح المسجد بما أفسد وزور .. وأمر برفع الأتربة التي تخلفت عن الاصلاح الصورى ، ثم أزال أتربة أخرى كانت باقية ببعض الزيادات .. وعاد الى مولاة السلطان المنصور ؛ ليرفع اليه تقريراً بأنه أصلح جامع عمرو وجده حتى أصبح تحفة تسر الناظرين !!

ولم يقصر الملك المنصور فى عنايته بالجامع الأزهر ، فأمر نائبه « الأمير طرناى » ، بأن يولىه عنايته وأن يقوم باصلاح ما يحتاج الى الاصلاح من مبانيه .. فأقدم الأمير على التنفيذ فى سرعة ، وبروح غير تلك التى سادت أعمال « أيبك » الذى باشر اصلاح جامع عمرو ..

ومرض المنصور .. فعهد بشئون السلطنة الى ولده الأشرف خليل ، الذى تولى بعد أبيه باسم « الملك الأشرف صلاح الدين خليل » ..
وكان من المؤسف أن يبدأ ابن المنصور عهده بخلع من كانوا مقربين من أبيه وزجهم فى السجون !

ثم ينقض على الأمير « طرناى » نائب أبيه فيسجنه ، ثم يأمر بقتله والاستيلاء على أمواله .. متناسيا كل فضيلة ، حتى فضيلة الوفاء فى رد الجميل للرجل الأمين ، الذى أبى أن يطيع المماليك - والمنصور على فراش الموت - فيأمر بالقبض على خليل !

لقد حذروه من ابن المنصور فأبى أن يخون سيده ، واحتسب نفسه فى الشهداء ، وهو يعلم انه سيموت بيد خليل، فأثر أن يقال : انه قتل، على أن يقال : انه خان !
وبأمر خليل شئون الملك بروح فارس وقلب محارب .. فجهز الجيوش وأعد العدد ولم ينس سياسة القلاع والحصون .. وخرج على رأس الجيش فحاصر « عكا » - وكانت فى يد « الصليبيين » - فاستولى عليها وهدم أسوارها وحصونها .. وسار منها الى « بيروت » ، فاستولى عليها هى الأخرى ، وهدم أسوارها وحصونها ..

وأمر « الأشرف » أن ينقل من بيروت ما كان فى أسوارها وحصونها التى سقطت من رخام مختلف الألوان ، ليستعمله فى أعماله الانشائية ..

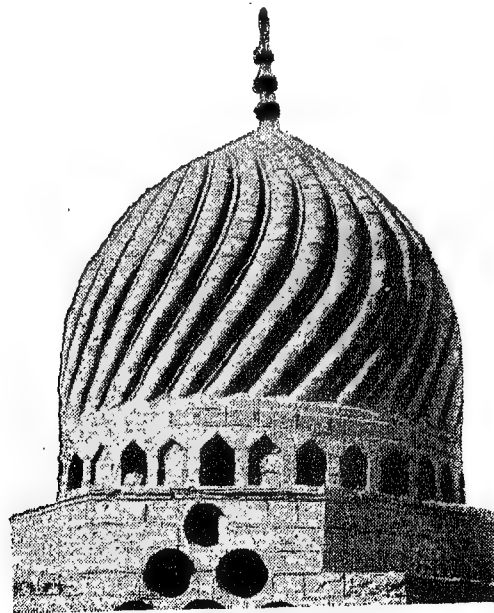
ولما عاد الملك الأشرف الى القاهرة ، عاودته سياسة البطش من جديد . فراح يتلمس الأسباب للقضاء على أمراء الماليك ، ليتخلص منهم ويفسح المجال لبعض خاصته فكان أن تجمعوا عليه ، واتحدت كلمتهم على البطش به والتخلص منه . وظلوا يتحينون الفرصة ، حتى واتتهم ذات يوم وهو فى رحلة صيد باقليم « البحيرة » ، فانقض عليه « بيدر » و « لاجين » و « بهادر » و « آق سنقر » ، وغيرهم ، وحاصروه ثم انهالوا عليه بسيوفهم حتى مات !

ولما مات الأشرف خليل ، بقى ملقى حيث هو ، لان الفتنة شملت البلاد ، واحب المتآمرون تولية « بيدر » باسم الملك الأمجد ، ولكن مماليك الأشرف خليل قضوا على الفتنة وقتلوا « بيدر » فهرب من معه !

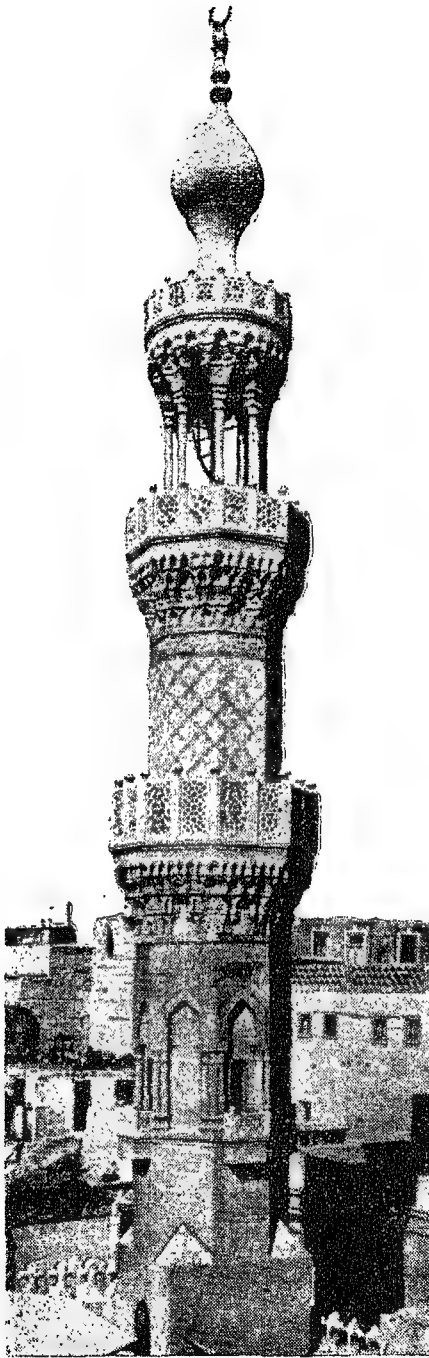
وحملت جثة خليل بعد هذا لتدفن فى « المدرسة الأشرفية » التى بناها الى جوار المشهد النفيسى ، وعلى مقربة من مشهد « رقية » . . وبنى له فيها قبة رائعة جميلة النقوش جعل تحتها مقبرته . .

والمدرسة الأشرفية . . أو « الجامع الأشرف » عمارة من أجمل العمارات القلاوونية . . بناها الأشرف خليل تمشيا مع سنة عصره فى اقامة المساجد الملحق بها مدارس لتربية الناشئة ورعايتهم ليكونوا مواطنين صالحين . .

وواجهة المدرسة الأشرفية مبنية بالحجر الضخم ، وعليها قبة جليلة رائعة الصنع ، وعلى الجدران كتابات مهيبة . .



« قبة الجاي يوسفى »



« مُنْذَنَةُ الْفَاضِي يَحْيَى »

مُؤَامَرَاتُ الْمَمَالِيكِ

ما كاد مماليك الاشرف خليل وخاصته
يفرغون من الانتقام لمقتل سيدهم ومطاردة
بقية العصابة الشريرة التي ظاهرت « بيدر »
الخائن قاتله ، حتى استقر الرأي على تولية
محمد بن المنصور قلاوون سلطانا على البلاد
باسم « الناصر محمد » ..

وكان الملك الناصر عندما تولى العرش
حدثا صغيرا ؛ فترك تصريف أمور الدولة
الى « الشجاعى » ، الذى استبد وقسا ،
وأغضب المماليك كلهم .. فراح يقتل
ويشنع ويرسل الى السجون باسم الانتقام
لمقتل الاشرف !

وهرب فيمن هرب من أمراء المماليك
« حسام الدين لاجين » ..

لقد شهد الناس ذات يوم مملوكا ملاء
الذعر يرقى درج مُنْذَنَةِ جامع أحمد
ابن طولون المهجور .. فثارت فيه الأقاويل
وكثرت الروايات ..

لقد قيل يومها : ان أحد طفاة المماليك
الاشرار تجاسر على حرمة المسجد ؛ فصعد
سلم مُنْذَنَتِهِ وهو على ظهر جواده ، ولكن
القدر أبى أن تصل الجُرْأَةُ بمملوك الى هذا
الحد من الاستهتار بحرمة بيوت الله ، فلم
يكده يصل الى قمة المُنْذَنَةِ حتى اختفى من
الوجود .. ولم يعلم أحد من ساعتها الى أين
ذهب ذلك المملوك !

أما الحقيقة فكانت بعيدة كل البعد عن تقولات العوام ..
لقد تسلل فعلا الى داخل مسجد طولون مملوك خائف ؛ ليختفى عن عيون مطارديه

القنساء ؛ ليحاسبوه على اشتراكه فى قتل سيده ..

وظل ذلك المملوك يتنقل مستترا فى أرجاء المسجد الفسيح ، حتى وصل الى مؤخرة المسجد - حيث المئذنة البعيدة المنزلة ، فوجد أن الطريق قد سدت فى وجهه وضاعت به السبل ، وخشى أن يعود من حيث أتى فيقع فى أيدي مطارديه أعوان السلطان .. فلم يجد غير أن يغامر ويصعد الدرج الحلزوني فى حذر ، عساه يجد ملجأ يستتره عن العيون ..

وهكذا وصل حسام الدين لاجين الى أعلا منارة المسجد الطولوني .. وإذا به يجد هناك خزانة ، اختفى فيها طوال عام بأسره .. حتى تشفع له الأمير « كنبغا » نائب السلطنة لدى سيده الملك الناصر محمد ، فقبل الشفاعة وعفا عن المملوك الهارب ورد عليه أمواله ، وأعادته الى مكانة الصدارة فى قصره ..

أما الشجاعى الذى لم يرقه كرم « الناصر » ولا حبه للمسألة ، فقد استمر على خطته العدائية للجميع ؛ حتى حول القلوب عن السلطان الشاب ، وجعل الماليك يعقدون النية على القيام بمغامرة ، يختفى بعدها الشجاعى من الوجود ويبقى الناصر ، أو يختفى الاثنان معا ..

وأحس الناصر بما كان يدبر ضده .. ووجد نفسه يستدعى الشجاعى ليعرف منه سر غضب الماليك والأمراء .. وكان الناصر صغيرا ضعيفا ، فأغلظ له الشجاعى فى القول ، بل وهدده .. فتركه وهو عاجز عنه الى عدالة القدر ..

وسرعان ما سلب القدر على الشجاعى مملوكا جريئا فتربص به وحز رأسه وحملها الى أمراء الماليك ، الذين تجمعوا بملابس الحرب ، ليضعوا نهاية لذلك التعسف الرهيب !

ورأى أمراء الماليك بعد مقتل الشجاعى أن السلطان الملك الناصر ، حدث صغير .. وهم فى حاجة الى رجل قوى الشكيمة ، يستطيع أن يسوس الملك ويجرى العدالة بين الناس ..

وكان أن استقر رأيهم فى النهاية على خلع الملك الناصر ، وتولية الأمير « كنبغا » سلطانا باسم « الملك العادل كنبغا عبد الله المنصورى » ..

وهكذا تملك « العادل » عرش سيده ابن قلاوون ودانت له مصر .. فى الوقت الذى رحل فيه الملك الناصر محمد الى « الكرك » بعد أن حكم مصر حوالى أحد عشر شهرا .. وكان العادل كنبغا ، رجلا طيب القلب نقي السريرة .. لم يكد يتسلم مقاليد الملك ، حتى جعل « حسام الدين لاجين » نائبه على السلطنة .. وأطلق يده ويد الكثيرين من زملائه القدامى فى شئون الحكم ، حتى مكن لهم وزاد من نفوذهم .. ولم يدر بخلده أن لاجين الرهيب كان يرسم خطوط مؤامرة للإيقاع به !

نسى كتبغا أن لاجين للقلق الثائر ، قد فاتته حظه أكثر من مرة ..
لقد كان من أقدم ممالك الملك الصالح « نجم الدين أيوب » ، وكان أثيرا عنده حتى قدمه على « أيبك » التركمانى ذات يوم .. وكان صاحبنا وخذنا لأقطاي وبيبرس ..
وهو الوحيد الذى مرت به السنون حيث هو ، فلم يتقدم ، ولا لاحت له بارقة أمل فى تقدم وهو جد مشوق الى الجاه والسلطان !

اما اليوم فهو غير الامس .. وان بوارق الحظ لتتبدى للطامع لاجين .. وأنه لينسج من خير كتبغا وأفضاله عليه شركا يوقعه فيه ، ويسير على جثته الى سرير الملك !
وظل كتبغا على حاله من الطيبة والهدوء .. وانصرف عن التفكير فى شئون المؤامرات التى كانت تحاك حوله ، الى التفكير فى أمر الانشاءات والعمارات ، ليكون له هو الآخر مسجدا عظيما — شأنه فى ذلك شأن السلاطين العظام الذين سبقوه !

وبدأ العادل كتبغا فى دراسة مشروع اقامة مسجد ومدرسة ، الى جانب مدرسة البيمارستان المنصورى ..

وشرع فعلا فى اقامة البناء الأشم ، الذى كانت الظروف تحتم أن يكون على غرار المجموعة الضخمة التى أنشأها قلاوون ..

وارتفع البناء الجبرى الشاهق حتى ظهرت فى الافق معاله ..
ثم سافر كتبغا الى الشام ، فى أمر من أمور ملكه الفسيح ..
وطابت له الإقامة هناك ، ولم يدر بخلده أن نائبه حسام الدين لاجين قدخلعه ، وأعطى لنفسه كل حقوق السلطان !

ولم يسمع الملك الطيب بما حدث ، الا يوم وصلته رسالة من لاجين ، يأمره فيها بالذهاب الى « صرخد » ليعيش هناك مع عائلته فى أمن وسلام ! وألا يحاول العودة ..
أما أمر المملكة ، فقد رتبته هو وكفاه كل شئونه !

واستسلم كتبغا لأمر نائبه السابق لاجين ، وخلع نفسه عن السلطنة التى ظل يباشر مقاليدها قرابة العامين ..

وتولاها من بعده لاجين باسم « الملك المنصور حسام الدين لاجين » !
وتذكر لاجين أول ما تذكر مسجد احمد بن طولون « ذلك الفضاء الرحب المتخرب .
الذى هرع اليه ذات يوم هاربا من الموت ؛ فقادته المصادفة الى مؤخرة المسجد حيث المئذنة !!

وظافت ذكريات عام كامل بذاكرة لاجين .. عام ظل فيه محتفيا فى خزانة المئذنة حتى صدر أمر الملك الناصر بالعفو عنه !!
واحب لاجين — وقد أصبح اليوم صاحب الحل والعقد وسلطان مصر المطلق، أن يرد

للمسجد الشبيه بالمهجور بعض فضله عليه .. فأمر بأن يجدد كله وينظف ، بعد أن جعل منه الزمن مناخا ؛ تتجمع فيه دواب حجاج المغاربة !
وبعد أن أتم لاجين تجديد جدران المسجد الطولوني من الخارج ، التفت الى داخله وكان في حاجة كبيرة الى الاصلاح والتعمير ..
والى جانب المحراب الطولوني الاصلى ، والمحراب المستنصرى الذى بناه الخليفة الفاطمى المستنصر - بدأ لاجين يقيم محرابا جديدا على نمط المستنصرى .. وكان ذلك فى عام ٦٩٦ هـ ..

ولما فرغ العمال من بناء المحراب ، كسى بالفسيفساء المذهبة .. وأمر لاجين بعمل اطار فوقه ، كتب فيه بالخط الكوفى :
« أقام هذا المحراب المبارك مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدين ، لاجين سلطان الاسلام » ..
وفوق العقد الخموس كتب :

« لا اله الا الله محمد رسول الله حسبى ربى الله » ..
واتجه لاجين باهتمامه بعد هذا الى المئذنة . : مئذنة « الذكرى » فجدد بناء مآهدهم منها ، وبنى قممها التى كانت قد سقطت بفعل الزمن .. وأعاد اليها العشارى الذى كان فوقها أيام أنشئت فى زمن أحمد بن طولون ثم سقط منها بعد ذلك ..
وحبس المنصور لاجين على جامع طولون بعد هذا كله أوقافا كثيرة ، ذات دخل وفير .. ورتب فيه دروسا للمذاهب الاربعة ، ودرسا للتفسير ، ودرسا للحديث ..
ولما كان أحمد بن طولون ، يوم أنشأ المسجد ، قد ألحق به « خزنة ادوية » ؛ فنهى الأذهان الى انشاء « البيمارستانات » فى المساجد - فقد أحب لاجين أن يعيد كل شئ الى أصله ، بل وزاد عليه بأن قرر فى المسجد درسا خاصا بالطب ..
وعين لاجين للمسجد اماما وخطيبا ، وعدة مؤذنين ومقرئين وفراشين ، وعين لهم رواتب محددة ..

وأنشأ لاجين الى جانب المسجد مكتبا ، خصصه لأولاد الفقراء كى يتعلموا فيه قراءة القرآن ..
وقد بلغ ماصرفه لاجين على تعمير جامع ابن طولون وتجميله وزخرفته واعادته الى أصله ، حوالى عشرين ألف دينار ..

وهكذا كان المنصور لاجين وفيما للمسجد الذى آواه وأمن خوفه ، فأصلحه وجدد شبابه .. واستطاع أن يخلد لنفسه الذكر الحسن ، وأن يتقرب الى الله بعمل صالح يرضيه ..

وفى الوقت الذى وجه فيه لاجين كل عنايته واهتمامه الى تعمير الجامع الطولونى ،

تجبه بعض كبار رجال الدولة وأئمة الدين الى عمارة جامع « عمرو بن العاص » ..
 ففي عام ستة وتسعين وستمائة الهجرى ، اشترى « **الصاحب تاج الدين ابن الصاحب**
بهاء الدين بن حنا » دارا بسوق الاكفانيين وهدمها ، وجعل مكانها « سقاية » كبيرة ،
 رفعها الى محاذاة سطح الجامع ووصل بينهما بمعبر ..

وفوق « السقاية » بنى الصاحب تاج الدين أربعة بيوت يرتفق بها فى الخلاء ،
 وخصص فى جانب آخر مكانا أعده لجرار الماء العذب ؛ فوفر على الناس بذلك متاعب
 كثيرة ويسر لهم الحصول على ماء الشرب ..

وهدم تاج الدين بعد هذا « سقاية » بالمسجد . كانت فى الحجرة الواقعة أسفل مئذنة
 المنطرة .. وأقام مكانها برجاً شاهقاً ، جعل بأعلاه بيتين للارتفاق ، أحدهما بدلاً من الحجرة
 التى هدمت ، والثانى يستعمله من هو خارج الحجرة ممن يقرب منها ، ويصل اليها من
 ممر فى خارجها ..

ولقد كانت تلك العمارة خاصة بأعمال قصد بها وجه الخير وان لم تمس ببناء المسجد
 من قريب أو بعيد ، فقد كانت لازمة لاستكمال بهائه ، من وسائل تجميله وتوفير العناء
 على العطشى الذين كانوا يترددون على الفسطاط ..

ولما تولى « **علاء الدين بن مروانة** » نيابة دار العدل بالقاهرة ، أخذ يوزع الاعمال ،
 ويعين الاختصاصات ، وبكلف الموظفين العامين بتحمل نصيبهم فى أعباء الادارة ..
 وقد قسم ابن مروانة ادارة مسجلى القاهرة الجامعيين ، بين اثنين من مساعديه :
 نبيه الدين بن السكرى ، لادارة « الازهر » وبهاء الدين بن السكرى لجامع عمرو
 بن العاص ..

وكان ابن السكرى من الاخلاص للعمل الذى وكل اليه ، الى الحد الذى جعله يلم بكل
 كبيرة وصغيرة فى جامع عمرو ، وتلمس كل نواحي النقص فيه وما يمكن أن يزيده
 جمالا وبهاء ..

ورأى أن الزيادة البحرية من المسجد قد أهملت على كر العصور ، ولم تعد صالحة
 لاداء الوظيفة الدينية التى أنشئت من أجلها ، فتحولت الى شبه مخزن تكدست فيه
 « الحصر » القديمة ..

وأراد أن ينظف ذلك المكان ويعيده الى سابق عهده ، وأن يرفع سقفه ، ويقيم بين
 بابيه حاجزا يمنع عابرى المسجد بين بابه الأصيل وباب الزيادة الموصول الى سوق
 النحاسين ..

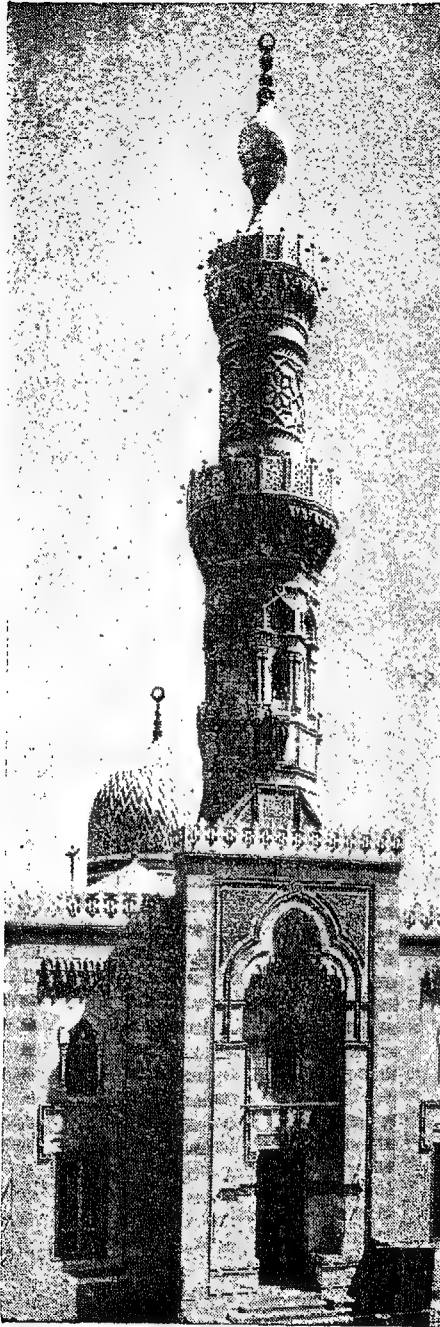
ورفع ابن السكرى الى رئيسه ابن « مروانة » تقريراً بما رآه ، وألح فى ضرورة
 التنفيذ ..

وأمر ابن مروانة بتنفيذ ما ارتأى مشيره .. وزاد فأمر بأن تكسى الارض بالبلاط ،
 وأن يرمم بعض رخام صحن المسجد ، بما قطع من الاعمدة الرخامية ، وكسا بالفائض
 من الرخام أرض بعض الممرات ..

وظل لاجين قابضا على زمام الحكم متصرفا في أمور الدولة مدة عامين كاملين ..
غير أن نائبه الامير « منكوتمر » أساء التصرف ، وأغضب الامراء .. وكان فظا
غليظ القلب ، جعل الناس يكرهون لاجين ، ويتمنون الخلاص منه ..
وتمت فعلا مؤامرة خلع الملك وحدد مواعدها .. ووقف المتآمرون في بهو القصر
ينتظرون الشارة المتفق عليها ليهجموا على الملك المحارب .. ولكن مملوكه ، « كرجي »
مقدم المماليك البرجية كفاهم مؤونة الهجوم ، فقام به وحده .. وانتهاز فرصة قيام
سيده بالصلاة فهجم عليه وهوى بالسيف على كتفه ؛ فقام لاجين وأمسك به ليذبحه ،
لولا أن أنقذه من يده متأمر آخر اسمه « نوغان الكرمانى » بأن وجه ضربة ثانية الى
السلطان ، كانت هي القاضية ، ومات لاجين بعد أن حكم مصر قرابة عامين !!
ورأى متأمر المماليك - وقد ظلت مصر بلا سلطان ، أكثر من شهر - أن يرسلوا
في استدعاء الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ليعود الى مصر ثانية ، ويتسلم عرشه
من جديد ..



احدى مشكاوات مسجد السلطان حسن



منذ عمرانية

بدأت مصر بعد عودة السلطان الملك الناصر إليها ، تتذوق لونا من ألوان الاستقرار والهدوء . فمرت السنون رتيبة دون جديد ، إلا أنه حدث في أوائل العام الهجري الاول بعد السبعماية ، أن مات الامام أحمد الحاكم بأمر الله .

والامام احمد هذا هو الخليفة الرمزي الذي عينه سلاطين المماليك البحرية في مصر ، بعد أن سقطت بغداد ، ليعزز وجوده وجودهم ، ويصل في مصر ما انقطع من أمر الخلافة في بغداد ، ويضمن بمكانته الدينية وصفاته الصورية التي منحت له ، اضافة صفة رسمية على سلطان المماليك الذين كانوا يمارسونه في مصر عن طريق الاغتصاب ووئوب قلوبهم على الضعيف .

وقد رأى الملك الناصر ، أمام واقعة موت أول خليفة في مصر ، أن ينهي أول ماينهي المراسيم الدينية الخاصة بتولية ابنه « المستكفي بالله أبي الربيع سليمان » مكان أبيه . ثم اعداد العدة لموازة الميت لحده وأمر الملك الناصر بأن يكرم الخليفة العباسي الراحل بدفنه في رحاب طاهر ، هو المشهد النفيسي .

وكانما أراد أن يكون في موت الخليفة ردفنه في المشهد الجليل ، مشهد السيدة نفيسة بنت الحسن الانور بن زيد بن الحسن ابن علي بن أبي طالب - سببا من أسباب

« منذ مسجد السيدة نفيسة »

العناية بذلك الاثر الجليل ، الذي لم تتناوله يد الاصلاح منذ آخر تجديد معماري أجراه فيه الامير بدر الدين الجمالي ، أمير جيوش الخليفة المستنصر الفاطمي سنة ٤٨٢هـ ،

١٠٨٩م ، ثم جدد قبته بعد ذلك « الخليفة الحافظ لدين الله » سنة ٥٣٢هـ ، ١١٣٨م وكسا محرابه بالرخام . .

كما أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٤هـ ، ١٣١٤م بأن يلحق بالقبة مسجد عظيم البنيان ، يتفق ومكانة السيدة نفيسة في القلوب ، وكلف « كهرdash » متعهد العمائر السلطانية بالاشراف على بنائه ، وأن يصرف عليه من حصيلة « النذور » و « الهبات » ، التي كانت تقدم من عامة الشعب للمشهد النفيسى . .

والجامع النفيسى يدخل اليه من ممر طويل مفروش بالحجر المنحوت ، ومطهرة الجامع الى يمين مدخله ، وتوجد به على كلا جانبيه أماكن للمتصوفين ، وفي نهاية الممر بابان يصل أحدهما الى الضريح ويصل الثانى الى صحن المسجد . . والمشهد له باب من الرخام القيشانى ، يكتنفه عمودان صغيران من حجر السماق ، وحائط القبة من الأسفل مكسو بالرخام والقيشانى نحو ثلثي قامة ، وفي أعلاها آيات قرآنية ، وفيها قبة بالرخام ، وأخرى من الخشب . . وعلى البرزخ مقصورة من النحاس الاصفر ، وهناك نافذة تطل على مدفن الخليفة العباسى الذى تم دفنه هناك . .

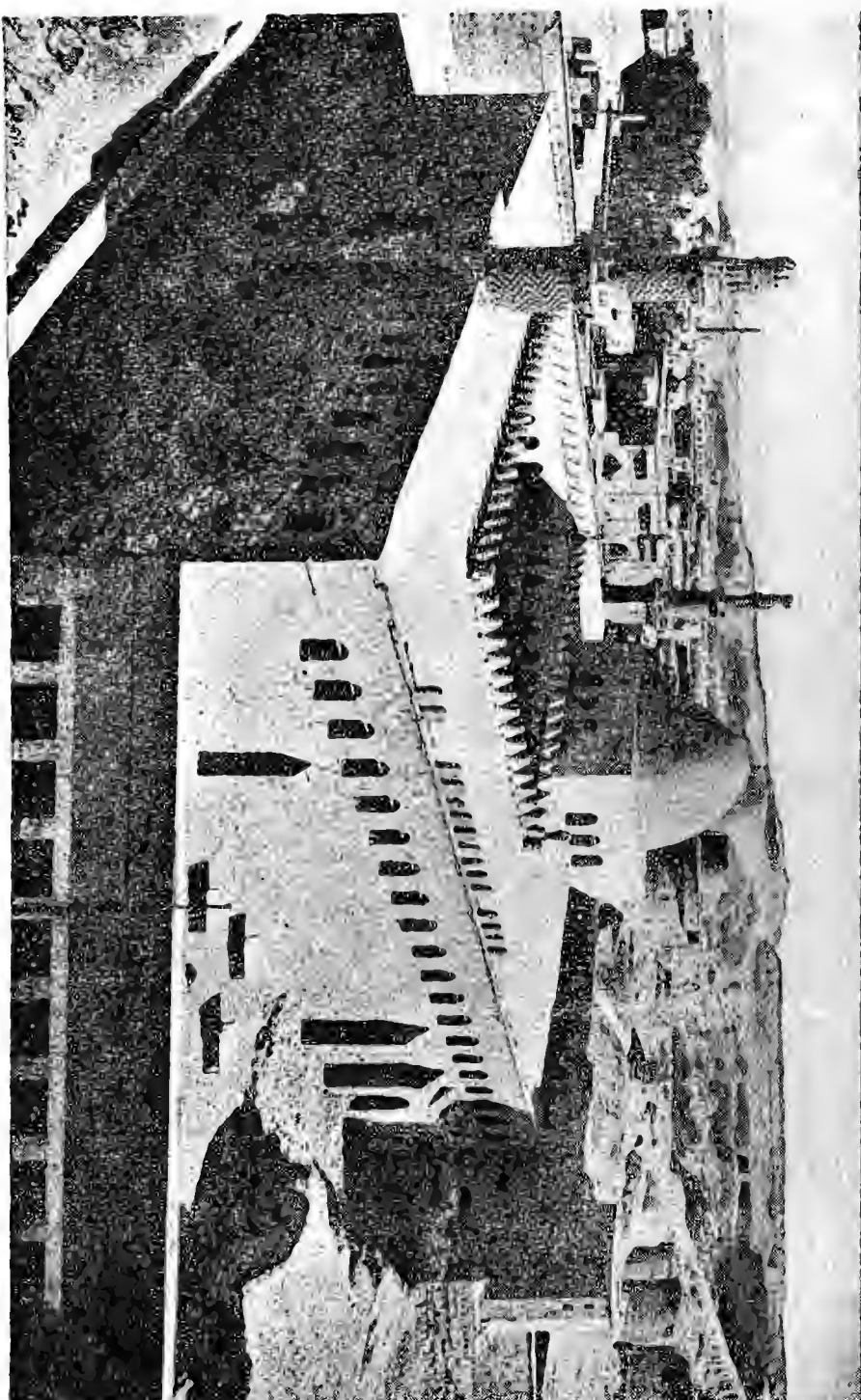
والمسجد من الخارج محكم البنيان دقيق المئذنة رائع القبة ، فيه رقة تميزت بها « مشاهد » النساء الحسيبات اللاتى أقيمت لهن مشاهد فى مصر كلها . .

وبعد أن تم بنيان الجامع الجديد وكملت عمارته ، ولى الملك الناصر خطابته لعلاء الدين محمد بن نصر الدين الجوهري شاهد الخزانة السلطانية . . وشهد افتتاح المسجد أمير المؤمنين المستنكى بالله ، واستمع الى أول خطبة من خطب الجمعة ألقاها علاء الدين محمد ، وحضر مع الخليفة ولده وابن عمه ، وكان الأمير كهرdash الذى تولى عمارة المسجد ضمن الحضور أيضا . .

وسارت الأمور بعد ذلك مسيرها العادى : فتن محلية ، لا يلبث أعوان الناصر أن يقضوا عليها . . أو غارة من غارات التتار الدائمة ، يخرج لصدها جيش المماليك . . وحل بعد ذلك العام الثانى بعد السبعائة من الهجرة . . وسارت أيامه وشهوره كما مر غيرها من الايام والشهور ، ولكنه لم يكد يقارب نهايته حتى استيقظ الناس مدعورين ، وقد حوم الموت ورفرف الهلاك ، ومادت الارض واضطربت ، فتهاوت العمائر الضخمة ، وتشقق الجبل ، وتساقطت الدور وفعل الزلزال الرهيب أفاعيله !!

وجرى الناس هنا وهناك وفى كل مكان فسيح ، يتلمسون النجاة ولا نجاة . . وضافت بهم المسالك وغصت الميادين ، وترددت فى جوانبها أصواتهم ضارعة مبتهلة ، يستغيثون ويستنجدون وقد ظنوا أن يوم القيامة قد دهمهم على حين غفلة !! وأسفر الزلزال الرهيب عن خسائر جسيمة ، كان أظهرها تهدم سور الاسكندرية وأبراجها . . أما فى القاهرة فقد تهدمت معظم جدران الجامع الحاكمى ومؤسساته ،

مسجد السلطان الناصر محمد بن علاون بالعمارة سنة ٧٢٥ هـ ١٣٢٥ م وقد تميز بفتائحه المختلفين وزاوية طرازها وجمال قبتها الكبيرة بالعمارة



ومئذنة المدرسة المنصورية الملحقة بالبيمارستان ، ومئذنة جامع السلطان الملك الظاهر بيبرس ، وبعض جدران جامع عمرو بن العاص والجامع الأزهر ، ومئذنة مسجد الصالح طلائع بن رزيق . .

واستعرض الملك الناصر الحوادث التي نجمت عن ذلك الزلزال المروع الذي لم يشهد له الناس مثيلاً ، والذي لم تخف حدته ، وظل يعاود الناس بالهول والكوارث في فترات متقاربة ومفاجئة لقراءة عشرين يوماً - تركوا خلالها الدور وأسرعوا الى الخلا . . وراح الملك يحصى خسائره الظاهرة ، ليتخذ بشأنها مايجب اتخاذه من اصلاحات تبعاً لأهميتها . .

وكانت أسوار الاسكندرية أهم مايجب أن يعنى به الناصر ، فأمر تابعه الأمير « بيبرس الداودار » بالسفر على وجه السرعة ، ليشرف على عمارة الاسوار والابراج . وأحب الناصر بعد هذا أن يجعل من اصلاح المساجد التي تهدمت موضع منافسة ، ومجال تفاخر بين الأمراء المماليك . فكان أن أوحى اليهم بذلك ، وسرعان ماظهرت روح التنافس في تصدى كثيرين منهم لمهمة الاصلاح المنشود . . فى سخاء وكرم من أموالهم الخاصة . .

ولم تلبث البلاد أن شملتها نهضة بناءية مترامية الأطراف ، متشعبة الاهداف . . وكان من نتيجة التنافس ، أن كثرت العمارات وتزايدت الانشاءات . . وكان الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار ، اول من تطوع لتحمل التبعات المعمارية ؛ فأشرف على اصلاح مسجد الصالح طلائع بن رزيق ، وبنى له مئذنة جديدة ، غير تلك التي تهدمت ، وجدد البناء وجمله ، ونمق واجهة المسجد وأزال ماتراكم أمامها من الأتربة . . وأعاد الى المسجد الرائع سابق عهده وروائه . . ثم اتجهت الانظار الى « الجامع الحاكى » لسابق مكانته وعظيم شهرته بين المساجد الجامعة ، وقد أصابه من الزلزال ضرر بليغ أفقده رواءه الذي اشتهر به . .

وتصدى الأمير بيبرس الجاشنكير لعمارة المسجد الحاكى ، فانتقل اليه ومعه العلماء والامراء المماليك ، وعايته بنفسه وأمر باصلاح ما تهدم واعادة ماسقط منه . . ثم أوقف عليه مساحة شاسعة من الاراضى الزراعية بالجيزة والصعيد والاسكندرية . . ثم رتب فيه دروساً لتعليم الفقه على المذاهب الاربعة ودرساً آخر للحديث النبوى ، وخصص مدرسين للقيام بهذه الأعباء ، وشجع الطلاب على التردد على حلقات العلم . . ثم أنشأ خزانة للكتب ، وعين مقرئين للقرآن الكريم . .

ثم حفر بصحن المسجد « صهريجاً » للمياه . . وأنفق فى هذه العمارة أكثر من أربعين ألف دينار . .

وتصدر الأمير « سائر المنصورى » نائب السلطنة ، لاصلاح ما تهدم من المسجدين الجامعين الكبيرين : الأزهر ، وعمرو بن العاص . .

أما الازهر فكان تأثير الزلزال فيه هينا ، فلم تستنفذ عمارته من نائب السلطنة
« سلا » الكثير من المال والجهد ..

أما جامع عمرو ، فكان تأثير الزلزال شديدا عليه الى حد بعيد .. حتى لقد انفصل
الكثير من عمدته بعضها عن بعض ، وبدأ في «حاجة» الى «عمارة» شاملة .. فكلف الامير
وكيل أعماله بدر الدين بن خطاب بالاشراف عليها واتمامها .. وأوصاه بالألا يقصر في
الانفاق أو يحاول التوفير ، ليكون اصلاح المسجد شاملا ومتينا ..

ورأى بدر الدين أن يبدأ بالجدار البحري لجامع عمرو من ناحية سلم السطح الى باب
الزيادة البحرية والشرقية ، فيبينه من جديد ليعود الى أصله الأول ..

وأقام في هذه الزيادة بابين جديدين ، ورأى أن يزيد في قوة الاعمدة الأخيرة المقابلة
لهذا الجدار ، فزاد الى كل منها عمودا جديدا .. ثم صقل أعمدة المسجد كلها ، فبدت
ناصعة رائعة ، ثم قام بطلاء المسجد كله ..

وزاد في سقف الزيادة الغربية رواقين ، وكسا أرضهما ..

ورأى بعد هذا أن هناك بعض مساجد صغيرة مهدمة ، لا شهرة لها ولا أوقاف ، ولا
رجاء في اصلاحها .. فهدمها كلها وأخذ ماكان فيها من الاعمدة ونقله الى جامع عمرو
ليملأ بها صحنه ..

وخلع بدر الدين عديدا من القطع الرخامية التي كانت تكسو بعض مواضع أرض
المسجد ، ووضعها كلها عند الباب المعروف باسم « باب الشرايين » ..

وأمام موجة النشاط المعماري التي شملت البلاد ، أحب الملك الناصر محمد أن يسهم
فيها بدوره ، وأن يكون له في ميدان التسابق الانشائي نصيب .. ولم يلبث أن تذكر
المسجد الذي أراد السلطان العادل « كتبغا » أن يقيمه لنفسه الى جانب بيمارستان
قلاوون ، وكيف قام باختيار أرضه وتخطيطها واقامة جدرانه ، وكاد يتمه لولا غدر لاجين
وانقضاضه عليه ، ومنعه من العودة الى مقر سلطنته ..

واستعرض الناصر البناء العظيم .. وقرر أن يتمه ، لا باسم « كتبغا » بل باسمه
هو ، فكان أن اشترى البناء قبل الاشهاد بوقفه ، ثم أمر بتكملته ..

والمسجد الناصري ، أو « المدرسة الناصرية » كما أريد لها أن تكون - بناء رائع ،
يستقيم مع المجموعة الملاصقة له ، وهي البيمارستان المنصوري .. ولكنه لا يتعادل معها
من حيث الفخامة والجلال ..

أما واجهة المسجد ومنارته فهما آيتان من آيات الصناعة المتقنة والزخرفة الرائعة ..
والنقش العظيم الذي يظهر مدى ما تميز به صانعو ذلك العهد من تفوق ملموس ، لانجده
في أي اثر اسلامي معاصر في أي قطر آخر من الاقطار الاسلامية ..

وقد أقام الملك الناصر داخل المسجد قبة جليلة ، الا أنها برغم فخامتها دون قبة أبيه المنصور قلاوون المقامة فى البيمارستان .. وقد قام بنقل رفات أمه ودفنها فيها .. ودفن الناصر فى هذه القبة بعد ذلك ابنه « آنوك » وحبس عليها قيسارية الامير والربع الذى كان يعلوها . ويعرف بالدهيشة .. ثم أوقف حوانيت أخرى بجهة الزهومة ودارا خارج دمشق ..

ورتب على تلك القبة وعلى الايوانات الاربعة فى المسجد ، أربعة دروس فى فقه المذاهب الاربعة وأجرى على أربابها الخير الوفير .. ثم عين للمسجد اماما ، وأقام فيه خزانة للكتب وأمر بأن يمتلئ الدهليز « بالطوشية » ، امعانا فى اظهار مجده وأبهته .. وكان الناصر يجلس بنفسه فى هذا الدهليز فى المناسبات الموسمية ؛ ليقوم بتوزيع السكر ولحوم الاضاحى على أرباب الوظائف المعينين فى المسجد ..

واجمل اثر نفيس يكاد يبلغ فى صناعته حد الاعجاز ، هو الباب الرخامى الرابع الموجود فى واجهته ، فالناظر اليه يقطع بأنه لايمت الى الصناعة الاسلامية بصلة ، فطرازه « غوطى » ، ورخامه ايطالى ، وزخرفته بعيدة عن الفن العربى ، وتقوشه فيها الروح الكنسى ..

وهذا الباب له قصة .. فقد كان قبلا فى احدى كنائس عكا ، وقد أمر الاشرف خليل بنقله الى مصر لما فتح تلك المدينة وهدم أسوارها وبعض كنائسها الصليبية .. وقد استولى على هذا الباب الخائن « بيدر » الذى اغتال سيده الأشرف خليل ؛ فقتله مماليك الاشرف انتقاما لسيدهم ومثلوا برأسه وطافوا به فى الاسواق ، ثم علق على رمح ، وترك طعاما للطير !!

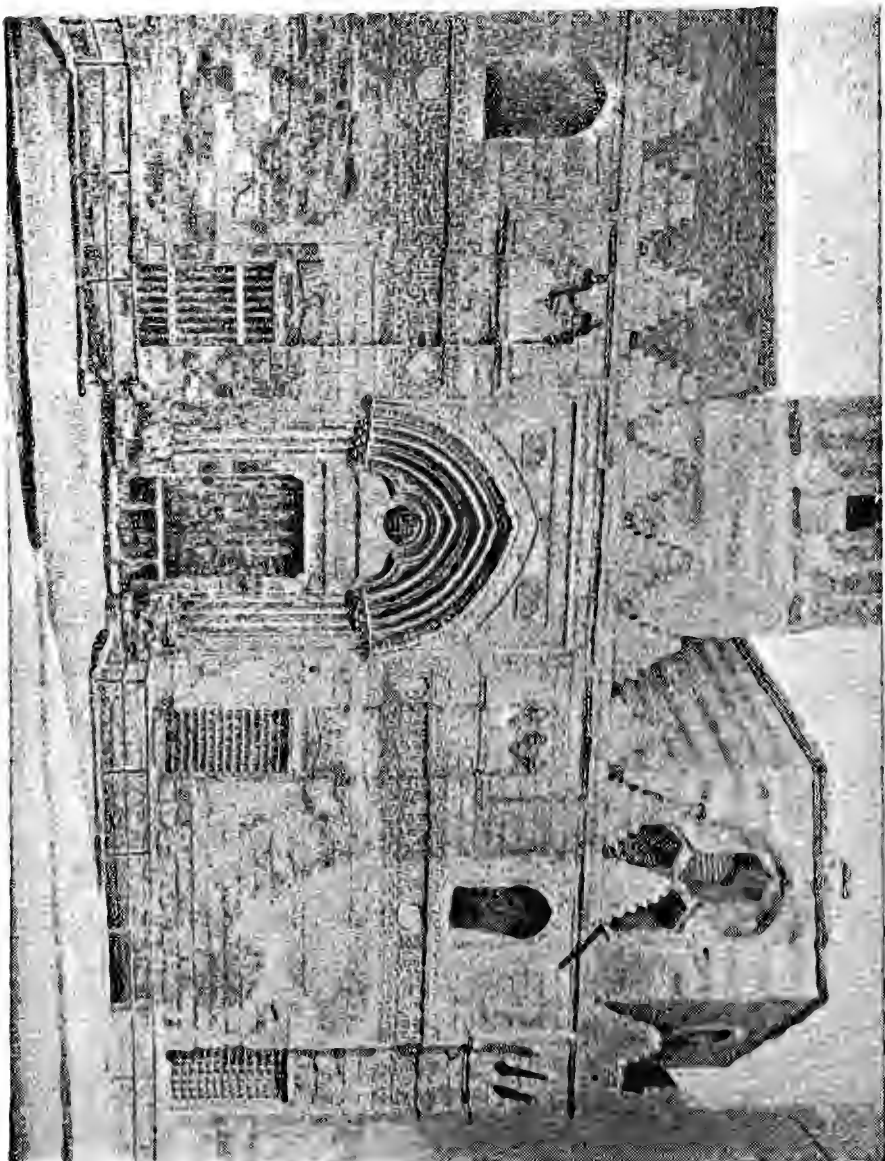
وقد بقى هذا الباب الدقيق عند ورثة « بيدر » طوال فترة سلطنة الملك الناصر الاولى ولم يلتفت اليه الناصر أو يهتم به ، لانه كان يومئذ حدثا صغيرا ، ولأنه لم يبق فى دست الملك مدة طويلة ..

ولما تنازل الملك الناصر عن ملكه ورحل الى حصن « الكرك » حيث بقى هناك ، تاركاً سلطانه للعادل كتبغا - رأى هذا الاخير ذلك الباب الفخم ؛ فكان أن ساوم عليه ورثة بيدر واشتراه منهم ..

وبدأ الملك كتبغا بعد ذلك ببناء مسجده هذا ، فلم يجذبابا أدق منه ولا أجمل ، فوضعه فى مكانه ذاك ..

فلما عاد الناصر الى ملكه مرة ثانية ، رأى اتمام مسجد كتبغا ، على أن ينسبه الى نفسه - أبقى الباب حيث هو ، فكان تحفة رائعة وأثرا فخما ، وبابا نادر المثل لمسجد من أعظم وأفخم مساجد القاهرة ..

وفى الوقت الذى كان الناصر محمد مشغولا فيه باتمام مسجده العظيم هذا ، كان



مسجد وعلمية السلطان الناصر محمد بن قلاوون ببلد مصر لدين الهامر بالملك الكامل حينما التتموى سنة ٦٩٥ هـ ،
 ١٢٩٥ م عتقها ولي ملك مصر وقره الملك قبل انعام البناء فاعلمه السلطان الناصر ونسبه اليه سنة ٧٠٧ هـ ، ١٢٩٤ م

مماليكه وكبار رجال دولته يتبعون المثل القائل : « الناس على دين ملوكهم » .. فراحوا بدورهم يشيدون العمارات ويقيمون المساجد العظيمة ويلحقون بها المدارس لتعميم دراسة الدين ونشر علومه بين شتى طبقات الشعب ..

ولما كان الأمير سيف الدين « سلار » نائب السلطنة ، هو الذى أشرف على اصلاح الكثير من مساجد القاهرة التى أتى عليها الزلزال - فقد أراد هو الآخر أن يخلد له أثر عظيم ، وأن يبنى له قبة يدفن فيها - شأنه فى ذلك شأن سيده الناصر ومن سبقوه وكان « لسلار » صديق حميم من مماليك الناصر وخاصة أمرائه ، هو « علم الدين سنجر الجاولى » ، وقد بلغ من قوة صداقتهما أن تحابا فى الله وصارا أخوين ، واستقر بهما الرأى على اقامة هذا المسجد المشترك والمدرسة الملحقة به ، مشاركة بينهما ، ليكونا أخوين متجاورين فى الدنيا وفى الآخرة أيضا ..

واختارا لمسجدهما الجديد مكانا يجاور قلعة « الكبش » ، ويقع قريبا من المسجد الطولونى ، وشرعا فى اقامته على أرض مرتفعة عن مستوى الطريق العام ، وجعلا له سلما يرقى عليه الصاعد اليه ..

ومدخل مسجد « الجاولى » منقوش بأعلى بابه الاساسى هذه الآية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » .. وفى آخر الكتابة تاريخ البناء وهو عام « ٧٠٣ هجرى » وبداخل دركة هذا الباب خلوة صغيرة ..

والمسجد يشتمل على ايوان وصحن وعدة خلوات لبعض المتصوفين ، ينقطعون فيها للتعبد - على غرار ماكان معمولا به فى ذلك العهد ، الذى أنشئ فيه الكثير من المعابد والتكايا التى عرفت باسم « الخانقاه » لاقامة الصوفية وضمان عيشهم ، ليخلصوا للتعبد والمناجاة والخلوص ..

وفى واحدة من هذه الحجرات الانفرادية الخاصة بالمتصوفين ، يوجد حجر أزرق مربع ، يزعم العامة أنه نافع مجرب فى شفاء مرضى البواسير اذا وضع عليه زيت الزيتون ..

وبدائر المسجد كتابة منحوتة فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً » ..

وبالمسجد ثلاث قباب، أعدت احداها مدفنا لعلم الدين سنجر الجاولى، وفيها قبلة من الحجر ، وعلى الضريح تركيبة من الرخام ، وبأعلا الحائط نقشتم البسملة ، والآيات الثلاث الاخريات من سورة البقرة ..

وفى القبة الثانية مدفن الأمير سلار ، وعلى بابها نقش فى الحجر باسم « سيف الدين

سلار نائب السلطنة المعظمة الملك الناصرى المنصورى ، فى شهور سنة سبعمائة وثلاث
وبداخل هذه القبة الثانية ضريح الأمير سلار ، وعليه تابوت خشبى ، وفى القبة قبلة
من الرخام منقوش بأعلاها آية الكرسي ، وبدائر القبة نفسها مكتوب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار
آيات لأولى الأبواب .. الى آخر قوله تعالى : « والله عنده حسن الثواب » ..

أما القبة الثالثة ، ففيها قبر غير معلوم صاحبه .. والقباب الثلاث آيات ثلاث من
آيات الدقة الصناعية ، ودليل واضح ينطق بشراء سنجر و سلار ، وبظواهرها نقشت
آيات قرآنية ..

وللمسجد منارة دقيقة الصناعة فريدة فى نوعها ، تنسجم فى الدقة والفن مع القباب
العظيمة ، وتؤلف معها مجموعة نادرة ناطقة بروعة العمارة الاسلامية فى ذلك العهد ..
وبالرغم من أن المسجد قد أنشأه الأميران : سلار وسنجر ، فان بعض الظروف التى
حدثت بعد ذلك ، كادت تمحو اسم « سلار » ، بل محته فعلا ، اذ غضب عليه الناصر،
وأصبح من غير اللائق أن يذكر اسمه أو يشار اليه بأثر من آثاره العظيمة !

أما الأمير سنجر ، الصاحب الثانى للبناء العظيم - فقد كان فريدا فى مصر بين
المماليك ، الذين لم يسمع عنهم الا أنهم عشاق مقامرة ، وهواة سطو وقتل واغتصاب ..
لقد كان محبا للعلم ، متوافرا على الدراسة .. الى حد أن قيل : ان الأمير الجاوى قد
روى وصنف شرحا كبيرا على مسند الشافعى .. وانه جلس للافتاء على المذهب الشافعى
وكتب بخطه عديدا من الفتاوى التى دلت على خبرته بشئون الدين وأحكامه وشئون
معاملات الناس ..

وكما فاق سنجر الجاوى زملاءه المماليك فى التفقه فى علوم الدين ، فاقهم كذلك فى حبه
للخير ، وغرامه بالعمارة وانشاء بيوت الله .. اذ بنى مسجدا بكل من مدينة غزة ، وحما -
وألحق بكل منهما مدرسة وسبيلا وخانا .. كما بنى ببلد الخليل عليه السلام مسجدا
عظيما ، وأقام ببلدة أرسوف قنطرة ..

ولما كان الأمير الاتابكى بيبرس الجاشنكير ، لا يقل جاهها ولا مركزا ولا ثراء عن سلار
صاحبه وزميله ، فقد وجد الفرصة مناسبة لان يسهم هو الآخر فى اقامة العمائر
الجليلة .. وكان أن قرر بناء « خانقاه » للصوفية فى العام الخامس بعد السبعمائة
الهجرى ..

وهذه بيوت بيبرس الجاشنكير مكون من ايوانين ومقصورتين ، وأرضه مفروشة بقطع
الرخام الملون ، وسقفه مرتفع مغطى بالحجر ..
وقد بناه بيبرس أول ما بناه ليكون « خانقاه » للصوفية ، وبني بجانبه « رباط »

كبيرا يتوصل اليه منه ، وجعل بجانب « الخانقاه » قبة فيها قبره ولها نوافذ تنرف على الشارع . .

والمسجد كان يقوم مكانه عدد من الدور اشتراها بيبرس من أصحابها وهدمها ، واستعمل بعض أحجارها وأخشابها فى البناء ، أما « الرخام » الذى استعمله فى التجميل وغيره فقليل أنه عثر على مغارة كانت مليئة به ، فنقله الى المسجد . .

ولما كملت « الخانقاه » بناء ، عين بها أربعمائة صوفى ، وبالرباط مائة جندى وابن سبيل . . وجعل بها مطبخا يقدم الطعام يوميا لهؤلاء جميعا ، وجعل لهم « الخلو » ونظم بيبرس بالقبة درسا للحديث ، وعين القراء بالشباك الكبير ، يتناوبون القراءة ليلا ونهارا . .

وأوقف على المسجد عدة ضياع بدمشق وحماه ، ومنية المخلص - احلى أقاليم الجزيرة ، وبعض عقارات بالقاهرة . .

وأمر الشيخ « شرف الدين بن الوجيه » بأن يكتب له بالذهب « ختمة » فى سبعة أجزاء فى ورق قطع البغدادى بقلم الشعر . . وأنفق على نسخها ألفا وسبعمائة دينار ، وأوقفها على « الخانقاه » فكانت تحفة جميلة . .

وعلى هذه الوتيرة استمرت الحياة فى بلاط الناصر، وبين ممالكه : عمارات وأنشاءات وروعة بالغة ، برغم القحط الذى شكت منه البلاد كلها فى العام السادس بعد السبعمائة وزال أثره بعد ذلك فى العام التالى . .

ثم حدث بعد هذا أن أحس الناصر بأنه يكاد يكون لاشئ الى جانب نائبه سلار وأتابكه وبيبرس الجاشنكير . .

فلما أراد أن يوقفهما عند حدهما ، تغيرت النفوس . . وكادت تحدث فتنة ، تحاشاها الناصر ، وادعى أنه سيخرج الى الحج . . ثم أبى أن يعود الى القاهرة ، وأعلن عزل نفسه ، ورجع الى الكرك واتخذها مقاما له !

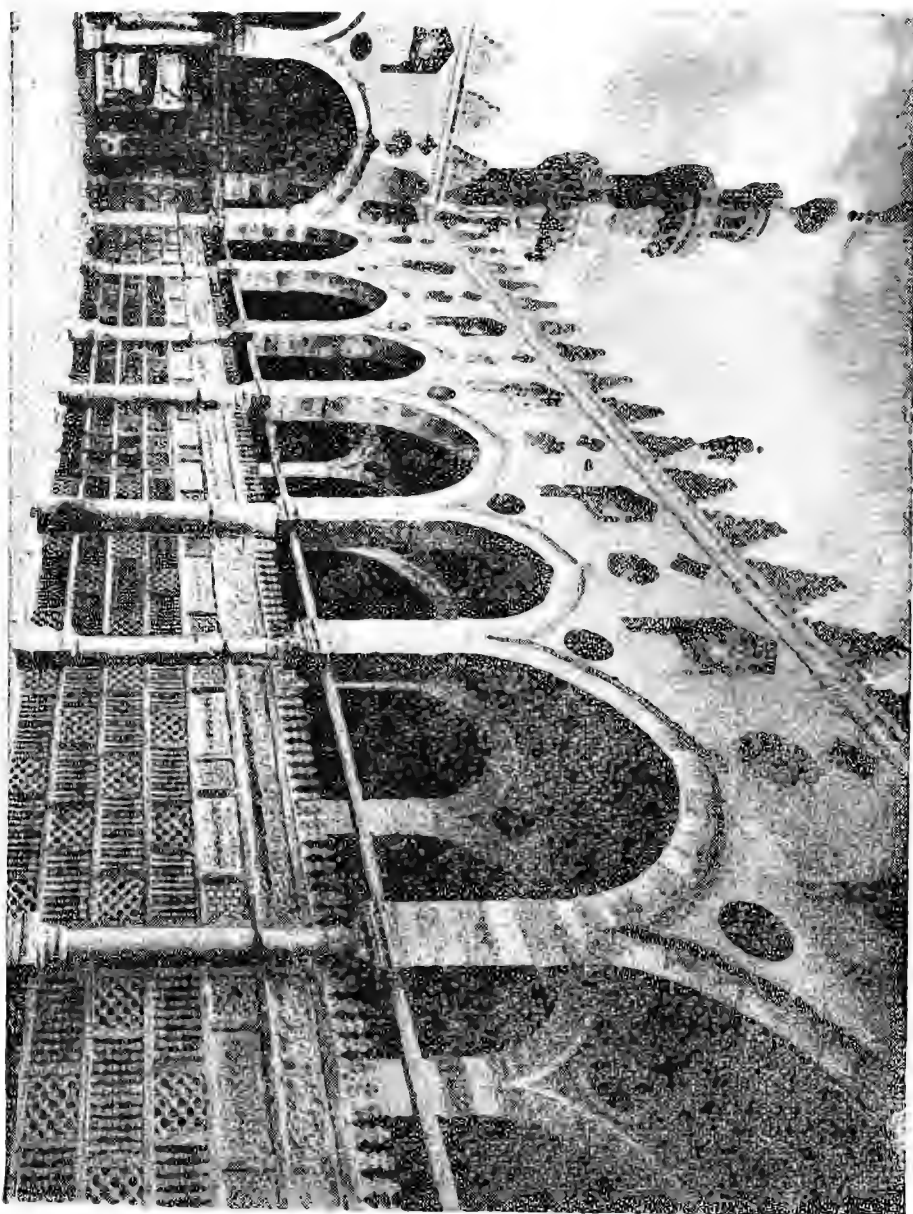
وكان قد مكث فى الملك تسع سنين وستة أشهر . .

وبقى الامر معلقا بين سلار وبيبرس : أيهما يكون له الجاه والسلطان !

واختار الماليك سلار ، لأنه كان بحكم وضعه ونيابته عن السلطان ، أحقهم بالملك . ولكنه تراجع وأبى ، وأقسم أنه لن يتبوأ العرش ، وسيكتفى بمنصبه كئائب للسلطان ! وفتح الحظ بابه لبيبرس ، فتولى السلطان باسم « الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير » . . وبدأ أول عمل له بأن عين سلارا نائبا له . .

وبدأت الحياة تسير سيرتها فى ظل السلطان الجديد ، الذى لم يلبث أن تورط فى عدة مطالب ، وجهها الى سيده السابق « الناصر محمد » فى هيئة انذار وتهديد . .

جامع الطنبغا المارداني بشارع الدرب الإبراهيمي أمراء الناصر محمد بن علاء الدين في سنة ٤٧٠ هـ ١٢٤٠ م



لقد كان في اقدام المظفر بيبرس على تهديد الناصر الذي اعتزل الحكم وأحب أن يقضى البقية الباقية من حياته في راحة وهدوء ، صفة أليمة ، كبرت على الناصر .. وعز عليه أن يستسلم الى تهديد بيبرس الجاشنكير ، فكان أن امتلأ قلبه بالحفيظة ، وأسرع يكاتب الأمراء وولاة الأقاليم ، طالبا نصرتهم ..

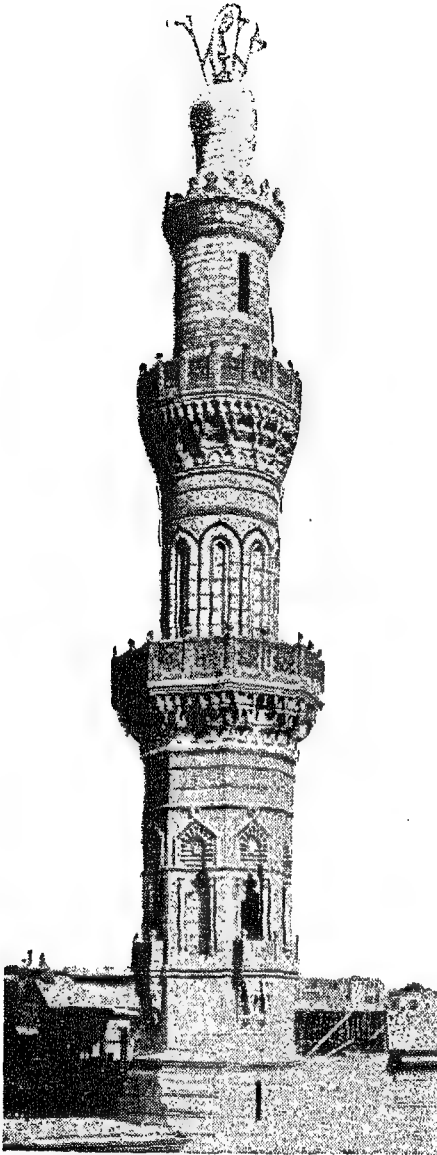
وخرج الناصر من الكرك .. وما لبثت النجيدات أن وصلت اليه من كل مكان ، فأصبح في جيش لجب وصلت أنباؤه الى القاهرة ، فتبلبلت الخواطر وعمت الفرحة قلوب الشعب الذي كره المظفر بيبرس ، وأطلق عليه اسم « ركين » مبالغة في السخرية منه !!

وأحس المظفر بخرج مركزه ، خاصة وقد تسلل مماليكه تاركين القاهرة ليعودوا اليها مع الناصر .. فكان أن أشهد الأمراء على خلع نفسه وترك « القلعة » - دار الحكم ، في الوقت الذي كان الناصر يتقدم فيه الى القاهرة ، ليجلس على عرشه من جديد ..



أحدى المشكاوات الموجودة بجامع الأمير الماس

عَوْدَةُ النَّاصِرِ



« مئذنة الأمير بشتاك »

عاد الناصر الى القاهرة للمرة الثالثة ،
وقبل أن يدور الفلك دورته ويشارف العام
تمامه ..

وخرج الأمراء يستقبلونه مع القضاة
وكبار رجال الدولة ، في الوقت الذي تسلل
فيه بيبرس الجاشنكير هاربا الى اقليم
اخميم ، بعسد أن أفلح في الإفلات من يد
الشعب الذي تربص له ساعة غادر القلعة،
وراح يضربه بالمقاليع ويوجه اليه أقذع
السباب !!

وتقدم «سلار» نائب السلطنة في عهدها ،
في جملة الأمراء ، معلنا خضوعه وإخلاصه
لسيده الناصر، طالبا منه أن يتكرم بأعفائه ..
وأن يسمح له بمغادرة البلاد ليعيش بقية
عمره في هدوء ..

فاذن له الناصر بما طلب .. وغادر مصر
التي شهدت سطوته وسلطانه ليعيش شبه
منفى في « الكرك » ..

وكان بيبرس خلال هذه الفترة لم يزل
في اقليم « اخميم » فارسل يطلب الامان من
الناصر ، والسماح له بأن يخرج الى الاراضي
الحجازية لأداء فريضة الحج .. فسمح له

السلطان بما أراد ، وطالبه بأن يمر بالقاهرة وهو في طريقه الى مغادرة البلاد ..

ولكن الأتابكي الحذر ، أبى أن يطيع الناصر .. ورأى أسلم طريق أن يسير الى
« السويس » ومنها الى الكرك هو الآخر ، حاملا معه من الاموال والنفائس ما خف
حمله وغلا ثمنه ..

واشتم الناصر في محاولة تهرب بيبرس ربح مؤامرة ، فأحب أن يقضى عليها قبل أن

تستفحل .. فأصدر أمرا بالقبض على الهارب المتسلل ، وسرعان ما أحضره اليه في « القلعة » خاضعا ذليلا ..

وتقابل الرجلان .. ومر الماضي بحوادثه ، وراح الناصر يذكر أتابكه بأنعمه العديدة التي أسبغها عليه ، وكيف جحدها وتكر له ، وأنذره بتشريده وتثريد أبنائه معه !! وظل بيبرس صامتا منتظرا سماع كلمة سيده الأخيرة فيه ..

وحكم الناصر بالموت على بيبرس .. وأن ينفذ الحكم فوراً في حضرته !! وأسرع الاتباع فخنقوا المحكوم عليه بوتر .. حتى مات ، وحملت جثته الى أهله ، ومعها أمر بأن يدفن في « القرافة » مع العوام !!

وتوسل الامراء الى الناصر ، ليشمل بمطفه جثة عاجزة ، وبأمر بنقلها لتدفن في القبة التي كان بيبرس قد أقامها لنفسه في « الخانقاه » أيام أن كان مرضيا عنه ..

ورضى الناصر أخيرا .. فنقلت جثة الرجل التمس ، الذي كان اسمه ذات يوم « السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير » ، ليدفن في قبته !!

ولم يكد الجثمان يشوى في قبره حيث أراد له الله ، حتى بادر الناصر فأصدر أمره بأن تغلق « خانقاه » بيبرس الجاشنكير ، وأن تحول أوقافها كلها اليه !!

ثم أصدر أمرا آخر بمحو اسم بيبرس من « الطرز » الذي كان بالقبة فوق الشبائيك .. وسرعان ما نفذ الأمر على الفور ..

وثمة أمر آخر أصدره الناصر بعد ذلك ، هو تعطيل الشعائر الدينية التي رتبها بيبرس لتقام فيها وأجرى عليها المال .. كما أبطل الطعام ومنع الخبز ، وحرم توزيع الدراهم ، وطرده جماعة الصوفية من خلواتهم حيث كانوا يعيشون ويتعبدون !!

وأحس الناصر بعد هذا أن بعض المماليك من الموالين لنائبه السابق سلار ، ينوون الوثوب عليه غدرا كعادتهم ..

فأرسل رسله يتحققون من ذلك الأمر ، حتى ثبت له صدق احساسه ، فقبض عليهم .. وأرسل في طلب سلار ، ليبرئ نفسه أمام سيده ..

وحمل علم الدين سنجر الرسالة الى سلار أخيه وصديقه ، ومعها الأمر بحضوره .. وأسرع سلار ملبيا ، ليثبت للناصر أنه أبعد ما يكون عن المؤامرات ..

ولكن الناصر قبض عليه ورماه في سجن القلعة مدة ثمانى سنوات .. ثم حدث أن أرسل له الناصر طعاما ، توجس سلار منه خيفة ، فرفض أن يقربه .. واذ ذاك تغير الناصر عليه ، وأمر بأن يبقى في سجنه وأن يمنع عنه الطعام !!

ورق قلب الناصر أخيرا لنائبه السابق .. وأرسل اليه في سجنه من يبشره بأنه قد عفا عنه ..

وعلبت الفرحة سلار الطيب ، وأحب أن يقوم من محبسه ليفارقه .. ولكن الضعف
الناجم عن الجوع الطويل أعجزه ، فسقط مكانه .. ولم يلبث أن مات !!
وحمل سنجر الجاولى رفيق صباه وشقيق روحه الى مئواد الاخير .. ودفنه في
قبرته حيث أنشأ قبره بيده قبل ان يموت ..
وبكى الناس الامير الخير ، الرقيق القلب الذى جرده الناصر من كل شيء ، حتى
من اطلاق اسمه على المسجد الذى بناه بالمشاركة مع صاحبه علم الدين سنجر
الجاولى !! وثوى في قبره رجل عرف بالشجاعة والإقدام وحب النجدة والتفرد فى
انتقاء أجمل اللبوس وأحسنه .

وبدا الناصر - بعد موت سلار ومن قبله بيبرس الجاشنكير - يحكم وحده ، وقد
اختفى من طريقه الرجلان اللذان جعله تدخلهما فى شئون الخاصة يترك الحكم
والسلطان مرتين ، ليعود اليه وقد حلق فنون الدهاء والسطوة وكيفية ادارة الامور ..
وبدا الناصر اول مابدا فى اصلاح سور الميدان الكبير الموجود أسفل القلعة ، ثم التفت
الى القلعة نفسها ، فأجرى عام أربعة عشر وسبعمائة هـ ، عمارة كبيرة فى القصر
المعروف باسم « القصر الأبلق » - وكان عبارة عن ثلاثة قصور متداخلة ، مكونة من
خمس قاعات وثلاثة مراقده .. فآتم تعميرها وأعادها الى أحسن مما كانت عليه ..
واحتفل الناصر بانتهاء هذه العمارة الكبيرة احتفالا عظيما ، دعا اليه جميع أمراء
الماليك وقضاة المذاهب الاربعة ، وأقام مأدبة لم تشهد البلاد لها مثيلا ، وملأ نافورة
القصر الكبير بالسكر والليمون ، وأمر بأن يقف عندها رؤوس النواب ، ويدهم الاكواب
ليقدموا الشراب للناس جميعا ..
وبعد حوالى عامين من تلك الحوادث اتجه الملك الناصر باهتمامه الى بقية أبنية
قلعة الجبل ، وقرر اصلاحها واعادتها الى أصلها .. ثم وجه اهتمامه بصفة خاصة
الى جامع القلعة ..
وجامع القلعة كان أولا مسجدا مهديا ، تجاوره أبنية متهاكة كانت تستعمل
كمخازن ، أو أماكن للطهو .. فأمر الملك سنة ثمانى عشرة وسبعمائة هـ بأن تهدم
جميعها ، وأن يقام مكانها المسجد الجديد ..
وقد اهتم الناصر بهذا المسجد اهتماما ظهر فى بنائه والعناية به ، وادخال اضافات
وزيادات عديدة عليه وفرشه بالرخام الملون ..
وأصلح الناصر قبة رائعة كانت بالمسجد ، وأنشأ لنفسه فيه مقصورة من حديد
بديعة الصنع ..
كما بنى أيضا القبة الخضراء ، والى جانبها المئذنة الخضراء .

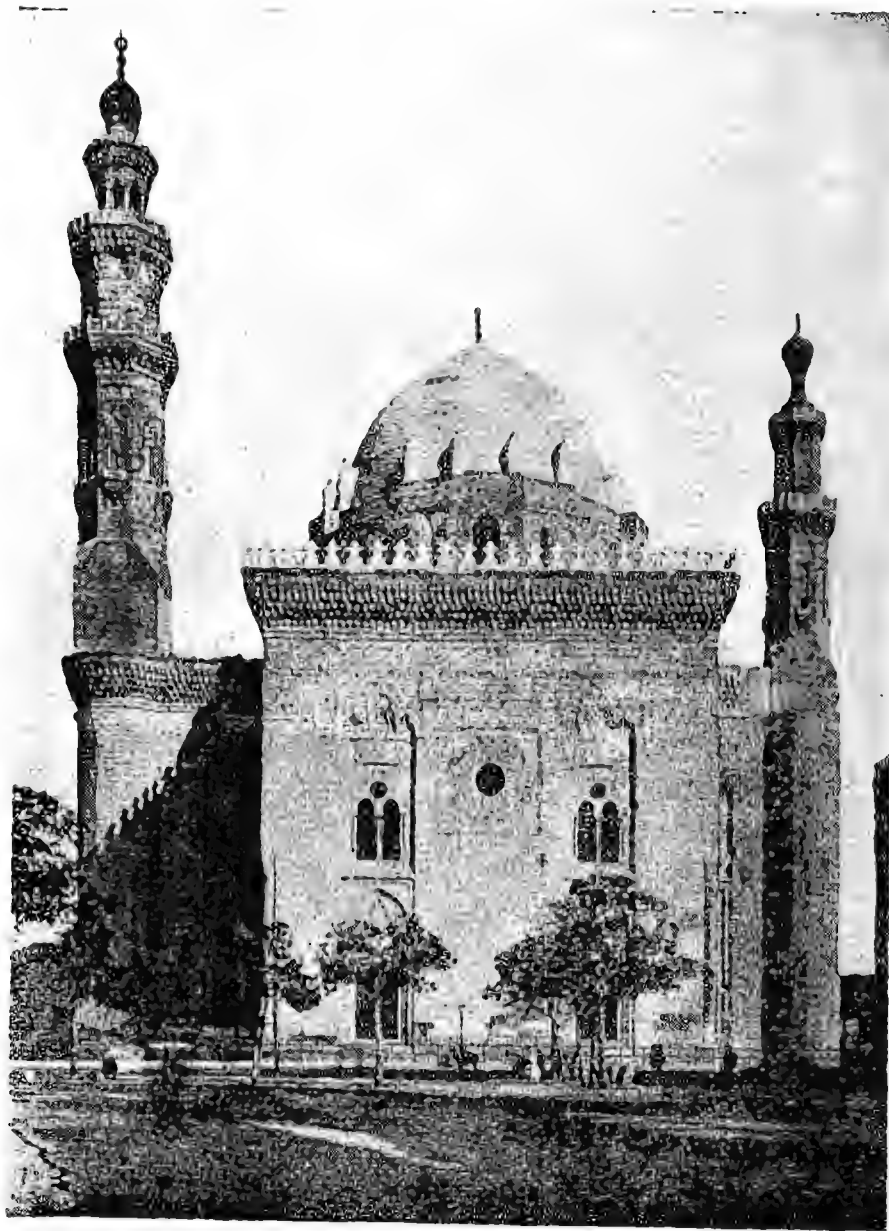
وافتح السلطان مسجد القلعة للصلاة رسميا ، ودعا الى الاحتفال سائر خطباء
مساجد القاهرة ، فخطبوا جميعا بين يديه وأذن المؤذنون ورتل القرآن . . .
وارتاح الناصر الى خطيب جامع عمرو بن العاص ، فاستأثره بعطفه وخصه برعايته
واختاره خطيبا لمسجد القلعة ، واختار من المؤذنين عشرين مؤذنا عينهم جميعا في
المسجد . . . ورتب عددا من القراء ، ونظم درسا ، وعين قارئ مصحف دائم . . ثم
حبس على المسجد من الاوقاف مايزيد على حاجته . . .
ولم يقف اهتمام الملك الناصر عند مسجد القلعة ، بل وجه نظر القاضي فخر الدين
محمد بن فضل الله ناظر الجيش - الى بناء مسجد بقرب « موردة الخلفاء » على
شاطئ النيل . . .

والمسجد الناصري الجديد ، كان آية من آيات الروعة المعمارية ، وكان النيل
يجرى من تحته صيفا وشتاء ، وكانت له أربعة أبواب فسيحة ، وفي صحنه مائة
وسبعة وثلاثون عمودا . . .
أما مساحته فكانت بالفة الاتساع ، وكانت حواليه بساتين اعتبرت من أجمل
المتنزهات في ذلك العصر (١) . . .

وكما اهتم الملك الناصر محمد بالعمارات والانشاءات الرائعة واقامة المساجد - وجاراه
في ذلك مماليكه وأمرائه وأتابكته - فقد اهتمت كذلك بعض جواريه بهذا الامر . . .
وكانت أسبقهن في بناء المساجد « الست الرفيعة مسكة » . . .
ومسجد « الست مسكة » مسجد لطيف مبنى بالحجر . . وله بابان ، منقوش
بأعلا أحدهما في الرخام :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمرت بإنشاء هذا الجامع المبارك الفقيرة الى الله تعالى
الحاجة الى بيت الله ، الزائرة قبر رسول الله عليه الصلاة والسلام - الست الرفيعة
مسكة . ثم تاريخ الانتهاء من بناء هذا المسجد وهو سنة ٧٤٦ هـ » . . .
وللمسجد قبلة مصنوعة من الرخام الملون ، وتتجلى في سقفه دقة الصناعة القديمة ،
وأعمدته من الرخام ، و « دكنه » صغيرة مركبة على ثمانية أعمدة رخامية ، وبدائره
من داخل أزار خشبي مكتوب فيه أبيات من « البردة » . . .

(١) تهدم هذا المسجد مع مرور الزمن وإهمال العناية به ، ثم جدد أخيرا سنة ١٢٨٠ هـ وفي جزء باق
منه أشيع وجود مدفن الامام الحسن الأنور - والد السيدة نفيسة . . . وزاد المدعون فجمعوا
في هذا المسجد الحديث بالنسبة للأمة الانني عشر - بقية هؤلاء الأئمة بعد الحسن الأنور ، مثل «زيد الأبلح»
(والامام جعفر) . . في حين أن تاريخ بناء المسجد أصلا ، ينكر هذا الادعاء ، الذي استتمراه بعض
الناس ؛ فجمعوا مساجد القاهرة كلها مشاهد لأهل البيت الكرام ! !



مسجد ومدرسة السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون - ولي الحكم بعد أخيه الملك المنصور حاجي سنة ٧٤٨ هـ ، ١٣٤٧ م ، واعتقل سنة ٧٥٢ هـ ، ١٣٥١ م ، وظل يشغل بالعلم في معتقله كثيرا حتى انه نسخ دلائل النبوة للبيهقي، وأعيد الى السلطنة مرة أخرى سنة ٧٥٥ هـ ، ١٣٥٤ م ، وظل في دست الحكم حتى قتل سنة ٧٦٢ هـ ، ١٣٦١ م ، ولم يعرف مكان قبره اذ اختلفت جثته بعد ان وثب عليه مملوكه « يلجفا المعري » وقيل انه غرق !

توفي عن عشرة بنين وست بنات ، وكان خير ملوك الدولة التركية

وبداخل المسجد من جهته الغربية قبر منشئته « السيدة مسكة » ، وعليه مقصورة من الخشب ، وبوسط صحنه بئر ، وبدائره شرفات جصية ذات نقوش بديعة ..
والست الرفيعة مسكة ، كانت من أشهر جوارى الملك الناصر ، وقد تربت في بلاطه وتدرجت في وظائفه حتى صارت « قهرمانة » القصر ، المشرفة على شئونه ، المقتدى برأيها في الاعراس السلطانية والمهمات الجليلة في المواسم والاعياد ، وكانت المربية الاولى لأولاد السلطان ، والمهيمنة على حريمه ..

ومن أجمل المساجد التي بنيت في ذلك العهد العظيم ، المسجد الجامع الذي بناه « الأمير بشتك » أحد أمراء الملك الناصر ..

وقد أقام الأمير بشتك هذا المسجد واتمه سنة ست وثلاثين وسبعمائة هـ وبني أمامه « خانقاه » على الخليج الكبير ، وبني بينهما « ساباطا » يتوصل به من أحدهما الى الآخر ..

وافتح المسجد للصلاة عقب الانتهاء من اتمامه ، وخطب فيه أول خطبة للجمعة عبد الرحيم بن جلال الدين القرزديني ..

وقد فرش الجامع عند افتتاحه بالرخام ، وكانت له مئذنة دقيقة مماثلة للمآذن التي أقيمت في ذلك العصر ..

وفي هذا المسجد أيضا أنشأ الأمير « أصلم » مسجده المعروف باسمه والمنسوب اليه ..
و « أصلم » هذا هو الأمير « بهاء الدين أصلم السلاحدار » الذي خرج بعد هروب يبرس الجاشنكير ، ليبلغ الملك الناصر بذلك ، فأنعم عليه وقدمه في دولته ..
فكان من « مشايخ الحلقة » ومن المحاربين البواسل ، الذين يحسنون استعمال السلاح ورمي القوس والنشاب ..

ومسجد أصلم كان لايفترق في شيء عن غيره من مساجد ذلك العصر ، وكان مكونا من أربعة إيوانات ، أحداها كسيت جدرانها بالرخام ، وعلى صحنه اقيمت قبة جليلة ..

وللمسجد بابان ، كتب بأعلا أحدهما :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه -
أنشأ هذا المسجد المبارك العبد الفقير أصلم عبد الله السلاحدار الصالحى المالكى » ..

وثمة مسجد آخر أنشئ في هذا العهد ، هو مسجد « الماس » القريب من باب زويلة .. وقد بناه « الأمير سيف الدين الماس » أحد ممالك الملك الناصر ، الذين سولت لهم أنفسهم ذات يوم ممارسة السلطة في غيبته ، فكان نصيبه القتل يوم عاد الناصر من الاقطار الحجازية ..

ودفن « الماس » في مسجده الذى بناه على نمط غيره من مساجد زملائه أمراء الماليك ، وقد بنى لنفسه فيه قبة فخمة ، ذات شباك يشرف على الطريق العام .. ومسجد « الماس » يتميز بمنبره الدقيق ، وبوائكه المقامة على أعمدة رخامية ، وحجراه ذى الدائر القيشانى ..

ومن المساجد الرائعة التى أنشئت فى ذلك العهد ، مسجد الأمير « قوصون » صفي الملك الناصر وأقرب مماليكه الى نفسه وأحبهم اليه منذ رآه يوم حضر مع «خوند بنت أزيك» عروس الناصر من بلادها - فاشتراه لنفسه ليكون مملوكه وقدمه على عشرة ، ثم جعله أمير بطلخانة ، ثم أميراً لمائة .. وصار يرقيه حتى بلغ به أرقى المناصب .. ولما وجد « قوصون » أن الدنيا قد أقبلت عليه على تلك الصورة ، بعث فى طلب أهله ، فحضروا اليه وعاشوا فى مصر حياة هى البذخ والترف فى أوسع صورهما .. وبلغ من اعزاز الناصر لقوصون أن زوجه من ابنته ، وتزوج الناصر من أخت قوصون !!

ومسجد قوصون قريب من باب زويلة ، وكان مكانه قبل بنائه دار تعرف بدار « اتوش نيميله » ، ثم عرف بعد ذلك باسم « دار جمال الدين قتال السبع الموصلى » فاشتراها قوصون وهدمها وكلف بالعمل فيها جماعة من الأسرى وردوا على البلاد فى ذلك الحين ..

وتصادف فى تلك الاثناء أن حضر من بلاد «توريز» بناء ماهر ، استخدمه قوصون فى بناء مسجده .. فبنى مئذنتى المسجد على غرار المئذنة التى بناها «خواجه على شاه» وزير السلطان أبى سعيد فى جامع مدينته توريز ..

وافتح المسجد للصلاة فى شهر رمضان عام ثلاثين وسبعمائة هـ . وتولى خطبة الجمعة فيه قاضى القضاة « جلال الدين القزوينى » بحضور الملك الناصر نفسه .. فلما انتهت صلاة الجمعة أنعم الناصر على الخطيب وأركبه بغلة بخلة سنية ..

وأحب الملك الناصر بعد هذا أن يبنى باسمه « خانقاه » ..

ولم يطل به أمد التفكير ، اذ سرعان ما اختار لها مدينة « سرياقوس » مكانا ، وبدأ البناء ..

و « خانقاه » الملك الناصر فى سرياقوس كانت تحفة من تحف البناء فى ذلك العصر .. وقد أشاع بعضهم أنه بناها بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم - وقد تجلى عليه فى رؤيا صحيحة ، وأشار عليه بأن يبنى فى مكان عينه خانقاه !! وصعد الناصر بالامر الكريم .. وتمت « الخانقاه » فى أقصر مدة ممكنة ، فأفرد بها

أسكنه للصوفية ، ووضع فيها ربة مكتوبة بالذهب ، مشابهة للربة التي وضعها مملوكه بكنتم في الخانقاه التي بناها في « القرافة » ..

وعين الشيخ مجد الدين الاقصراتي شيخا للخانقاه .. وحضر الناصر بنفسه يوم افتتاحها ، وأقام فيها مأدبة عظيمة حضرها القضاة الاربعة واکابر الاعيان .. وعمر الملك حول الخانقاه وشاد الدور ، وجاراه الاثرياء ، فكملت عمارة المدينة ونبه شأن الخانقاه ..

واستمر الناصر على عهد الناس به بعد ذلك : يهضم ، ليعمر .. ويعمر ليضرب الأمثلة الصالحة لرجاله ، ليسيروا على نهجه .. فأنشا القصور ، وشاد المساجد ، وحفر الترع ، وأقام العدل .. وكانت سنون حكمه التي أربت على ثلاثة وأربعين ، كلها سعادة ونهضة ورخاء ..

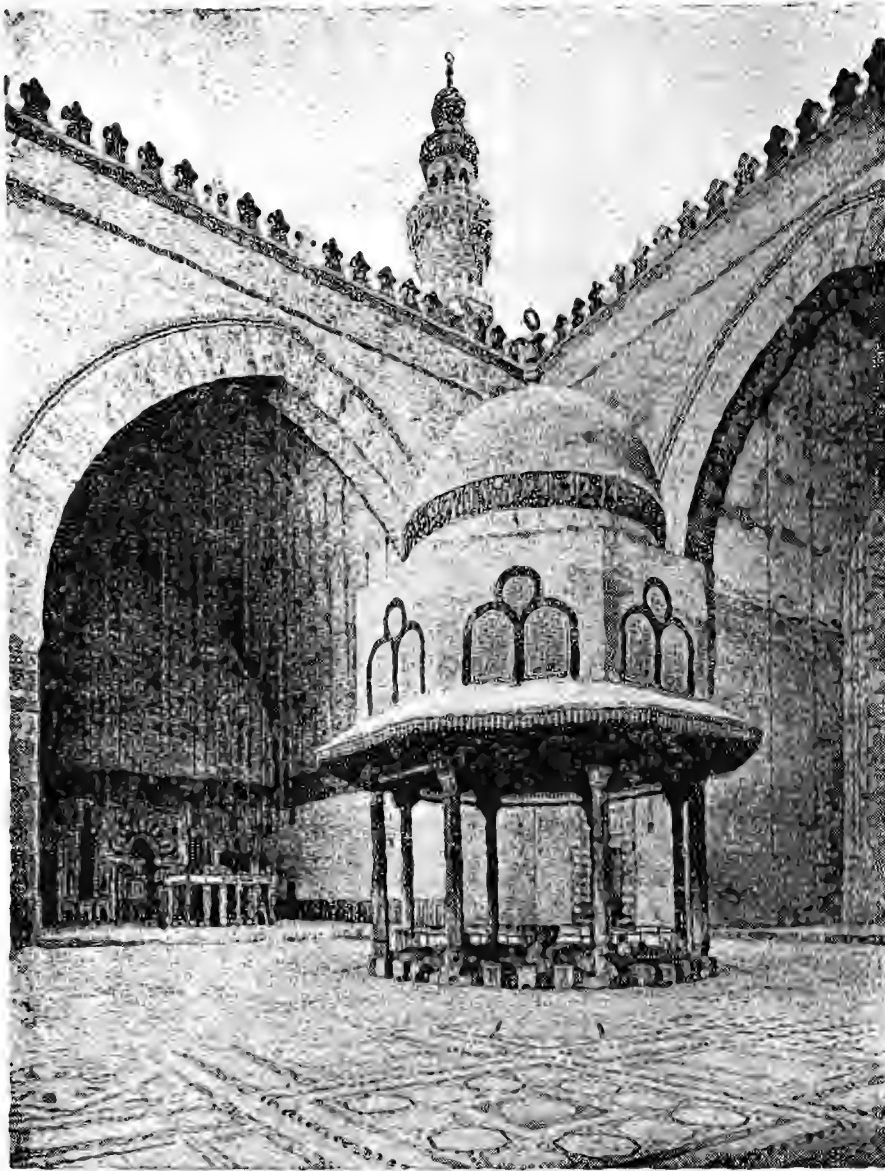
ولما حان حين الملك الناصر محمد بن قلاوون ، جعل صفيه قوصون وصيا على العرش ، ومشرفا على ولده الذي اختاره للملك من بعده ، والذي تسمى باسم « السلطان الملك المنصور سيف الدين أبي بكر » .. ومات الناصر سنة احدى وأربعين وسبعمائة هـ . ودفن الى جانب أبيه المنصور قلاوون في قبته ..

وسارت الامور في مصر سيرا جديدا مغايرا لنهج الناصر ، فسرعان ما بدأت المؤامرات ، وتكشفت حقائق الناس ووضحت نفوسهم .. وكان من أغرب ماحدث أن قوصون - صفي الناصر وأحب الناس اليه وزوج ابنته وصهره والوصي على ولده المنصور أبي بكر - انقض على سيده الصغير بعد ثلاثة أشهر من موت الناصر .. وأرسله مع اثنين من اخوته الى سجن بعيد في مدينة « قوص » !! ثم أوصى حاكم قوص بأن يدبر مؤامرة تكون نهايتها قتل السلطان الصغير !!

ولم يكد قوصون يسمع بنجاح مؤامراته الحقيرة ، حتى جاء بشقيق الملك الصغير ، وألبسه شارات السلطان ، ونادى به خليفة لآخيه المنصور سيف الدين باسم « الأشرف علاء الدين » !!

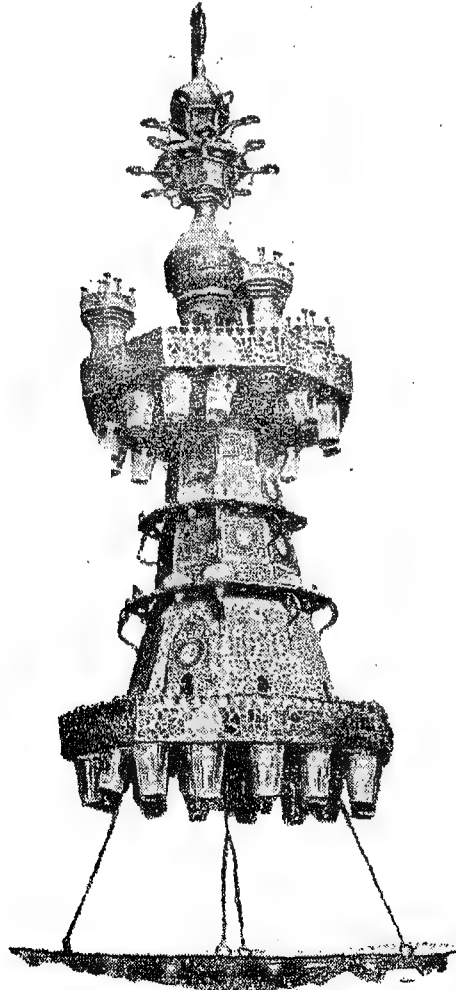
ولما كان علاء الدين يومها صغيرا ، فقد أطلقوا عليه اسم « علاء الدين الصغير » .. ونودى باسم « كجك » !!

وطفى قوصون وتمادى في طغيانه .. فثار أمراء المماليك بقيادة « الأمير شمس الدين آق سنقر » وزميله « ايدغمس » ..

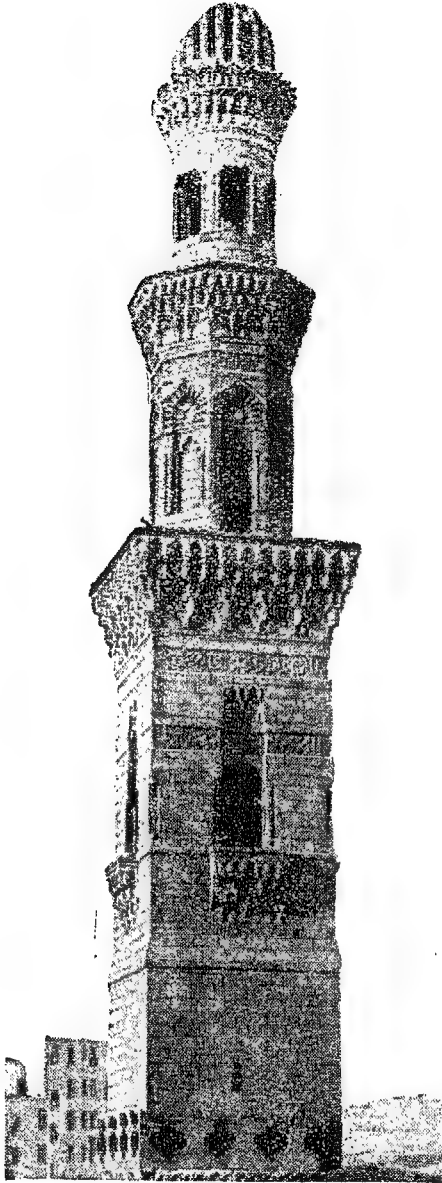


صحن مسجد السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون يتوسطه قبة معقودة على مكان التوضوء ، تحمليها
ثمانية أعمدة رخامية كتب بدائلها آيات قرآنية وتاريخ انشائها ، وعلى جوانب هذا الصحن ايوانات اربعة
معدة لاقامة الشعائر الدينية ، وفي كل زاوية من زواياه باب يوصل الى احدى المدارس الاربعة التي
شيدها منشئ المسجد ليعرس في كل مدرسة منها مذهب من المذاهب الاربعة . . ظل العمل في بناء هذا
المسجد ثلاث سنوات ، ومات صاحبه السلطان حسن قبل ان يتمه ، فاتمه من بعده احد امرائه « بشير
الجمدار » سنة ٧٦٤ هـ ، ١٣٦٣ م

ودارت الدائرة على قوصون ، فقبضوا عليه وسجنوه . . ثم عزلوا علاء الدين عن السلطنة ، بعد أن ظل يحكم بأمر قوصون خمسة أشهر، ونادوا بالامير أحمد بن الناصر محمد ملكا باسم « السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد » . . ولم يبق في الملك غير شهرين وأيام !! وجاء بعد أحمد أخوه « أبو الفداء اسماعيل » ، ونودي به ملكا باسم « الملك الصالح علاء الدين » !! وفي عهد هذا السلطان . . علا نجم الامير « آق سنقر » . . وخبا نجم الامير « الطنبغا المارداني » زوج احدى بنات الملك الناصر محمد . . ثم مالبت نجم آق سنقر أن خبا هو الآخر ، وأرسل الى سجن الاسكندرية !!



احدى الثريات الموجودة بمسجد السلطان الغورى



مَسَاجِدُ وَمَسَاجِدُ

كان موت الملك الناصر محمد نهاية لعهد من الاستقرار والجاه العريض، وبداية لعهد مضطرب قلق ، سادته الفتن وعظم فيه شأن الخونة ، وبلغ من استهتار المماليك بساداتهم أن كانوا يعزلون من يكرهون ويولون من يحبون .. حتى بلغت بهم الجراة في بعض الأحيان أن يقدموا على قتل السلطان نفسه ، أو إرساله الى السجن أو المنفى ..

وقد تولى أولاد الملك الناصر من بعده شئون السلطان وهم صفار ضعاف ، فكان السعيد منهم من يبقى في الحكم عاما ، وبعضهم كان لايمكث فيه أكثر من شهر وبضعة أيام ..

لقد كان يكفي أن يقدم « اتابك » أو « خاصكى » أو « أمير » ، بل أي مملوك عادي على قتل سيده أو تحديه علانية ، فيصل الى مكان الصدارة ، ويصبح - اعتمادا على جراته أو خيانتة - نائبا للسلطنة ، أو مهمينا على كل الامور !!

و « آق سنقر » و « الطنبا المارداني » ، كانا من المماليك الذين لعبوا أدوارا خطيرة

في المؤامرات المتكررة التي حدثت خلال ولاية كثيرين من أبناء الملك الناصر .. فلم يكن غريبا على « آق سنقر » أن يتقدم الجميع لجراته ومهارته في استعمال السلاح .. وقد وصل من قبله الطنبا ، بوصفه صهر الملك الناصر ، واحد من ظاهروا مفاخرى المماليك في وثوبهم على أصهاره واخوة زوجة أبناء سيده الناصر ..

ولما كانت عهود أبناء الملك الناصر وسلطنتهم لاتهمنا فى شىء ، لقصرها وخلوها من
 أى عمل عظيم ، فاننا نتجه الى المساجد الشهيرة التى أنشئت فى تلك العهود ..
 ومن أهمها مسجدا « الطنبغا » و « آق سنقر » ..

ومسجد الطنبغا الماردانى أنشئ فى عهد الملك الناصر نفسه ، والطنبغا فى ذلك
 العصر كان ساقيا للملك .. وكان بعيدا عن السياسة وتكتلات امراء الممالك ومؤامراتهم
 الخطيرة ..

وقد تم انشاء المسجد عام أربعين وسبعمائة - والمملك الناصر فى أوج مجده .. فكان
 جديرا بالطنبغا ، صهره وساقيه ، أن ينشئ مسجدا عظيما يتناسب مع مركزه
 المالى .. مركزه العائلى كزوج لبنت الملك ..

ومكان المسجد كان فى الاصل مقبرة عامة .. ودرست معالمها بحكم التوسع
 وتقدم العمران ، وبنيت مكانها مساكن عديدة سرعان ماكونت حيا من أحياء القاهرة ..
 ولما فكر الماردانى فى بناء مسجده هذا أشار له بعضهم الى هذا المكان .. وعائنه
 فراقه واستحسن اقامة مسجده فيه ، وكلف « النشو » بأن يفاوض أصحاب المساكن
 الباقية والارض الفضاء فى شرائها .. وتم له ما أراد .. وسرعان ماهدمت المساكن
 الباقية وأخذ المشرفون والموكول اليهم أمر البناء فى اقامته ..

وقد رأى « الماردانى » أمام اتساع رقعة الارض الفضاء ، أن يوسع رقعة مسجده ،
 ليكون مسجدا جامعا رحبا فسيحا ، فجعل له أربعة ايوانات متفاوتة فى الاتساع ،
 تحيط بصحن فسيح مكشوف ..

ولمسجد الماردانى ثلاثة أبواب ، صنعت من الخشب الثمين ، وزخرفت كلها زخرفة
 دقيقة ، وكسيت بالمعادن زيادة فى تجميلها ، ومبالغة فى اضاء رونق الثراء
 والفخامة عليها ..

وواجهة المسجد من الحجر ، وبابه الأساسى هو الباب البحرى ، وهو من الحجر
 المكسو بالرخام الملون ومكتوب فوقه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، انما يعمر مساجد الله ، من آمن بالله واليوم الآخر »

ومسجد الطنبغا الماردانى يتميز عن شتى المساجد المملوكية ، بكثرة مافيه من
 زخارف رائعة حفلت بها جدرانه وايواناته ..

وللمسجد سياج خشبى فريد فى صناعته ، فهو من الخشب المخروط الدقيق
 المركب بمهارة وخبرة فائقة ، وعليه حفر دقيق مزين بزخارف نادرة ، ينتهى من
 اعلاه بطراز مستطيل ، كتبت عليه من ناحيته آيات قرآنية ، حفرت على الخشب
 بمهارة واتقان ..

وسياج مسجد الطنبغا هذا يكاد يكون فريدا في المساجد التي سبقت عهده والتي بنيت في زمنه ..

والسياج الخشبي المزخرف يفصل رواق القبلة عن بقية المسجد ..

وايوان المسجد الشرقي يعتبر معرضا لدقة الصناعة وروعة فنون الحفر والنقش والتذهيب ، الذي يتميز به سقفه .. اما « وزرة » هذا الايوان فمن الرخام الملون ، ويبلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار ، عليها كتابات محفورة بالأصداغ ، وبينها دوائر دقيقة كتب فيها بالخط الكوفي :

« ياأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » وللمسجد منبر خشبي بالغ الروعة ، بما أفرغ فيه صانعه من براعة في حفره وتطعيمه بالسفن ..

ومحراب مسجد المارداني آية من آيات الدقة التي ميزته عن جميع المساجد المملوكية أيضا ، فهو مكسو بالرخام الملون ، وبأصداغ تتلاقى في توافق هندسي ، فتكون أشكالا زخرفية رائعة ..

وللمسجد قبة قائمة على أعمدة جرانيتية حمراء عددها ثمانية ، منقوشة نقشا بديعا ، « ومقرنصاتها » خشبية مذهبة ، تفصلها زخارف متعددة الألوان ..

وفوق أبواب المسجد الثلاثة ثلاث نوافذ ، صنعت من القيشاني الذي اجتمعت فيه ألوان عدة ، أظهرها الأخضر والأبيض والأسود - وهي بزخارفها وما حوت تعتبر فريدة في ذلك العصر ، اذ ليس لها مثيل في أي مسجد آخر من مساجد القاهرة .. والى يمين المنبر ثبتت لوحة رخامية ، نقش فيها اسم مشيد الجامع ، وعام الانتهاء من بنائه - جاء فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أنشأ هذا الجامع المبارك العبد الفقير الى الله تعالى الراجي عفو ربه ، الطنبغا الساقى الملكى الناصرى . وذلك في شهور سنة أربعين وسبعمائة ، وصلى الله على سيدنا محمد وصحبه وسلم »

وقد تكلف بناء مسجد الطنبغا هذا نحواً من خمسة عشر ألف دينار ، أنفقها المارداني - غير ما أهدى اليه من صهره الملك ، من أخشاب وقطع رخامية وأعمدة رائعة ، حملت اليه من جامع راشده ..

وكان افتتاحه بخطبة الجمعة في شهر رمضان من عام أربعين وسبعمائة ..

أما الأمير الجرىء « آق سنقر » - الذي صاهر هو الآخر الملك الناصر وتزوج من إحدى بناته .. وعاش حياة البذخ في عهده وعهد بنيه .. فقد قبض عليه الملك

الصالح اسماعيل بن الناصر .. ثم أمر الملك الكامل شعبان بخنقه وهو في سجنه !!
وقد بنى مسجده الشهير ، بعد عهد الملك الناصر بسنين عديدة ..
ومسجد سنقر يشغل مساحة من الارض ، كانت معدة لمقابر اهل القاهرة ،
فاستولى عليها واختارها لتكون مسجده ، الذى بناه بالحجر الضخم ، وجعل أسقفه
على هيئة عقود من الحجارة ..

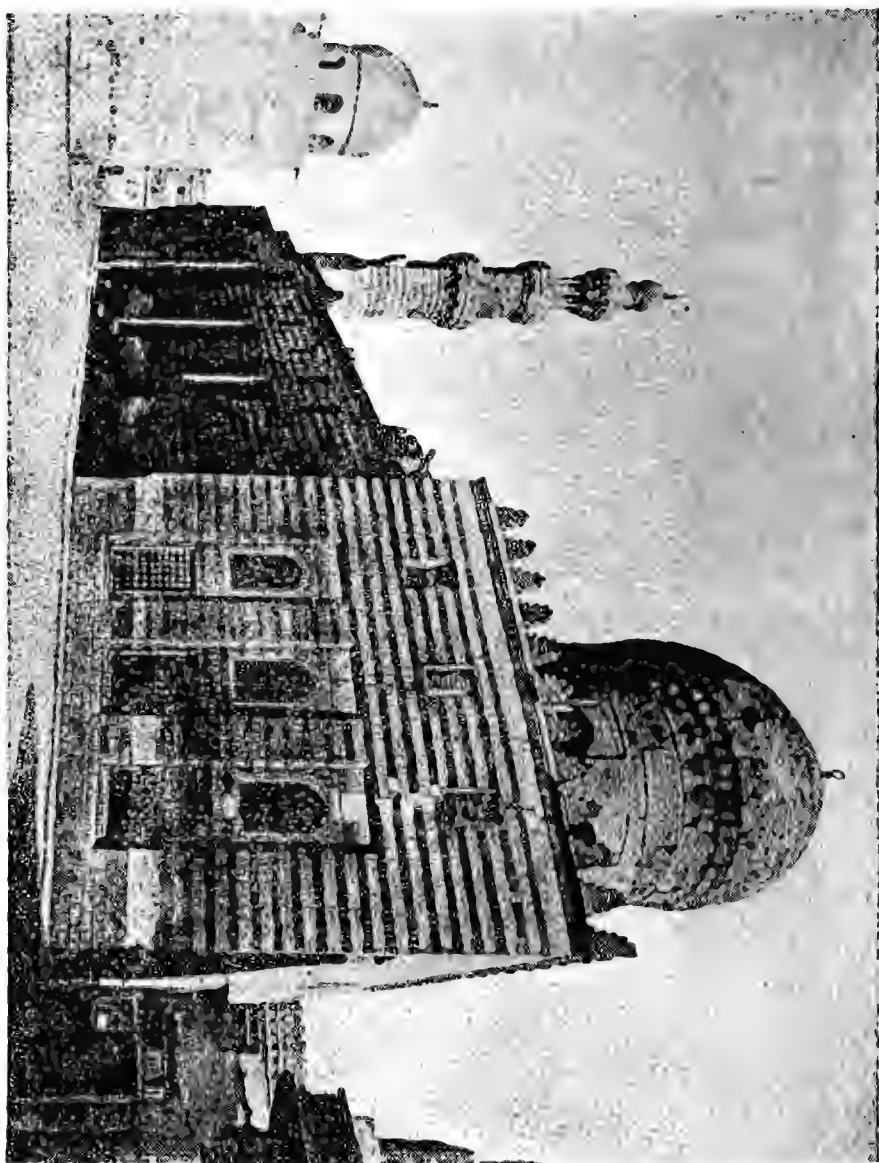
وقد كسا آق سنقر جدران مسجده هذا بالرخام .. وشغلته عمارته ، حتى انه
لم يكل أمر الاشراف على بنائه لاحد ، بل راح يباشره بنفسه ، فكان يقضى سحابة
يومه بين جموع العمال .. يشاركونهم في العمل بيده رغبة منه في بناء المسجد بأسرع
ما يمكن .. حتى لقد نسي أنه أمير عظيم وصهر السلطان .

وكان يحدث أحيانا أن يتقدم آق سنقر ليحمل بنفسه التراب تشجيعا لهم ودفعاً
الى الاجتهاد في العمل ..
وكان خلال عملية البناء لا يبرح مكانه ، ولا يهتم أبداً بمرور الوقت ، حتى لقد كان
ينسى نفسه وطعامه !!

ومسجد سنقر يعتبر من المساجد الجامعة الكبيرة ، فهو مكون من صحن فسيح
غير مسقوف ، تحيط به ايوانات أربعة رحة ، أكثرها اتساعاً الايوان الذى يقع فيه
محراب المسجد ، وهو من السعة بحيث قسم الى رواقين ..
ومحراب المسجد يعتبر آية من آيات التفنن الصناعى ، الذى لا شبيه له في مساجد
القاهرة كلها ..

وكذلك المنبر ، فهو مصنوع من الرخام المزخرف بقطع رخامية ملونة ..
وسقف المسجد محمول على حجارة ملساء تشبه الرخام ..
وللمسجد منارة سامقة ، يمثل فيها ثراء العهد المملوكى ، فهي مكونة من طوابق
ثلاثة ، لكل طابق صفاته المعمارية الفريدة وطريقته الفذة في البناء ..
وقد بنى آق سنقر لنفسه قبراً في ذلك المسجد ..
والى جانب المسجد كانت هناك قبة على قبر السلطان علاء الدين كجك ، ضمت الى
باحة المسجد ودخلت فيه ، واصبحت ضمن أبنيته ..

وقد شيد آق الى جانب مسجده هذا مكتبا لفقراء المسلمين ، يحفظون فيه القرآن ،
و « سبيلا » لري العطاشى من عابرى السبيل ..
وقد أوقف سنقر على مسجده هذا ضيعة صغيرة - من قرى حلب ، لينفق ريعها
على عمارته واثارته ورواتب العاملين فيه ..
وقد تولى أمر المسجد أول من تولى الشيخ « شمس الدين البان » ، فكان خطيبه
والمشرف عليه ..



مكتبة مدرسة الأمير سيف الدين بن قتيبة الأنصاري - شارع القنصري قرب جامع أحمد بن طولون إتمامه عام ٧٥١ هـ ، ١٢٥٥ م ، وخصص المدرسة لإيواء السادة الحنفية وتعليم الحديث

ومات آق سنقر قتيلا .. خنقه الامير الاشرف شعبان واعتلى العرش مكانه ..
ودفن في مقبرته التي بناها في مسجده هذا (١) ..

وتولى بعد ذلك هؤلاء وهؤلاء .. واخذت الحياة سنتها التي عرفت بها طوال العهد المملوكي ... وثبات وغدر وتربص وارسال الى سجن أو قضاء على الحياة .. وتلك امور لم تكن غريبة على مجموعة من السائمة البشرية الجاهلة بيعت في الاسواق بيع المواشي والانعام ثم سيقت بعد ذلك كالخراف الى بيت سيدها ليمتلىء بالحقد قلبها أول ما يمتلىء على السيد نفسه ، فتكون المؤامرة .. ويكون الحكم بالموت ..

وأخذ دولاب الحوادث يدور .. مرة بيد مملوك لئيم ، وأخرى بيد خادم ارتفع الى مرتبة الامارة وأحب أن يكون له جاه من اشتراه !!

ثم مالبت هذا الدولاب أن توقف لحظات ، ليشهد « المظفر حاجي » ابن الملك الناصر - وهو يشب على أخيه «الكامل شعبان» - الذي «خنق» آق سنقر وغيره - فيقتله بعد أن بقى على عرش السلطنة أربعة عشر شهرا .. ويتولى هو الملك ليجلس على دسسته خمسة أشهر ، يسجن بعدها عن طريق خدمه وعبيده المماليك ، ليخلفه أخوه «الناصر أبو المحاسن حسن» !!

ومرت على سلطنة الناصر حسن أربعة أعوام .. واذا بالمأساة تتجدد والفتنة تصحو وتطل برأسها ، لترى «الصالح صلاح الدين» وهو يشب على أخيه ، فنجاه عن سرير الملك ، ودفع به ليقضى حياته سجيناً في دور الحريم بالقلعة ، وتولى هو منصب السلطان !!

وظل الصالح صلاح الدين يحكم مصر ثلاث سنوات أخرى .. واذا بالمملوك «شيخو العمرى» ينتجه الى القلعة في موكب من أنصاره ، فيخلع صلاح الدين ويرسل به الى السجن .. ويحضر الناصر حسن من سجنه ليتولى العرش مرة ثانية !!

والملك الناصر أبوالمحاسن حسن ، لم يكن يفترق في شيء عن أخوته ولا غيرهم ممن

(١) تعطلت الشعائر في هذا المسجد بعد وفاة الظاهر برقوق ، لان الواضع يده على اجباسه في حلب افتصبها لنفسه .. وظلت حالته المالية بين مد وجزر حتى تولى نظارته «ابراهيم اغا مستحفظان» ، فاهتم بعمارته وتزيينه ، وبني لنفسه فيه قبرا ، ووضع لوحة على قبر منشئته آق سنقر ، وزخرف المسجد وجدد عمارته وزين جدرانها بالقيشاني الازرق الى علو اربعة امتار .. حتى لقد عرف من اجل هذا بالمسجد الازرق ، كما غلبت شهرة مجده ابراهيم اغا شهرة بانيه آق سنقر فاطلق الناس عليه حتى أيامنا هذه «مسجد ابراهيم اغا مستحفظان» وقد سمي المسجد ايضا بمسجد «النور» ، وهى كلمة تفسرها لوحة رخامية بجوار المحراب ذكر فيها «ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأى وهو يصلى في محرابه» !!

سبقوه .. ولكنه برغم هذا نال شهرة خلدت على الدهر ، وكان مرجعها اقدمه على بناء المدرسة الفريدة التي عرفت باسم « **مسجد السلطان حسن** » ، والتي ارتفع بناؤها الأشم وكانها ناطحة سحاب لا تشبه لها ولا مثيل بين عمائر العصور الاسلامية كلها .. فهي اقرب الى الحصن الشامخ منها الى المدرسة التي يتلقى الطلاب فيها اصول الدين والفقه والشريعة على المذاهب الاربعة ، أو المسجد المعد لأداء شعائر الدين ..

ومسجد السلطان حسن بن الناصر محمد قلاوون - أعجوبة بنائية خالدة ، توارث أمامها شتى العمائر الملوكية ، وفي جملتها « البيمارستان » المنصوري الشامخ ، الذي بناه السلطان المنصور قلاوون جد السلطان حسن ..

وقد بنى مسجد السلطان حسن في مواجهة قلعة الجبل ، فانتقل به بانيه من الاماكن التقليدية التي اعتاد سلاطين الممالك وأمراؤهم اقامة مساجدهم فيها ، الى مكان جديد كانت تشغله دار نائب الشام « يلبغا اليحياوى » ..

وبدا السلطان حسن عمارة مسجده هذا في السنة السابعة والخمسين بعد السبعمائة من الهجرة .. وقرر أن ينتهى من بنائه في اقرب وقت مستطاع ، فرصد عليه المال الوفير وحشد له جيوش العمال وأهل الفن والخبرة الممارية ..

وأخذ البناء يرتفع في سرعة واتقان .. وجعل السلطان حسن يسرف في الانفاق عليه ، حتى لقد بلغ ما كان يدفعه يوميا لمستلزمات البناء والعاملين فيه - حوالى عشرين ألف درهم ..

وبلغ من اهتمام السلطان حسن باستكمال مسببات روعة مسجده ، ورغبة في أن يكون واحد المساجد الفرد - أن أنفق مائة ألف درهم لاتمام صناعة « القالب » الذي تم عقد الايوان الكبير عليه .. وبعد أن تم البناء ألقى بهذا القالب في المهملات !!

واستمر العمل لاتمام بناء المسجد حوالى ثلاث سنوات ، استنفدت فيها ميزانية الدولة وثرأ الملك الناصر حسن نفسه .. حتى لقد قال أكثر من مرة : انه لولا خوفه من أن يعيره الناس بأنه عجز عن اتمام بناء مسجده الكبير ، لأوقف البناء فيه وتركه دون اتمام !!

وقد أراد السلطان حسن ، مبالغة منه في تجميل المنظر الخارجى لمسجده هذا - أن يقيم فوقه أربع منائر سامقة ، يتولى ابلاغ الأذان عليها أربعة من المؤذنين ، ليصل التبليغ الى أكثر عدد من الناس .. فكان أن بنى من هذه المنائر الأربع ، ثلاثا فقط .. ثم لم تلبث أن سقطت احداها .. وكان سقوطها فاجعة أودت بحياة كثيرين ، فأهمل

السلطان اقامتها بعد ذلك ، ولم يقم المنارة الرابعة واكتفى بوجود منارتين شاهقتين في مسجده العظيم ..

ومسجد السلطان حسن من الفخامة والروعة وسعة البناء ، بحيث بلغت مساحته حوالى ألف متر مربع ..

وللمسجد واجهات أربع خالية من جميع نواحيها ، وجدرانه بالغة الارتفاع حتى ليكاد يصل ارتفاعها الى أربعين مترا ..

وبالرغم من ضخامة بناء مسجد السلطان حسن ، فإنه يعتبر معرضا من أجمل معارض الفن الدقيق ، اذ جمع بين روعة البناء ، ودقة التنفيذ ، وجمال الهندسة والتنسيق ..

وقد تعددت بالمسجد اساليب الزخرفة .. وظهرت دقة الحفر واضحة جلية ناطقة بالاعجاز الفنى ، ممثلة في « مقرنصات » المسجد البديعة وروعة الاعمال المرتبطة بهذه المقرنصات ، وخاصة الانشاءات الرخامية التى تظهر بوضوح في « وزرني » القبة واىوان قبلة المسجد ومحرابيه الرائعين و « دكة » المبلغ ..

وصحن مسجد السلطان حسن مفروش بالرخام المتعدد الالوان ، تتوسطه نافورة فوقها قبة رائعة ..

وهندسة المسجد مشابهة لغيره من المساجد ، فصحنه الواسع تحيط به أربعة اىوانات ، أكبرها وأعظمها الاىوان الشرقى .. وقد خصصت هذه الاىوانات لتكون أربع مدارس يدرس فيها فقه المذاهب الأربعة ..

وحوالى محراب المسجد بابان ، أحدهما مكسو بالنحاس المذهب ، وثانيهما فقدت كسوته .. وهما يوصلان الى القبة الواقعة خلف المحراب ..

وقد حفز بناء مسجد السلطان حسن الشعراء على التغنى فيه وفي روعته ، فقال « ابن حجلة » :

لسنا ، وان كرمت أوائلنا يوما على الآباء نـنـسـكـل
بنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل فوق ما فعلوا

ولما كملت عمارة هذه المدرسة كان لها يوم مشهود ، واجتمع بها في يوم الجمعة القضاة الأربعة وسائر الامراء وأعيان الناس ، وملئت « الفسقية » التى بصحنها سكرًا بماء الليمون ، ووقف رؤوس النواب يوزعون الشراب على الناس ..

ونزل السلطان حسن من القلعة في ذلك اليوم وصلى هناك .. وخلص بعد الصلاة على البنائين والمهندسين الخلع السنية ، وهب العمال هبات مجزية ، ونال كل منهم عشرة دنانير ..

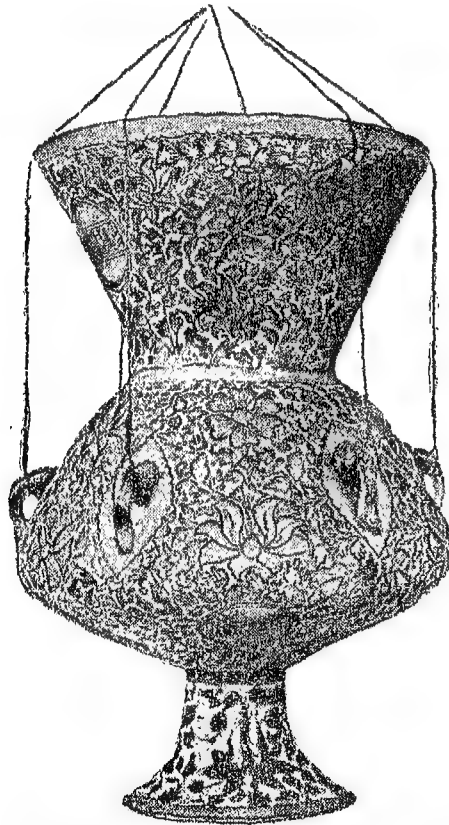


مسجد ومدرسة السلطان شعبان

مسجد ومدرسة السلطان شعبان أنشاه صاحبه سنة ٧٧٠ هـ ، ٦٩/١٣٦٨ م ، وصاحبه هو السلطان الملك الأشرف حفيد السلطان الناصر محمد بن قلاوون - قيل انه أنشاه لوالده ، وقيل ان الذي أنشاه المسجد والمدرسة والدته السلطان شعبان ، وقد تعرف الناس من أجل ذلك على تسميته بـ « مسجد أم السلطان » .
 ولي السلطان الملك الأشرف شعبان ملك مصر سنة ٧٦٤ هـ ، ١٣٦٣ م ، وظل مترعاً في دست الحكم أربعة عشر عاماً توفي بعدها في سنة ٧٧٨ هـ ، ١٣٧٧ م ، ودفن بالقبة القبلية بالمسجد

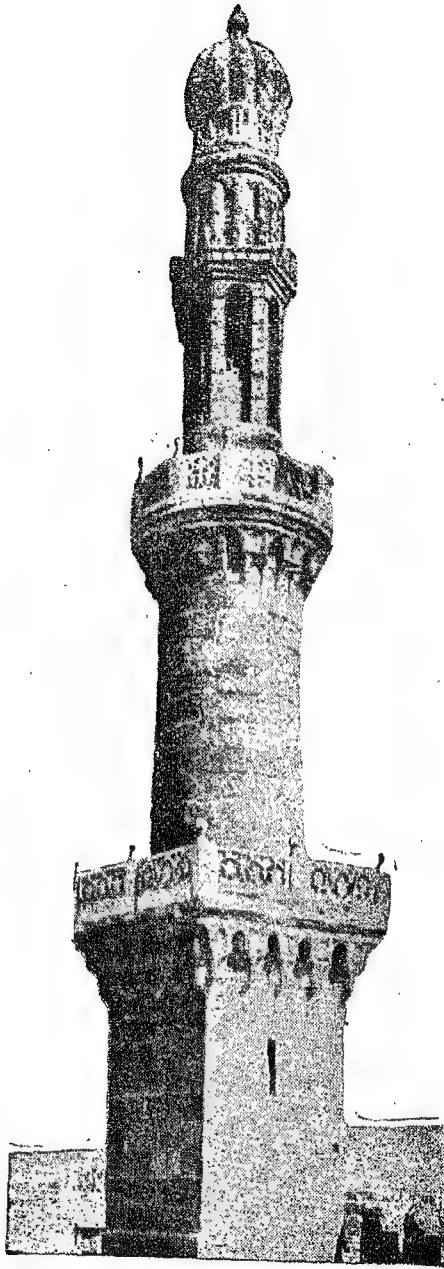
وقد قال الشيخ جمال الدين بن نيسانة في هذا المعنى - مهنتا السلطان بافتتاح مسجده العظيم :

امام الورى هنئت بالجامع الذى وجدت الى مبناه سعدا موافقا
دعا حسنه اهل الصلاة لقصده فلا غرو ان جاء المصلى سابقا
ومن غرائب المصادفات ، ان باني هذا المسجد الشامخ لم يحظ بدفن جثمانه في
مقبرته التى اعد لها لنفسه فيه ، اذ اختفت جثته بعد ان وثب عليه مملوكه « يلغا
العمرى » .. وقيل انه غرق (١) !!



احدى المشكاوات الموجودة بمسجد السلطان حسن

(١) كان من جراء وجود هذا المسجد الشامخ امام قلعة الجبل وارتفاع منارتيه ، ان جعله بعض اشراة الممالك حصنا ، يحاربون منه القلعة ومن فيها بالسهام وغيرها - مما جعل السلطان الظاهر برفوق يهزم سلم هذا المسجد الوصول الى ابوابه ، ويامر بان يسد الباب الكبير والسلم الموصل الى المذنتين وقد شجع هذا العمل الملك المؤيد شيخ ، على نقل باب مسجد السلطان حسن الكبير الى مسجده



« مئذنة الناصر محمد بن قلاوون »

بداية ونهاية

لئن كانت العهود التي تلت عهد الناصر، لم تعرف ماهية الهدوء ولا معنى الاستقرار، فإنها برغم ذلك قد عرفت كيف تستمر على الدرب ، فحافظ بعض سلاطينها ونخبة ممتازة من أمرائها على حب البناء والغرام بالعمارة ، وخاصة بناء المساجد ، وبيوت الصوفية والمدارس ..

ولئن كان الحكم قد بقي لعدد من السنين في عدد من أبناء الملك الناصر نفسه ، فإن هذه الفترة قد اعتبرت فترة الاختصار بما حوت من خيانات واغتصاب وعدم استقرار . وكان موت السلطان الملك الناصر محمد قلاوون ، بداية النهاية لدولة المماليك البحرية ..

وان في اقبال سلاطين المماليك وأمرائهم على تعمير بيوت الله ، يعتبر في نظري وسيلة للتخلص من « عقدة » نفسية لازمت هؤلاء الناس ، ووجدوا في اقامة هذه الصروح العتيقة وحبس الاحباس عليها باسم الدين متنفسا لهم ..

لقد كان المماليك اخلاطا من الناس .. مزيجا من تمساع اهل الارض ، تخاطفتهم الايدي من أحضان اهليهم ، ثم دفعتهم دفعا الى أسواق الرقيق فبيعوا فيها الى سادتهم بيع الانعام !!

واعتاد السيد « الشاربي » ان يسرف في جمع هذه السائمة البشرية ، ويربيهم في شبه « حظائر » وان كثر فيها النعيم ، وكانت مؤثثة مزخرفة ، الا أن في وجود هذه الكتل البشرية اهدارا للأدمية واشعارا لاصحابها بأنهم كالذواب ، أتى بهم سيدهم ليكونوا عبيدا شعارهم الطاعة ، ومبدؤهم الوفاء للسيد .. ولو كان الفداء بالروح !!

ويتطلع هؤلاء الرقيق المدلون الى سيدهم الكبير ، فيدهشهم انه كان خادما مثلهم في يوم من الايام .. وارتفع الى مقام السيادة على جثة سيده !!
ولقد كان عجيبا ان تحكم مصر فئة من الخدم والرقيق المجلوب المشتري بالمال ، ويتصرفون في اقدار شعب حر .. ثم يسكت افراد هذا الشعب على تحكم هؤلاء الرقيق وطفغانهم !!

فهل كان الشعب راضيا حقاً عن تحكم هؤلاء الرقيق في أمورهم وأرزاقهم ؟! لقد رضى الشعب بتحكم الرقيق المجلوب من الخارج فعلاً - باعتبارهم كانوا يعيشون في محيط بعيد عن الناس ويرون أن الحكم والجاه والسلطان ، أمور موقوفة على فئة بعينها ، تتوارث هذه الشارات أو يفتصبها بعض أفرادها من بعض .. لهذا لم يهتم الشعب بما حدث أيام اغتصب « الاتابكي » المملوك « ايبك » عرش سادته الايوبيين .. ولم يقم وزناً للمؤامرات والمنازعات والاضغاث التي حدثت بعد ذلك في الدولة المملوكية البحرية ، واعتبر كل هذا أمراً خارجاً عن دائرته ، مادام هو يعيش ويجد حاجته في سلام !!

بل ان مجرد السكوت والرضاء بمثل هذه الأوضاع المشينة فيه اهدار للأدمية الشعبية في مصر ..

ولكن ، لقد كان هذا السكوت وذلك الرضاء بداية لاعداد الآتون المشتعل الذي عرف الشعب بعد ذلك كيف يعده - ليحرق به الممالك وأشياعهم ، وقد تآدوا في المظالم وساروا سيرة الفساد والشر واشاعة الظلم بين الناس ..

و «عقدة» حب البناء ، وتعمير المساجد وشراء النفائس عند هؤلاء الناس، كان مبعثها احساسهم بضغبتهم وضياح أصولهم وحدوثهم على النعمة .. ثم امتلاء حياتهم في شتى أطوارها بالمفاسد والضلالات على اختلاف أنواعها ، واعتقادهم بأنهم خلقوا ، ليعيشوا ليومهم فقط ، وأن الغد يعلمه الله .. ويعرفه جيداً المتآمرون الخونة ، الذين كانوا يتربصون لبعضهم بعضاً !!

لقد ظن أمراء هذه الفئة من سائمة البشرية ، أنهم باقامة المساجد ، يحجون خطاياهم، ويسترون سوءاتهم ويسرقون ويغتصبون ويقتلون .. ثم يصبح من السهل الهين على المملوك أو النائب أو الأمير أو من وصل الى السلطان أن يفعل ما يشاء .. يسرق .. يذبح .. يخون .. ثم يبني مسجداً فخماً ويجلس عليه الضياح والعقار ليغفر له الله ماتقدم من ذنوبه وما تأخر !!

كانت الدولة في العصور المملوكية حرماً مباحاً للسلطان وأتباعه ، فلا تفكير في شعب أو رعية ، اذ لا ميزانية محددة ، ولا رواتب معينة ، ولا انشاءات لصالح الناس ،



مسجد ومدرسة الجاي اليوسفي أنشاه الأمير سيف الدين الجاي اليوسفي أنابك المسافر « كبير
الأمراء » في عهد الملك الأشرف شعبان سنة ٧٧٤ هـ ، ١٣٧٣ م بشارع سوق السلاح قرب القلعة .
أنشاه على نظام المدارس ذات التخطيط المتعامد فهو يتكون من صحن مكشوف كبير تحيط به
أربعة إيوانات معقودة الفتحات ، وإيوان القبلة يختلف عن بقية المساجد ، أما منبره فيعتبر من المنابر
الخشبية الدقيقة الصنع - كتب بأعلى بابه تاريخ أنشائه سنة ٧٧٤ هجرية

ولا نظام في اجتماع أو عمل مما يعود على الشعب بالنفع .. بل كانت الدولة ومواردها ومكوسها وشتى ضرائبها - بقرة حلوبا ، تنتقل من أيدي الجباة للصوص ، الى أيدي زعماء العصابات من سادتهم السلاطين ونوابهم وصفوف الامراء الخدم ، الذين لم يتحرروا من قيد الرق ولم يعرف واحد منهم ماهية الحرية الا على صورة رهيبة ، يجللها الدم وتجسدها الخيانة والجبروت !!

بهذا الروح بقي هؤلاء الناس في مصر .. شراذم لا أهل لها ولا وطن .. وبهذا الروح الشرير ساسوا الامور فيها .. فلم يكن من المستساغ أن يحترموا الروابط أو يفكروا في صوالح الوطن ، الذي جمع شتاتهم وآواهم وأطعمهم ، فتنقلوا في ربوعه لصوصا غاصبين سفاكين للدم !! والكفارة عن هذا كله .. بناء مسجد أو « خانقاه » ، وحبس بعض العقارات أو الضياع المفتصة عليها !!

على هذه الصورة حكمت مصر الغالبة .. وبهذه العقلية أدار هؤلاء الناس سياستها !! فاعتبروها ضيعة هم ملاكها الوحيدون ، أما أصحابها الاصيلون فأجراهم لديهم ، وأن ليس من حقهم الا أن يعملوا ويدوروا مع الدولاب الصاحب راضين ، وأن يتركوا كل شيء للريق الاجير الضائع ، ليتولى الحكم والدفاع والحرب والصدام !!

ولقد تميز العهد المملوكى البحرى بمعائر رائعة ، وانشاءات بديعة ومساجد لا مثيل لها .. حتى بلغت النهضة البنائية فيه ذروتها في عهد الملك الناصر قلاوون .. وعلى الرغم من حالة التفكك التى تميزت بها البلاد في عهود اولاده ، فان المعائر والانشاءات استمرت على عهد الناس بها ..

واظهر مظاهر ضعف ورثة الملك الناصر ، أنه لم يقدم أحد فيهم ، غير « السلطان أبى المحاسن حسن » على البناء ، فشاد مسجده العظيم المفرد .. ولم يستطع أحد من اخوته الذين سبقوه أو الذين جاءوا من بعده أن يبنوا شيئا ..

لقد تولى أمر البناء في تلك العهود الهزيلة أمراء المماليك ، اذ أصبح بأيديهم مقود الامور .. وكانوا هم أصحاب الحل والعقد والتصرف حتى في أقدار السلطان .. ومن أشهر المعائر التى تمت في خلال تلك العهود القلعة مسجد «شيخو خانقاه» .. ومسجد « التجاي اليوسفى » ، المملوك الذى تزوج أم الملك الأشرف شعبان .. فلما مات نازع سيده ميراثها وخرج عليه وحاربه ..

ثم مسجد « منجك » ، و « صرغتمش » .. وعمارة الامير « شيخو العمرى » عبارة عن بنائين منيعين ، أولهما هو المسجد

المعروف باسمه ، والثانى هو « الخانقاه » المنسوبة اليه - وكلاهما فى مواجهة الآخر . . وكان مكانهما قبل البناء بعض مساكن قائمة فى قطائع الامير «أحمد بن طولون» فاشتراها شيخو من أصحابها وهدمها - وكانت مساحتها تزيد عن فدان ، فبنى عليها المسجد والخانقاه ، وحمامين وبعض حوانيت تعلوها مساكن للمتصوفين الذين بنى لهم الخانقاه . .

وقد أنشأ شيخو مسجده وبقية المجموعة الملحقة به فى عام ستين وخمسين وسبعمائة . . ولم يسخر فى بنائه أحدا ، ولم يفتصب من المساجد حجارة ولا أعمدة . . ودفع ابن عملوا فى بنائه أجورهم كاملة . .

وأراد للمسجد أن يكون من المساجد الجامعة ، فرتب له من أجل ذلك كل ما كان فى حاجة اليه ، وأجلس فيه عشرين صوفيا - نقلهم بعد ذلك الى « الخانقاه » لمواجهة للمسجد بعد أن أتم بناءها . .

ورتب « شيخو » فى مسجده هذا قراءات ، ودروسا فى المذاهب الاربعة ، ودرسا فى الحديث وآخر فى علم القراءات بالروايات السبع . . وجعل لكل درس شيئا وطلبة ، واشترط عليهم حضور الدروس وحضور وظيفة التصوف . .

وكل رئاسة « الخانقاه » الى الشيخ « أكمل الدين مدرس الحنفية » وأسند رئاسة الدرس الشافى الى « بهاء الدين السبكى » ، والمالكية « للشيخ خليل » ، والحنبلية لـ « موفق الدين الحنبلى » . .

ورتب شيخو للطلبة كل ماكانوا فى حاجة اليه ، وقرر لهم طعامهم اليومى ، وهو مكون من خبز ولحم ، وكان يصرف الى كل منهم الحلوى والصابون كل شهر مرة . . ومسجد «شيخون» وخانقاه من أروع الاعمال المعمارية التى تمت فى العصر المملوكى، وكان بناؤهما بالحجر ، ولكل منهما منارة بديعة فوق بابه . . وباب المسجد لوحة رخامية كتب فوقها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » . . ومكتوب بعد هذا :

« أمر بإنشاء هذا المكان المبارك والموطن الذى يربو العمل فيه وبيارك ، العبد الفقير الى ربه جل وعلا وتبارك ، المستغرق فى بحر نواله ، المتغترف من أفضاله ، الامير شيخو العمرى » . .

والداخل من هذا الباب يجد لوحة خشبية حفر فوقها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا » . .

ومسجد شيخون يزهر بمنبره الخشبي الفخم، ومحرا به الجميل، وأعمدته الرخامية المتناسقة ، وصحنه المفروش بالرخام الملون ، تتوسطه ميضأة رائعة ، مقام عليها قبة فوق اعمدة رخامية . .

والمسجد مسقوف بالخشب ، بازاره آيات قرآنية . .
ومنبر الخانقاه مصنوع من الرخام ، ودكة التبليغ مصنوعة من الحجر ومقامة فوق اعمدة من الرخام (١) . .

واذا مررنا بعد ذلك من الكرام في وصف مساجد : « الجاي اليوسفى » ، و« الامير منجك » ، و « خوند بركة » أم السلطان الاشرف شعبان - لتشابهها في كل شىء مع شتى المساجد التى أنشئت في ذلك العصر - فانه ينبغى ألا نترك مسجد « صرغتمش » المقر السيفى ، ورأس النواب - لا لأهمية الرجل في الدولة المملوكية خلال فترات الاضطراب ، وتطاحن أولاد الناصر والماليك على الحكم ، بل لأن في المسجد نفسه ما يوجب الوقوف عنده . .

ومسجد « صرغتمش » قد أقيم في نفس الحي الذى تخبره أمراء الماليك لاقامة مساجدهم الشهيرة ، فهناك أصلا مسجد طولون، ومن بعده الجاولى وشيخو وغيرهم .
وقد أمر « المقر الاشرف العالى المولوى العالمى العادلى الفاضل السيفى صرغتمش الملك الناصرى ، مربى العلماء ومقوى الضعفاء وبانى المدارس والمساجد » - بأن يكون مسجده هذا فى أول الامر مدرسة ، بدأ فيها البناء عام ست وخمسين وسبعمائة هـ - فلما تمت كانت آية من آيات الدقة الصناعية ، فافتتحها أجمل افتتاح وركب اليها مع الامراء والقضاة الاربعة ومشايخ العلم ، وعين « قوام الدين » مدرسا للعلم بها ، فألقى فيها أول درس . . ثم أقام الامير صرغتمش مأدبة عظيمة ، دعا اليها الخاصة والعامة ، ووزع على الحضور شراب الليمون الذى كان قد ملأ به نافورة المدرسة التى أوقفها على علماء الحنفية . .

وقد اتخذت المدرسة الصرغتمشية هيئة المساجد الجامعة ، فجمعت بذلك بين الصفتين . وهى مكونة من صحن فسيح مفروش بالرخام ، تحيط به حجرات للطلاب ، وأربعة ايوانات فى أحدها القبلة ، وبحائطها رخام ملون منقوش ، وعلى جانبها لوحان كتب عليهما اسم « صرغتمش » . .
وهناك ميضأة مسقوفة على أعمدة رخامية ثمانية . .

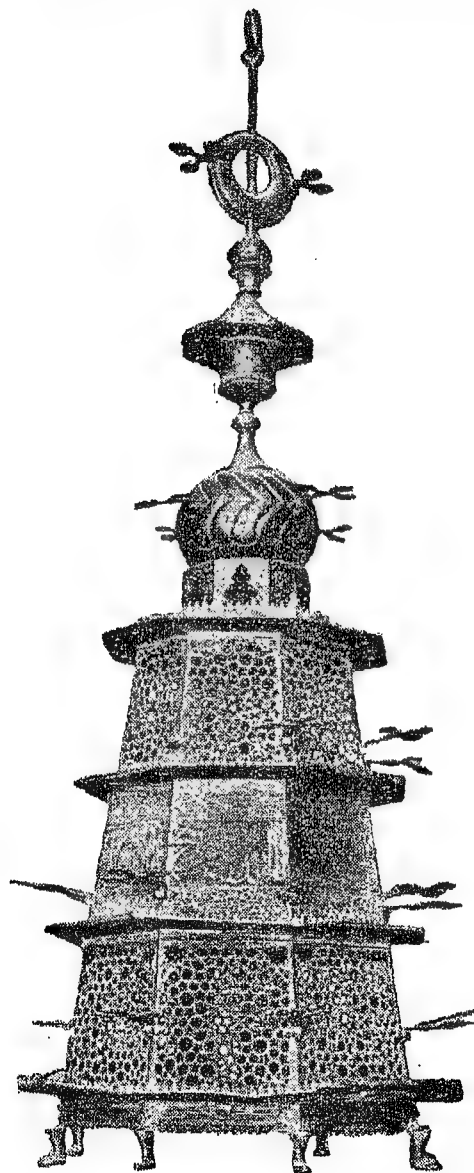
(١) أحرقت الطاغية التركى سليم الاول هذا المسجد لما نعى اليه أن المملوك طومان باى يختبئ فيه ، كما أحرقت ايضا الدور التى كانت تحيط به ، مبالغة منه فى الاضرار بالمسلمين الذين خرج لحربهم مع جيشه ليحرب جبروته فى بنى دينه ! !

وقد نادى الشيخ احمد الطحاوى سنة ١٢٣١ هـ مستحثا المسلمين للاسهام فى تعمير مسجدى شيخو ، فانتسب الناس جميعا وتم اصلاح المسجدين وصارا على أحسن حال . .

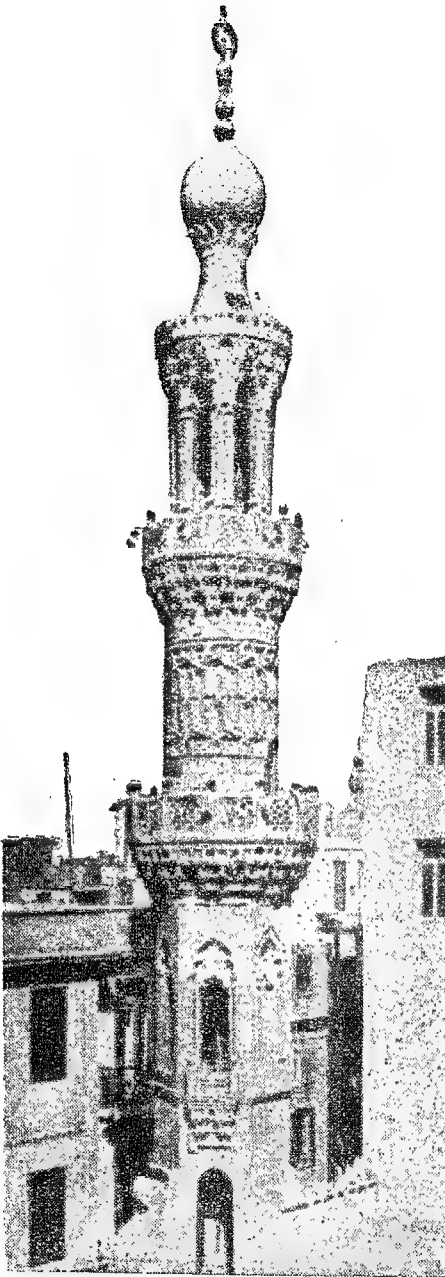


مسجد ومدرسة السلطان برقوق بشارع المعز لدين الله ، انشاء « الملك الظاهر سيف الدين سعيد
برقوق بن انس » اول من ولى حكم مصر من المماليك الجراكسة . كان مملوكا للامير بلغا ، فاعتقه وظل
ينتقل في مناصب الدولة الى ان اسعده الحظ فولى ملك مصر في سنة ٧٨٤ هـ ، ١٢٨٢ م

لقد كان من صفات هؤلاء الامراء ٠٠ والنعوت التي خلعوها على انفسهم ، والعمارات التي شادوها في ايام لم يستطع السلاطين فيها أن يقيموا باسمهم أى بناء ، نستطيع أن نحكم على السادة ٠٠ وعلى رقيقهم الذى بطش وتحكم وساد ، ومهد الجو بتهوره وجراته للقضاء على دولة المماليك البحرية ، حتى جعلوا منهم جسورا يعبر عليها الى الحكم اتباعهم الذين تسموا باسم « السلاطين المماليك الشراكسة » !



احدى مشكاوات مسجد القاضى عبد الباسط



سلاطين الشراكسة

كان دخول السلطان الملك الصالح « أمير
حاج » الى اخوته في دور الحرم بقلعة الجبل
نهاية دولة ..

وكان خروج المملوك « برقوق » الى الحياة
العامة وتسلمه زمام الامور ، بداية دولة
أخرى ..

وهكذا .. وبعدها ستة وعشرين عاما،
دالت دولة المماليك البحرية .. أولئك الرقيق
الذين قدر لهم أن يحكموا مصر ، ويتوارثوا
عرشها بالمغامرات والدسائس والتقتيل -
ليرثهم بعد قرن ورابع قرن أخوة لهم في الرق،
هم المماليك « البرجية » الذين ما أن خلاص
لهم الامر حتى سموا أنفسهم « الشراكسة » ..

وظهور المماليك البرجية على مسرح
الحوادث في مصر ، لم يكن مفاجأة من تلك
المفاجآت التي حدثت أيام الصالح أمير حاج
وكان بطلها المملوك الاتابكي برقوق .. بل
كان ظهورهم يرجع الى ما قبل ذلك بعشرات
السنين .. وفي أيام السلطان العادل كتبوا
بالذات ..

ولما علا نجم « لاجين » وطرد خدنه وزميله
في الرق والفروسيية « كتبغا » ، وتولى أمر
السلطنة من بعده - أقدم مملوك برجي
اسمه « كرجي » على قتل حسام الدين
لاجين .. فمهد بذلك للعودة الثالثة للملك الناصر محمد بن قلاوون ..

وقد ظل شأن « البرجية » يعلو أيام حكم الناصر ، ونفوذهم يزداد أيام بنييه
السلطين حتى لقد راح هؤلاء « البرجية » يتقدمون صفوف « البحرية » ، وينافسونهم
في المناصب والتقرب الى السلاطين .. حتى استطاع الاتابكي برقوق - أكثرهم جرأة

وظموحا - أن يستحوذ على ثقة سيده « أمير حاج » ، حتى قرب به وأعلا شأنه وقدمه على جميع المماليك ..

واستطاع برقوق الطموح أن يرتب مظاهرة لعزل سيده ، ظل يدفع بها ويحرك شخصها حتى أفلحت وتمت بنجاح ، فنودى به سيدها للبلاد باسم « السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبى سعيد برقوق بن أنس » !!

ولما كان أولاد المنصور قلاوون وحفدتهم وحدهم - هم من استنطاعوا أن ينسبوا أنفسهم الى أب دون سائر المماليك المجهولى الاصل فعلا - فقد كان غربيا بالنسبة لبرقوق أن يجد له أباً !! وأن يشتهر باسم ذلك الأب الذى ذكره التاريخ وقال عنه « أنس » !!

وقد تكون قصة الانتساب هذه ، قصة من مبتكرات ذلك المملوك الذكى .. وقد يكون تعرفه على أبيه حقيقة واقعة .. ولعله وقد أحس أيام دولة سيده « أمير حاج » ، انه موشك أن يكون شيئا خطيرا .. وقد يسعده الحظ بأن يحكم ، فاراد أن يتحرر من وصمة التجهيل التى لازمت أمثاله من الرقيق ، الذين كانوا يباعون فى الاسواق .. فبعث من يبحث عن أبيه ، أو من يجد له بين الناس أباً ، حتى وجده فى النهاية فى شخص « تركى شركسى » اسمه أنس ..

وحضر أنس والد برقوق هذا الى مصر أيام « أمير حاج » وقد أعدت لاستقباله المواكب .. ولم يكن حظه اقل من حظ ابنه ، فسرعان ما أعدت له المناصب وأجريت عليه الرواتب وأصبح فى دولة « الخدم » رجلا مميذا له المركز العالى والدرجة الرفيعة !!

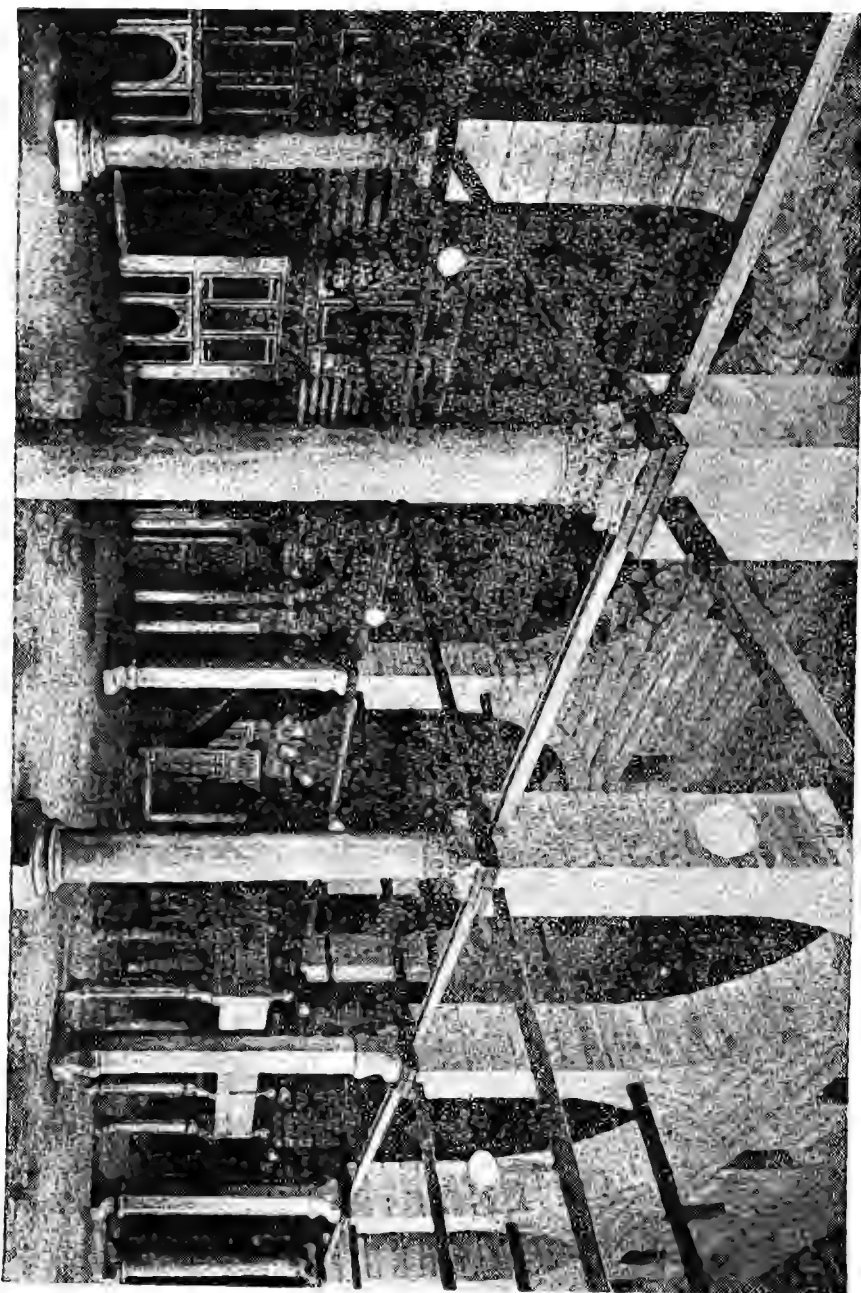
وقد طالت حياة أنس حتى شهد ولده الذى بيع بالأمس فى سوق العبيد ، وهو يرقى عرش مصر ويرسى فيها قواعد دولة الشراكسة (١) ..

(١) لسادتنا مؤرخى العرب الاوائل تخريجات طريفة فى تفسير معنى « شراكسة » هذه ، اذ يقولون انهم جنس من البشر ، أبوهم الاول هو (جبلة بن الايهم) وهوفارس عربى عملاق من غسان ، أسلم أيام عمر ابن الخطاب .. ووفد فى موسم الحج ليحيط بالبيت ، وكان له كساء بلغ من طوله انه كان يسبح الارض أثناء سيره ! !

ولقد حدث خلال الطواف أن تعثر اعرابى بكساء جبلة ، ففضب ولطم الاعرابى لطمه أفقدته احدى عينيه ، فأسرع الاعرابى يحتكم الى عمر الذى قضى بأن العين بالعين وأن الدية غير مقبولة مهما عظمت قيمتها .. فلم يجد جبلة الا أن يهرب من القصاص الى الشام ، حيث ارتد عن الدين وكسب لنفسه فوق اسمه صفة جديدة اشهر اليه بها وهى : أن الرجل الذى « جر وراءه كساء الطويل » حتى لقد عرف باسم « جركساء » ! !

وقد رحل « جركساء » بعد ذلك الى القسطنطينية حيث تزوج امرأة من الترك ، استولدها أبناءه الذين عرفوا باسم « الجراكسة » و « الترك » ..

أما مؤرخو الغرب ، فيقولون : ان الجراكسة هم بعض نسل « يأجوج وماجوج » ، وقصد تركهم «الاسكندر الاكبر» خارج «السند» عندما بناه .. فسموا من أجل ذلك « الترك » ، أى الذين تركوا خارج السند العظيم ! !



جامع السلطان اليزيد - انشاء السلطان الملك النور الدين ابوالمعالي شيخ المعهودي باحد ممالك الظاهر برفق جرسي الاسد، وقد الى القاهرة اول سنة ٧٨٣ هـ فاستسكنه موصود النوري تاجر المماليك - وذلك عرف بالمعوضي نسبة اليه - وقدمه الى الظاهر برفق وقت ان كان اياما فاعتقه وعلمه الكروية بانواعها وفيه في جهلة وثائق طال بترقيتها حتى ول مائة الف سنة ٨١٥ هـ ، ١٤١٢ م . وكان موقع هذا الجامع املا سجننا يسمى « خزائن شهاب » سجن فيه النوردي وقت ان كان اميرا فلقد ان اتاه الله ملك مصر ان يبنى مكانه مسجدا فبنيه مالا راد ووقى ببلده

وبرقوق كان رجل خير وصلاح ، وان لم ينس - رغم حبه للخير وصلاحه - صفاته كمملوك مغامر ، عليه أن يحترس من أخص أصفياه ، ومن غيرهم من أمراء الممالك الذين يتطلعون أن يكون لهم مثل مركز الظاهر برقوق ..

فسلطنة برقوق الشرکسی اذن ، لم تختلف في شيء عن سلطنة من سبقوه من سلاطين « البحرية » : فتن ، وتحزب ، ومؤامرات للوثوب على السلطان .. لعزله .. أو سجنه .. أو قتله اذا لزم الامر ..

وكما كانت الحياة رخيصة أيام سلاطين الممالك البحرية - كذلك كانت الحياة هي نفس الحياة الرخيصة أيام حكم السلطان الشرکسی الاول ، الذي لم يلبث أن ثار عليه خلصاؤه ، وخاصته ، وتحزبوا ضده وحاصروه في قلعة الجبل ، وعجز عن مقاومتهم ، فخلع ملابسه السلطان وخرج من قصره متنكرا ليهرب وينجو بحياته ..

وظل برقوق مختفيا بضعة أيام ، أعاد المتآمرون خلالها السلطان «أمير حاج» القلاووني الى العرش مرة أخرى .. ثم تمكنوا من القبض على برقوق فسجنوه ، ثم ترفقوا به فنفوه الى الكرك ..

وفي « الكرك » ، الذي يعتبر حصن « الحظ » بالنسبة لكل من نفى اليه من السلاطين - استطاع برقوق أن يسترد مكانته ويعظم شأنه ، وأن يخرج في جيش لاسترداد ملكه في مصر .. وأن يعيد مرة ثانية الحكم الشرکسی ..

وقد استطاع الظاهر برقوق بعد عودته تلك أن يقبض على ناصية الامور بيد من حديد ويحول دون الطامعين وما يريدون .. وأن يبقى مستقرا في دست الحكم حتى نهاية عمره وبرقوق قد بدأ عهده أول مابداً بالتشبه بمن سبقوه من سلاطين الممالك البحرية ، بأن اتجه الى العمارة وتشييد المساجد .. وكان الازهر أول مسجد مسته يد الاصلاح واتجاه السلطان الظاهر الى الجامع الازهر ، لم يكن للاصلاح البنائي .. وانما قصد منه التنظيم الاداري بوصفه مدرسة جامعة .. والاشراف الفعل على تلك الادارة ..

وبرقوق هو أول من عين للزهر « ناظرا » ، ولم تكن هذه الوظيفة معروفة من قبل .. وكان المقصود من أنشائها « تركيز ادارة » الجامع المتيد ، وتثبيت حلقات الدراسة فيه ، وترتيب « الجراية » في يد مسئولة تعرف كيف تسوس الامور .. و « ناظر » الجامع الازهر - بحكم وضع السلطان برقوق له ، كان رجلا « اداريا » ، لا دخل له بشئون العلم والدين ، لان هذه الامور كان يتولاها خطيب المسجد وامامه وكبار العلماء ..

وأول « ناظر » للزهر كان مملوكا اسمه الامير « بهادر » .. وأول عمل باشره استصدار مرسوم سلطاني ، يقضى بأن من مات من « مجاوري » الازهر ، دون وريث شرعى يرث ماتركه ، فان ميراثه يؤول كله الى زملائه « المجاورين » معه ..

وبعد أن نظم برقوق شئون الازهر الادارية ، اتجه اليه اتجاه المصلح الراغب في العمارة والبناء .. فاهتم أولا بمئذنة الجامع العتيق التي وجدها قصيرة لا تتفق ومكانة المسجد وشهرته فكان أن أمر بهدمها وأقام بدلا منها منارة سامقة صرف على اقامتها من جيبه الخاص ما يقرب من الخمسة عشر ألف درهم ..

واحتفل السلطان رسميا بافتتاح هذه المنارة .. وعلق فيها القناديل العديدة ، حتى بدت وكأنها تسبح في محيط من النور ..

وأمر برقوق بجمع أهل العلم والقراءات في تلك الليلة في صحن الجامع الازهر ، حيث قامت شبه مباراة في القراءة والانشاء والأذان ..

وقد اتجه الظاهر برقوق بعد أن زال شبح الحرب التي كاد يشنها « تيمور لنك » على الشرق - الى الاصلاحات الكبرى ، فجدد عمارة ثغر دمياط ، وحسن ثغور الاسكندرية ، وجدد بناء خزائن السلاح فيها .. ثم جدد اصلاح القناة ذات العيون ، التي كانت تحمل الماء من النيل الى قلعة الجبل .. وأمر باعادة سور ميدان القلعة ، حيث بنى هناك مكتبا للعلم و « سبيلا » للظالمين من عابري الطريق ..

وكعادة سائر السلاطين الذين حكموا مصر وعمروها بالمساجد ، أراد برقوق أن يكون له أيضا مسجد عظيم ينسب اليه ، ويتقرب عن طريقه الى الله .. فكان أن شرع في بناء مسجده المعروف بين القصرين ..

ومسجد الظاهر برقوق ، أو مدرسته الشهيرة - أقيم في مكان كان يعرف باسم « خان الزكاة » ، وهو بناء أقيم في جزء من أحد القصرين اللطامين الشهيرين .. وهو القصر الصغير ..

وقد أزال برقوق « خان الزكاة » وسوى مكانه وأعد الأرض الفسيحة لاقامة مسجده و « خانقاه » الملحقة به .. وبدأ العمل فيه في أواخر عام ست وثمانين وسبعمائة هـ ..

ويمتاز بناء مسجد برقوق بحجارته التي لا مثيل لها لضخامتها بين مساجد القاهرة ، وقد أعد لنقلها من الجبل عربات خاصة تجرها « العجول » حتى لقد أطلق على تلك الحجارة اسم « الحجارة العجالي » ..

وقد وضع تصميم مسجد برقوق وأشرف على تنفيذه معلم المعلمين « شهاب الدين أحمد بن الطولوني » ، وكان مهندسا مدربا واسع الخبرة في بناء المساجد وتجميلها ..

وأشرف على عمارة المسجد وباشر شتى شئونها الأمير « جركس الجليلي » مملوك السلطان ..

ومسجد الظاهر برقوق من المساجد الفخمة ، التي أفرغت في بنائها خلاصة عبقرية الفنان المصرى .. وتبدو روعة هذا العمل الفريد في واجهة المسجد الشرقية ،

التي ينتهى طرفها الجنوبي بباب المسجد الرئيسى المكسو بالرخام ، والمحلى بنقوش وكتابات بديعة ، ومصراعه بالنحاس المفضض ..

ومنارة مسجد برقوق تعتبر آية من آيات اتقان الصناعة ، وتقع فى الطرف الشمالى للمسجد ، تجاورها قبة ..

وواجهة المسجد زاخرة بالزخارف ، مليئة بنوافذ ذات أشكال منمقة ، ودلافات خشبية ..

أما المسجد من الداخل ، فقد روعي فى تصميمه أن يكون على شكل « مدرسة » ، فصحنه الواسع تحيط به ايوانات أربعة ، أدقها ايوان القبلة ، الذى فرشت أرضه بالرخام ، وبنت مقدمته على هيئة محاريب مشابهة للمحاريب التى بنيت فى « خانقاه » الظاهر ببيرس الجاشنكير ..

واستغرق العمل فى بناء هذا المسجد عاما كاملا .. وافتتح رسميا فى حفل رائع حضره السلطان الظاهر برقوق بنفسه ، واجتمع بالمسجد يومها قضاة المذاهب الأربعة ، وجميع الأمراء وكبار المقرئين ..

وأمر السلطان بإقامة وليمة حافلة مد فيها سمطا عظيما ، وأمر بأن تملأ النافورة التى بصحن المسجد بشراب الليمون ، ليشرب منه الحضور جميعا ..

وقد خلع برقوق فى يوم افتتاحه خلعته السنية على الأمير جركس الخليلي ، فرفاه إلى رتبة « أمراخور » كبير ، أي مشرف على « الاسطبلات السلطانية » وملحقاتها .. وخلع على « مهندس » المسجد وبانيه المعلم الشهاب « أحمد الطولوني » بعدة « قبائح » وأركبه فرسا بسرج ذهبى وكنبوش ..

ووهب المنح لخمسة وعشرين مملوكا من مماليك الأمير جركس .. ولم ينس المرخين والعمال والمزخرفين والنقاشين ، فوهب كلا منهم خلعة .. أما « الفعلة » فقد نال كل واحد منهم « أشرفيين » ..

وعين السلطان فى ذلك اليوم شيخا لمسجده هذا ، هو « علاء الدين السيرامي » وأضاف إليه فوق مهام منصبه هذا وظيفة تدريس المذهب الحنفى ..

وكان حفل افتتاح مسجد برقوق مناسبة لطيفة تبارى خلالها الشعراء وأهل الفن ، وقيل فيها شعر لعل أجمله ما قال ابن العطار :

فأقت على « أرم » مع سرعة العمل	قد أنشأ الظاهر السلطان مدرسة
صم الجبال لها تسعى على عجل !!	يكفى الخليلي أن جاءت لدعوته

وقال أيضا :

هنيت بالمدرسة الفائقه	قل للمليك الظاهر المرتضى
فيالها من مدرسة خانقه !!	خنقت حسادك قهرا بها

وحدث بعد أن تم بناء المسجد أن مات الشرکسى « أنس » والد برقوق ، فدفن في ذلك المسجد .. كما دفنت هناك أيضا زوج السلطان وولده ..
أما برقوق .. الذى شاد وبنى ، فقد أوصى عند موته بأن يدفن في أحد بين الفقراء !! فنفذت وصيته بدقة ، ولم يدفن في مسجده هذا خالفا في ذلك من سبقوه من سلاطين المماليك ..

وقد أوصى السلطان الظاهر برقوق في جملة ما أوصى به بعد موته ، أن يخلفه على عرشه أولاده الثلاثة ، على التوالى وهم : المقر الزينى فرج ، ثم المقر العزى عبد العزيز ، ثم المقر الصارمى إبراهيم ..

وقد نفذت وصية برقوق ، فتولى العرش من بعده مباشرة ولده فرج باسم « السلطان الملك الناصر زين الدين أبى السعادات فرج بن برقوق » ..
وقد تعرض فرج لما تعرض له أبوه برقوق .. فترك السلطنة هاربا ليتولاه من بعده أخوه المقر المعزى باسم « المنصور عز الدين أبى العز » ..
ولكن فرج مالبث أن عاد وتسلم السلطان من جديد ..

ولم يكن « فرج » على غرار أبيه في شيء .. كان عابثا ، مستهترا ، سكيرا ، سفاحا محبا للفدر .. حتى لقد تأمر عليه ممالك أبيه ، بزعامة الاتابكى « شيخ » ، فحاربهم وطاردتهم وتبعهم الى الشام وانتصر عليهم في موقعة دامية ، أراد بعدها أن يواصل هجومه ليقضى عليهم القضاء الاخير .. وكان وقتها ثملا لا يستطيع أن يقوم على قدميه ، ولكنه أقسم أن يحارب .. فتركوه ليتقدم ممالكه وينال الهزيمة النكراء ، فقبض عليه ثم سجن .. وقتل !!

ورأى الاتابكى « شيخ » ، بعد أن خلت السلطنة من صاحبها ، ألا يليها هو .. ولا زميله نوروز .. وأن يكون السلطان الجديد هو الخليفة العباسى « المستعين بالله »

وعلى هذه الصورة الأليمة دالت دولة ورثة برقوق وذهبت ريجها .. واستطاع فرج الماچن السكير أن يسود صحائفها ، وينترك الذکرى السيئة و .. « خانقاه » تعد من أجمل الاعمال البنائية في عهد السلاطين الشراكسة ..
و « خانقاه » فرج بن برقوق ، كانت عملا تخليديا أحب « فرج » الابن ، أن يقدمه لآبيه الظاهر برقوق !!

كان برقوق قد أوصى أن يدفن بين الفقراء في الصحراء في قطعة أرض منعزلة بعيدة — كما سبق القول — سورها خلال حياته .. ودفن فيها كثيرون من خاصته ، كما دفن فيها بعض العلماء وأهل الفضل ، ومنهم الشيخ السيرامى شيخ مسجد الظاهر برقوق نفسه ، والشيخان : اليمانى ، وطلحة ..

وقد نفذ المشرفون على وصية الظاهر برقوق وصيته .. ودفن في ذلك المكان الصحراوي البعيد في لحد متواضع كما أوصى ..

ثم أراد الابن فرج ، ومن بعده الابن الثاني عبد العزيز - أن يكرما ذكرى أبيهما ، فكان أن أقدم أولهما على بناء تلك الخانقاه في الفضاء الذي سوره الأب .. ودفن في لحد فيه ..

والتاريخ يذكر أن « خانقاه » فرج بن برقوق ، لم يتم بناؤها في عام كمسجد أبيه ، بل في اثني عشر عاما ، اذ بدى بالعمل فيها عام واحد وثمانمائة وتم في نهاية اثني عشر وثمانمائة . وكان المشرف على بنائها هو الامير « لاجين الطرنتاي » ..

وقد بلغ من تحمس فرج لهذه « الخانقاه » التي أقامها على قبر أبيه - أن أحب أن يجعل منها نواة لعمران أرادته في ذلك المكان المقفر غير المسكون .. فكان أن شجع على إقامة البناء حولها ، وأراد بذلك أن ينشئ مدينة حاوية لكل أسباب الاستقرار والعمران .. ولكن ظروفه وسيرته لم يمهلاه لانتمام هذا المشروع الخطير ..

و « الخانقاه » بعد هذا آية من آيات الدقة الصناعية والزخرفة الفريدة ، بنيت بالحجر الدقيق ، وهي خالية من جهاتها الاربع ، ولها بابان ، أحدهما تزينه «مقرنصات» غاية في الدقة ، والى جواره «سبيل» للعطاشي ، يعلوه «مكتب» لتعليم فقراء المسلمين القرآن .. ويفضي هذا الباب الى شرفة ذات عقود حجرية ..

والباب الثاني بنى على نمط الباب الاول ، اذ يجاوره «سبيل» ، أعلاه «مكتب» يشابه المكتب الاول ..

وبين البابين أقيمت منارتان من أجمل وأبدع المنارات .. وهناك قبة كبيرة وأخرى صغيرة فوق المحراب .. أما القبة الكبيرة فنقوشها تعتبر تحفا فنية لا نظير لها ولا شبيهه ..

وإلى الخانقاه من الداخل لها صحن متسع تحوطه أيوانات أربعة ، فوق كل واحد منها قبة صغيرة ، تقوم كل منها على قواعد حجرية مثمنة ..

والقبة الكبيرة خصصت ضريحا للظاهر برقوق وأولاده ، وقد كسيت فتحاتها بالخشب المجمع المتشابك في أشكال هندسية دقيقة ، وجدرانها ومحرابها مكسوان بالرخام الملون ، ونقش عليها اسم « المنصور عبد العزيز بن برقوق » .. والقبة الثانية ، ليست أقل فخامة من القبة الاولى ، وقد طليت جدرانها من الداخل باللون الاسود ، وخصصت لدفن سيدات الاسرة البرقوقية ..

ولطالما تمنى فرج بن برقوق لو يكون مثواه في « خانقاه » هذه الى جوار أبيه .. ولكن القدر أبى أن ينيله هذه الأمنية ، فمات قتيلا في ديار بعيدة .. ودفن في مكان مجهول ، وصدق عليه قول الله جل وعلا :

« وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي ارض تموت » .. وهكذا تولى زمن برقوق وولديه .. ودخلت مصر من بعدهما في حكم الخليفة

العباسي ، الذي لم يكن طوال العصور المملوكية أكثر من رمز صوري ، يعزز وجود السلطان الفعلي ، وهو المملوك الجريء مفتصب الحكم ..

ولم يكد الخليفة يتسلم رسمياً سلطانه ، حتى أكد الاتفاق الذي تم بين الاتابكي شيخ ، وصاحبه « نوروز الخافطى » فاستقر بأولهما « أتابكا » على مصر ، ومديرا لشئون المملكة ، واستقر بالثاني نائباً على الشام ، وأضاف اليه جميع خراج البلاد الشامية ، وحكم البلاد من « غزة » الى « الفرات » ..

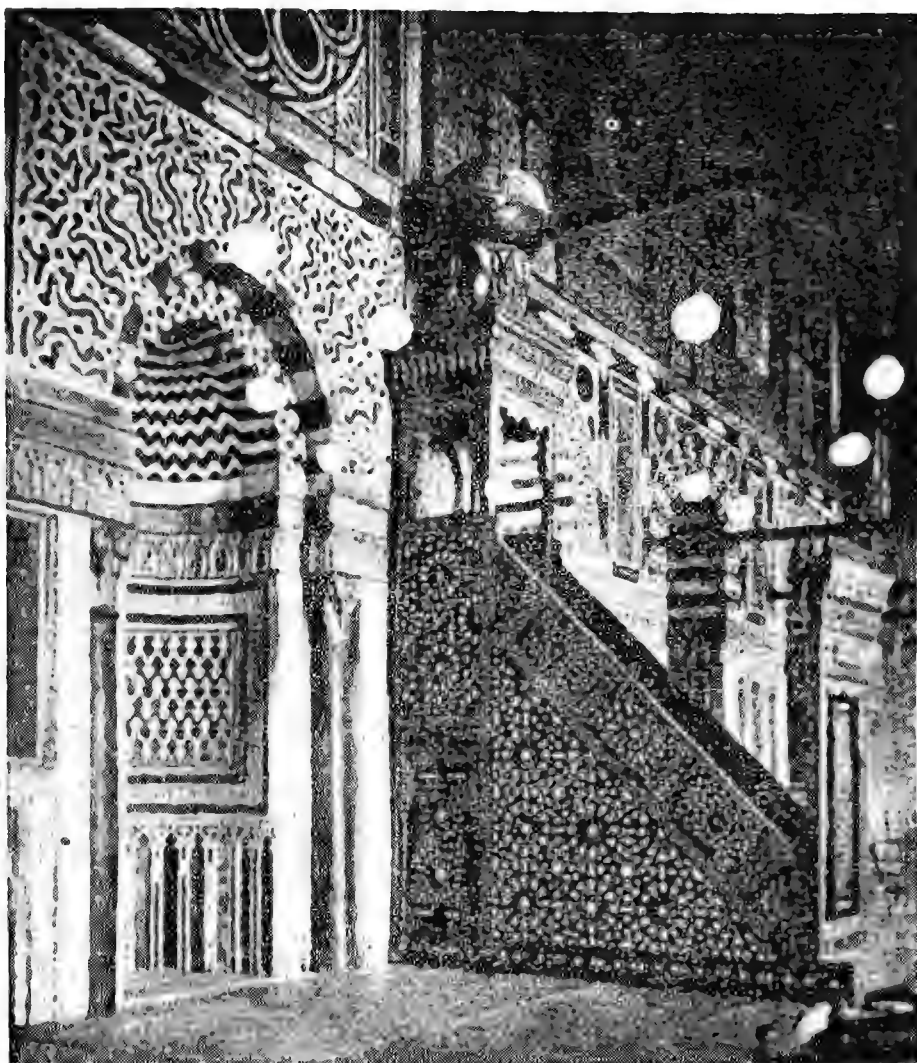
وصعد الخليفة السلطان الى قلعة الجبل لأول مرة في تاريخ الخلفاء العباسيين في مصر ، وجعلها مقراً لحكمه .. في الوقت الذي أبى فيه الاتابكي شيخ المحمودى أن يتركه ، خشية أن توسوس له نفسه بأن يستأثر بالسلطان ، فأقام على مقربة منه عند باب السلسلة ..

وكان شيخ المحمودى - بوضعه هذا الذي فرضه ومسكنه القريب من مسكن السلطان ، رقيقاً فعلياً على الرجل الضعيف الذي أرادوه في مركز لم يكن صاحبه ، فكان يلقي أول ما يلقي القادمين ويوجههم ، ثم يقابل الخارجين من حضرة السلطان فينصصهم ، ويشعرهم جميعاً بأنه لم يزل الاتابكي صاحب السطوة والجاه والسلطان الحقيقي !!

ومرت على هذه الاوضاع غير المستقيمة فترة يسيرة من الزمن .. برم شيخ المحمودى خلالها بكل شيء وكره أن يكون تابعاً لتابع سابق له .. وعاد يرسم من جديد خطته لطرد الخليفة العباسي المستعين بالله ، لينفرد هو بحكم مصر ، ويكون فيها السيد الاول المقدم على الجميع !!



احدى مشكاوات مسجد السلطان حسن

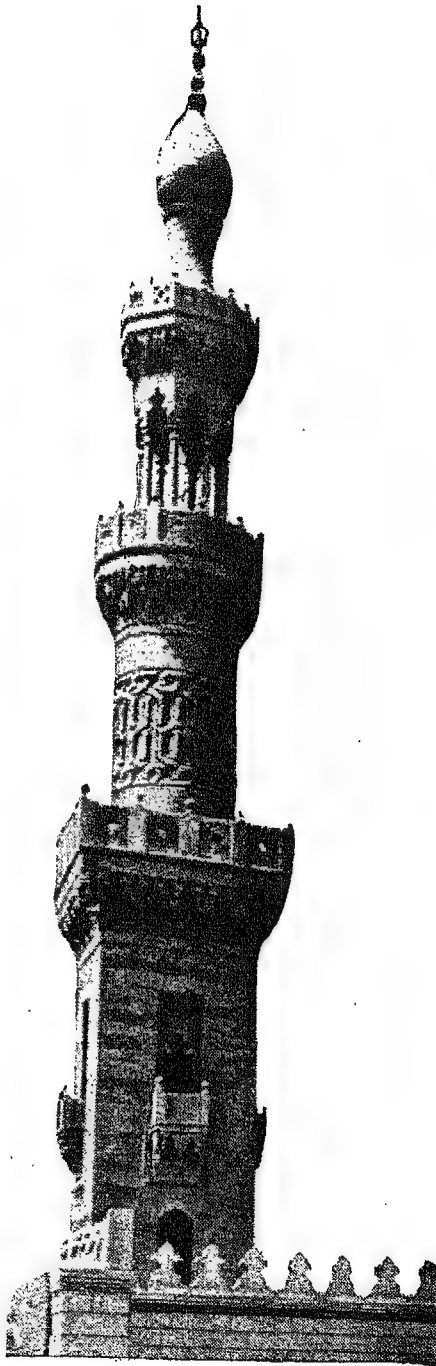


« منبر وحراب جامع السلطان المؤيد أبو النصر شيخ الحمودى »

يعتبر جامع السلطان المؤيد من الجوامع الكبيرة التى بولغ فى تزيينها وتجميلها - شرع فى إنشائه الملك المؤيد سنة ٨١٨ هـ ، ١٤١٥ م بجوار باب زويلة بشارع المعز لدين الله وأتمه سنة ٨٢٣ هـ ، ١٤٢٠ م وقد تجلت دقة الصناعة وبراعة التطعيم فى منبر الجامع الخشبي، ومحرابه الرخامي الرائع وتناسب الألوان فيه ، وقد استطاع الفنانون المصريون - بإشراف الأمير فخر الدين - تجميل محرابه الرخامي بعد أن نقلوا إليه عمودى محراب مسجد « قوصون » كما نقلوا إليه أيضا باب مسجد السلطان حسن لأنه كان من أجمل الابواب المزخرفة بالنحاس وأدقها لنا ..

كما بالفسوة فى النقوش التى تزين الاسقف وما تظللها من تذهيب رائع أضاف الى تنوع تصميماتها جمال ألوانها وتجانسها ..

وقد كان للجامع مكتبة قيمتومدرسون عينوا لتدريس العلوم الدينية ابتداء من سنة ٨٢٣ هـ ، ١٤٢٠ م - أى بعد اتمام بنائه مباشرة .



المؤيد

واخيرا .. انتصر الاتابكي ونودى به
حاكما على مصر باسم « السلطان الملك المؤيد
أبي النصر شيخ المحمودى »
وكان أبو النصر جريئامقداما ، ذا سطوة
وقوة ، لا يهاب ولا يرهب ..

وقد أثار خلعه للخليفة شريكه القديم
« نوروز » الذى تفرد بولاية الشام ، ووجد
فى اعلان المؤيد نفسه سلطانا على مصر ،
نقضا لعهد قديم أبرماه معا .. فكان أن
خرج على طاعة المؤيد ووقف منه موقف
العدو المتربص للحرب والانتقام ..
ولقد سخر المؤيد من جراءة « نوروز »
وأعد لكل احتمال عدته ..

وبدأ ، بعد أن عزل الخليفة العباسى من
منصبه السياسى - بعزله من منصبه الدينى
الرمزى ، فجرده من شارات الخلافة ..
وبالغ فى السخط عليه فأرسله الى سجن
الاسكندرية ، ليقتضى هناك بقية عمره ..
ونصب أخا للخليفة اسمه « داود » خليفة
بدلا منه

وبلغ الخقد مداه من « نوروز » لأن شريكه
القديم لم يستطع أن يحفظ العهد لأكثر من
سنة أشهر ، سطا بعدها على العرش وتفرد
بالسلطان ..

ولم يكن المؤيد من الضعف بحيث يدع « مئذنة السلطان برقوق بقرافة المماليك »
نوروز وشأنه حيث هو بالشام ، غير معترف بما حدث ، مضرا على الاعتراف بسلطان
الخليفة المسجون ، مصمما على الخطبة باسمه فى المساجد ..

فكان أن خرج اليه فى جيش لب ، حيث دارت بينهما واقعة رهيبة ، وقف النصر خلالها الى جانب المؤيد ، فبدد قوات نوروز وقبض عليه ، ثم قتله ففضى على دولته وأحلامه وسلطانه ..

وسلطنة المؤيد على مصر لم تفترق فى شئ عن سلطنة من سبقوه من ممالك البحرية والبرجية : مؤامرات ودسائس ، ونجاح فى القضاء عليها .. ثم امعان فى الاستقرار .

وأظهر عمل خلد به المؤيد نفسه كان بناء مسجده العتيد المجاور لباب زويلة .. ولئن كانت دولة المماليك البحرية ، تفخر بالمدرسة التى أقامها السلطان الناصر حسن كالطود فى مواجهة القلعة ؛ فان دولة المماليك الشراكسة تباهى بالمسجد العظيم الذى أقامه السلطان المؤيد شيخ ..

والغريب فى أمر اختيار هذه البقعة الضيقة بالذات ، لتكون مسجد السلطان المؤيد يرجع الى قصة قديمة ، بدأت عندما قام الأمير « منطاش » بفنتته ضد سيده برقوق - يوم هرب من قلعة الجبل ؛ تاركا السلطان ، ومع السلطان مماليكه الموالون ، وفى جملتهم المملوك الامين « المؤيد شيخ » ..

وقبض منطاش على المؤيد فى جملة من قبض عليهم ، وألقى به فى « خزانة شمائل » وهى سجن رهيب أقامه فى العصر الايوبى رجل اسمه « شمائل » (١) - فى نفس مكان مسجد المؤيد الحالى ..

ولقى المؤيد فى « خزانة شمائل » كل هول ورهبة ، حتى لقد نذر الله ان أنقله من هذا السجن وأعطاه ملك مصر ، ليهدم « خزانة شمائل » ، وليقيم مكانها مسجدا جامعا ، يبرز مساجد المتقدمين والمتأخرين جميعا ..

ولعب الحظ دوره فى حياة المؤيد شيخ .. وواتاه الملك ، فكان أن فكر فى الوفاء بالنذر - وأمر بأن تهدم فوراً « خزانة شمائل » .. الرهبة ذات الذكريات الاليمة وأن يقام مكانها مسجده الشامخ ، ليكون بيتا لله ، يذكر فيه اسمه .. ويكون فى ذات الوقت دارا للعلم ومدرسة .. يبدد عن طريقها ظلمات الجهل ، وينتشر العلم النافع المفيد ..

ولقد أمر السلطان المؤيد شيخ بأن يبدأ العمل فى بناء مسجده العظيم فى جمادى الأولى من عام ٨١٨ هـ ، بعد أن أشهد على نفسه أنه أوقف ذلك المسجد الجامع لله تعالى وحبس عليه أرضا وعقارا فى مصر وبلاد الشام ..

ولم يكد يتم حفر أساس المسجد العظيم حتى سارع البناؤون فى اقامة الجدران . وبلغ عدد المشتغلين فى تشييد الجامع ثلاثين بناء ومائة فاعل .. وظل هذا الحشد

(١) هو أحد المغامرين فى عصر الصالح نجم الدين أيوب ، وكان يتجسس على الفرنسيين فى حملة المنصورة ويعود الى السلطان بالآخبار فقربه منه ورقاه الى اعلا المناصب .. .

العظيم يعمل دون انقطاع وفي همة طالما شحذها اهتمام السلطان بمسجده واغداقه
الأعطيات على العاملين فيه لتشجيعهم .

وقد استطاعوا بتشجيع السلطان - الفراغ من اقامة البناء في فترة وجيزة ٠٠ التفت
السلطان بعدها الى زخرفة مسجده وتجميله ٠٠ قطب الرخام بجميع أنواعه وألوانه
وصفاته ، واتجه رجال السلطان الى الدور ذات الشهرة التاريخية ؛ فاقتلعوا ماكان
يحليها من أعمدة الرخام وألواحه ٠٠ فلما لم يكفهم ذلك شرعوا فى هدم «مسجدالاقدام»
بحجة بعده عن العمران وتهدمه ، وانصرف الناس عن اقامة الشعائر فيه ٠٠ ولم يكن
كذلك !!

ثم حملوا ماكان بهذا المسجد من أعمدة وألواح رخامية الى مسجد السلطان المؤيد
وأعجب السلطان بعد هذا بالباب العظيم المقام بمسجد السلطان حسن فأمر بأن
يحمل الى مسجده هذا ٠٠ وحمل معه أيضا « تنورا » نحاسيا عظيما دقيق الصناعة ٠٠
وبرر عمله هذا بأن ادعى شراء « الباب والتنور » بثمن صوري هو خمسمائة دينار !
ومبالغة من المشرفين على العمل فى مسجد المؤيد ورغبتهم فى تجميل محرابه ، نقلوا
اليه محراب مسجد « قوصون »

ورأى الامير « فخر الدين » المشرف على عملية البناء ، أن تكون للمسجد ميضأة مستقلة
فاشترى دارا مجاورة ، هدمها وشرع فى بناء الميضأة ٠٠

ولما كانت بعض جدران المسجد مجاورة لباب زويلة ، فقد رأى مهندسوه أن يستعينوا
بالباب التاريخي الاشهر ، ويستغلوا مجاورته للمسجد . فبنوا فوقه مئذنتين ٠٠ برغم
مافى هذا من عدوان على التاريخ ، والفن المعمارى نفسه ٠٠

ولقد حدث أن مالت إحدى المئذنتين المقامتين على بدنة هذا الباب « باب زويلة » ورؤى
هدمها ، فوافق السلطان على ذلك وبسئ فى هدمها ٠٠ واذا بحجر يسقط منها على أحد
الآبنية المواجهة ، فيقتل رجلا ٠ وعندئذ رؤى اغلاق باب زويلة وتحريم المرور منه مدة
شهر كامل ٠٠

وقد أثار حادث سقوط منارة مسجد المؤيد ، خيال بعض الشعراء ، فنظموا فيه شعرا
كان أطره مانظمه شمس الدين الجوجرى اذ قال :

منارة لثواب الله قد بنيت

فكيف هدت ؟! فقالوا نوضح الخبرا :

أصاب العين أحجارا بها انفلقت

ونظرة العين قالوا تفلق الحجر !

وأمر الملك المؤيد بعد هذا بأن تنقل من القلعة مكتبة عامرة بالمصنفات الى مسجده
الجامع ٠٠ ولم تكد تحل سنة ٨٢٠ هـ ، حتى بدأ المؤيد يرتب أعمال مسجده الجامع ،
فجعل فيه ثلاثة دروس للشافعية والمالكية والحنابلة ، وخلع على المشايخ المشرفين على
هذه الدروس خلعا عظيمة .

وأول من جلس للدراسة في مسجد السلطان المؤيد كان الفقيه « ابن حجر » ، وقد جلس يومها في المحراب ، ليلقى درسه - وكان المؤيد يومها في جملة الحاضرين ، فأحب الفقيه أن يقوم له ساعة أهل على الحلقة ولكن السلطان منعه من القيام ..

وافتح السلطان بعد ذلك مسجده رسميا في شوال من ذلك العام ، فمد سـمـاطا عظيما ، وملاء نافورة المسجد بعصير الليمون المحلى بالسـكر - جريا على عادة من سبقوه .. ودعا الناس الى طعام وشراب ، فأقبلوا من كل حدب وصوب ، وأكلوا وشربوا ما طاب لهم .. ثم حملوا ما استطاعوا حمله الى بيوتهم من طعام وشراب ..

وخلع المؤيد يوم افتتاح مسجده خلعا عديدة على الحضور ، فكان نصيب القاضى الحنفى « شمس الدين محمد الديرى » « كاملية » صوفية بفرو سمور ، واقاراره فى مشيخة التصوف وتدريس المذهب الحنفى . وقد تصدر يومها مجلس الافتتاح فجلس فى المحراب ، والسلطان عن يمينه ، والامراء وقاضى القضاة وشيوخ العلم عن يساره ..

والمؤيد شيخ كان من أوائل المماليك الذين أوقفوا على مساجدهم « الجراية » و« النقود » .. وحدد فى « وقفته » كيفية التصرف فى ايراد الاحباس العديدة التى أوقفها ومن هم الذين يستفيدون منها .. وبلغ من دقته أن رتب فى وقفته هذه عبد المشايخ من كل مذهب وعدد الطلاب وعدد القراء وعدد الموظفين الاداريين الآخرين ..

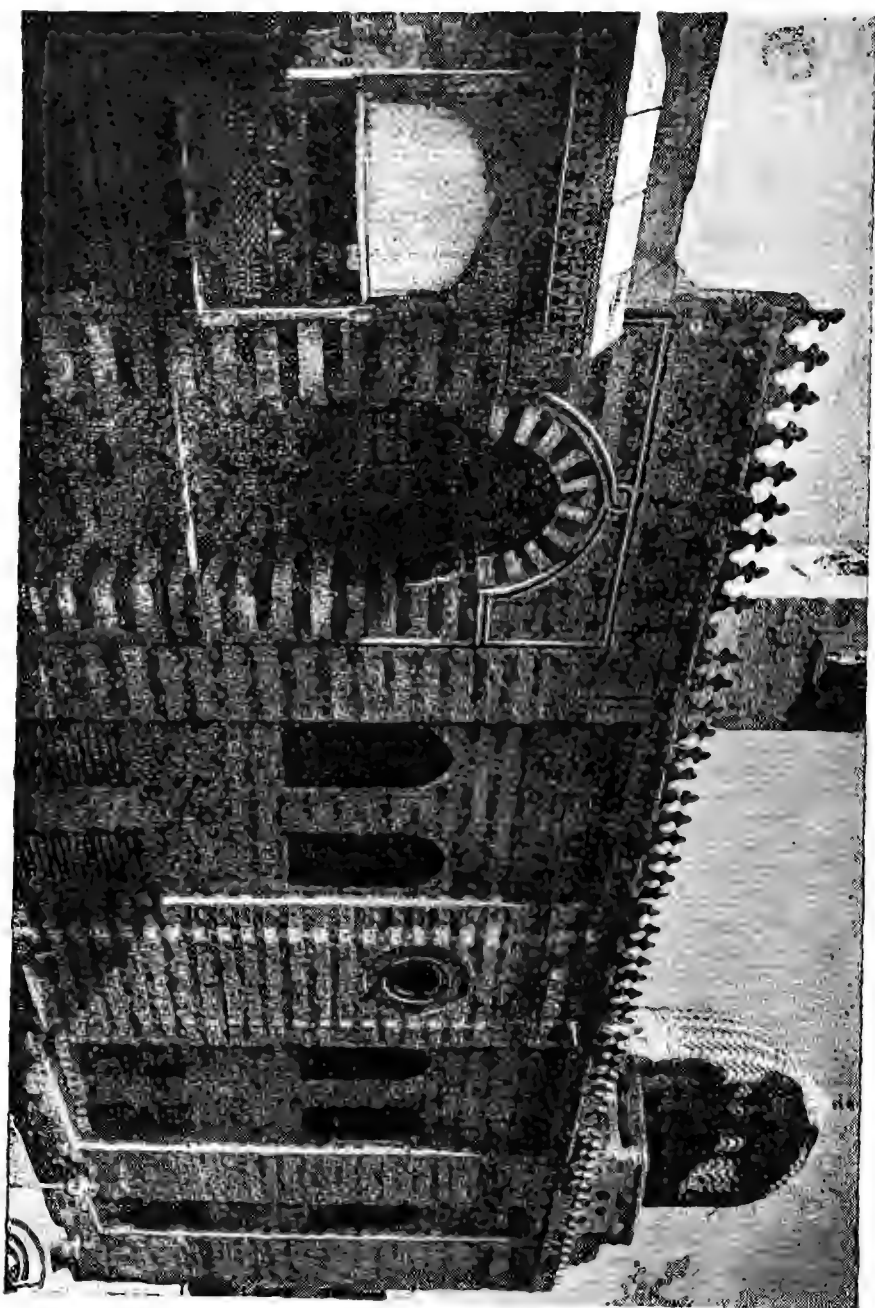
وقد يكون من الممتع أن ننقل هنا طرفا من نص هذه « الوقفية » الفريدة ، التى جاء فيها ، بعد ذكر الاعيان المحبوسة نفسها :

« ويرتب شيخا للصوفية يكون حنفيا عالما له قدم عال فى طريق التصوف حسن الهيئة حسن الاعتقاد حافظا للمنقول والتأويلات واختلاف المذاهب ، له قدرة على حل المشكلات واقامة الادلة وتسهيل العسير ، ويكون قائما بتدريس مذهب أبى حنيفة بهذا الجامع ، ويحضر وظيفة التصوف بهذا الجامع كل يوم بعد العصر على عادة الخوانق والجوامع ويصرف له كل شهر من الفضة البيضاء خمسمائة وخمسون نصفا أو مايقوم مقام ذلك من النقود ، ويرتب معه خمسون طالبا حنفيا ويحضرون أيضا درس التصوف ، ولكل منهم شهريا أربعون نصفا فضة وكل يوم أربعة أرتال من الخبز

« ويرتب شافعيًا بتلك الصفات وأربعين طالبا شافعيًا وللشيخ شهريا مائة وخمسون نصفا وللطالب أربعون شهريا ويوميا أربعة أرتال خبزا ويرتب مالكيًا معه خمسة وعشرون طالبا وللشيخ مائة نصف وللطالب أربعون شهريا وأربعة أرتال خبزا يوميا

ويرتب حنبليًا معه عشرة وللشيخ مائة نصف وللطالب أربعون نصف شهريا ويرتب محدثًا معه عشرون طالبا وله مائة وخمسون نصفا وللطالب أربعون وأربعة أرتال خبزا يوميا ..

مسجد ومدرسة الاشراف برساي بالاشرفية - انشاء سنة ١٤٣٦ هـ ، ١٤٣٣ م : السلطان الملك الاشرف سيف الدين ابو النضر برساي
 احد محاليل القاهر برفوق . بعد ان ولي ملك مصر بعام واحد . ولاشرف برساي مسجد آخر بالخاكة ومدرسة اخرى غير هـله . انشاء الى
 جوار قبلة السلطان القاهر برفوق لتكون قبرا له . . .



ويرتب مقرئاً للقراءات السبع والشواذ ومعه عشرة وله مائة وخمسون نصفاً وللطالب أربعون نصفاً شهرياً وأربعة أرتال خبز يومياً

ويرتب أربعة أئمة أحدهم بالمحراب في الايوان القبلي له شهرياً مائة وعشرون نصفاً ويومياً أربعة أرتال خبزاً ولكل من الثلاثة الآخرين ستون نصفاً .

ويرتب رجلين حافظين للقرآن بصوت حسن يقرأون في المصحف أحدهما كل يوم وله في الشهر أربعون نصفاً والآخر يوم الجمعة فقط وله ثلاثون نصفاً .

ويرتب بالشباك سبع عشرة جوقة ، كل جوقة سبعة أشخاص ، يتناوبون القراءة ليلاً ونهاراً ولكل منهم خمسة انصاف .

ويرتب كاتب غيبة له شهرياً خمسة عشر نصفاً وخطيباً وله مائة نصف

وخازن كتب بالجامع وله أربعون نصفاً ويومياً أربعة أرتال خبزاً

ويرتب سبعة عشر مؤذناً حسان الاصوات يؤذنون على المنارات الثلاث ولكل منهم شهرياً خمسة عشر نصفاً ولهم كاتب غيبة ، له شهرياً أربعون نصفاً ويومياً أربعة أرتال خبزاً

ويرتب خادماً لجماعة الصوفية على عادة الخوانق وله في الشهر ستون نصفاً وفي اليوم أربعة أرتال خبزاً

ويرتب شيخاً يشغل بالكتاب المعروف بالطحاوي ومعه عشرة طلبه وله مائة وخمسون نصفاً وللطالب أربعون نصفاً شهرياً

ويرتب خمسة رجال على خدمة « الربعات » على التناوب لكل منهم أربعون نصفاً شهرياً وأربعة أرتال خبزاً يومياً

ويرتب عشرة فراشين لكل ثلاثون نصفاً شهرياً . .

ويرتب سبعة وقادين لكل عشرون نصفاً

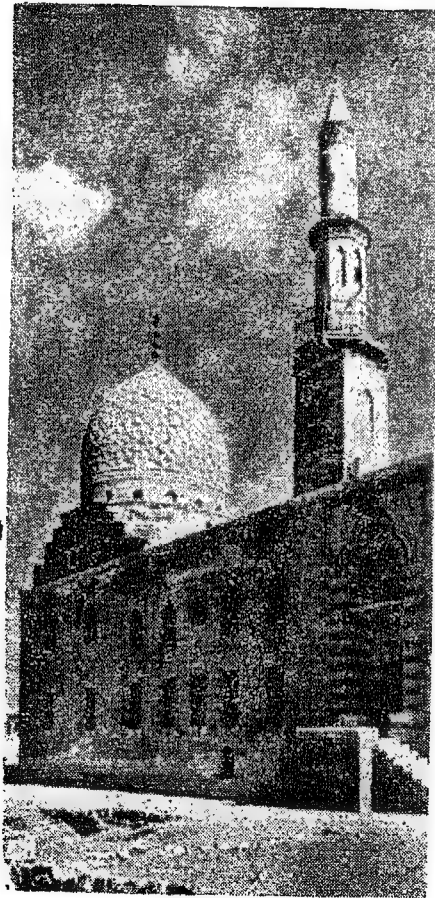
ويرتب رجلين لخدمة سجادات الصوفية لكل أربعون نصفاً . . «

وهكذا تستمر هذه « الوقفية » العظيمة الدالة على حب الخير في ذكر وجوه الخير ، وتعداد الوظائف ومراتب أصحابها حتى تصل في نهايتها الى ذكر « البوابين » و « الكناسين » و « الايتام من الاطفال » وتستمر كذلك دون أن ينس كاتبها ذكر « طبيب طبائعي » و « كحال » و « جرائحي » و « كاتب طبقة » و « مهندس » و « مرخما » و « سباكا » . . ولكل واحد من هؤلاء ثلاثون نصفاً في الشهر . .

ولعله يبدو من مرتب « الطبيب الطبائعى » وصاحبه « الجرائحى » أنهما كانا من فئة غير متميزة !!

وقد يبدو غريبا بعد هذا كله أن المسجد قد تم افتتاحه رسميا بحضور السلطان - قبل أن تكتمل سائر أبنيته ٠٠ وظل العمل فيها جاريا بعد ذلك حتى مات المؤيد ، فدفن في قبته هناك ٠٠ واستمر رجال دولته يعملون في اكمال الطود العظيم ، الذى حفظ اسم دولة المماليك الشراكسة على كر العصور .

مسجد الاشرف برسباى بصحراء المماليك



انشاه السلطان الاشرف برسباى سنة ٨٣٥ هـ ، ١٤٣٢ م بصحراء المماليك بجوار مسجد وخانقاه السلطان الظاهر برفوق ، وألحق به مقبرة له ، وهى مكونة من حجرة مربعة ، فرشت أرضيتها بالرخام البديع ، أما وزرتها الرخامية فهى دقيقة الصنع الى حد يفوق جميع ما صنع قبله فى المقابر الأخرى .

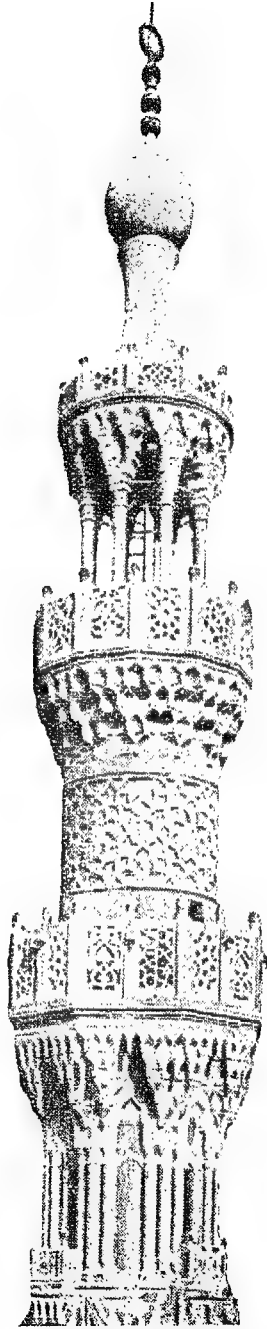
وأمام المحراب الموجود بالمسجد « تركيبة » من الرخام تعلو المقبرة التى دفن فيها الاشرف برسباى مع زوجته سنة ٨٤١ هـ ، ١٤٣٧ م

وهناك بالوجهة الغربية للمقبرة - كتابات تاريخية توضح الاملاك التى أوقفت عليها وخصص ريعها لصيانتها والانفاق على خدمتها .

وهذا المسجد أحد مساجد ثلاثة ما زالت باقية الى الآن ، وقد انشأ السلطان الاشرف برسباى أولها سنة ٨٢٦ هـ ، ١٤٢٤ م بشوارع المعز لدين الله عند تلاقيه بشوارع جوهر القائد ولانيها مسجده هذا الملحق به مقبرته وخانقاه بقراة المماليك والذى انشاه سنة ٨٣٥ هـ ، ١٤٣٢ م ، وثالثها جامع الكبير الذى انشاه به « خانقاه » عظيمة ببلدة سرياقوس سنة ٨٤١ هـ ، ١٤٣٧ م - وكلها فى منتهى الروعة والدقة فى الزخرفة وصناعة الرخام الملون خصوصا رخام المقبرة الذى بلغ منتهى العظمة فى هذا الفن الدقيق .

مسجد ومدرسة الملك الاشرف ابوالنصر
قايتباي الجركسي - قدم الى القاهرة مع
تاجره محمود بن رستم سنة ٨٣٩ هـ
فاستراه الاشرف برسباي ، ثم اشتراه
من بعده الظاهر جقمق واعتقه ، وعين
في عدة وظائف . اسعده الحظ بعدها
بملك مصر سنة ٨٧٣ هـ وظل في دست
الحكم حتى توفي ٩٠١ هـ ، ١٤٩٦ م





« منئنة جامع أبو بكر مزهر »

عهد الفوضى

كان السلطان المؤيد أبو النصر شيخ
المحمودى ، نسيجا وحده بين سلاطين
المماليك الجراكسة ..

كان قويا مرهوب الجانب ، مسموع
الكلمة نافذ الإرادة .. لم يجسر صاحب
حظوة أو سطوة أن يرفع صوته فى أيامه ،
فاستتب الامن وعرفت مصر الطمأنينة
والهدوء ..

وكان المؤيد بخيلا ، حتى جرت الامثال
ببخله ..

وكان ماجنا أيضا ، مفرطا فى مجونه الى
حد التردى فى الشراب والمخدرات !!
وكان يعشق الفنون والعاملين فيها ،
وكان متمكنا من الموسيقى ، وكان له صوت
جميل حتى لقد اشتهر بحسن الغناء !!
وكان يجيد صناعة الشعر وتلجينه ..
ومن شعره فى الغزل الذى حنه وغناه :

فتنتنا سواف وخود
وعيون نواعس وقلود
أسرتنا الطبا وهن نعاس
وخضعنا لها ونحن الاسود
وأنا الخاصكى شيخ المؤيد

نظم شعرى جواهر وعقود
ولكنه ، برغم مجونه ولهوه واسرافه فى
التردى ، كان يحب العلماء ويميل الى العلم
ويعرف كيف يكرمه ويعلى شأن أهله وحفطته

ومن الغريب أن شخصيته جمعت بين النقاىض كلها ، فهو عابث مستهتر ، وهو
بر بالعلم وأهله ، وهو غليظ القلب مولع بسفك الدم ، يطربه صراخ الفسحايا !

ولقد بنى المؤيد وشاد المساجد والخوانق ، وعمر بيوت الله وحبس عليها الاوقاف
العديدة ٠٠ ولكن حبه للدم طالما غلبه ؛ فكان الغادر القاتل الرهيب ، الذى لم ينج من
غدره وبطشه ولده الأكبر « المقر الصارمى ابراهيم » ٠٠
كان ابراهيم شابا شجاعا ، ميالا للحرب مغرما بالبطولة ، محبا للخير ، ولوعا بخدمة
الناس ٠٠

وكان أبوه المؤيد قد مل الحروب وسار الى الشيخوخة ٠٠ وعز عليه أن تتجمع القلوب
على حب ولده ، حتى لقد صور له وهمه أن هذا الحب لايعنى غير شئ واحد ، هو اقدام
ابراهيم على خلعه واغتصاب ملكه !

فكان أن دس له السم بايعاز من خطيب مسجده القاضى « ناصر الدين بن البارزى »
الذى لقي هو الآخر نفس المصير بيد المؤيد ٠٠ وبالسهم أيضا !
ومات المؤيد شيخ المحمودى بعد سنين من قتله لولى عهده المقر الصارمى ابراهيم ٠٠
مات ولم يترك غير طفل رضيع اسمه « احمد » من زوجه « خوند سعادات »
بنت الأمير صرغتمش الناصرى ، وخمسة آلاف مملوك !

ولقد كان هؤلاء المماليك من الوفاء لسيدهم المؤيد شيخ ، بحيث أصروا على
تولية ولده « احمد » الذى كان لم يبلغ بعد العامين من عمره ، وأجلسوه مكان أبيه ،
وجعلوه سلطانا باسم « الملك المظفر أبى السعادات احمد » ٠٠ وجعلوا الاتابكى « المقر
السيفى ططر » وصيا عليه ٠٠

وبدا « ططر » وصايته بأن قرب ، وأبعد ٠٠ وخلع ، وولى ٠٠ وحارب وانتصر ٠٠ وعلا
نجمه على كل قوى وكل معارض ، وصار له الامر ، فقتل وسجن ٠٠ وعظم ذكره ونبه
صيته ، حتى وجدت « خوند سعادات » أم السلطان الطفل نفسها تسعى الى طلب الزواج
منه ، لتحفظ ملك ابنها الصغير ٠٠

وتزوج « ططر » من أرملة سيده المؤيد شيخ ٠٠ وازداد بزواجهما شرفا على شرف ،
وصار له الحل والعقد والمكانة والسلطان حتى لقد طمع فى ملك الطفل ٠٠ وراق له أن
يخلعه ؛ فخلعه ٠٠ وأرسله مع حاضنته الى سجن الاسكندرية ، ونادى بنفسه سلطانا
باسم « الملك الظاهر سيف الدين أبى سعيد ططر » !

وتنمرت الأم « خوند سعادات » وكبر عليها أن يخون ططر اللعين أمانته ، ويقدم على
خلع سيده السلطان الصغير ولما تمضى عليه ثمانية أشهر فى سلطنته وتولية عرش مصر
ولكنها عرفت كيف تنتقم منه لولدها الذى سجنه ! ولنفسها ؛ اذ أقدم على طلاقها -
فكان أن دست له السم ، فمات بعد ثلاثة أشهر وبضعة أيام من توليه السلطان !
وتكررت المأساة مرة ثانية ٠٠ ونودى بابن ططر ، الذى لم يكن قد بلغ من العمر

احدى عشرة سنة - سلطانا على البلاد باسم « الملك الصالح ناصر الدين محمد » !
ثم خلع عن السلطنة بعد ثلاثة أشهر من توليها ، اثر مؤامرة مملوكية تزعمها
« برسبای الآتابكى » !

وكان الآتابكى برسبای نبیلا مع سيده السلطان الصغير ، فلم يرسله الى سجن
الاسكندرية ، بل أدخله دور الحرم ، على عادة أولاد الملوك ، واسكنه قاعة البربرية هو
وأمه « خوند بنت الامير سودون الفقيه » ثم زوجه من بنت الآتابكى « يشبك الاعرج »
وسمح له بالخروج والتنقل !

وتولى الآتابكى برسبای العرش بعد هذا كله باسم «السلطان الملك الاشرف أبى النصر
برسبای الدقماقى » ..

وكان برسبای محظوظا ؛ اذ استطاع أن يتفادى ما تعرض له سلفه ، فاستقر فى
السلطنة طويلا . . . واستطاع أن يبعد شبح المؤامرات وأن يحكم مصر وأوشاب الممالك
سبعة عشر عاما ..

وقد كان من أسباب هذا الاستقرار أن فكر « برسبای » فى أن يخلد لنفسه الذكر
الحسن هو الآخر ، جريا على سنة الاسلاف .. وأن يشيد مسجدا يحمل اسمه كما فعل
القلائل من سلاطين الجراكسة الذين سبقوه ، فكان أن تخير المكان .. وأعد العدة لبناء
مدرسة الأشرفية ..

« ومدرسة الاشرف برسبای كانت تشغل مكانها عدة حوانيت ، تعلوها مساكن .
خلفها مساحة شاسعة من الارض ، اتخذ منها الباعة سوقا لعرض بضاعتهم .. وكانت
كلها موقوفة على المدرسة القطبية ..

واستبدل الاشرف برسبای الارض الموقوفة بأرض أخرى .. ! وحرر أرض مسجده
هذه من قيود الوقف ، وشرع فور الانتهاء من ذلك فى هدم الحوانيت والمساكن التى تعلوها
وأمر مباشرة بالبدء فى بناء المسجد فى اليوم الاول من رجب سنة سبع وعشرين
وثمانمائة هجرية .

ومسجد برسبای أو « المدرسة الاشرفية » قدبنى على نمط المساجد الجامعة ، فهو
يتكون من صحن واىوانات أربعة ، اثنان كبيران ، واثنان صغيران ، وليس بالمسجد أعمدة
على الاطلاق ، وله منبر عظيم ، ودكة للتبليغ ، ومحراب فخم مكسو بالرخام الملون وبه
خزانة كتب .

ومسجد برسبای من المساجد المرتفعة عن مستوى الارض ، يرقى اليه بعدة درجات
وأول من تولى الخطبة فيه « الفقيه الحموى »
وللاشرف برسبای ، خلاف مدرسته هذه ، مدرسة أخرى ، أو هى فى الواقع « قبة »
بناها الى جوار قبة السلطان الظاهر برقوق ، لتكون مقبرا له ..

وقد بنى أيضا « خانقاه » شامخة ضخمة فى سرياقوس ، سجن فيها ملك « قبرص » بعد أن هزمه وأسره فى حرب قامت بينهما ..

ولما مات الأشرف برسباى تولى ابنه من بعده باسم « الملك العزيز أبى المحاسن جمال الدين يوسف .. ومن المؤسف أنه لم يمكث فى عرشه سوى ثلاثة أشهر ، اذ وثب عليه مملوكه « جقمق » وطرده .. ونادى بنفسه سلطانا باسم « الملك الظاهر سيف الدين أبى سعود جقمق العلانى » !

وكان جقمق مخطوفا ، فاستطاع بسطوته وقوته أن يحفظ الملك لنفسه ، وأن يقبض على السلطة دون منازع أربعة عشر عاما كاملة .. أوصى بعدها وهو فى مرضه الأخير بسلطنته لولده « عثمان » ..

وتولى عثمان السلطنة باسم « الملك المنصور أبى السعادات فخر الدين عثمان » .. ومن المضحك أنه لم يبق فى الحكم أكثر من أربعين يوما ، ثار عليه المماليك خلالها بزعامة الاتابكي الطامع « اينال » ، فخلعوه !! ..

وتولى الملك ، « باسم الملك الأشرف أبى النصر سيف الدين اينال العلانى الظاهرى » ! وبقي اينال سلطانا مرهوب الجانب ثمانى سنوات ، مرض فى نهايتها ، فأوصى بالملك لولده احمد ..

ولكن احمد هذا لم يبق على العرش أكثر من شهور أربعة ؛ تحزب عليه المماليك بعدها وهاجموه فى قلعة الجبل وحملوه الى السجن !

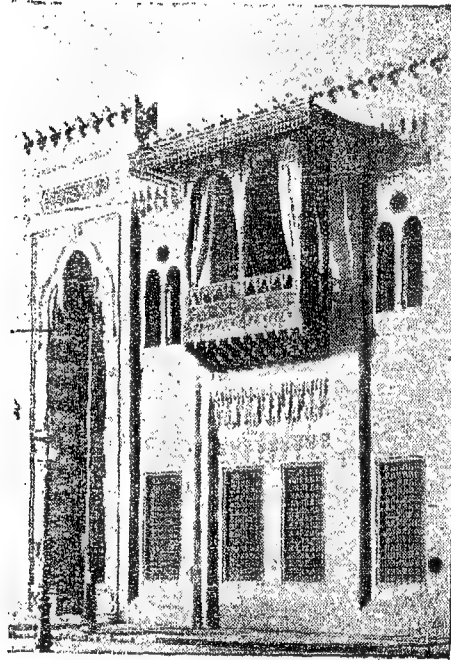
وواتت الفرصة اذ ذاك الاتابكى « خوشقدم » ، فتولى السلطنة باسم « الملك الظاهر أبى سعيد خوشقدم الناصرى المؤيدى » الذى ظل محتفظا بملكه ست سنوات حتى مات عام اثنين وسبعين وثمانمائة هجرية .

وتولى من بعده الاتابكى « بلباى » باسم « الملك الظاهر أبى النصر سيف الدين بلباى » ..

ولكنه لم يستقر فى السلطنة طويلا ، وخلع عنها .. وتولاها مملوك آخر باسم « الملك الظاهر أبى سعيد الظاهرى » ! ولم يبق أكثر من شهرين !

وظن المملوك « خاير بك » أن الجو قد صفا له ، وأن الحظ واثاه ، فأعلن نفسه سلطانا ولكن الحظ سخر منه ، فلم يبق فى سلطنته تلك غير ليلة واحدة ؛ حضر بعدها الاتابكى « قايتباى » من رحلة كان فيها ، فحاصر القلعة .. وشدد فى الحصار وقبض على المماليك والامراء وأرسلهم الى سجن الاسكندرية .. أما السلطان فأرسله غير مقيّد الى دمياط !

ولما كان قايتباى أقوى الامراء المماليك ومقدمهم وزعيمهم ، فقد أصبح الجو ممهدا له
وابتسم له الحظ ، فنودى به سلطانا على مصر باسم « الاشرف أبى النصر سيف الدين
قايتباى المحمودى الظاهرى » فاستتب له الامر ..
وفى عهده المستقر ، بدأت البلاد والعمارة الاسلامية تدخل فى طور جديدة ، تاركة
وراءها عهود الفوضى ..

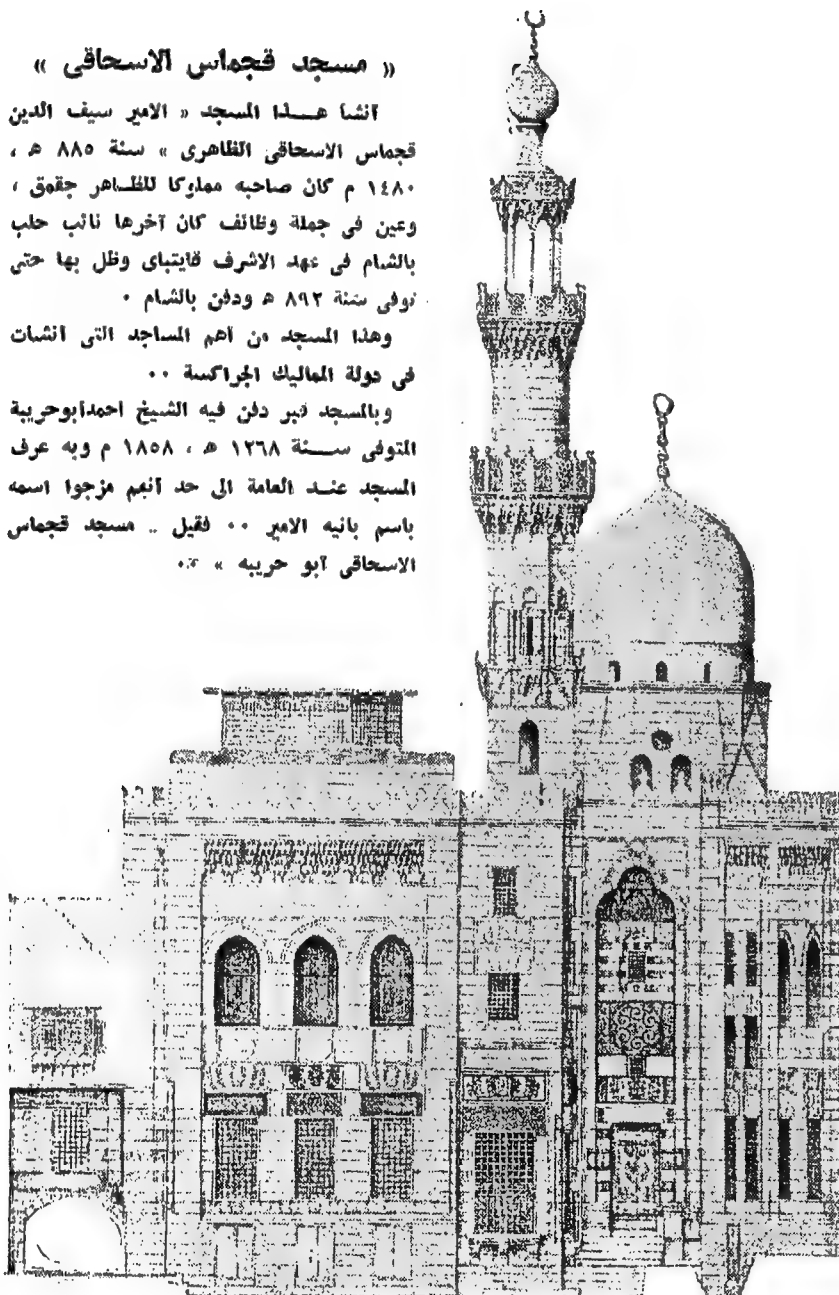


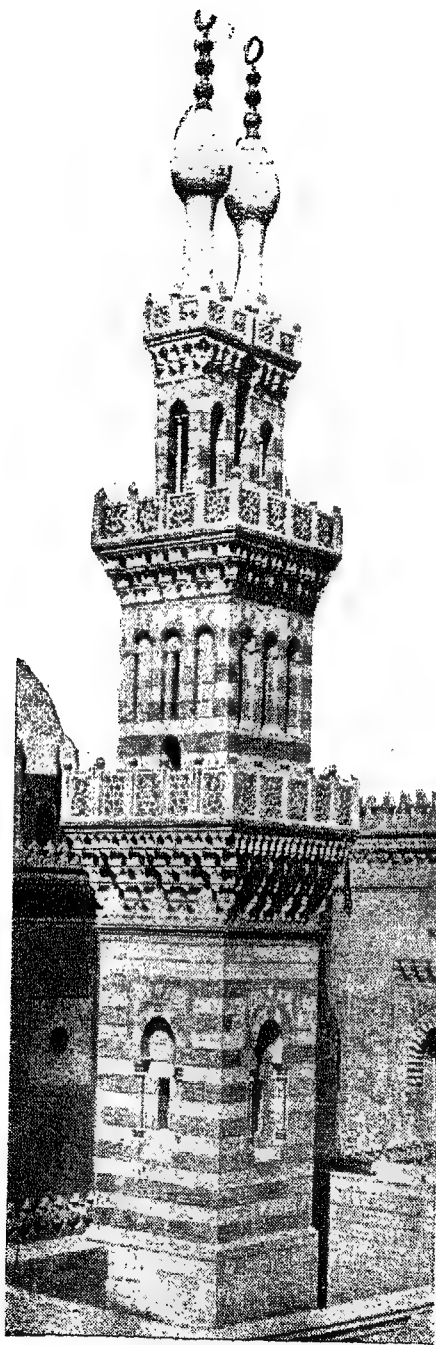
« مسجد القاضى يحيى »

أنشاه الامير زين الدين يحيى بمدينة القاهرة ، وهو ثالث مسجد أنشاه هذا الامير سنة ٨٤٨ هـ
١٤٤٤م وهو يقع عند تلاقى شارع الخليل بشارع الازهر الجديد ، وقد شيد هذا المسجد على نظام
المدارس ذات التخطيط المتعامد ، فهو مكون من صحن يغطيه سقف بوسطه « شخشيخة » وتحيط
به أربعة ايوانات متقابلة نقشت أسقفها الخشبية بزخارف ملهبة جميلة .
وكتب على جانبه آيات قرآنية . وتاريخ انشاء المسجد سنة ٨٤٨ هجرية وبنى به قبرا
له .. وأوقف عليه داره الذى كان تجاه المسجد وأموالا أخرى للانفاق عليه .. والمسجد الاول
أنشاه الامير زين الدين يحيى فى حي بولاق . والمسجد الثانى بشارع الحباية .
عين الامير يحيى فى منصب « ناظر ديوان الخاصة » وتلقى نجمه واتسع نفوذه فى أيام
الظاهر جقمق . اذ كان من اقرب المقربين له .
وبعد وفاة الظاهر جقمق قبض عليه وسجن بالقلعة وعلب كثيرا .. مما صودرت جميع
أمواله ، وظل سجيناً حتى مات سنة ٨٧٤ هـ

« مسجد قجهاس الاسحاقى »

انشأ هذا المسجد « الامير سيف الدين
قجهاس الاسحاقى القاهرى » سنة ٨٨٥ هـ ،
١٤٨٠ م كان صاحبه مملوكا للظاهر جقوق ،
وعين فى جملة وظائف كان آخرها نائب حلب
بالشام فى عهد الاشرف قايتباى وظل بها حتى
توفى سنة ٨٩٢ هـ ودفن بالشام .
وهذا المسجد من اهم المساجد التى انشأت
فى دولة المماليك الجراكسة .
وبالمسجد قبر دفن فيه الشيخ احمد ابو حريه
المتوفى سنة ١٢٦٨ هـ ، ١٨٥٨ م وبه عرف
المسجد عند العامة الى حد انهم مزجوا اسمه
باسم بانيه الامير . . فقليل .. مسجد قجهاس
الاسحاقى ابو حريه « . . »





قايتباى

اذا تركنا الحديث عن الدولة والسياسة ،
وعلاقة مصر الخارجية بجيرانها وغيرهم من
أقربين وأبعدين .. وقصرنا الحديث على
السلطان الملك الاشرف قايتباى ، باعتباره
مصلحا بانبا ، موجهها كل همه الى الاستقرار
والرخاء - أمكن فى سهولة ويسر أن نقول
ان عصر هذا السلطان الشركسى ، يشبه من
كل الوجوه عصر السلطان الناصر محمد
ابن قلاوون ..

لقد ازدهرت العمارة أيما ازدهار فى عصر
الناصر .. وسار الأمراء على نهج سيدهم
فى البناء وحب العمارة .. وكذلك كان هذا
نفس ما حدث فى عصر قايتباى الذى تميز
وتفرد وامتدت أياديه البرة المصلحة ،
فشمل خيرها مصر وغيرها من شتى بلاد
الاسلام ، لاسيما الاراضى المقدسة فى مكة
المكرمة ، ومدينة الرسول عليه الصلاة
والسلام ..

اننا نتناسى ونحن فنورين شتى أعمال
الاشرف قايتباى .. نتناسى مكانته العظيمة
وما استمتعت به مصر من رخاء وأمن - أمام
الاعمال الجليلة التى شادها وجعلها دعائم
لعصر سلام ورفاهية ..

« مئذنة قانى باى الرماح أمير اخور »

لقد حارب قايتباى وتلوق الهزيمة قبل
النصر .. حارب الاتراك العثمانيين ، وحارب الروم .. وعرف كيف يرفع علم مصر
وجيشها وكيف ينال النصر تلو النصر بالسيف مرة والحكمة مرات ..

وكان قايتباى من الدهاء بحيث عرف كيف يقاوم شتى التيارات ، داخلية وخارجية حتى لقد حدث ذات مرة أن أحس بتجمع أمراء المماليك عليه للقيام بفتنة ٠٠ وكانت جيوشه تحارب فى الشام وغيرها ، فرأى أن يجمع الأمراء أصحاب المؤامرة ، ويعلن فيهم أنه عزل نفسه ولم يعد بعد سلطانا !! ولهم أن يتصرفوا فى الامر ويتخيروا لهم سلطانا كما يشاءون !!

وتراجع المتآمرون فى دعر ، فقد أدركوا أن قايتباى وضعهم فى موقف دقيق بالغ الحرج ٠٠ وسرعان ماتعالت الاصوات ترفض اقرار ذلك العزل الذى أحب قايتباى أن يفرضه على نفسه ، وطالبته بأن يستمر فى تحمل الامانة الخطيرة وأن يظل فى مكان القيادة حيث هو ؛ لانه سيد الموقف ورجله الاوحد ٠٠

ولما كانت سنة بناء المساجد والمبالغة فى تعميرها أشهر ماعرف عن سلاطين المماليك البحرية والشراسكة ، فقد سار قايتباى على تلك السنة الحميدة ٠٠ واتجه بكليته وبجميع ماله الى بناء بيوت الله وتعميرها ٠٠

وأعمال الاشرف قايتباى العمرانية عديدة ، من العسير أن تشملها عجلة قصيرة ، ولكنها مع هذا نورد طرفا منها فى ايجاز ٠٠ ونقدم منها أول مساجده ٠٠



فان مسجد قايتباى بالصحراء هو أول المساجد التى أقامها وأشهرها - وهو مرتفع عن الارض ، يصعد اليه بسلم حجري ٠٠ وقد أقامه السلطان فى منطقة الصحراء البعيدة عن العمران ، لأنها فى ذلك الوقت بالذات كانت المنطقة التى اتجهت اليها شتى الانظار حتى لقد كثرت فيها العماائر والابنية والقباب والمزارات والمقابر الضخمة ٠٠

والمسجد يمثل مجموعة بنائية ضخمة ، جمعت وجمعت الى جانبه مقبرة للسلطان ، و « سبيلا » لرى العطاشى ، ومكتبا لتعليم فقراء المسلمين وأيتامهم القرآن الكريم ٠٠

ومسجد قايتباى يمثل فى هيئته الخارجية العامة الشاملة له وللمجموعة الملحقة به ، منظرا من أجمل وأروع وأدق الآثار الاسلامية التى تنطق بعظمة الصانع المصرى وبراعته ومدى ما وصل اليه من تفوق فى فنون الهندسة والبناء والنقش والزخرفة فى العهد المملوكى الشركسى ٠٠

فاذا ماصعدنا الدرجات القليلة التى تصل الى باب المسجد ، ونفذنا الى داخله - وجدنا تصميميا رائعا لمسجد جليل ، له صحن فسيح غطيت أرضه بالرخام ، تحوطه من نواحيه ايوانات أربعة فخمة ، مكسوة بالرخام الملون ، وتحوى مجموعة رائعة من النوافذ الجصية التى تميزها دقة النقش وبراعة الترتيب ٠٠

ومحراب مسجد قايتباى هذا خلو من الزخرف خلوا تاما ، على جانبيه عمودان من الرخام تبدت فيهما بدائع الفن الزخرفى ظاهرة فى بدنتيهما وقاعدتيهما وتاجيهما ٠٠

وهناك الى جوار المحراب منبر دقيق الصنع يتجلى فيه فن «الحشو» و«الحفر» و«التطعيم»
بالسن . .

وقبة المسجد رائعة الصناعة والزخرفة ، تحليها عدة نوافذ جصية مزخرفة ، وبها كرسى أعد لحمل المصحف الذى أمر السلطان بوضعه هناك للقراءة فيه ، وأوقف على القراء الذين يبادلون القراءة اليومية فيه أموالا وخبزا . .

وتحت هذه القبة السامقة الفخمة أعد السلطان قبره . . والى جانبه قبة أخرى صغيرة من النحاس المكسو بطبقة من الذهب ، تحتها حجر أسود صغير ، به أثر قدمين تواردت الشائعات أنهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم . .

والى جوار القبر الثانى القابع تحت القبة السامقة ، توجد قبة خشبية أخرى ، تحتها أيضا حجر ثان عليه آثار أقدام يقال انها لخليل الله ابراهيم عليه الصلاة والسلام (١) واذا تركنا مسجد قايتباى هذا ، القائم بالصحراء التى نسبت اليه وسميت باسمه - نجد أمامنا مسجدا آخر يحمل اسم السلطان البر ، هو مسجد قايتباى بقلعة الكباش . . ومسجد قلعة الكباش مسجد عظيم البنيان ، واجهته من الحجر الضخم ، وله بابان كبيران نقش على أحدهما :

« أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا الاشرف السلطان الملك الاشرف أبو النصر قايتباى » .

وعلى الباب الثانى نقشت أيضا كتابة مشابهة لهذه . . ولما كان هذا المسجد قد بنى ليكون مدرسة لتحصيل العلم ، فانه مكون من صحن فسح غطيت أرضه بالرخام الملون ، وحواليه أربعة ايوانات ، حفرت على جدرانها آيات من القرآن الكريم .

وبالمسجد بعد هذا عدة أماكن خلوة أهل التصوف ، وله منارة سامقة يعلوها هلال نحاسى ، وقد أحق بواجهته « سبيل » للما والى جانبه حوض . . وعلى عدة أماكن من جدران هذا المسجد نقش اسم السلطان قايتباى وأوصافه وعدة أدعية له . .

وثمة مسجد ثالث فى الروضة يحمل اسم السلطان قايتباى ، هذا المسجد عرف قبلا بجامع الفخر . . ثم أطلق عليه اسم جامع المقسى ، ثم جدده وأقام مأتهدم من أبنيته الملك الاشرف قايتباى فنسب اليه . .

(١) من الغريب أن فكرة « آثار الأقدام » هذه قد لعبت دورا كبيرا فى إيجاد عدد من هـذه القطع الرخامية المدعى بوجود آثار أقدام رسول الله عليها . . وأمثال هذه الآثار تكاد تملأ مساجد عديدة فى مصر كالمسجد الحسينى ، والسيد البدوى ، والمسجد الدسوقي . . بل وفى القدس والطائف والقسطنطينية . . بل انه توجد فى الهند حجارة عليها آثار أقدام منسوبة الى آدم . . وبالبحر الملى آثار أخرى منسوبة الى ابراهيم الخليل ، وثالثة بدمشق منسوبة الى موسى - وأخرى ببیت المقدس قيل أنها لميسى . .

ومسجد قايتباى الذى بالروضة ، أنشئ ليكون مدرسة ، فهو مكون من أربعة ابوانات :
اثنان منها كبيران ، واثنان يصغرانهما ٠٠ وله مئذنة فخمة مكونة من ثلاثة أدوار ،
وجدرانها منقوش عليها فى الحجر آيات من القرآن الكريم ٠٠

وإذا تركنا هذه المساجد الثلاثة الضخمة ، نقف مبهورين أمام الأعمال الخيرية التى
أقامها ذلك السلطان العظيم ٠٠ ولنتجه أول ما نتجه الى الجامع الازهر ٠٠
واهتمام قايتباى بالازهر يبدو أول ما يبدو فى « سبيل » للشراب ، أنشأه ببابه ،
و « مكتب » فى داخله « نافورة » و « مئذنة » ٠٠

كما جدد السلطان بعد هذا « رواق المغاربة » ، وأنشأ أيضا « رواق الاتراك » -
ويحتوى على ستة عشر عمودا رخاميا ، يعلوها اثنا عشر مسكنا خاصا ، وخزانة كتب
وقد أمر « قايتباى » أن يلحق بهذا الرواق « مطبخ » وصنبور مياه ، وحبس عليه
أوقافا عديدة خصصها فقط « لمجاورى » الاتراك ، وكان لهذا الرواق بابان يجاوران
« رواق المغاربة »

وأحب السلطان بعد هذا أن يضيف الى أياديه الكريمة يدا أخرى أعز وأكرم ، فأقام
فى الجامع الازهر المئذنة العظيمة الواقعة على يمين الداخل ؛ لتكون هى الاخرى أثرا
ناظقا بكرمه ٠٠

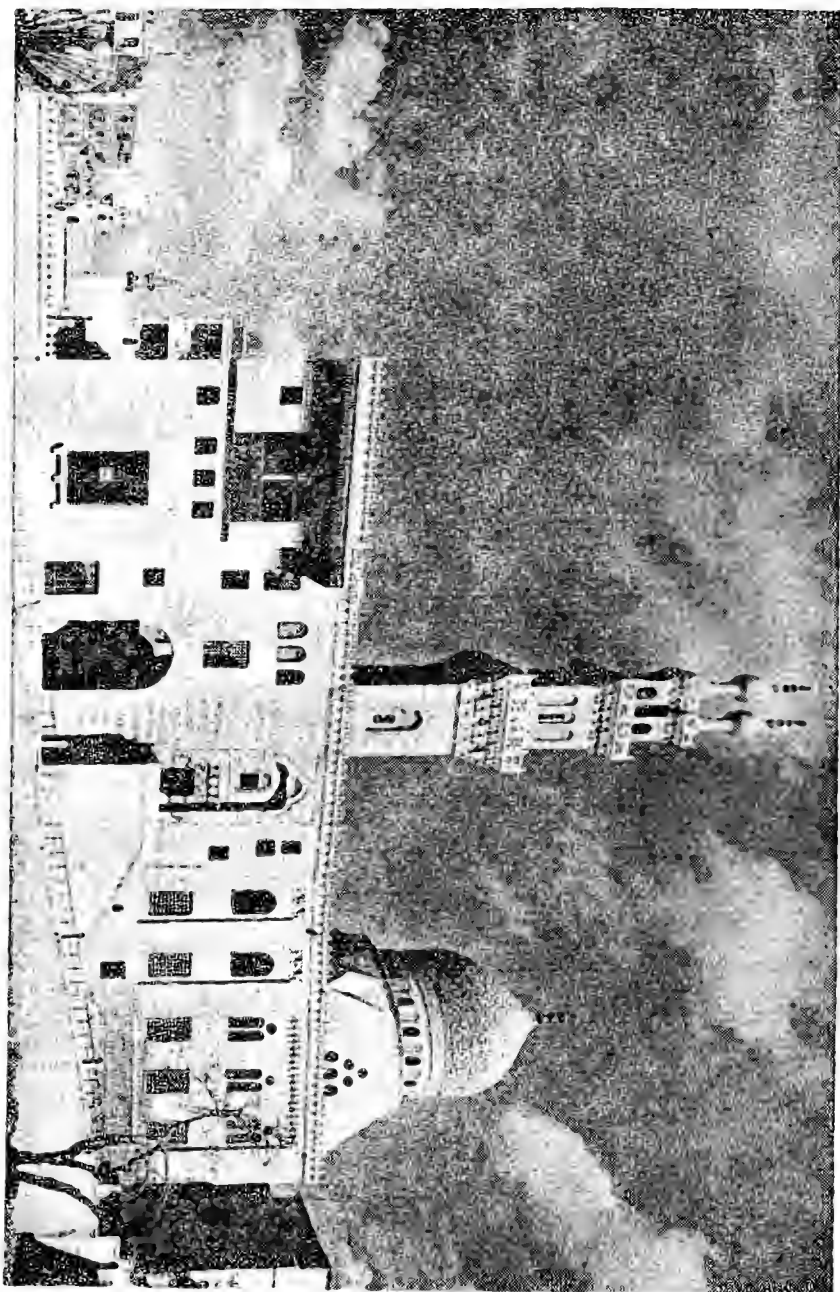
وكما شمل بر قايتباى مصر ومساجدها ، كذلك امتد الى الخارج فعمر « مسجد
الحنيف » بمنى ، وأقام فيه قبتين عظيمتين : احدهما على المحراب النبوى ، والثانية على
المحراب الثانى ٠٠ وأقام فى هذا المسجد مائة وأربعة بوائك ، وبابا كبيرا و « سبيلا »
للماء ٠٠

ثم عمر المكان المعروف بمسجد الخليل ابراهيم ، وعمر السقايات والعيون ، وأجرى
فيها الماء بعد انقطاعه ٠٠

وعاد الى مصر بعد هذا ليجدد جامع عمرو بن العاص ، والمشهد النفيسى ، والايوان
المجاور لضريح الامام الشافعى ، وبنى المقامين الدسوقى والاحمدى ٠٠

وهكذا استطاع الاشرف قايتباى أن يخلد لنفسه الاحدثة الطيبة والذكر الحسن ٠٠
كما استطاع أيضا أن يجعل من أعماله العظيمة الخالدة منوالا نسج عليه أمراؤه ورجال
دولته ، فسادوا العمارات وأقاموا الدور وعمرؤا بيوت الله وتباروا فى كل مفيد وعظيم
وليس لنا أن نقف عند هذا الحد من تاريخ عصر قايتباى ، دون أن نذكر أشهر
خلصائه « أzbek » و « يشيك الداودار » و « قانى باى الرماح » و « جان بلاط » ٠٠
والاثار الاسلامية العظيمة التى تركوها ، مثل قبة يشيك التى عرفت باسم « القبة
الفداوية » ، ومسجد أzbek ، ومسجد قانى باى الرماح ، ومسجد جان بلاط ٠٠

والقبة التى أنشأها الأمير يشيك الداودار ، كان بناؤها فى مكانها البعيد عن



« مسجد قاني باي الريح » - ابتداء الأمير قاني باي الريح الأمير خور سنة ٩٠٨ هـ - ١٠٠٢ م - بناء على روضة عالية تشرف على ميدان صلاح الدين بالقامة ، ونرى به قبرا له ولولده محمد الريح .. كان مملوكا للأمير قاني ، الطقة بمسكة وظائف حتى وصل الى الأمير خور « كبير المترفين على استعيرت السلطان » .. وكان فارسا شجاعا يجيد اللعب بالرمح حتى سمي من شدة براعته فيه بـ « الريح » .. بمناز مسجده « بالمارة المروجة » والقيمه الزخرفة ..

العمران مغامرة كبيرة ، اذ لم يكن هناك وقتها غير بعض قبور وحقول متنسثرة وخلاء فسيح ، ينفر الناس منه ويرهبونه ٠٠ ولكن يشبك المحارب الجريء سخر من كل الآراء فهدم المقابر ، ووسع مساحة الحقول وجعلها حدائق غناء ٠٠ وحفر لها الآبار لتمدها بالماء ، وأقام فوق البئر أربع « سواق » لترفع الماء ٠٠

وسار الأمير بعيداً في خطة التعمير التي رسمها لتلك المنطقة ، فبنى لنفسه قصراً شامخاً ، وعلى بعد قريب منه أقام القبة الشاهقة ، وإلى جنوبها بنى مقبرة له ، ثم ألحق بالقبة مساكن للمتصوفين ، وأنشأ أمامها مدرسة و « سبيلا » وحوضاً كبيراً لشرب السواب وكان يشبك من الوفاء لسيده السلطان قايتباي بحيث نقش اسمه داخل القبة ، وداخل القبة الأخرى التي أنشأها قرب المطرية ٠٠

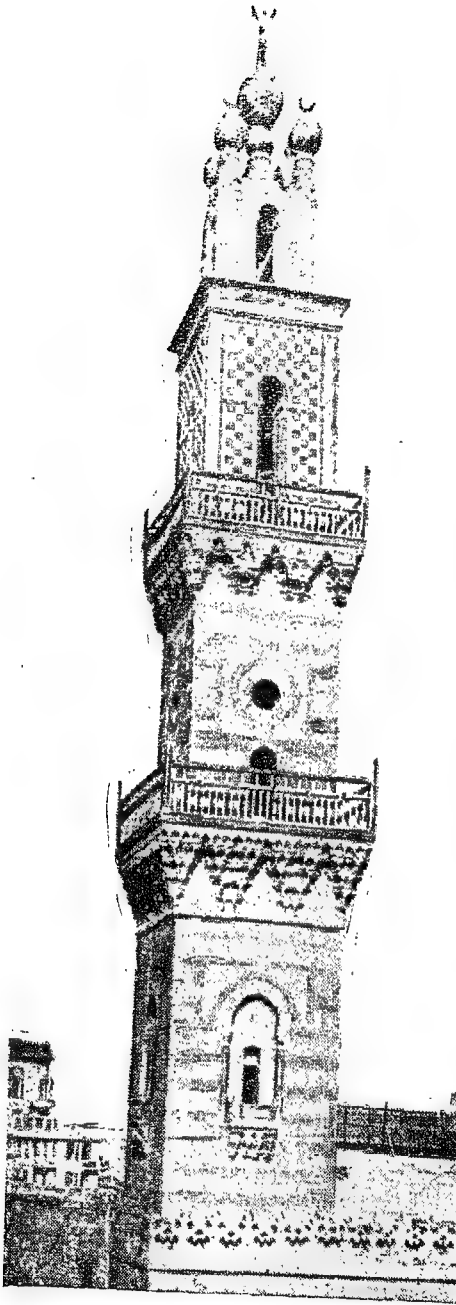
وقد بلغ من إعجاب السلطان قايتباي بتلك المنطقة المستجدة ، أن جعلها منزلاً ومكان خلوته وراحته ٠٠

والقبة الشيبكية بناء أشم ، يتميز من خارجه بالبساطة ، وإن حوى في داخله روائع الصناعة وبدائع النقش (١)

ويأتى بعد هذا دور أمير آخر هو « قانى باى الرماح » الذى كان فارساً شجاعاً يجيد اللعب بالرمح فسمى من أجل ذلك ب « الرماح » ٠٠ لقد أنشأ هذا الأمير مسجدين: أولهما أمام قلعة الجبل ، وثانيهما فى حي « الناصرية » وقد أطلق على كلا المسجدين اسمه والجديد فى المسجدين « المنارة المزدوجة » ، ثم القبة المزخرفة بنقوش فى الحجر - الموجودة فى المسجد المقابل لقلعة الجبل ٠٠ والذى نقل عنه مهندس مسجد الغورى - إذا لم يكن هو نفسه - شكل الوزرة الرخامية والمئذنة المزدوجة الموجودة بالجامع الأزهر ٠ أما الأمير ألبك ، فمسجده على طراز أمثاله من المساجد المملوكية ، وقد تميز بشهرة مرجعها الاتقان الظاهر فى بنائه ونقشه وزخرفته ٠٠



(١) وقد ظلت القبة الشيبكية هذه محتفظة بطابعها ، واسم بانيتها ، حتى لقد حدث أن تسلمت إلى جماعة الصوفية المقيمين بها فئة من طائفة الاسماعيلية . ولما كانت هذه الطائفة معروفة فى تلك الفترات بانها من الفدائيين الخطرين ، فقد أطلق العامة على أفرادها اسم « الفداوية » ، وبالتالي غلبت صفتهم هذه على اسم منشئ القبة ، فسمى الناس اسم بانيتها « شبك الداودار » وسميت قبة الفداوية .



الغورى

مر عهد الاشرف قايتباى كحلّم هادىء
داعب عيني و سنان استراح بعد طول غناء،
وعاد بعد طول غياب ، فلقى الهدوء والراحة
والاستقرار بعد الصخب والارهاق والفوضى
ثم صحا الشعب من جديد ، اذ علت
اصوات طال صمتها ، وتقاربت رؤوس طال
تباعدها ، وبدأت الفتنة تطل من جديد ..
وراح سفهاء المماليك والطامعون منهم
يتحركون من مخابثهم ، ليعيدوا عهد القلق
والريبة والشكوك ..

وذهب سلطان .. ثم جاء سلطان ،
ليخلعه طامع جديد ولما يمرض على هذا وذاك
بضعة أشهر !

ودارت العجلة دوران الفوضى والقلق ..
وظلت تجتاز بحور الدم والمؤامرات والقتل
ثم أخذت تعبر عهودا من بعدها عهود ..
وتطوى فى طريقها السلاطين وأشباه حكام ..

طويت صفحة قايتباى .. وخلفه قانصوه
الاشرفى .. ثم طويت صفحته ، ليخلفه
سلطان جديد هو أبو النصر جان بلاط ،
الذى لم يلبث أن سيق الى سجن الاسكندرية
وتولى من بعده طومان باى الاشرفى ،

الذى مرت به الحوادث مرا سريعا ، لتقف « مئذنة جامع السلطان قانصوه الغورى »

وقفة طويلة أمام السلطان الجديد المسمى « الملك الاشرف قانصوه الغورى » ..

والغورى ، وان كان أقل أمراء المماليك الشراكسة سطوة ومالا وجاها ، الا أنه كان

أكثرهم دهاء وفطنة ، فعرف كيف يخدعهم جميعا ويجعلهم ينادون به سلطانا بكامل رضاهم

لقد أقنعهم بأنه سيكون طوع إيمانهم .. وأنهم حين لا يرضون عنه ، سوف يخلع نفسه بنفسه ليولوا من بعده من يشاءون !

ولم يكد الغورى الداهية يتولى السلطنة ويقبض على زمام السلطة ، حتى بدأ يضرب الامراء بعضهم ببعض .. فجعل من العصبية المتكتلة شيعة وأحزابا شتى ، حتى سهل عليه أمر القضاء عليها قضاء مبرما ، لم تقم لها بعده قائمة أبدا ..

وعرف الغورى بعد هذا كيف يحكم .. وكيف يستبد كملوك شره لا مال له .. وأراد أن يجمع مالا وأن يكون في أقصر وقت ممكن ، أكثر الممالك غنى وجاها وسطوة . وراح يعمل لهذه الغاية بكل الوسائل ، غير ناظر الى شئ سواها ..

أثقل كواهل الشعب بمطالبه .. باعهم أكثر من مرة في سوق الممارسة جباته وزبانيته فتحكموا فيهم ونهبوا أموالهم ..

سطا على « خشداشينه » ورفاق أمسه ، فاستولى على أموالهم وأرزاقهم ..

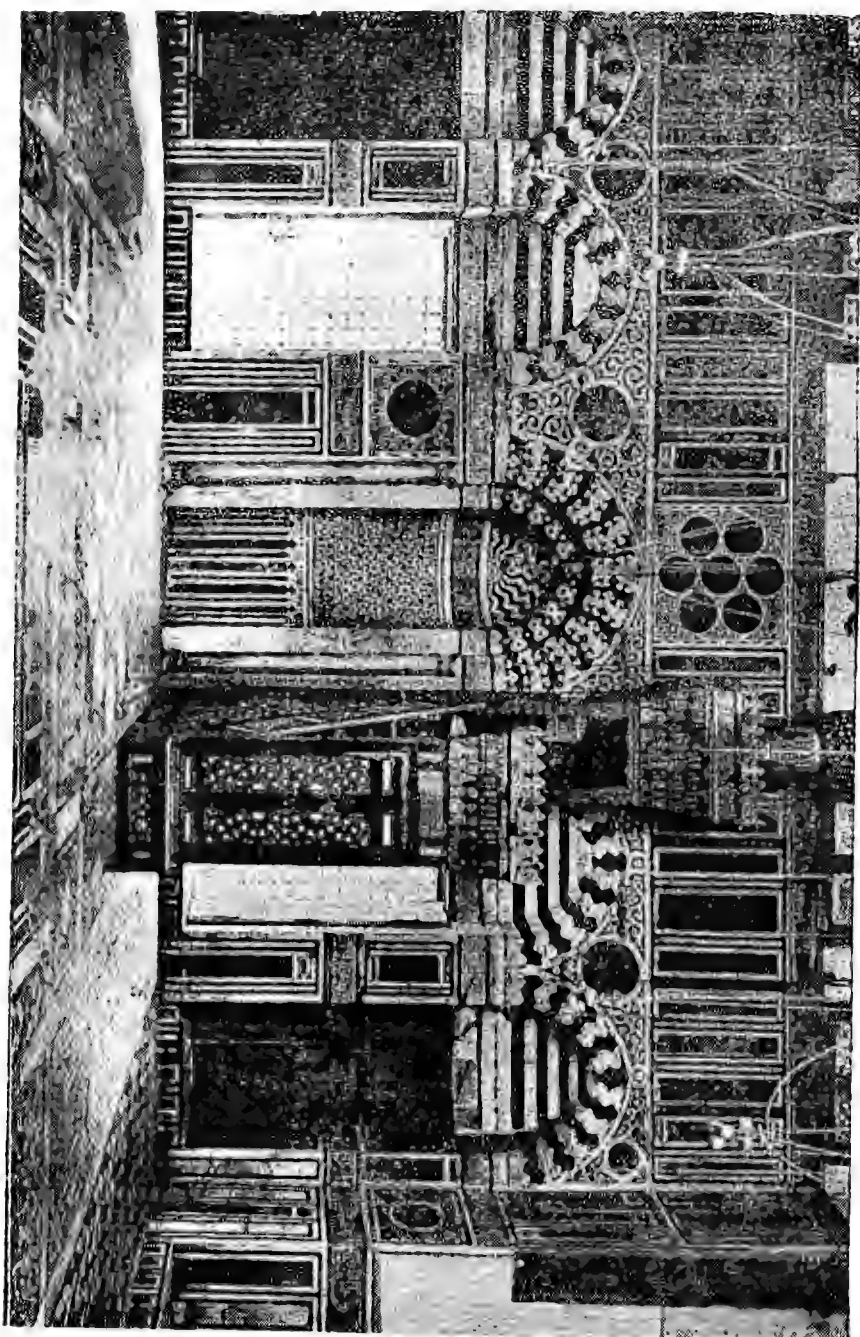
ولكنه مع هذا لم يخل من احسان قلمه عن رضى أو كره .. وأجّم الممالك وأذلهم وأوقف مطاعمهم عند حد لم يجسر أقواهم شوكة على أن يتعداه .. فعظم نفوذه .. وأخذ يتوحد الى ملوك الشرق والغرب ، ويرسل اليهم الهدايا ليوطد علاقته بالدول كلها فداع اسمه وامتدت شهرته في البلاد ..

والتفت الغورى بعد هذا الى تخليد اسمه .. وتخليد الاسم في العهود المملوكية لم يكن بالعمل الصالح .. بل بالعمائر والأبنية ..

والغورى فى هذه الناحية يشبه سلفه القديم « الملك المؤيد شيخ » فكلاهما كان ظالما متعسفا سلابا ، محبا للطرب واللهو ، مستهما بالجمال عاشقا للفن .. ومحبا للعمارة .. فى ذات الوقت ، وبخاصة ماكانت ذات صلة بالمقدرات وبيوت الله ..

وقد أولى الغورى الجامع الازهر شيئا غير قليل من اهتمامه ، فأنشأ فيه مئذنة مزدوجة الرأس .. وأبقى نظام تقديم « العصيدة » للمجاورين خلال شهر رمضان بأكمله . وزاد على ذلك أن جعل مطهى الازهر يستمر فى عمله وتقديم الطعام طوال ذلك الشهر .. ورتب لاستمرار هذه العملية ستمائة وسبعين دينارا سنويا ، ومائة قنطار من العسل ، وخمسمائة أردب من القمح ..

والتفت الغورى بعد ذلك الى قلعة الجبل ، فجدد عمارة الدهيشة ، وقاعتي اليسرية والعواميد ، وقاعة البحرة .. وأنشأ العمود المسمى بالعمود القبطى - وهو كائن بالفناء الكبير - ثم جدد عمارة المطبخ ، وعمد الى سبيل المؤمنين ، فجدد سقفه وجعله معقودا بالحجر .. وجدد عمارة ميدان المهارة القريب من قناطر السباع ، وهدم أبنيته التى كانت مقامة باللبن وجعلها من الحجر ، ونقل جرى الماء من مكانه القديم الى ماردة الخلفاء .. وجدد عمارة المقياس ، وأنشأ به القصر والشرفة ..



مسجد السلطان النوري . انشا هذا المسجد والخوذة العظيمة به سنة ٩٠٩ - ١٠ - ١٥٠٣ م . ٤ . المثلث المنرف
عائمه النوري . وهي مكتوبة من مدرسة ، وحمام ، وكنز ، وسجل . ومكتب ، وخاتمة ، وفيه ، ومهتر .
لها يوجد به مقبرة للناسف طومان باي ابن آخ النوراني ، وهو من اروع المناسبات الازلية وابدع ما خلفه لـ
سلاطين دولة المماليك الجراكسة .

واهتم الغورى بالغور البحرية فحصنها وبني بها الابراج والمعازل ، وحصن أسوار الاسكندرية ورشيد ، وأصلح طريق العقبة وجعل فيه مخازن توضع فيه حاجيات الحجيج وامتدت أيادي الغورى حتى وصلت الى مكة المكرمة ، فأنشأ مدرسة ، وحبس على طلبتها أوقافا للانفاق عليهم ، وأجرى عين بازان وحصن « جلة » ، وبني على ساحلها سورا ذا أبراج لحمايتها من اغارات الاجانب .

لقد كان الغورى جماعا للنقائص فى خلقه وفعاله . .
ولكننا حين نستعرض حال الدولة فى أيامه ، قد نلتبس له بعض العذر . . ونفتقر له هفواته أمام أياديه البيض العديدة ، وما اتصف به من يقظة وحزم . . وأمام عظمة تمثيله لمصر أمام السفراء الاجانب الذين وفدوا عليه ينشدون وده ويطلبون صداقته . .

ان حياة الاشرف قانصوه الغورى ، حياة حافلة بالمظالم والخيرات . . واللهم والجد والمرح مع اليقظة والتوثب والجرأة . .

وانها على عظمتها وتعدد مناحيها ، لايهنا فيها غير شيئين اثنين : أولهما مسجده لاننا نؤرخ للمساجد . . وثانيهما : حكمه . . الذى اعتبر ، برغم طول مدته ، نهاية لدولة السلاطين الشراكسة ، وفاتحة لحكم الاتراك العثمانيين .

والاشرف قانصوه الغورى قد نسب اليه مسجد عظيم له شهرته فى الحى الذى يحمل اسمه ايضا « الغورية » . .

ولكنه بنى مسجدا ثانيا ليست له شهرة المسجد الاول ولا فخامته ، وهو القائم أمام قلعة الجبل . . وقد بناه فى العام الخامس والعشرين بعد التسعمائة . . ونقش على بابه فى الحجر هذه العبارة :

« أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك السلطان الملك الاشرف قانصوه الغورى عز نصره »

والمسجد بعد هذا عادى فى كل شيء ، له منارة دقيقة يعلوها هلال نحاسى ، وواجهته الحجرية تزينها عدة نوافذ من الجص المزخرف بالزجاج الملون . .

أما المسجد الكبير المشهور بالغورية ، فهو من أعظم المساجد التى بنيت قبله . . ويعتبر دليلا ناطقا بعظمة بانيه ومدى ماحققة لنفسه من ثراء . . وبه مجموعة ، مكونة من حمام ومنزل ومقعد وسبيل ومكتب وخانقاه وقبة . .

والمسجد مكون من ايوانات أربعة وصحن فسيح ، وعلى الجدران « وزرة » رخامية بأعلاها شريط نقش عليه بالخط الكوفى آية الكرسي وآيات أخرى من كتاب الله الكريم .
وفى الايوان الشرقى محراب رخامى ، الى جانبه منبر مطعم بزخارف من « السن » وقد طليت خوذته بالذهب فوق السن ، ووزرة هذا الايوان من الرخام ، وهى مرتفعة فى

محاذاة قواعد النوافذ العلوية ، وقد نقشت عليها بعض الآيات القرآنية ٠٠
 والمسجد في جملته مزخرف بنقوش بلغت حد الاسراف ، حتى لقد شملت الأبواب
 والنوافذ والجدران ٠٠ وله منارة ضخمة مربعة ، مكونة من أربعة طوابق ، يحمل الطابق
 الاخير منها خمسة رؤوس خشبية ، وقد كسيت كلها بالقيشاني ٠٠
 والقبة تعتبر آية من آيات المبالغة في الزخرفة ، وبطرفها السبيل المنقوش سقفه
 بالذهب ، وفي حافته رسوم على هيئة أسماك ، وفي أعلاه لوحة رخامية كتب عليها :
 أنظر جمالى ، فمأنى حين أرسله
 يحكى سلاسل بلور على ذهب
 وسقف مسجد الغورى يقوم على بوائك من غير أعمدة ٠٠
 وقد أشرف على بناء هذه المجموعة الضخمة الأمير ثانى بك الخازندار ، الذى أولى جل
 اهتمامه الى القبة بالذات ، لتكون متحفا لبعض الآثار النبوية ولمصحف سيدنا عثمان ٠٠
 ثم مدفنا للغورى نفسه ٠٠
 ولكن ٠٠ وبعد أن تم المسجد والقبة والخانقاه ٠٠ وحُبست عليها الاحباس الوفيرة ٠٠
 هل دفن الاشرف الغورى هناك ؟! انه لم يدفن فى هذا المسجد !
 لقد شاء حظ السلطان الجرى أن يضطرب ميزان القوى فى أواخر عصره ، وأن تدفع
 المطامع السلطان العثماني سليم الاول الى محاولة غزو الشرق لاطفاء غلة حب السيطرة
 والتملك التى قامت فى نفسه الطامعة فخرج بجيوشه ينشر الرعب ويفتك بأخوته
 فى الدين !
 وهدد سليم العراق ٠٠ واقترب من الشاه اسماعيل الصفوى ، حليف الغورى ٠٠
 وأنزل به هزيمة منكرة ٠٠ ثم سار الى الامام ليحقق مطامعه الواسعة ٠٠
 وأرسل الغورى للقاتل الغازى ليتعرف نيته ٠٠ وجاء ، الرد الرهيب : « لقد ابتدأت
 باسماعيل الصفوى ٠٠ وسأثنى بك ! وموعدا مرج دابق » ٠٠
 وخرج الغورى من مصر الى الشام فى موكب لم يشهد التساريخ له مثيلا ٠٠ واستقر
 فى الشام ٠٠
 فلما جاءت الانباء بتقدم الجيوش العثمانية - وكان وقتها فى « حلب » صلى الظهر
 وخرج ومعه أمير المؤمنين المتوكل على الله ، والقضاة الاربعة ٠٠ وكان قد تقدمه نائب
 الشام ونائب حلب وجماعة من النواب ، فخرجوا بأعلام حربية وطبول وزمور ونفوط
 ٠٠ حتى رجت لهم حلب ٠٠
 « فلما خرج السلطان توجه الى جيلان ومنها الى مرج دابق ، فلم يشمر الا وقد
 دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان ٠٠ فصلى السلطان صلاة الصبح ، ثم ركب وتوجه

الى زغزغين وتل الفار - قيل أن هناك مشسهد نبى الله داوود ، فركب السلطان وهو وملوطه وعلى كتفه طير وصار يرتب العسكر بنفسه ، وكان أمير المؤمنين على الميمنة وهو بتخفيفه وملوطه وعلى كتفه طير مثل السلطان وعلى رأسه الصنجق الخليفى ، وكان حول السلطان أربعون مصحفا فى أكياس من الحرير الاصفر على رؤوس جماعة الاشراف ، وفيها مصحف بخط الامام عثمان بن عفان رضى الله عنه ٠٠

« وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم خليفة سيدى احمد البدوى ومعهم أعلام ، والسادة الاشراف القادرية ومعهم أعلام خضر ، وخليفة سيدى احمد بن الرفاعى ومعهم أعلام ، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها بأعلام سود » (١)

ودارت الرحى الرهيبة ٠٠ وانطلقت الكلاب الكلبة من عقالها ٠٠ فكر المماليك وكروا وتقدموا وهم الاقوياء ذوى البأس فهزموا عسكر « ابن عثمان » هزيمة منكرة وأخذوا منهم سبعة صنماجق ، وأخذوا المكاحل التى كانت على العجل ورماة البندق ٠٠ وهم ابن عثمان بالهروب ٠٠ ثم طلب الامان وقد قتل من عسكره فوق العشرة آلاف نفس ٠٠ وكانت النصره لعسكر مصر » ٠٠ (١)

ولكن الخيانة المملوكية لم تلبث أن لعبت دورها الحقيقى ، فهرب الخائن خير بك بماليكه وباع سيده الغورى للغاصب العثمانى ، ففتح ثغرة فى قوة الدفاع ، ومكن للعثمانيين المنهزمين من العودة ليجعلوا من الهزيمة النكراء نصرا ماكانوا يحلمون به ٠٠

ولقد كان ميل ميزان الحظ فى صف سليم شاه ، مفاجأة أذهلت الغورى المنتصر ٠٠ فاحب أن يهجم بمن بقى معه من فرسان قلائل ؛ ليلقى الموت شريفا وفى يده سيفه ٠٠ ولكن القدر أبى عليه تلك الامنية ، فاصيب فجأة بفالج رهيب ٠٠ واذا به ، بدلا من أن يشق الصفوف بجواده مطيحا بالرقاب ، يسقط تحت سنانك الحيل فى حومة الوغى ، فتدوسه وتحطمه ٠٠ حتى لا تبقى من جثمانه على أثر !

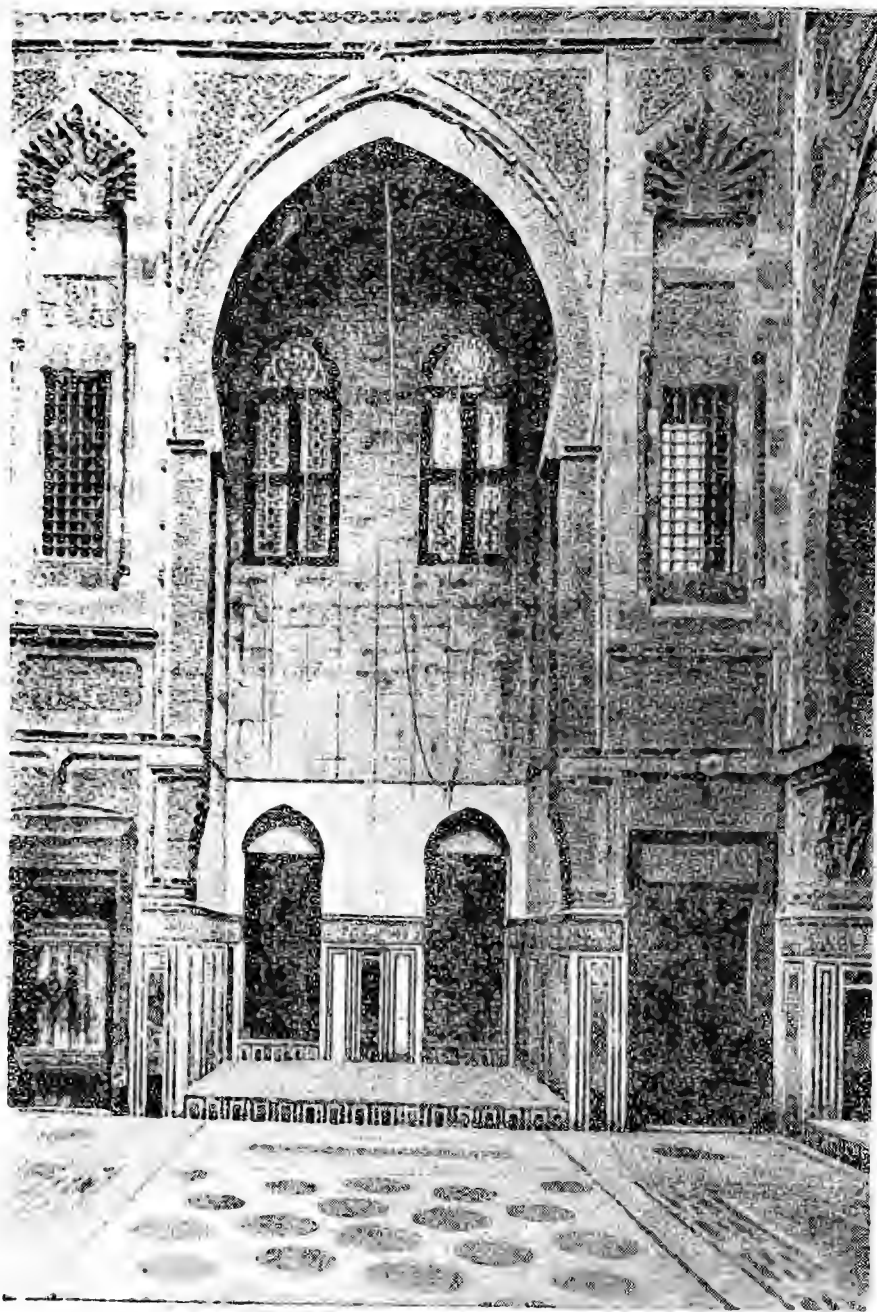
وهكذا مات الغورى الباسل ٠٠ وتناثرت أشلاء جسده ٠٠

وعلى هذه الصورة الاليمة انتهت حياة السلطان التمس الذى باعه أمراؤه ، وتآمر عليه وعلى مصر مماليكه الاندال ، فنسوا حق سيدهم عليهم !! ونسوا حق مصر التى حررت رقابهم وجعلتهم وهم الرقيق الرخيص ، سادة وأمراء وحكاما وسلاطين !!

وبدأ سليم شاه يتقدم بجيوشه فى الوقت الذى تجمعت فيه فلول المماليك حول « طومان باى » ابن أخ الغورى ، وراحوا يطالبونه بأن يكون سلطانهم وسيدهم !!

وكان طومان باى شابا فيه جرأة واقدام وحب للارض الطيبة التى حررت وأكرمت ٠٠ وكانت به خشية من غدر المماليك ، فرفض طلبهم وأحب النجاة بنفسه ٠٠ ولكنهم تكاثروا

(١) ابن نياس ج ٣ ص ٤٦ وقد أوردناه بنصه ليعرف القارئون مدى عقلية الغورى الخارج الى الحرب !!



« مدرسة الفوري بالقاهرة »

اتساعها السلطان الملك الاشرف فأنصوه الفوري ضمن مسجده الذي يقع عند تقاطع شارع الفورية بشارع الازهر . وانشأ في مواجهة المدرسة قبة لتكون قبوا له . ولكنه قتل اثر خيانة « خاير بك » له في حربه مع السلطان سليم العثماني في معركة « مرج دابق » وتمزق تحت سنايك الخيل ولم يعثر على جثته . . . وكان هذا في سنة ٩٢٢ هـ ، ١٥١٦ م

عليه وراحوا بلين الكلام والاسراف فى الوعود يخدعونهُ ، حتى قبل أن يكون سلطانا على مصر ٠٠ وكان آخر السلاطين الجراكسة فيها ٠٠

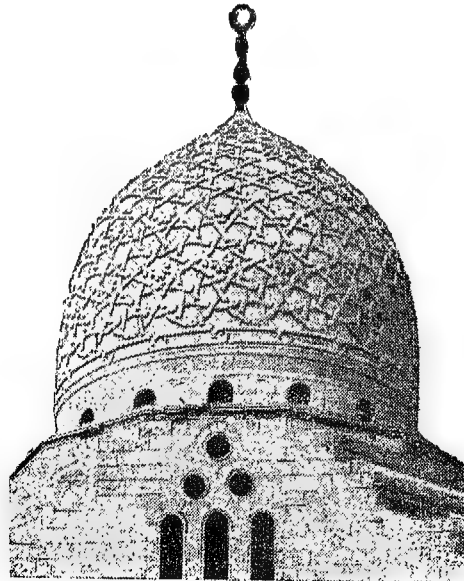
وجاءت الانباء بأن سليم شاه كان يتقدم ، فاستعد طومان لمعركة كانت « الريدانية » ميدانها ٠٠

ولقد عرف القائد المملوك الشاب كيف يضرب أكثر من ثلاث مرات جيوش العثمانيين ويحرق خيامهم ٠٠ حتى لقد ضاقت السبل على سلطانهم السفاح ٠٠ ولكن الخيانة عادت تلعب دورها ، فهرب المماليك ٠٠ وفر خلفهم طومان باى ! ولكن ٠٠ هل سلم ؟!

وظل طومان يناوئ سليما ، وسليم يناوئهُ ٠٠ حتى قتل من رجاله العثمانيين مالا يحصى العد !

وضاقت بطومان الخيل ، ففر تاركا القاهرة ليختبى بصديق قديم له من العرب ، اسمه « حسن مرعى » ٠٠ ولكن هذا الرجل كان وغدا زنيما ، فلم يرع الصداقة ولا حرمة الاستجارة ، فسلم طومان لعدوه الخطير سليم شاه !

وأمر سليم السفاح بشنق طومان على باب زويلة ! وبدأ يدفع للخونة أجر خيانتهم ٠٠ وكان أولهم دون شك « خاير بك » الذى باع سيده الغورى للعثماني الدخيل ، فكوفىء على ذلك بأن عين ملكا للامراء ، ونائبا للسلطان العثماني فى حكم البلاد !



((قبة جامع الاشرف برسباى))

العثمانيون

لم يكن سليم شاه يتصور انه سيصل الى مصر ويفتحها بتلك السهولة التي تم بها الفتح العثماني ..

ولقد عزز معتقده هذا انه هزم أمام الغوري هزيمة ساحقة جعلتها الحيانة بعد ذلك نصرا .. ثم ما لبث هذا الاعتقاد أن عاد الى الظهور ثانية في الريدانية وقد كاد طومان باي الباسل أن يبيد العثمانيين .. لولا الحيانة أخيرا ...

وبدخول سليم مصر .. وتسلمه مقاليد السلطة التي كانت في يد سلاطين المماليك الشراكسة ، طويت صحائف هؤلاء المغامرين الغرباء في هذه الارض الطيبة التي سودتهم وكانت لهم الوطن والملاذ .. وفتحت صفحة مغامر جديد من نفس الجنس الذي اعتاد ارسال ابنائه الى أسواق الرقيق لبيعهم الى تجار المماليك !

ولكن هذا الغريب الجديد لم يحب الارض الطاهرة ، اذ كان له وطن ، وكانت له قومية وجاه واسم وآباء وأجداد !

وسليم شاه « تركي » .. والترك في عرف بعض المؤرخين قبيلة من قبائل المغول « تركها » الاسكندر المقدوني خارج سور الصين العظيم يوم بناء ليحما الحضارات من المخربين .. ولم يدر أحد لماذا تركهم ؟ ..

وهل كان تركه اياهم تقليلا من شأنهم ، أو لانهم تعهدوا له أن يكونوا من المصلحين ؟! فالترك اذن .. من الجنس المغولي .. والمغول قبائل عديدة لها صفات ومميزات



« مثلثة جامع جانم البهلوان »

وسليم شاه كان من قبيلة نسبت الى « عثمان » زعيمها - وهم فئة من الرعاة كانت تنتقل وراء الخصب والنماء . . وأسعدها حظها ذات يوم ، اذ وجدت نفسها تخوض غمار حرب في صف قوم ، عرفت بعد نهاية المعركة أنهم من أقاربها «الأتراك السلاجقة» . . كما عرفت أن دخولها المعركة كان سبب انتصار هؤلاء الأقارب الذين استضافوا أبناء عمومتهم الرحل ومنحوهم مقاطعه قرب « بردسة » سكنوها تحت زعامة قائدهم وزعيم قبيلتهم « أرطغرول » . .

وأنجب « أرطغرول » هذا ولده « عثمان » الطموح الذي ابتدأ يتحرك من مقاطعته الصغيرة لبنى دولة . . وسار ابنه « أورخان » على نفس النهج ، واستطاع أن يحقق بعض المطامع الإقليمية حتى لقد وصل الى الشاطئ الاوروبى بجيوشه واحتل «غاليبولى» وجاء مراد بعد أورخان . . ثم « بايزيد » الاول الصاعقة . . ثم مالبت الدولة العثمانية أن تفرقت بعد موته فى أسر تيمور لنگ . .

بيد أن « محمد الاول » استطاع أن يلم الثعث ويوحد القوى من جديد ، ليعيد الدولة التى كادت تبید وتفننى وهى فى عمر الزهور !

ومات محمد الاول فى ريعان شبابه وخلفه مراد الثانى . . وجاء من بعده ابنه محمد الثانى ، أو ، كما يسمونه « الفاتح » ؛ لأنه فتح القسطنطينية .

وقد يهمننا هنا الأوقوف قليلا عند هذا السلطان بالذات ، لأنه أول حاكم مسلم وصل الى أوروبا . . وأول من استولى على الكنيسة الشهيرة « آيا صوفيا » وحولها الى مسجد عظيم ، أقيمت فيه المنائر والقباب .

وقد كانت كنيسة القديسة «صوفيا» من الرواء والافخامة بحيث أحب السلطان محمد الفاتح أن تبقى على حالها ، دون أى تبديل أو تغيير - اللهم الا تحويل مذهبها الى محراب رائع الصناعة ، عظيم الزخرفة ، ثم طلاء النقوش واللوحات ذات الطابع الكنيسى بطلاء أخفى معالمها وحجبها عن الأنظار . .

وراح فنانون المسلمين بعد ذلك يزخرفون وينقشون الجدران ، التى سجل عليها أروع آيات الفن البيزنطى الدقيق ، لتظهر فى صورة غير صورتها القديمة ولتستقيم فى تعبيراتها الدينية مع بساطة الدين الاسلامى السمج . .

وكانما حلا لمحمد الفاتح - وقد تم مسجده العظيم بما يتمشى وجلال الفن الاسلامى أن يحول الكثير من البيع والكنائس التى كانت موجودة هناك بكثرة - الى مساجد اسلامية . . ثم ترك البقية الباقية من النماذج البيزنطية العريقة ، كما ترك للمسيحيين حرية العبادة فى بلاده . .

وخلف « محمد الفاتح » على العرش العثمانى ابنه « بايزيد الثانى » . . وهذا أنجب « سليم شاه » الذى خرج بجيوشه ومعداته - لا الى الغرب ومحاربة الامراء المسيحيين



« طومان باي في طريقه الى باب زويله لشنقه »

كانت رسالة الخنكار سليم شاه الى طومان باي الباسل هي :
 « اما بعد - فان الله قد اوحى الي بان املك البلاد شرقا وغربا كما ملكها الاسكندر الاكبر ذو القرنين ،
 وانك لملوك تباع وتشرى ، ولا تصلح لك ولاية ، وانا ابن ملك الى عشرين جدا » .
 وجاءت الانبياء بان سليم شاه كان يتقدم ، فاستعد طومان باي لمعركة « الريدانية » ميدانها .
 ولقد عرف القائد المملوك كيف يضرب أكثر من ثلاث مرات جيوش العثمانيين ويحرق خيامهم ..
 حتى لقد ضاقت السبل على سلطانهم السفاح ..
 ولكن الخيانة عادت تلعب دورها ، فهرب المالك .. ولكن طومان باي لم يسلم وظل يناوئء سليما ،
 وسليم يناوئء .. حتى قتل من رجاله العثمانيين عددا كبيرا ..
 وضافت بطومان باي الحيل ، ففر تاركا القاهرة ليحتفى بصديق قديم له من العرب ، « حسن مرعي »
 ولكن هذا الرجل كان وفدا زنيما ، فلم يرع الصداقة ولا حرمة الاستجارة ، فسلم طومان باي لعدوه
 الخطير سليم شاه ..
 وأمر سليم السفاح بشنق طومان باي على باب زويلة .. وخرج طومان باي من البوابة مكبلا بالحبال
 على فرس هزيل .. وترجل وهو مرفوع الرأس ، كان طويل اللحية ، فتسلمه المشاعلية ليضعوا الحبل
 حول عنقه ، وشنقوا الحبل المعلق بقاعدة برج البوابة ، فانقطع الحبل بالشنوق .. وهكذا كانت نهاية
 طومان باي البطل ..

لتحقيق توسع اسلامى فى بلادهم ، كما فعل آباؤه واجدادهم ، بل الى الشرق ، موطن الحضارات الاسلامية - ليحارب اخوته فى الدين ويحاول ادخالهم تحت سلطانه الذى قامت دعائمه على الرشوة واشاعة الفرقة والتخريض على الخيانات !

وقد واجه « سليم خان » فى مصر شعبا له حضارته وأبجاده وتاريخه وتقاليده العتيده فلم يرتح الى تلك المظاهر . وهو الذى ماخرج غازيا الا لينشر ماظنه حضارة وتقاليده عثمانية ، لم يكن لها فى الواقع خلال تلك الفترة بالذات أى وجود !

لقد أراد سليم خان أن يتزعم الشرق كله . . وزعامة الشرق لاتعنى النصر الحربى فحسب ، بل انتقال الحضارات الاسلامية وكل شارات المجد العربى الى القسطنطينية - عاصمته ، لتكون كعبة المسلمين وقبلة حضارتهم الدينية الرفيعة وسيدة الاقطار الاسلامية جميعاء . .

وأفلح « سليم خان » فى التمهيد لخطته الجريئة هذه يوم دخل القاهرة منتصرا بمظاهرة ألبسها ثوب الدين وبعد بها مظهريا عن موكب الفاتح المنتصر ، اذ تقدم موكبه الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله - والذى لم يكن فى الواقع هو ومن سبقوه من أهله جميعا غير رموز ايهامية ، كان سلاطين المماليك البحرية ومن بعدهم الشراكسة يستعملونها للتأثير على العوام . . فسخرها سليم العثمانى لهذا الغرض !

وأراد بدهائه وقد جعل الخليفة على رأس الموكب ، أن تكون المظاهرة ذات تأثير عميق . . فجعل القضاة الاربعة - أصحاب السلطان الدينى والزمى الحقيقى فى البلاد ، ينتظمون فى موكبه ، وقد أطلق سراحهم وكان قد أسرهم يوم « مرج دابق » ليكون اشتراكهم الفعل فى موكبه وسيلة للوصول الى القلوب ، حتى يدخل فى روع الخاصة والعامة ، انه انما جاء لحماية الدين ونشر السلام !

لقد كان «سليم خان» يعرف مدى مايستمتع به قضاة المذاهب الاربعة من نفوذ دينى مدعم ، فتحاشى جهده اغصابهم ، وعمل ما وسعه ليكونوا فى صفه . . حتى اذا تقدم نحو تنفيذ مشروع نقل العاصمة الاسلامية الى القسطنطينية كانوا معه ، لا عليه !

ثم أفلح سليم بعد هذا فى اغراء الخليفة العباسى بسلطان المال ، على الاعتراف بأنه احق واليق بتولى الخلافة وممارسة سلطانها . . فكان أن تنازل له عن اللقب الرمزى . . وبهذا أصبح « سليم خان بن بايزيد الثانى » خليفة واماما لجميع المسلمين !

وبهذا أيضا انتقل بالتبعية مركز الخلافة من مصر الى عاصمة العثمانيين ! وخيل الى الخليفة الطموح ، بعد أن حقق ماحقق ، أنه قادر على أن ينقل الى عاصمته كل مظاهر العز الاسلامى وتراثه العظيم فى مصر . . فاتجه الى الجامع الازهر ، محاولا أضعافه ونيل سلطانه الدينى العريق ، ليصرف العيون عن التطلع اليه ويذهب عنه أبجاده

باعتباره كعبة العلم ، ومهوى الافئدة من كل راعب في المعرفة ومثابة الدين . وعلمائه صفوة أهل العلم وأعلام الهدى والبيان وهداة المسلمين وقادتهم الروحانيين . . .
ووقف سليم خان وقفة طويلة يفكر : كيف يحارب الازهر كمؤثر للإسلام . . . وعلماء كقادة للفكر الاسلامي ؟!

ان وجود هؤلاء العلماء في القاهرة يعنى أن انتقال سارات الخلافة ورموزها الى القسطنطينية ، لم يكن سوى مظاهر . . . لاتغنى عن اللب والحقيقة شيئا . . .
لقد أراد سليم أن يخلع عن القاهرة اُردية الزعامة ويلبسها للقسطنطينية . . . فكيف السبيل الى ذلك !

لقد كان من السهل نقل الخلافة اسما ومظهرا . . . ولكن الجيوش وآلات الحرب أضعف من أن تنتصر على الامامة الروحية ! وكان من العسير نقلها روحا ومعنى ونصا وصفة وذاتا من القاهرة الى هناك . . .

عرف سليم هذه الحقيقة . . . ولكنه لم يستسلم للواقع استسلاما مطلقا ، بل راح يشن الحرب على العلماء محاولا التقليل من سلطانهم ، فأصدر أمرا بإبطال نظام القضاة الاربعة . . .

ثم اتجه الى الرئاسة الشافعية ، فنقلها من قاضى القضاة الشافعى المصرى ، الى قاض تركى حنفى المذهب ، ثم أعلن بعد ذلك أن « الحنفية » مذهب الدولة الرسمى !

وبهرت سليم بعد هذا روعة مساجد مصر وفخامتها . . . لقد وقف مشدوها امام جامع السلطان حسن وقال عنه « أنه بناء جدير بالملوك » . . .

ووقف امام زخرفة مسجد « الغورى » وقال عنه : « هذه حجرات تاجر » !!
وراح ينقل عينيه الزائفتين في جلال العمائر الاسلامية ، فأحس بضعفه وضعة بلاده فكان أن أمر بهدم بعض الآثار ونقلها الى تركيا !
ولم يتعفف عن نهب الزخارف النادرة والمخطوطات القيمة . . . وقد ظن أنه بهذا يعطى القسطنطينية فوق ماكانت تستحق !

وكما سرق سليم خان الزخارف والنقائس ، شرع في سرقة الرجال أنفسهم !
لقد ساق الفاتح أمامه الى القسطنطينية صفوة أهل الدين من المصريين وخلاصة نوابغ الصناع وأهل الحرف الدقيقة . . .

وعاد من جديد ينظر الى الازهر ورسالته نظرة العاجز ، اذ عرف أنه لن يستطيع الاجترار على ذلك الحارس العملاق اليقظ ، الذى سيقف هكذا على كمر الدهور ، ليحمى لغة القرآن من غزو الرطانات الاجنبية أيا كان لونها !
وكان سليم يعلم بعد أن فعل ما فعل ، أن بقاءه في مصر لن يطول . . . وحتى لو طال

فلن يستمر ، اذ كان عليه أن يعود الى بلاده ، ولكن نيس قبل أن يوطد « أقدام » فتوحه ليعود وهو مرتاح البال ..

ولطالما خشى سليم هذه العودة ، لانه كان يعرف أن فتح مصر فتحا كاملا والقضاء على القوات المناوئة له فيها ، لم يتم كما أراد ، فقد كان ممالك الشراكسة بصفة عامة ، والمماليك وأشياعهم بصفة خاصة - مازالوا يملأون البلاد .. وأنهم برغم هزيمتهم وانتصار العثمانيين ، كانوا أصحاب الحظوة والسطوة والمال .. وكانوا أقرب الى قلوب المصريين من سليم وجيشه وسلطانه ..

وكان عليه أن يفكر في استنباط طريقة عملية تضمن حفظ ملكه الجديد من العواصف المحيطة به والانواء الموشكة على الهبوب ..

ولما كان سليم خان قد أتم فتوحه في الشرق معتمدا على التجسس والرشوة والوقعية وانتهاج سياسة « فرق تسد » - فقد عمد الى تدعيم هذه السياسة والخروج بها الى الميدان العمل في ثوب جديد ..

ولما كان « سليم خان » قد اعتاد أن يتبع في الماضي هذا الاسلوب الرخيص والسياسة غير المستقرة ، مخفيا وسائله هذه تحت ستار من السرية البحتة - فقد رأى أمام الوضع الذي أراد اظهاره وتركيزه - أن يجهر بسياسته تلك ويعلمها صراحة في بلاد مصر قبل أن يغادرها عائدا الى عاصمته القسطنطينية ..

وتنفيذا للخروج بهذا الاسلوب السياسى المستحدث ، رتب سليم لحكم مصر ثلاث طبقات من الحكام ، لكل طبقة منها مركزها وجاهاها ، فوق مالها من مكانة مدعمة وقوة معترف بها ..

وقد هدف السلطان العثماني من ايجاد هذه الطوائف الثلاث - وفيها المماليك - الى خلق مبدأ « تنازع السلطات » وجعل كل فئة من هذه الفئات بمثابة جاسوس و «خصم» متربص بالطائفتين الاخرين المنافستين لها ..

ولم يجعل لأى طائفة من هذه الطوائف سلطانا مستقلا ، أو حرية في أداء عمل فردي .. بل ربط بينها كلها وجعلها دون تمييز تحمل شتى المسؤوليات ، وتكون مسئوليتها جميعا أمامه وحده ..

وكان معنى هذا هو عدم تركيز السلطة ، والحيولة دون أى فريق من الثلاثة والاستئثار بها ، أو السعى الى السيادة أو غصب المال أو فرض ضرائب ..

وقد تسلم « خير بك » نائب حلب السابق مقاليد السلطة بعد سفر سليم خان ، جزاء له على خيانتته لسيدته الغورى .. وسرعان ما بدأ يباشر سلطانه مشتركا مع الطائفتين الباقيات بقلب وحش صار ، وروح حيوان مفترس ، لا عقل له ولا ضمير !



« مسجد الأمير خاير بك »

أنشأه الأمير خاير بك أحد أمراء السلاطين الجراكسة ، سنة ٩٠٨ هـ ، ٣/١٥٠٢ م كان في عهد السلطان الغوري نائب حلب ، وعندما بدأت الجيوش العثمانية تغزو الشام عينه الغوري قائد جيش المملوكي ، فاتصل خاير بك سرا بالسلطان سليم العثماني وعرض عليه مساعدته والقدر بسيفه ، فوعده بأن يجعله نائبا له في مصر إن هو نفذ ما وعده به ، وعندما اشتد القتال خان خاير بك سيده السلطان الغوري ، وانتهت المعركة بهزيمة المماليك في موقعة « مرج دابق » الذي قتل فيها السلطان الغوري . وهكذا بدأ حكم العثمانيين لمصر ، وكان خاير بك أول حاكم عليها من قبل الدولة العثمانية بقوة وعنف . فظلم وسفك كثيرا من الدماء ، وكان يكره العلماء والفقهاء ، ومات مكروها سنة ٩٢٨ هـ

وكان « خاير بك » لا يعرف من أمور دنياه ودينه الا التفانى فى ارضاء سيده . . وبلغ من هوانه وذلته ورغبته فى استجلاب ذلك العطف التافه ، أن صغرت لديه القيم كلها وهانت الوشائج والروابط ، وتنكر لانسانيته وصار شبه مجنون ؛ لا يعي ولا يعرف ولا يستطيع التمييز !

وأعمت الخيانة عيني الرجل وقلبه . . وطغى وتجبر حتى لقد تسمى باسم « ملك الامراء » . . ولم يفعل مافعله الشراكسة الذين سبقوه من اضافة نعوت اسلامية أو أسماء فيها من روح التعاطف ظل ، بل جعل من نفسه ملكا على الامراء ، فباعد بقلبه هذا بين شخصه وبين الشعب ، بل بينه وبين مصر كلها . . وركز جهاده وجهوده فى رعاية مصالح العثمانيين الذين كان بالنسبة لهم « ناظر زراعة » أو أحد « جباة المال » أو جاسوس خطير !!

وعلا نجم التابع الخائن ، وراح يتصرف تصرف الذئب الشره فى قطيع من الشاه . . فخضع أمراء المماليك . . وهانت عليهم أقدارهم . . وأخذت الحوادث سمتها . . ودار دولابها فى هدوئه الرتيب المعروف . .

ثم مالبت أحد رؤوس الخيانة أن أطل . .

كان رأس «جان بردى الغزالى» شريك خاير فى خيانة «مرج دابق» - وقد أحب أن يقوم بمغامرة خسيصة جديدة ضد السلطان العثماني، ويشترك فيها «خاير» ، ليقتسما الغنيمة ويكونا الحاكمين المطلقين فى أقدار الدولة دون رقيب أو حسيب ، أو خضوع لسلطان غريب . .

كان جان بردى يحلم بالاستقلال بحكم البلاد التى أنابه سليم عليها . .

وكان يريد لخاير أن يستقل هو الآخر بسلطان مصر . .

ولكن خاير كان عبدا ذليلا ، جبل على الخسة والخضوع . . فأسرع يحمل الى سيده نبأ المؤامرة . .

وأسرع سليم لينقذ مايمكن انقاذه ، فأبعد جان بردى . . وكافأ خاير بك بمزيد من السلطات !

ولقد عرف عن «خاير بك» أن بينه وبين اسمه عدا ، اذ كان رجلا لايعرف «الخير» ولا يحبه ، بل كان عدوه اللدود . .

كان قاسيا ، فظا ، شريرا سفاكا ، غادرا . . لا يعترف بأخاء ولا يشعر بانسانية . . كان عدوا لنفسه . . عدوا للناس ! وبالرغم من هذا كله فقد قام ببناء مسجد ! لاتقريا الى الله ، ولكن ليقال عنه انه فعل كما فعل غيره من أمراء وسلطين المماليك وأنه شيد مسجدا جامعا ليحمل اسمه على كر السنين !

ومسجد خاير بك انشاء قبل أن يكون « ملكا للامراء » - في العام الثامن بعد التسعمائة من الهجرة ، وهو مسجد مملوكى بكل صفاته ومميزاته ، ترتفع أرضه عن منسوب الطريق العام بحوالى ثلاثة أمتار .

وقد أقيم فى حى « الحربكية » المنسوب الى « خاير بك » . وأجمل ما فيه قبه الرائعة التى تنطق بمهارة صانعها ودقته ، فقد زخرفت من الخارج بنقوش فى الحجر ؟ تمثل وحدة بنائية متكررة . .

وللمسجد منارة عظيمة على الطراز المملوكى ، وله مدخل روعى فى بنائه أن يكون . معقودا ، تغطيه « طاقية » مقرنصة الاركان . .

وبالواجهة « شبايبك » كبيرة ، تعلوها أخرى جصية ذات مجموعات ثلاثية . . ويقوم تحتها « سبيل » للماء . .

وأجمل ما فى هندسة البناء ، أنه لا يقوم بأجمعه على نمط واحد . . والمسجد مسقوف بقبوات مصلبة من الحجر ، وأرضه جميعها مفروشة بالرخام الملون وقد أنشأ بانيه « خاير بك » مقبرة لنفسه فيه ، ودفن فيها بعد أن وافاه الاجل وهو فى منصبه الحظير . .

وكان طبيعيا بعد موت « خاير بك » أن تفتت حركة الانشاء فى مصر ، لان عدم استقرار ولاية العثمانيين فيها ، وتعرضهم للمؤامرات والعزل صرفهم عن العبارة . . كما صرف منافسيهم من المماليك أيضا . .

وبرغم هذا فقد قام ثلاثة أو أربعة من الولاة العثمانيين بانشاء مساجد فى القاهرة ، قامت الى جانب المساجد المملوكية الشهيرة ، فأضافت الى المجموعة المعمارية الاسلامية لونا جديدا من ألوان البناء تجلى فيه الطابع العثمانى . .

ومن أوائل ولاية العثمانيين اهتماما بالبناء ، كان الوالى سليمان باشا الخادم الذى أنشأ بقلعة الجبل مسجدا جميلا عام ٩٣٥ هـ - حمل اسمه وخلد ذكره . .

ومسجد سليمان باشا الخادم ، يعتبر فى قائمة المساجد الاسلامية - المسجد الاول الذى ظهر للناس ، حاملا الطابع العثمانى الغريب من حيث « الطراز » والزخرفة والتنظيم وأساليب البناء . .

والمسجد فى مجموعته يتألف من صحن مكشوف ، فيه بساطة رائعة وجمال طبيعى . . والى جانب هذا الصحن ايوان خصص للصلاة ، تعلوه قبة كبيرة عارية من الزخارف الخارجية ، وبها عدة « مناور » تحيط بها مجموعة صغيرة من انصاف القباب - وقد لونت وزخرفت بعدة نقوش دقيقة وكتابات من القرآن الكريم . .

وللمسجد منارة عالية دقيقة الذروة ذات طابقين . . وهو بعد هذا بسيط فى كل شئ حتى فى مظهره الخارجى . .

وقد اهتم بالعمارة الاسلامية في مصر وال عثمانى آخر ، هو « الخصى داود باشا »
الذى بنى له هو الآخر مسجدا في شارع « اللاله صفية » بحى الحنفى . .

ومن الغريب أن الوالى داود باشا قد اختار لمسجده مكانا يكاد يكون بعيدا عن الاحياء التى
اعتاد السلاطين وأمراء المماليك اقامة مساجدهم فيها . . ولعله اختار هذا الحى بالذات ،
باعتباره الحى الممتاز فى ذلك الوقت الذى تكاثر على سكناه كثيرون من أمراء المماليك
وأعيان البلاد . .

وهذا المسجد مبنى بالحجر المنحوت ، وهو من المساجد المعلقة ، وله باب متسع يرقى
اليه بسلم رخامى ، وقد علفت فوقه لوحة من الرخام نقش عليها مايل :

أتم بنياه داود صديق وفى سبل الهدى قد جد سيرا
حمدناه فأرخنا بنياه حوى حمدا جزاه الله خيرا

وقد أراد الوالى العثمانى الذى أقام مسجده هذا فى شارع سويقة اللاله صفية ، أن
يجعل منه مدرسة أيضا . . فهو يعتبر أول مسجد عثمانى فى مصر خصصه بانيه
للعلاوة والدراسة . .

والمسجد يطل على طريق ضيق من خلال عدة نوافذ حديدية ، تعلوها « مناور »
جصية مزخرفة بالزجاج الملون . وهو مكون من ايوان واحد فسيح ، فيه المحراب والمنبر
- وهو من الخشب العادى . والمسجد خال من الاعمدة خلوا تاما ، وجدرانه تحليها وزرة
من الرخام الملون . .



ولدينا غير هذا المسجد ، مسجد جامع آخر له شهرته ، هو مسجد الوالى العثمانى
«سنان باشا على بن عبد الرحمن» الذى تولى حكم مصر نيابة عن السلطان العثمانى
مرتبن متتاليتين ، كان فيهما رجل الاصلاح المحبوب ، فلم تكن فيه عنجهية جنسية ،
ولا تكالهم على المال ، فأقنم على فعل الخير واستجلب لنفسه حب الناس . .

وقد أقام سنان باشا مسجده هذا قرب « نغر بولاق » ، حيث كانت له هناك عمائر
انشائية أخرى ، وقد أتم بناءه عام تسع وسبعين وتسعمائة .

والمسجد آية من آيات الدقة الانشائية ، صبت فيه خلاصة الفن العثمانى
المستحدث . وهو مكون من قبة كبيرة ذات أبواب ثلاثة ، تؤدي الى ثلاثة ايوانات رائعة .

والسقف مقام على « قبوات » تحملها عقود مركزة على أعمدة رخامية ، واكتاف من
الحجر الذى بنيت منه واجهة المسجد . .

والقبة الكبيرة يعلوها هلال لطيف ، وبداخلها عدة منافذ هندسية الشكل ، بديعة
الرواء . .

وواجهة المسجد غاية في البساطة ، فهي من الحجر الندى لازخرفة فيه ولا نقوش ،
بأعلاها عدة شواهد تتجاوز في نظام هندسي متنسق ..

ومنبر مسجد سنان باشا ، منبر دقيق لطيف ، مكسو بالرخام الملون .. وله منارة
ذات دورة واحدة ، تنتهي بمسلة مخروطية تعطى الناظر الى المسجد فكرة واضحة على أنه
مسجد عثمانى الهندسة ..

ويبقى بعد هذا في قائمة المساجد التي بناها في مصر الولاة العثمانيون ، « مسجد
سيدي عقبة » .. بناه الوالي الوزير محمد باشا السلحدار عام ألف وست وستون هـ
في القرافة الصغرى بقرب مسجد الامام الليث بن سعد ..

وسيدي « عقبة » هذا هو ابن عامر الجهني ، حامل راية سيدنا رسول الله صلى الله
عليه وسلم !.. وقد تولى حكم مصر أيام معاوية وبعد وفاة عمرو بن العاص .. ويقال
أيضا أن فاتح مصر عمرو بن العاص مدفون هناك كذلك ، وهو قول غير ثابت ، لأن عمرو
قد دفن في مدافن عاصمته الفسطاط ، ولم تكن الفسطاط من السعة بحيث وصلت الى
المكان الذي قيل أنه قبر عقبة بن عامر الجهني ..

وطبيعي أن الوالي العثماني محمد باشا السلحدار ، لم يقم بإنشاء هذا المسجد عفوا ،
كما أنه لم يرشده اليه أحد ، بل حدث أن زاره في مكانه - وكان زاوية صغيرة قديمة
فأحب أن يجردها وأن يجعلها من الجلال الانشائي والدقة البنائية ، بحيث تتناسب مع
مكانة أحد صحابة سيدنا رسول الله وكبار الفقهاء في عصره ، فكان أن جدد الزاوية
وأقام البناء ..

ومسجد سيدي عقبة مسجد رحب مكون من ايوانين ، أحدهما سفلى - به محراب
معقود على عامودين من الرخام الابيض المثمن ، وثانيهما الايوان العلوى . وبين الايوانين
ثلاث بوائك حجرية ..

والي جانب المسجد أنشأ الأمير السلحدار زاوية ، أمام مقام سيدي عقبة في الناحية
الغربية من المسجد ، وفوقه مقصورة خشبية دقيقة الصنع ، وقبة شامخة يعلوها هلال
نحاسي مذهب ، ويحوطها اثنا عشر منورا جصيا ..

والمسجد مسقوف بالخشب المزخرف بالطلاء الدقيق المتقن ..

ولم يكنف الأمير السلحدار بإنشاء هذا المسجد والزاوية الملحقة به ، بل أوقف عليه
أوقافا جمة للانفاق على عمارته وخدمه وامامه ومقرئيه ، ورتب لهم الرواتب السخية ،
وجعل أحباسه كلها ، وقفا واحدا ينفق ريعه في رعاية مقام سيدي عقبة والجامع
والسبيل والمكتب وغيرها من متعلقاته ..

وأوقف السلحدار المسجد على المسلمين ، تتوالى فيه الصلوات والخطب في الجمع

والاعبياد ، وتقام فيه الشعائر ، ويتلى فيه القرآن وتدرس فيه الاحاديث .. أما الزاوية المجاورة للجامع فقد جعلها مكتبا لايتم المسلمون ، يكون به فقيه قراء وعريف واثناء عشر طفلا لم يبلغوا الحلم ..

« وجعل الصهريرج سبيلا للفقراء وجميع المسلمين ، يملا في شهر « طوبة » من النيل ، وجعل نفع الساقية عموميا للمظهرة وغيرها ، والمساكن التي بجوار الجامع معدة لسكن الامام والخدمة ..

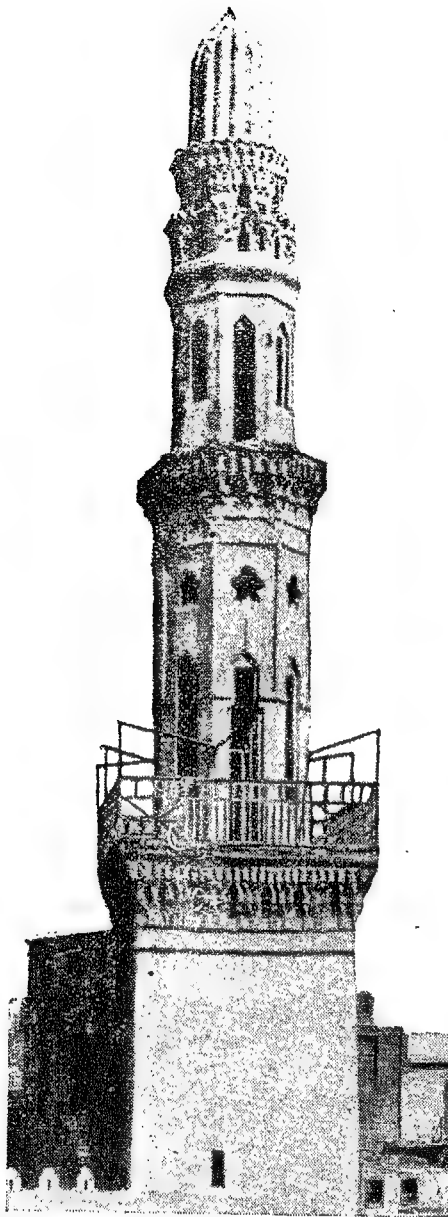
« واشترط أن يبدأ بالعمارة و« المرمة » ثم يصرف لشيخ القراء كل شهر من الشهور العربية ستون نصفا .. وقرر لشيخة الحديث مفتى السادة المالكية « الشيخ اللقاني » ومن بعده يقرر الناظر من هو أعلا الناس سندا ..

وقد درج هذا الوالى العثمانى على حب الخير ، واستهوته عمارة بيوت الله ، فأنفق فيها ماله حتى لقبه السادة اللقانية « بأبى النور » ..

وحدثت في أيامه فتنة مملوكية بين جماعتى « القاسمية » و« منافسيهم » « الففارية » ، وقد ثار « الففارية » عليه وأنزلوه من قلعة الجبل وعزلوه من الولاية وسلبوه السلطان ! وأخذ المماليك بعد هذا يتغلغلون في شتى شئون الحكم ، حتى قويت شوكتهم من جديد .. وأصبح الجو ممهدا للقيام بمغامرة لانتزاع الحكم ، لامن يد الوالى العثمانى فحسب .. بل من يد السلطان نفسه ..



احدى مشكاوات جامع السلطان برقوق



عمودة المماليك

لئن كان « الخنكار » سليم الاول قد اعتبر
موقعة « مرج دابق » تاج نصره وبداية
توطيد أقدام العثمانيين في الشرق ، فان
الواقع نفسه والحوادث معه قد أكدا غير ذلك
واعتبرا تلك الموقعة بالذات نهاية فعلية
لعهد سلاطين المماليك الشراكسة وحكمهم ،
وبداية مدعمة لفترة ترقب خاطفة - تم
خلالها زحف المماليك ثانية الى أماكن
الصدارة في مصر ، حتى لقد صارت لهم
المنعة والقدرة على شل يد الحكم العثماني
والقضاء على هيئته في مصر ، وأحيانا في
بلاد الشام والحجاز ..

لقد كانت الحياة واشاعة الفرقة في
الصفوف وإيجاد الاحزاب وتربص الطوائف
بعضها ببعض ، أساسا لسياسة سليم
الاول وسر انتصاراته ، وهى أسس كان
صاحبها يعرف أنها غير صالحة للبقاء والخلود
ولكنه برغم هذا عمل على تثبيتها وتدعيمها
في أرض الشرق - وقد خدعته مظاهر نجاحها
الوقتية ، متناسيا مقدم الغد .. متجاهلا

قومة الطوائف التى أوجدها وأدخلها فى « مئذنة جامع الحريشى بالمحلة الكبرى »
حساب الحوادث قسرا ، وهو يظن أنها ستعمل فى صفه وتكون فى خدمته ..

كان سليم يعرف أنه أزال الملك الشركسى فقط .. أما المماليك - كقوة لها أثرها
الفعال ، فقد كان يعرف أنها لم تزل حيث كانت فى موضعها القديم ، متغلغلة فى
صميم الحياة الاجتماعية المصرية .. وانها ، وان تصاغرت أمام الحوادث وخضعت
لسلطان النصر الوقتى ، فان هذا لا يعنى خضوعها المستمر ، أو أنه تخلص منها نهائيا ..

وعلى هذا الاساس عرف سليم أن انتصاره الحربى على السلطة الزمنية شئ ، والقضاء على النفوذ المملوكى شئ آخر . ميدان التخلصى منه غير ميدان الحرب والقتال . ففكر فى حيلة من حيله الخطيرة ، يضمن عن طريقها القضاء على أى محاولة مملوكية يمكن أن تقوم بها هذه الفئة الخطيرة فى سبيل استرجاع سلطانها الداهب . .

ولقد كان سليم دائم النقصى ، لمعرفة أحوال الشراكسة الذين أزال سلطانهم . . وإذا بالخائن « خاير بك » يهبط عليه ذات يوم ويرشده الى أمير مملوكى اعتزل الحياة وطلق المجتمعات وبعد عن الناس وأغلق دونهم أبوابه ، حتى لقد أسموه « سودون الأسير » !! . .

وأحب « الخنكار » الداهية أن يعرف عن سودون هذا أكثر من أنه اعتزل المجتمعات . . فعرف أن له ولدين «أسرهما» داخل بيته أيضا ، كى يحول دون اختلاطهما بالناس ويباعد بينهما وبين الفتى حتى لقد سد مداخل قصره بالحجارة . . !

وراعت القصة السلطان العثماني الداهية . . وزاد فى إعجابه بها أن عرف حب الشابين للفروسية ومهارتهما فيها ، مهارة ندر مثيلها . . فكان أن قرر زيارة المملوك « الأسير » وولديه . .

وسرعان ماتحرك موكبه الى هناك ؛ حيث وجد الرجل فى جلسسته المنعزلة يتلو كتاب الله . .

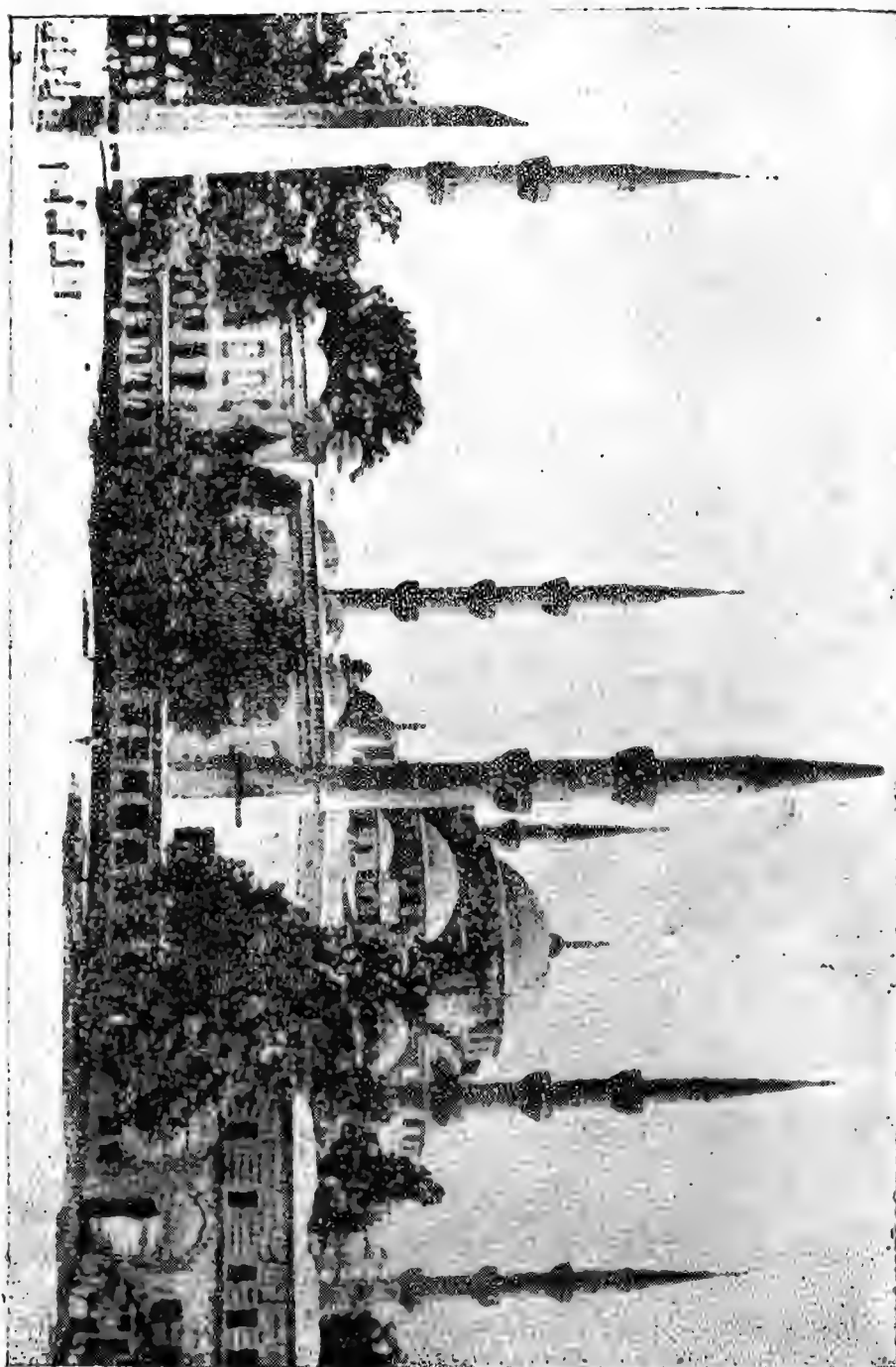
وأعجب سليم بمضيفه سودون ، وقبل أن يتناول الطعام فى بيته . . ثم لم يلبث أن طلب رؤية ولديه ، فحضر « ذو الفقار » و « قاسم » . . ورآهما سليم أعظم مما وصفهما له «خاير بك» : شبابا وفتوة ، وتواضعا ولباقة فى الحديث . .

وانصرف السلطان العثماني ، بعد أن رفع مرتبة سودون وولديه وضاعف أجرهم . . ولم يكد يجل اليوم التالى ، حتى كان قد أرسل فى استدعاء الأمير وولديه الى الصحراء التى خرج اليها فى ذلك اليوم فى موكب من حاشيته وجنده . .

وحضر سودون الأسير وولده . . وإذا بالسلطان يطلب من الشابين أن يقوموا ببعض الاستعراضات فى فن الفروسية على جواديهما أمام الجمع الحاشد ، فلبى الاميران طلبه . وعرفا كيف يذهلان بفروسيتهما جمهور الحاضرين !

وكرر سليم الحادث فى اليوم الثانى ودعا أمراء الممالك والأجناد . . ثم طلب من الجميع أن يجعلوا من أنفسهم فرقتين ، على رأس احدهما « قاسم » وعلى الثانية شقيقه « ذو الفقار » . .

وجعل معظم فرسانه العثمانيين فى الفريق الذى كان يقوده ذو الفقار ، أما قاسم فقد زوده بأمراء الممالك وجنود مصر . . وألبس رجال ذى الفقار الثياب البيض ، والقاسم ورجاله الثياب الحمر . .



« مسجد أنا صوفيا بتركيا »
 كان السلطان محمد الفاتح أول مسلم فتح القسطنطينية ووصل إلى أوروبا . وأول من استولى على الكنيسة الشهيرة « أنا صوفيا » وجعلها إلى مسجد
 عظيم . . . حول مذبحتها إلى محراب فخم ، وعلى النقوش واللوحات الكنسية بصلبان ، أعطى معانيها ، وشيد لها المآثر والقباب الرائعة . . . وتبقى بناطلة اسم
 الله ورسوله وصعابته . . . ومسجد عليها كانوا المستعدين أروع آيات الفن البيزنطي المشرق . لتستقيم في تغييراتها الدينية مع بساطة الدين الإسلامي

ولما تم هذا الاعداد الغريب ، أمر الطاغية العثماني كلتا الفرقتين أن تركب الى الميدان في هيئة عرض عام ٠٠ ثم كلفهم أن يقوموا بتمثيل معركة ! وانطلق الفريقان ٠٠ وتدافع رجال قاسم ، ورجال ذو الفقار ، وصالت الرماح وجالت ، وتدافعت الاجساد وتلاحقت ، وعلت الصرخات وعظم الكر والفر ٠٠ وكاد تعرض التمثيلي ينقلب الى حقيقة ! ٠٠ وكاد كل من الاخوين الشقيقين ينسى نفسه وصله الدم وآصرة الاخوة ، ليحرز النصر ويكون له القدر المعلى على الآخر ! واذا ذاك صدر أمر الطاغية بايقاف القتال « الصوري » ٠٠ وعودة القوات كلها الى مراكزها ٠٠

وعاد الامراء جميعا في ذلك اليوم وهم فرقان توزعت قلوبهما ٠٠ ووقف القائدان الاخوان موقف التحدى كل منهما للآخر ٠٠ ونظرا الى الواقع « التمثيلي » كانه حقيقة صدرت بها « الاوامر » ٠٠ وصارا حزينين متعارضين ، القاسمية والفقارية ، وقد تمسك كل منهما بالرى الذي اختاره له الطاغية ، والتقاليد التي استنها وبهذا الانشقاق ربح سليم من ورائهما أن شطر المماليك كمجموعة موحدة الى حزين ٠٠ وهكذا ربح الطاغية الجولة الاولى بهذا « الصدم » الخطير في صفوف المماليك المتحدة كالبنيان المرصوص ٠٠

وعاد سليم الى بلاده وقد نسي المماليك اصولهم وطوائفهم ، فلم يعودوا ، « بحرية » ، ولا « برجية » بل ٠٠ « فقارية » و « قاسمية » ، بينهما برزخ من التطاحن والعداء الرهيب ولكن هل استطاع سليم ، أو خلفاؤه من بعده أن يقضوا على النفوذ المملوكي في مصر ؟!

لا ٠٠ لقد كان النظام الثلاثي في الحكم أولا واشراك المماليك فيه ، ثم نظام الحزبية القاسمية والفقارية بعد ذلك - من أكبر الاسباب التي دعت المماليك الى تقوية أنفسهم ، كل داخل حزبه ٠٠ حتى لقد أصبحوا خطرا رهيبا على « الباشا » نفسه ، وعلى « وجاقات » الجيش الذين كانوا يعتبرون السلطة الثانية في الحكم ٠٠

وقد بلغ من استفحال قوة المماليك أن كانت لهم القدرة على خلع « الباشا » وطرده من البلاد ، بل لقد حدث أن الدولة العثمانية نفسها - ممثلة في شخص السلطان كانت تطلب منهم قيادة حملات تأديبية في مصر وخارجها لقمع الفتن والثورات ٠٠ في الوقت الذي كان يهمل فيه شأن الوالي ، لاعتقاد سادته في « الأستانة » بأنه أضعف وأحق من المماليك !

وهكذا بدأ المماليك يتسللون من جديد الى مكان الصدارة في الدولة ويحتلون أرفع المناصب وسيطرون على المجتمعات كلها ٠٠ حتى أصبح الوالي ورؤساء الوجاقات الى جانبهم لا شيء ٠٠

وقد نبه في العصر العثماني كثيرون من المماليك وارتفع شأنهم ارتفاعا له خطره ،

حتى طغت شهرتهم على شهرة الوالي ومكانته .. ومن أهمهم مملوك جرىء اسمه « عوض بك » ، حرف العثمانيون اسمه الى «ايواظ بك» - وكان من فئة « القاسمية » .. وبلغ من اعتراف الدولة العثمانية بمكانته أن جعلت ترسل اليه « الفرمان السلطاني » تلو الآخر ، ليكون قائد حملاتها على العصاة !

وورث أمجاد «ايواظ بك» بعد موته ولده الجريء « اسماعيل بن ايواظ » .. الذي فكر في سلخ مصر عن الدولة العثمانية ، والاستقلال بحكمها .. ولكن الخيانة السلطانية لاحقته ، واستطاع المرتشون من نصوص رجال المابين اغراء تابعه « محمد جركس » بقتله .. فتآمر عليه وقتله ! .. وكان أول وأجراً الممالك في محاولة الاستقلال ..

واسماعيل بن ايواظ كان رجل خير وصلاح وبر ، استتب الامن في أيامه ، وهذأت الفتن ، وعرف الناس معنى الراحة والاستقرار ، و «كانت أيامه سعيدة ، وأفعاله حميدة والاقليم في أمن وأمان من قطاع الطرق وأولاد الحرام » (١)

واسماعيل بن ايواظ بعد هذا يعتبر أول « شيخ بلد » من الممالك ، أقدم في العصر العثماني على تعمير المساجد ، فأعاد بهذا سنة من سبقوه من الممالك القدامى - بين شراكسة وبحرية ، كانت موقعة «مرج دابق» الحدالفصل لنشاطهم العمراني واهتمامهم الزائد ببيوت الله ..

وقد اتجه ابن ايواظ أول ما اتجه باهتمامه العمراني - الى الجامع الازهر .. فاستعرض حالته البنائية كلها ، فوجد سقف المسجد بأجمعه آيلا للسقوط .. فأمر بهدمه .. ثم أسرع يبنيه من جديد ، فجاء عمله تحفة بنائية رائعة ، وكان عملا جليلا له مكانته في النفوس ..

ولم يكد يفرغ من بناء سقف الجامع الازهر ، حتى اتجه الى مشروع بنائي جديد ، هو اقامة مسجد عظيم للسيد « ابراهيم الدسوقي » ..

والمسجد الدسوقي كان أول ماكان « زاوية » صغيرة رأى ابن ايواظ أنها لاتتفق ومكانة القطب الصوفي الكبير السيد ابراهيم الدسوقي .. فكان أن أمر بازالتها وآشأ مكانها مسجدا جامعا ، بناء على هيئة المدارس ، مكونا من صحن تحيط به عدة ايوانات واطهر اهتماما خاصا بالصريح الشهير ، فأقام فوقه قبة سامقة بديعة ، تغن الصناعات في زخرفتها ، فكانت آية من آيات العصر في دقة الصناعة وجمال الزخرفة .. وللأمير اسماعيل بن ايواظ ، بعد هذين الاثرين الخالدين - أثر انشائي ثالث ، هو بناؤه مسجد السيد « على المليجي » في طنطا ..

ومحمد جركس ، الذي تولى « مشيخة البلد » بعد سيده اسماعيل بن ايواظ - كان نسيجا وحده .. في البغي والظلم والعنوان !! وكانت له بطانة على شاكلته من متمردي

الماليك وعصانهم ، ارتكبوا أبشع القبائح وأرذل الفعال .. الى حد أنهم كانوا يدهشون جهارا « الخمامات » الشعبية ؛ ليسرقوا ملابس النساء وحليهن وما يحملن من مال ! وبرغم هذه الرذائل البشعة والجراة الرهيبة على أقدم المقدسات ، فقد أبى محمد جركس الا أن يشيد باسمه مسجدا مرموقا ؛ ليذكره الناس به على الدوام .. فكان أن وأتته الظروف ، فأمر ببناء مسجد شامخ ، جمع بين البساطة والروعة - جهة «مناظر اللوق» ، بعد به عن الفن المملوكي العتيق ، واتجه به الى « العمارة » العثمانية وأخذ بأساليبها في مئذنته وحرا به وطريقة بنائه ..

وقد عاصر الداهية محمد جركس - أمير خير صالح من أمراء «الفقارية» ، هو «ذوالفقار الفقاري بك» ..

ولقد كان ذو الفقار سيدا مرهوب الجانب ، على المقدار - كره أن يستبد محمد جركس بالشعب وأن يشيع الفساد في مصر ، وأن يعتدى على الحرمات دون أن تفكر قوة في الصمود له !!

بل من كان يجسر على الوقوف في وجه « جركس » الذي سجن الوالى التركى في القلعة ، ثم أمر بطرده من مصر !!

ولكن ذو الفقار وقف في وجه الطاغية ، وقامت بينه وبين جركس حروب خطيرة كان النصر في نهايتها لـ « ذو الفقار » على عدوه ، الذي هرب من الموقعة على ظهر جواد خاض به النهر ، ولم يستطع أن يتخلص منه ، ففرق ..

ومن المؤسف أن ذا الفقار لم ينعم بالنصر الذى أحرزه على جركس ، اذ تأمر عليه بماليك عدوه واستطاعوا أن يظفروا به ويقتلوه بعد موت سيدهم بخمسة أيام !

وورث أمجاد « ذو الفقار بك » وعزه ومكانته . مملوكة الذكى «عثمان بك ذوالفقار» الذى كان من الجراة وسعة الحيلة بحيث نزع الى الاستقلال عن الدولة العلية ، وأحب أن يستقل بحكم مصر ويسلخها من أملاك العثمانيين .. ولكن الخيانة تربصت به ووقفت له بالمرصاد ..

ومن أظهر الثراة في عصر عثمان بك « خشداشة » ، وصاحبه عثمان كنخدا القازدوغلى « صاحب المهابة والكياسة والسطوة والنفوذ ، وصاحب المسجد الشهير الذى عرف باسم « جامع الكخيا » ..

ومسجد « الكخيا » عثمان القازدوغلى ، هو فى الواقع مركز لمجموعة بنائية ضخمة ، انشاها ذلك الامير بجهة رصيف الحشاب . وهى مكونة من مسجد ، وسبيل ، ومكتب وحمام ..

والمسجد من حيث صفته البنائية يعتبر تحفة جميلة من فن المعمار الاسلامى ، وهو مرتفع عن الطريق ، وواجهته بسيطة المظهر ، وبه بابه الاصلى ، ويصل الصاعد اليه بعدة درجات رخامية تنتهى بمدخل حجرى متسع ، حلت به تربيعات من القيشانى ..

وباب المسجد من الخشب المنقوش بزخارف دقيقة محلاة بالنحاس المفرغ ..
وللمسجد منارة في ناحيته الشرقية ، وقد بنيت على النمط العثماني البسيط ..
والمسجد من الداخل على طراز المساجد الجامعة ، فهو مكون من صحن فسيح غير
مستوف ، فرشت أرضه بالرخام الناصع ، تحوطه أربعة ايوانات فسيحة - أعظمها
شأنها الايوان الشرقي ؛ لاشتماله على ثلاثة أبهاء مليئة بالاعمدة الرخامية التي تحمل
عقودا حجرية ركب فوقها سقف المسجد ..

ومحراب مسجد « الكخيا » في صدر ايوانه الشرقي ، وهو مقام من الرخام الدقيق ،
يكتنفه عمودان أخضران ، وقد حلأ أعلاه وأسفله بالرخام الذي نقشت عليه زخارف
ورقية ..

والى جوار المحراب يقوم المنبر الخشبي الدقيق الصنع ..
وواجهة المسجد تطل على الطريق العام .. وتشرف عليه من خلال نوافذ كبيرة
حديدية ، تعلوها مناوور دقيقة من الجص محلاة بالزجاج الملون ..
والجميل في المسجد بساطته التي استمدت من بساطة صاحبه ، الذي أبى عليه
تواضعه أن ينقش عليه اسمه ، كما اعتاد أن يفعل غيره . واكتفى بأن ثبت لوحا في
واجهة الايوان الشرقي جاء فيه :

« قد وافق الفراغ من انشاء هذا المسجد المبارك غرة جمادى الاولى من شهور سنة
ألف ومائة وسبعة وأربعين ، فنسأل الله الكريم من فضله العليم أن يتقبله من واقفه ،
ويدخله الجنة دار النعيم » ..

وافتح الجامع للصلاة في يوم مشهود .. وتقاطر الناس عليه حتى امتلأ وضاق بمن
فيه ولم يبق فيه مكان لقدم .. حتى أن الامير الأجل « عثمان بك ذو الفقار » لم يجد
لنفسه مكانا يصلى فيه ، اذ حضر متأخرا .. فعاد ليصلى في مسجد أربك اليوسفى
القريب من مسجد الكخيا ..

وقد مات « كتخدا » وخلف وراءه ثروة تجل عن الحصر ، ورثها ابنه « عبد الرحمن »
وكان وقتها حدثا .. فاغتصبها منه بعض مماليك أبيه ، ولكن عثمان بك ذو الفقار كان
لهم بالمرصاد ، فرد الثروة الى عبد الرحمن .. الذي عرف كيف يستغلها بعد ذلك في
وجوه الخير وقد ورث معها أيضا مكانة أبيه العالية ودرجته الرفيعة في الدولة ..

وقد شارك عثمان بك في أبهة الحكم صديق جرىء من المماليك ، اسمه « رضوان
كتخدا » ، وقد تسمت بنفسه الى قرية « سنجلف » من أعمال مديرية المنوفية ..

وقد كان رضوان كتخدا الجلفى أميرا جليل الشأن محبا للخير .. وكانت أبواب قصره
مفتوحة على الدوام للقاصدين .. وكانت بطانته من أهل العلم والعرفان والادب ،
وكانت له مع الشعراء صولات وجولات ..

وكان لرضوان الجلفى مماليك . . وكانت لبعض هؤلاء المماليك مطامع ، فلم يكن غريبا عليهم أن يتآمروا عليه ويحاصروه في قصره ، ويضربوه أحدهم بالرصاص فيصاب في رجله . . ولكنه مع هذا يفر منهم على ظهر جواده وهو جريح ، ليموت في مكان بعيد . . ولقد مهدت مؤامرة القضاء على رضوان الجلفى الفرصة لظهور مملوك عظيم الشأن ، هو « على بك بلو قبطان القازدوغلى » الذى عرفه التاريخ باسم « على بك الكبير » . . وقد ورث على بك الكبير أمجاد سيده رضوان الجلفى ، وتربع على كرسى « مشيخة البلد » . . فكان أخطر وأقوى الامراء المماليك وأبعدهم نظرا . .

وبدا على بك عهده بأن قتل المملوك « صالحا » الذى أطلق الرصاص على سيده رضوان الجلفى ، اذ اعتبره خائنا ، ومن الحكمة الا يؤتمن !! والتفت بعد هذا الى تقوية مركزه وتحصين نفسه . .

وعلى بك الكبير يعتبر أدهى وأقوى بكوات المماليك الذين شهدتهم مسارح السياسة بعد زوال دولة الشراكسة في مصر . . فقد كان جريئا ، عنيفا . . مصريا بدمه ولحمه وتفكيره ، محبا للارض التى وسعه كرمها . . فكان أن فكر ، أول مافكر - في تخليصها من النير العثماني الرهيب .

ونظر على بك حوالبه ، فهاله ما رأى : سلطان . . ضعيف عاجز ! ورجال بلاط ، لا يعرفون غير حبك الفتن وخلق المنازعات والدسائس ، ولا يحسنون عملا الا التجسس ، ورسم خطط الاغتيال لكل من يفكر في التحرر أو الإصلاح ! ورأى الرشوة سائدة . . وعرف أنها طالما كانت سيدة كل موقف ، وأنها وحدها كانت الكفيلة بتحقيق كل رغبة وتلليل كل صعب ومفتاح كل طريق الى الآمال والريجات !

وعز على المملوك الطموح أن تكون مصر نهبا مقسما بين فئة من المرتشين الأغراب . . وقرر في نفسه تخليصها من أيديهم مهما كانت النتيجة . . ومن هنا بدأ يقف موقف المتربص الواعى الخبير بمجريات الامور . .

وجاءت من الاستانة رسل على بك الكبير ، لتخبره أن ثمة خطة جريئة قد رسمت هناك للقضاء عليه . . وعينوا لها أبطالها . . وسرعان ماوجه ضربته قبل أن يضربوه . . واعلن استقلاله بمصر !

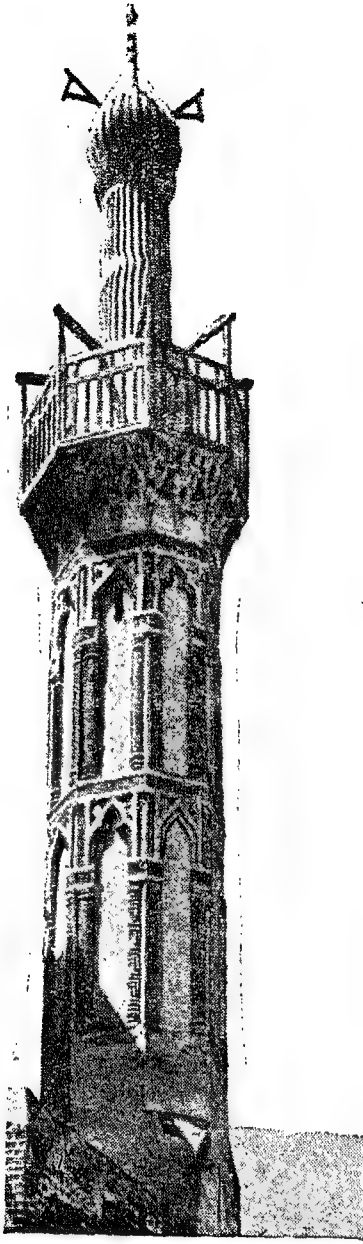
ونادى بنفسه حاكما مطلقا عليها !

ومنع دخول الولاة الا تراك اليها !

وأوقف دفع الجزية !

وضرب العملة باسمه !

ثم أخذ يعمل لفرض سلطانه على بلاد العرب والشام !



« مئذنة مسجد العباسي برشيد »

استقلال، وحيانة

استقل على بك الكبير بحكم مصر ..
وسخر علانية من السلطان العثماني ، فطرد
واليه ، ولم يسمح بعد ذلك لوال عثمانى
بدخول أرض مصر .. وراح يشتري المماليك
ويكثر منهم ، في الوقت الذي حرم فيه على
« البكوات » من زملائه القدامى ، الاحتفاظ
بأكثر من مملوكين فقط ..

وسار على بك في سبيل استقلاله بمصر
شوطا بعيدا ، أعاد اليها خلاله هيبتها القديمة
وعزها ، فنودي باسمه على المنابر ، ونقشت
« السكة » باسمه ، وفاوض الملوك وتحالف
مع الامم ، وأبرم بينهم وبين انجلترا والبندقية
محالفات تجارية ..

وكون على بك الكبير لنفسه جيشا عظيما
.. واستطاع بفضل قوته الجديدة ان يدخل
ميسدان الصراع الدولي ، وأن يعقد مع
روسيا معاهدة دفاعية هجومية .. وكانت
روسيا في ذلك الوقت مشتبكة في حرب
ضروس مع جيوش السلطان العثماني ..

وسار على بك بجيوشه خارج مصر ..
وبدأ يستولي على أملاك السلطان نفسه ،
فخلع ولاته في جدة والحجاز ، وخلع شريفها
الموالى للسلطان ، ونصب بدلا منه شريفا
آخر اعترف بتبعيته لمصر ، وأمر بأن تكون
خطبة الجمعة في الحرمين الشريفين باسم

على بك الكبير سلطان مصر و خاقان البحرين ..

ولقد كان على بك رجلا فذا ، طموحا ، قادرا ، شديد المراس ، مهيب الجانب
مرهوبا .. أحس بصفاته هذه كلها ، فأحسن استقلالها حتى وصل الى أبعد
مما كان يريد ..

وكان الرجل فوق هذا صارما ، سريع البت في الامور ، فعرف كيف ينقى الجو من الشوائب ويتخلص من شتى القوى التي كانت تناوئه في الداخل ، ولم تقف دون خطته زمالة أو صداقة أو فضل قديم ..

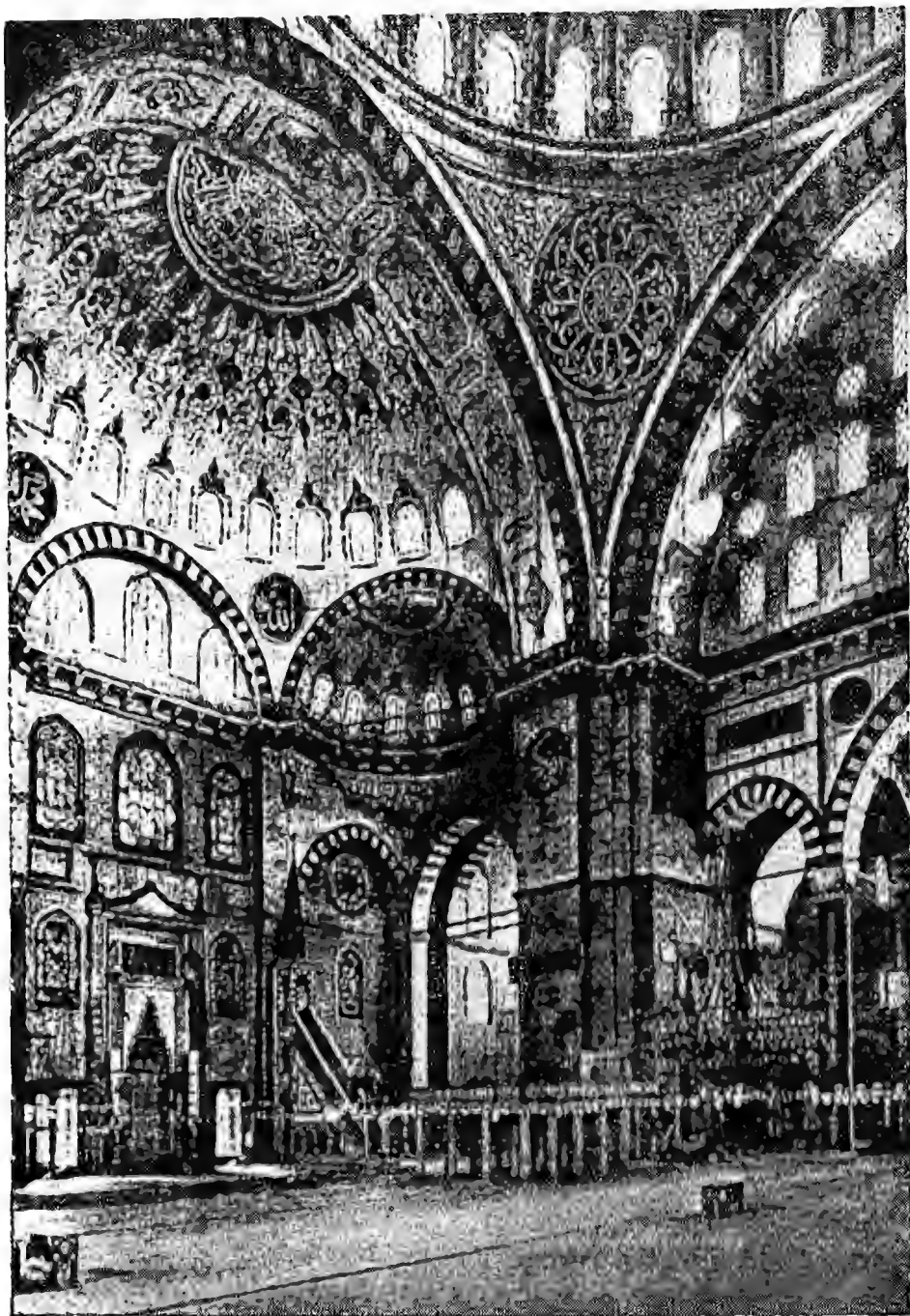
ولم يكن غريبا على رجل هذه صفاته ، أن يعرف ممكن الداء وموضع الخطر .. لهذا عمد أول ماعمد الى التخلص من « عبد الرحمن كتحدا » صاحب الايادي الظاهرة عليه ، وسيده ، وحاميه ، وساعده الاول في الوصول الى أهدافه وفوزه بمشيخة البلد .. وذلك لانه أحس من عبد الرحمن - وهو كما عرفنا كان صاحب حول وطول - ميلا الى ممارسة السلطة ورغبة بادية في التدخل في أعماله الخاصة ، فكان ان اصدر أمرا بنفيه خارج مصر !!

والتفت على بك بعد هذا .. وبعد أن تخلص من عبد الرحمن كتحدا - الى أمير مملوكي آخر خطير الشأن هو « صالح بك القاسمي » ، صاحب المكانة العالية في الصعيد وخاصة عند قبائل الهوارة - وذلك بأن وكل الى صالح بك تنفيذ أمر نفي عبد الرحمن ومصاحبته حتى السويس .. ثم أخبر أتباعه سرا بأن صالحا مقضى عليه بالنفي مع عبد الرحمن ، فحمل قسرا الى غزة ، ومنها أعيد الى رشيد ..

واستطاع صالح القاسمي أن يفر من منفاه الى الصعيد ، حيث تحصن في « المنيا » وكون جيشا خطيرا ، استطاع أن يهزم الجيش الذي بعث له على بك الكبير .. وتصلح الرجلان بعد ذلك ، ولكن على بك الكبير لم يكن صادقا في مصالحته لصالح القاسمي ، اذ سرعان ماغدر به وأوعز الى بعض مماليكه بالتربص له ذات يوم ، وكان في ضيافته ، ليثبوا عليه ويقتلوه أثناء خروجه .. وقد كان !!

ودانت الدنيا لعلى بك الكبير بعد هذا .. لقد أصبح وحده سيد البلاد ، بل أصبح سلطان مصر المستقل الذي تجاسر على أملاك السلطان العثماني وسلبها وخلع من خلع من ولائها وعين من عنده ولاية آخرين يدينون له وحده بالطاعة والخضوع .. واستقرت اقدام على بك الكبير في بلاد الحجاز ، ووجد أن الفرصة مواتية لاسترداد بلاد الشام .. فلم يلبث أن بعث اليها بجيش جرار حالفه النصر حتى وصل الى دمشق .. ثم صادفته هناك الخيانة والدس والوقيعه ، والاغراء بالمال فلعبت كلها بعقل المملوك القائد « محمد أبو الذهب » ، فاذا به ينسى واجب الولاء لسيدته على بك ، ويصغى الى مؤامرة رجال المايين زعماء الرشوة والخيانة والفساد ، ودعاة الانحلال والفوضى في انشرق الذي تكب بهم ذات يوم !!

وتقاربت الرؤوس .. وأسر أبو الذهب الى زميله مراد بك برغبته في التخلص من سيدهما « على بك » الذي طفى وتجبّر ، وعلا وتعاظم ومال الى الراحة وراح يبعث بهم الى الحرب والموت !!



« مسجد السلطان سليم شاه العثماني »

مسجد السلطان الذي ما تصور أبدا أن الفتح العثماني في مصر - الذي هزم فيه امام السلطان الفوري ستحواله الخيانة نصرا .. فلولا خيانة خاير بك لسيدته ما دخل العثمانيون مصر .. والسلطان سليم شاه هو ابن بايزيد الثاني وجده محمد الفاتح - وهو الذي عمل جاهدا لينتقل مركز الخلافة من مصر الى عاصمة العثمانيين .. وقد بنى مسجده هناك وحاول أن يخلع عن القاهرة أريدة الزعامة الدينية ولبسها للقسطنطينية .. ففشل فشلا ذريعا . ولم تستطع آلات الحرب والجيوش أن تلتصق على الإمامة الروحية ، فراح يحارب العلماء ويضعف من سلطانهم ..

وتردد مراد .. ولكن أبو الذهب أقنعه ، بل واستطاع أن يصل الى خبيثة نفسه الشريرة .. فعرف أنه يكاد يموت حبا بجارية شركسية لدى سيده على بك ، اسمها «نفيسة» رائعة الجمال .. وانه يتمنى لو يتزوج بها ..

ومن ناحية «نفيسة» هذه - نفذ أبو الذهب الى صاحبه ، فلانت عريكة مراد وقبل الاشتراك معه في جريمة الغدر بالسلطان ، مادام سيفوز «بنفيسة» ، وتكون له ..

وعاد أبو الذهب بجيشه الى مصر ، بعد أن أحكم الخطة مع سادته الاتراك ، وأخذ منهم وعدا بمكافأته وولايته .. ودخلها دخول الفاتح المرحوب الجانب ، اذ كان خلفه ثلاثون ألف محارب .. ولم يستطع على بك الكبير أن يصدهم .. أو أن يقف في وجوههم ، ففر هاربا تاركا مصر لابى الذهب ، في حين لجأ هو الى خليفة الشيخ « ضاهر العمر » حاكم عكا ..

وفي « عكا » تقابل « على بك » بقائد الاسطول الروسى المرابض هناك ، فأسرع اليه مطالبا بتنفيذ شروط المعاهدة الدفاعية الهجومية التى كان قد عقدها مع الروس .. فأمده القائد بالرجال والسلاح ليسير على رأس جيش مدرب لا تقام اخضاع الشام لحكمه ..

وانتصر على بك الكبير فى الشام ووطد أقدامه هناك ، وأصبح قوة مرهوبة يخشاها الخائن أبو الذهب .. فاذا به يتحايل ويرسم خطة للغدر بسيداه الاول ، فجره الى شرك نصبه له ، اذ أرسل اليه الوفود تلو الوفود ، تطالبه بالعودة الى مصر ليخلصها من عسف أبى الذهب !!

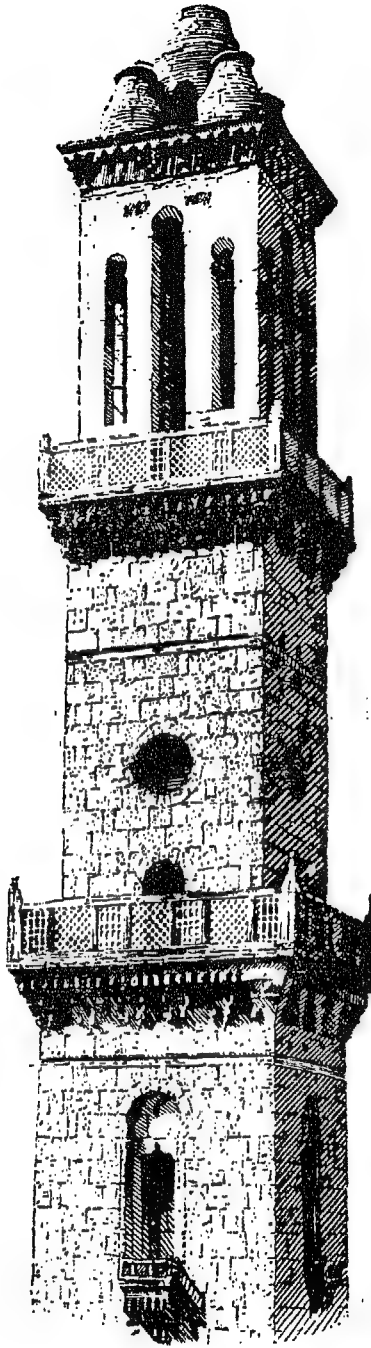
وصدق على بك ماسمعه .. وسار الى مصر بجيش صغير هزم به « أبو الذهب » عند الصالحية .. ثم المبشت الخديعة أن لعبت دورها فدارت الدائرة على «على بك الكبير» فوقع فى أسر مملوكه الذى أكرمه ، وترجل عن جواده ساعة رآه ، وركع أمامه مستغفرا وقبل يده ..

ثم صحبه معه الى القاهرة حيث بقى فيها سبعة أيام .. ثم مات ..

وقيل ان السم قد لعب دورا فى هذا الموت المفاجيء !!

وهكذا غدر أبى الذهب الذى أعاد حكم العثمانيين الى مصر ، وأفقدتها استقلالها الذى حققه سيده على بك الكبير ..





تسابق في المكرات

كانت فترة خاطفة من فترات التاريخ .
فترة بسيطة من العسير أن تتسع لبناء الامم
وتحقيق المعجزات ..

ولكن ماحدث فيها كان شيئاً جد خطير .
ثمانية عشر عاما كاملة خرجت فيها مصر
من نطاق الفلك العثماني وأعلنت استقلالها
عن السلطان .. وراحت تعمل للغد في
مثابرة وجد ، وتستعيد ما فقدت من الاتحاد
واستطاعت أن تحرر الحجاز والشام وأن
تعيدهما الى فلكها كما كانا قبل الغزو
العثماني ..

ثمانية عشر عاما استقل فيها على بك
الكبير بمصر ، وأعاد اليها رايات العز
والسؤدد ، وجعل منها شوكة في جنب
الدولة العثمانية التي أحست بخطورة
استقلال مصر ، فلجأت الى الدس والخيانة
لتسترد مكانة كادت تفقدها في الشرق ..
ثمانية عشر عاما ، مع بدايتها أهلت
الحرية على مصر ، واستروح اهلها عبر
الخلاص .. ومع نهايتها غربت أضواء
المجد ، وعادت لتخيم عليها من جديد ظلمات
التبعية العثمانية التي جرها معه على البلاد،
الملوك الغريب الخائن محمد أبو الذهب ..
تلك فترة من فترات التاريخ وان قصرت
الا انها حفلت بالاعمال والحوادث والمغامرات
وفي ميدانها ظهر رجال وأشباه رجال ..

« مئذنة جامع محمد أبو الذهب »
وخلالها برزت أعمال عظيمة ... وتمت انشاءات خطيرة واشتهرت شخصيات نافعة
وضارة ، ولملت أسماء حبيبة وبغیضة ، من أهمها - الى جانب على بك الكبير -

« عبد الرحمن كتحدا » ثم .. « محمد أبو الذهب » كمنشئ لمسجد له قيمته التاريخية فقط ..

ولئن قيل عن علي بك الكبير انه كان رجل حرب ومغامرات ، فان تاريخه يثبت له فضائل أخرى كالتشجاعة الادبية النادرة ، وحب الخير المطلق ، والبفض الشديد للخدمة والدنيا .. واحتقاره للوساطة وكرهه للمرتشين ..

وكان مجلسه مجلس الفضل والكمال والعلم .. وكان خطيبا قوى الحججة ، واسع الاطلاع ، عارفا بسير القدماء مغرما بالتشبه بهم .. وكانت شخصية السلطان الملك « الظاهر بيبرس » البندقدارى ، من أحب الشخصيات الى نفس علي بك الكبير .. واستطاع أن يخلد لنفسه بجانب مجده الحربى فى ميادين الحرب وساحات القتال - ذكرنا عظرا فى ميادين الاصلاح والعمارة ، وترك وراءه أثارا باطاقة بحبه للدين والبر ، وغرامه بالعمارة الاسلامية ..

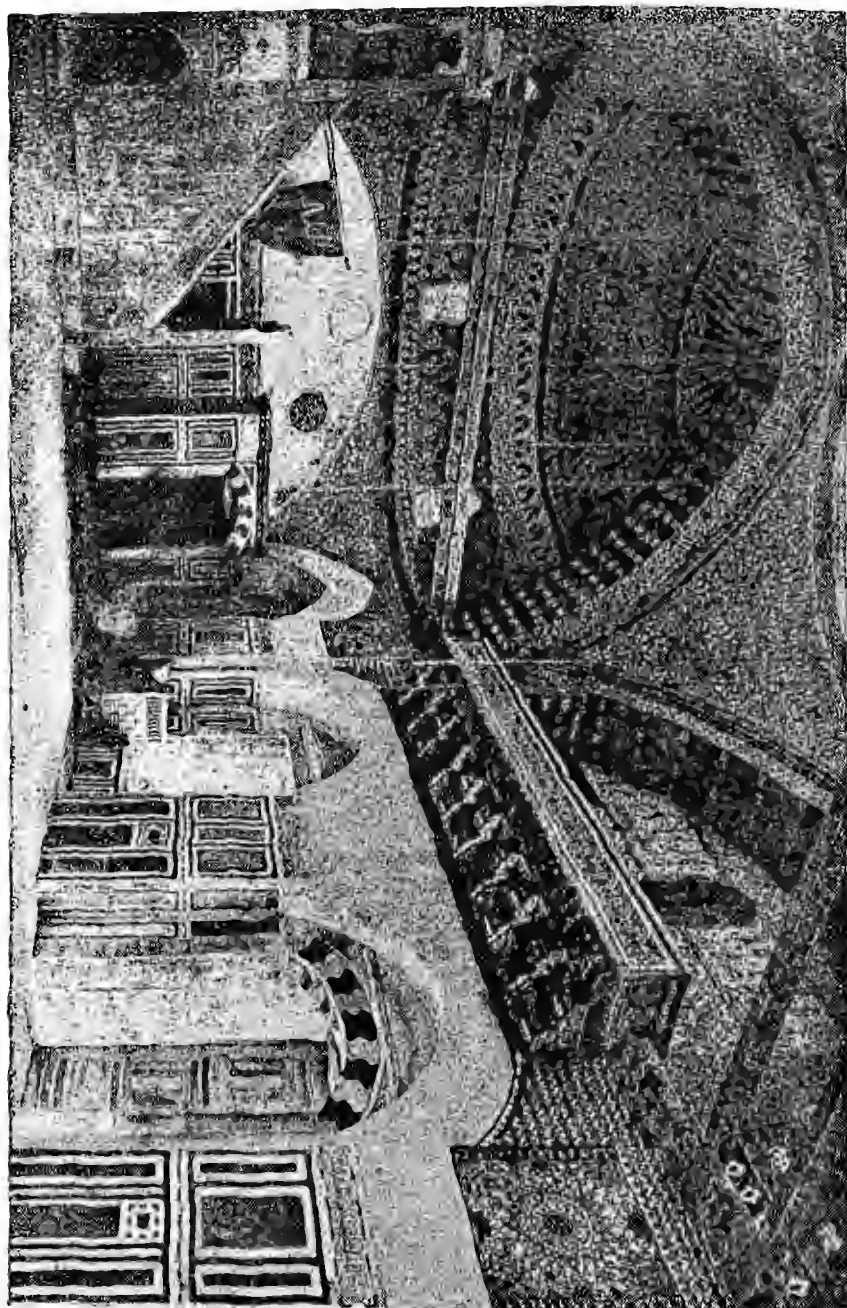
ولقد كان للمجاهد الاسلامى الصوفى « السيد أحمد البدوى » مكانة عظيمة فى نفس علي بك الكبير ، اذ قرأ سيرته وعرف قصة مجالدته للنفس وانتصاره على أهوائها .. ثم عرف بعد ذلك قصة جهاده الوطنى ، واشتراكه الفعلى فى بعض المواقع الشهيرة مع فئة من أتباعه ومريديه أيام الحروب الصليبية ، التى شنها « القديس لويس » على مصر ووصل فيها الى المنصورة ..

لقد استهوت سيرة السيد أحمد البدوى نفس علي بك الكبير ، ولم يجد وسيلة لتكريم صاحبها خيرا من أن يجدد مسجده القائم بمدينة « طنطا » تجديدا شاملا استكمل به روعة المسجد وجعله لائقا بمقام المجاهد العظيم ..

واقام على الضريح قبة فخمة دقيقة الصنع بديدة الزخرفة ! وشيد منارتين تجلت فيهما روعة للعمارة وبراعة الهندسة ومثانة الصنع .. ثم انشأ « سبيلا » جميلا والحقة بالمسجد ، و « قيسارية » رائعة عامرة عرفت باسم « الفورية » لأنها كانت تزدهم دوما بتجار « الفورية » الذين كانوا يفسدون على طنطا أيام المولد الشهير .. مولد القطب الصوفى الجليل السيد أحمد البدوى ..

وقد اتجه علي بك الكبير بعد هذا الى الاهتمام بقبة الامام الشافعى - التى بناها الملك الكامل الايوبى ، فأولاها عنايته .. وجددها وكشف ماعليها من الرصاص القديم الذى كساه الصدا ، ورفع الاخشاب البالية التى كانت تحته ووضع أخرى جديدة بدلا منها ثم صب عليها الرصاص من جديد .. وعمد الى تجميلها وزخرفتها من الداخل بالذهب واللازورد والاصباغ ، وأمر بأن يكتب على افريزها تاريخ منظوم ..

ويأتى بعد علي بك الكبير سيده وأستاذه وحاميه ، ومساعدته الذى وصل به الى



« مسجد سليمان باشا الخادم »

يعبر هذا المسجد في ولاية المساجد الإسلامية الأولى التي جمعت الطابع العثماني في الفن والبرق . انشأ سنة ٩٣٥ هـ . ١٥٢٨ / ٢٩ . سليمان باشا الخادم وهو من أوائل الولاة العثمانيين الذين أعيدوا بناء أصفهان كثيرا . وقد أنشأ مسجده هذا بطلبه الخليل للقيام أرويه من الولاة العثمانيين على إنشاء مساجد في الصفاهرة قامت كل جانب للمساجد المملوكية المنتشرة ، فاستغنى الجموع العمارية الإسلامية لونا جديدا من الزمان البنية تجري فيه الطابع العثماني

المجد - « عبد الرحمن كتخدا » .. وهو وأن جاء بعده فقد سبقه في الفضل والمكررات وتشبيد المساجد وتعمير بيوت الله ..

وعبد الرحمن كتخدا - أمير الخير وسيد الأمراء ، لم يكن مملوكا مجلوبا من الخارج ، بل أميرا جليلا ولد في مصر ، وفي قصر أبيه عثمان كتخدا القازدوغلي .. فهو من هذه الناحية بعيد عن الانتساب الى المماليك ، وإن كان منهم بحكم صلة أبيه المملوك السابق ..

وقد طار صيت عبد الرحمن في كل مكان ، حتى لقد عرف في مصر والشام بصاحب الخيرات والعمائر .. وبلغت المساجد التي انشاها وجدها ، وأقيمت فيها الخطبة والجماعة - ثمانية عشر مسجدا ، غير الزوايا والسبل ، والسقايات ، والمكاتب ، والاحواض ، والقناطر .. وما فرضه للفقيرات والمنقطعات من الصلات البارة . وله من هذه العمائر والانشاءات شيء كثير في ريف مصر ، وفي الحجاز ..

كما رتب للعيان الفقراء كساء من الصوف يعطيه لهم قبل حلول الشتاء من كل سنة ، ورتب لمؤذني المساجد « أحرمة » تقيهم برد الشتاء عندما يصعدون الى المآذن لأذان الفجر ..

« وكان يفرق الثياب من الحرير المحلاوى والحرير الصعيدي والملايات والاختاف على الفقيرات والارامل ..

ويخرج أمام بيته في ليالي رمضان عند الافطار القصاع الكبيرة ، مملوءة بالشريد واللحم مسقية بالمرق - والسمن ، يفطر منها الفقير والمحتاج .. وأوقف لخدمتهم نقبيا يعطيهم قطع اللحم الكبيرة الجيدة ، وعندما ينتهون من أفطارهم يعطى النقيب لكل واحد منهم رغيغين وشيئا من المال لسحوره » (١) .

وتمشيا مع قاعدة الحب العامة التي اعتاد المسلمون قاطبة أن يولوها لاهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد اتبع عبد الرحمن كتخدا نفس القاعدة دون شذوذ أو خروج ، فجعل همه حب الاشراف السادات أبناء فاطمة الزهراء .. وأبى في حبه وتكريمه لهم ولهن ، إلا أن يكون عمليا الى حد بعيد ، فأقام المساجد والزوايا واغدق عليها من ماله ..

وبالرغم من أن أهل العلم والتحقيق وكبار « النسابة » والمؤرخين ، قد اثبتوا بالادلة القاطعة أنه لم يفد على مصر من أهل بيت رسول الله غير « السيدة نفيسة » حفيدة الامام على بن أبى طالب ، وانها بقيت في مصر حتى دفنت فيها - فإن التشيع لاهل على وبناته وبنيه قد بلغ بالمصريين مداه ، فجعلهم يقيمون لهم المشاهد الفخمة .. ويصرون على أنهم جميعا قد دفنوا في ثرى مصر !!

وزينب الصغرى بنت الامام على بن أبى طالب من فاطمة بنت رسول الله ،

يصر المصريون على أنها مدفونة عندهم .. ويعينون مزارها بالذات وقبرها الطاهر وينسبون إليها الكرامات ، بل ويذكر الامام الشعرائي في طبقاته أنها دفنت بمصر ، في حين يقول غيره من المؤرخين وأهل العلم : ان « زينب » المدعى بأنها بنت الامام على ، ليست غير زينب بنت يحيى بن زيد بن على بن الامام الشهيد الحسين بن على بن أبي طالب ..

وسواء كانت صاحبة الضريح الشهير المعروف في مصر هي زينب الصفري بنت الامام على وشقيقة الامام الحسين ، أو زينب بنت يحيى بن زيد - فان الامير عبد الرحمن كتحدا لم يأخذ بهذا التحقيق ولم يعرف التفاتا وجارى العصر في معتقده بأن مزار زينب هو الموجود فعلا ، وان عليه أن يكرم صاحبته الطاهرة بأن يقيم لها ضريحا فخما تظلل قبة جليلة ، ويلحق به مسجد عظيم من المساجد الجامعة ..

وهكذا أمر صاحب العمائر والخيرات ، عبد الرحمن كتحدا بأن يقام للسيدة الحسينية النسبية زينب ، مسجد فخم ، بدلا من مزارها القديم الذى كان قد تصدع ومالت جدرانها ..

وسرعان ما بدأ العمل تحت اشراف الامير عثمان الطنبورجى ، وكان ذلك في عام ١١٧٤ هجرية .

كذلك أمر عبد الرحمن كتحدا بأن يقام الى جوار المقام الزينبى الشهير مقامان آخران ، هما عبارة عن تركيبتين من الرخام ، احدهما على قبر « محمد العترى » الذى يقال انه اخ القطب الشهير « ابراهيم الدسوقي » .. والاخرى على قبر سيد من أهل الصلاح ، والتقى هو « وجيه الدين أبو المراحم الحسينى العلوى العبدروسى التريمى » . وكلا القطبين ينتهى نسبه عند الامام على بن أبي طالب ..

* * *

وكما اهتم عبد الرحمن كتحدا بالضريح الزينبى ، كذلك وجه اهتمامه الى البقية الباقية من آل البيت النبوى الكريم - الذين يصر المصريون على انهم دفنوا في أرض مصر ، منهم « سكينة بنت الحسين » وأختها « فاطمة الصفري المعروفة بالنبوية » ، و « عائشة » .. فبنى مساجد لهؤلاء الشريكات جميعا ، وكانت من الفخامة بدرجة ملحوظة جدا .. ثم اتجه الى المسجد النفيسى ، فجدد فيه وجعل .. ثم مشهد رقية بنت على فعمره وجده وأضفى عليه رواء ..

وبنى الامير بعد هذا مسجد شرف الدين الكردى ، ثم مسجد الامام الشافعى . ولم تقف جهود كتحدا العمرانية عند هذا الحد ، بل انه ذهب بنفسه الى جهة « كيمان الجارح » ووجه عنايته الى مزار قطب من أقطاب الصوفية ، ظهر في أواخر أيام المماليك الشراكسة ، وكانت له مع بعض سلاطينهم - ومنهم « طوماى باى » وقائع معروفة .. ذلكم كان الشيخ « أبو السعود الجارحى » الذى بنى له الامير عبد الرحمن

كتخدا مسجدا عظيما بين كيما الجارج في حى شبيه متخرب ، تكريما لذكرى رجل
كانت له مع طفاة الممالك وقفات مشرفة لصالح الشعب ..

ويبقى بعد هذا الخائن محمد أبو الذهب ، الذى باع نفسه للذهب العثماني ، وكذلك
باع سيده ، وباع مصر .. باع استقلال البلد المضيااف الكريم للغرباء ، وأسلم أموره
الى الطفاة المرتشين .

ومسجد محمد بك أبى الذهب من المساجد المعلقة ، يصعد اليه بدرج ، وله ثلاثة
أبواب على وجه احدها نقش هذان البيتان متضمنان « تاريخ الانشاء » بحروف الجمل
فى الشطر الاخير :

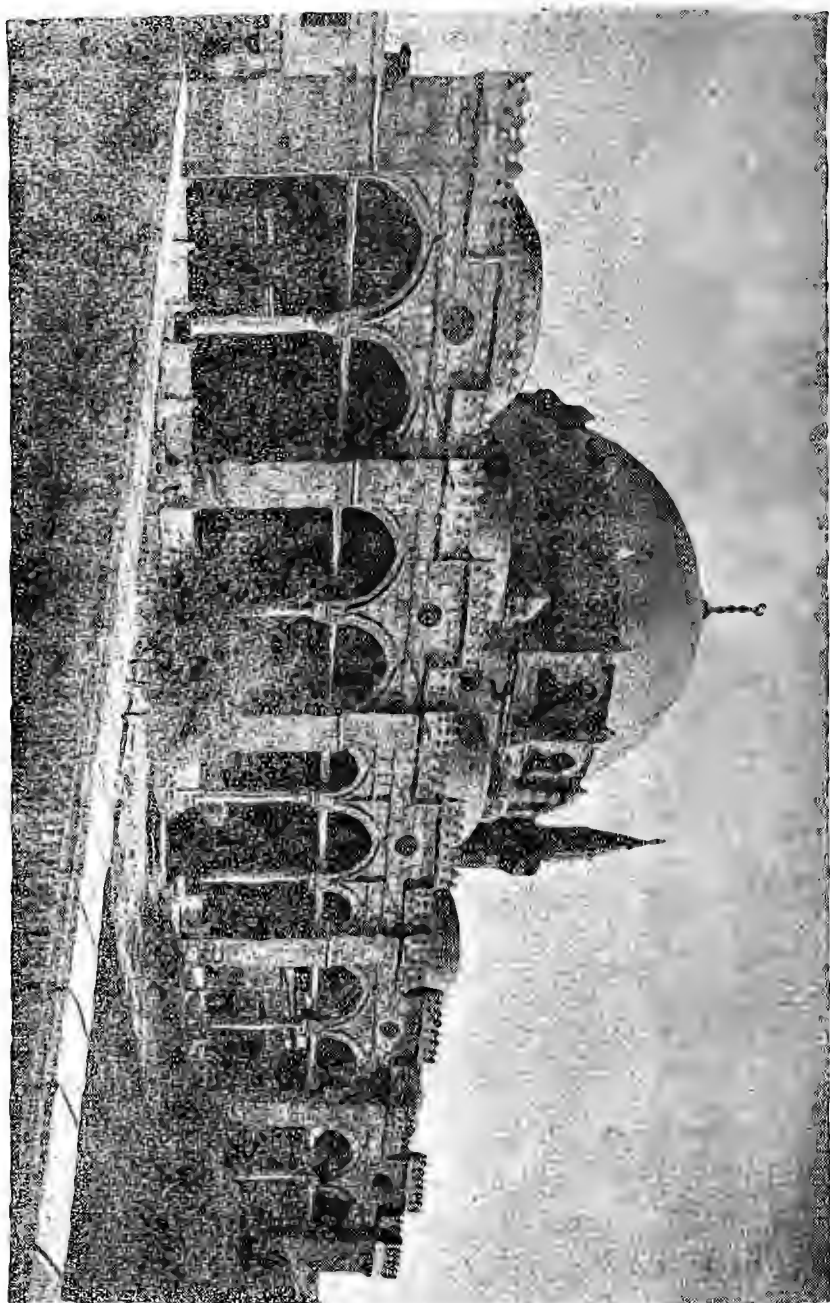
انشأت يامولى الاكابر مسجدا
ولواء نصرك فى البرية يسعد
ولك العناية بالسعادة أرخت
« حاز الفضائل والكمال محمد »
وعلى الباب الثانى وهو الباب الاصلى للمسجد نقش مايلى :
أمر اللواء الاكرمين محمد
بمسجده حاز الفضائل والذهب
عليه ضياء للقبول مؤرخ
لسعد لقد دام العزيز أبو الذهب

وبالمسجد ثمانية نوافذ نحاسية ، ومنبر خشبى مزخرف بالصدف .. وخارج
المقصورة انشا أبو الذهب لنفسه قبرا ليدفن فيه ، عليه تركيبة رخامية حفرت عليها
آيات من القرآن الكريم ، وفوقها شاهدان ، على احدهما نقش مايلى :

هذا مقام عزيز مصر أميرها
عين الاكابر ذى العلاء والسؤدد
أعنى أبا الذهب الذى فى عصره
كانت له الاقطار فى طوع اليه
تجبرى على طول المدى صدقاته
بدروس علم أو عمارة مسجده
فسحائب الرحمت يصحبها الرضا
تهمى عليه فى المساء وفى غد
والبحور فى المساوى له قد أرخت
دار السكرامة مسكن لمحمد

وعلى الشاهد الثانى :

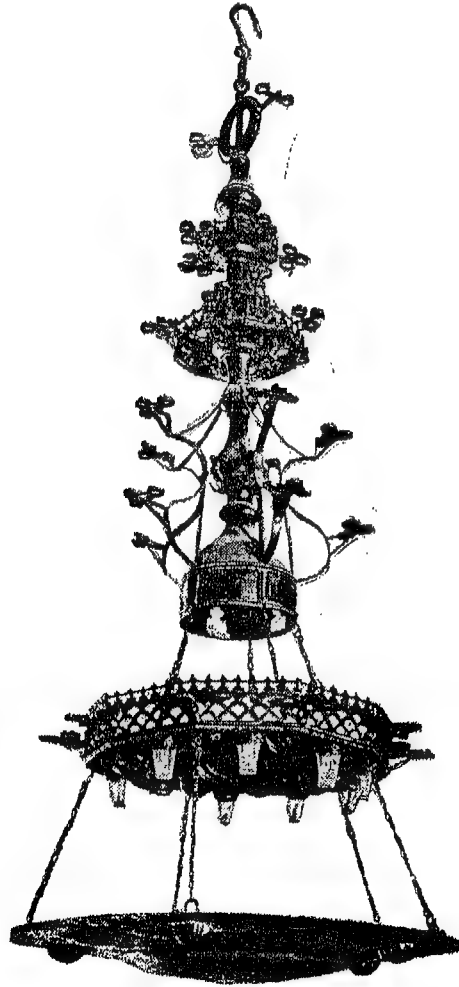
يا واقفين بقرنا لا تعجبوا من أمرنا
بالامس كنا مثلكم وغدا تكونوا مثلنا !!



« مسجد سنان باشا »

التم هذا المسجد سنة ٩٧٨هـ ١٥٧١م قرب نهر بولاق - إنشاء صاحبه (الستان باشا) ابن علي بن عبد الرحمن الذي تولي حكم مصرينما يقين السلطان العثماني مرين متابعين كان فيهما مثال رجل الاصلاح المحبوب ، ولم تكن فيه نتيجة جسيمة ، ولا تكاليفهم على المال ... والمسجد اية من آيات الفن العثماني المستحدث .

وقد مات أبو الذهب ميتة طبيعية وهو في بلاد الشام .. وحملت جثته الى مصر
فدفن في مسجده .. ثم دفنت بقبر آخر الى جانبه ابنته « عديلة هانم » التي زوجها
من مملوكه ابراهيم الالفى ..
وبموت أبى الذهب فتح الحظ ذراعيه ليستقبل مملوكين آخرين ، هما : مراد ،
وابراهيم ..
أما مراد فقد عرفناه : المتأمر على سيده على بك الكبير ليظفر بالجارية الشركسية
نقيسة المرادية !!
وأما ابراهيم فقد كان زوج اخت أبى الذهب ..



« احدى الثريات الموجودة بمسجد السلطان قايتباى »



« مئذنة جامع الامير قرقماس »

البلد الطيب

مصر .. الارض الطاهرة المجيدة ، التي
تضن بالخير على نفسها ، وتمنحه
للغرباء ، لتذيق الابناء العاقين مرارة الحرمان
وكانهم لم يحسوا غصصها ؛ فسارت
جموعهم في مواكب التاريخ ، ذائبين في
غيرهم كأنهم فقدوا الارادة والحرية الذاتية
مصر .. البلد الطيب الامين ، موئل العز
وموطن الكرم .. والجنة التي
تركزت حولها المطامع ، واليها سعت
الشعوب تلتمس المأوى والامان والعز ..

ومع ذلك بقيت مصر ، هي مصر أم الدنيا
ومنبع الحضارة في الارض منذ فجر التاريخ
فذابت في بوتقتها كل الحضارات التي مرت
على صفحتها واكتسبت طابعها وبقيت على
كر العصور : مصر الخالدة ، ذات الحضارة
والمجد الاصيل ..

مصر الفرعونية .. الفارسية ..
الاغريقية .. البطلمية .. الرومانية
.. العربية الفتية ، صاحبة العنفوان
الذي كفل لها أن تتخلص من كل هاته
المظاهر والحضارات ، لتبقى .. فرعونية
الاصل .. عربية التحضر والتقاليد التي
استطاعت دون أمم الارض أن تحتفظ
بالتراثين الخالدين : الفرعوني ، والعربي ،
كأحسن ما يكون الاحتفاظ بالمجد ..

مصر التي غفل عنها أصحابها ذات يوم ، فتوالت عليها الدول وكرت جيوش
المطامع واختلفت النظرات ..

كانت بالنسبة للمماليك أرض الاحلام البراقة التي حققت لمغامريهم المطامع ،
وجعلت منهم وهم الرقيق التافه - سلاطين يتحكمون في رقاب الاحرار .. ولم تقصر
في فرض جها عليها ، حتى نسوا فيها أوطانهم واعتبروها الوطن والحمى والملاذ ..

كذلك اعتبرها السلطان العثماني بقرة حلوبا ، تدر عليه المال اولا ، وتتركز في أرضها الحصبية قواعد حكمه في الشرق ..

أما حاشية السلطان على اختلاف مراتبها ، من صدور عظام ورؤساء وجاقات وانكشارية - بل وأغوات - فقد اعتبروا مصر المضيافة الكريمة سوق مطاعم وأهواء خاصة ، تباع فيها الضمائر وتشتري ، وتحاك مؤامرات الخلع والتولية والتقتيل والاغتيال .. وارتاب كل عمل وضيع في سبيل جمع المال والثراء من أى طريق ..

لهذا ؛ عز على الممالك الشراكسة بعد هزيمتهم في « مرج دابق » وزوال سلطانهم ، أن يتنحوا عن مراكزهم ، أو يفارقوا أرض الاحلام التي أصبحت لهم كل شيء .. فبقوا فيها ينتظرون ويتربصون قيامة جديدة للحظ .. أو فرصة مواتية لسلب السلطان .. ولهذا أيضا عز على السلطان العثماني ، أن يقدم على بك الكبير على انتزاع مصر ، درة الشرق من تاجه ، فراح بدوره يتربص فرصة مواتية وريحا رخاء تصل بسفينته التي أقصيت الى برها الرضى القديم ..

كما عز على رجال المابين - ودهاقين الرشوة والمؤامرات ، أن يتحول عنهم تدفق نهر الرشوة الذي كان يفيض مع مؤامراتهم اما لخلع ولاتهم الضعاف ، أو مساومة الممالك المتربصين ..

وهكذا تقاربت الرؤوس في سبيل رفع السدود التي أقامتها السيادة المصرية .. وكانت المؤامرة الرخيصة التي عرف رجال المابين خلالها كيف يشرون الذهب وإجاه المرتقب لشراء أبى الذهب ومن شاركوه المؤامرة ، أمثال مراد وغيره ..

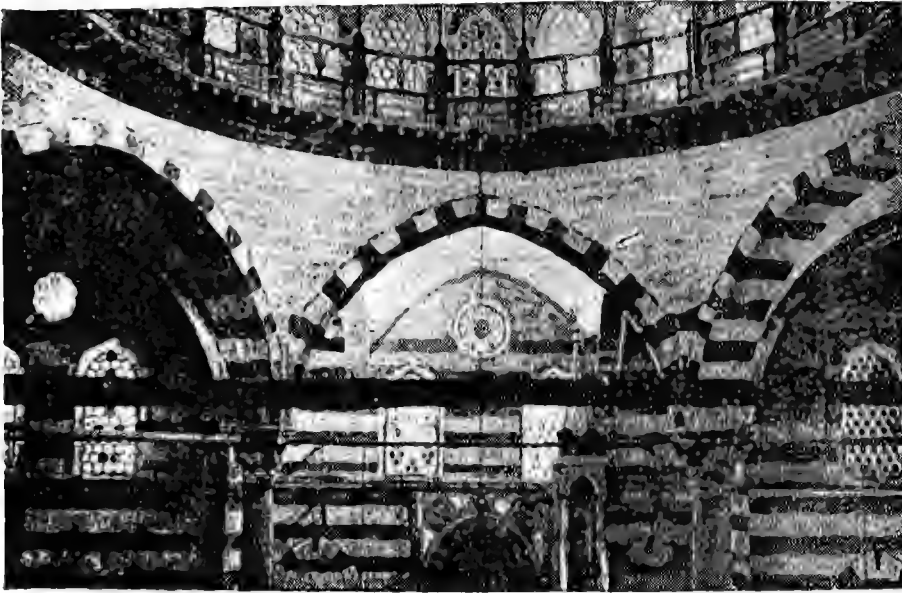
فالمؤامرة العثمانية المملوكية اذن ، لم تكن معولا لهدم سلطان على بك الكبير ، بقدر ما كانت اعصارا اقتلع السيادة المصرية من أصولها ودمر استقلالها ، وعاد بها ولاية عثمانية من جديد .. بعد ان تحررت ومارست شتى صفات الدولة ذات الاستقلال .. لقد فتح المملوك الخائن أبو الذهب باب عهد مظلم كئيب ، ملئ بالفساد والقسوة والعنت وارهاق الشعب .. ومهد السبيل للصراع بين بكوات الممالك والولاة العثمانيين الضعاف ، صراعا كان على حساب أمن الشعب وطمانينته ورخائه ، وأفسح المجال لطاغيتين جاءا من بعده هما ، خادماء ومملوكاه : مراد وابراهيم ..

لقد كان عهدا مظلما ، ذبحت فيه كل عفة ، وأريق في كل فضيلة واستبيح كل حمى ، فاختلت موازين الامن ، وضاعت ثقة المحكوم بحاكمه .. مما عجل بيقظة الشعب فعرف الوعي الوطنى كيف يشق طريقه وسط الظلمات ، ويصيح بقوة ترهب الطغاة ، وترغم المؤامرات على أن تتراجع لتختفى فى الجحور فلا ترى أمام يقظة صاحب الحق بعنا ولا نشورا ..

لقد أهدر أبو الذهب الكرامة .. وأراق صهره وخادمه ابراهيم مع شريكه مراد



« واجهة المسجد »



« مسجد الملكة صفية من الواجهة ومن الداخل »

انشأ هذا المسجد سنة ١٠١٩ هـ ، ١٦١٠ م - أحد ممالك الملكة صفية زوجة السلطان مراد الثالث العثماني ووالدة السلطان محمد الثالث وسمى باسمها ، وهو يقع بالداودية بميدان الملكة صفية بشارع محمد علي قريبا من القلعة ، والمسجد كله مبني بالحجر الأحمر كما هي العادة في المباني التركية بمصر

دماءها .. ولكن يقظة الشعب كانت كافية لدرء بعض الاهوال .. وتمهيد السبيل لظهور طبقة القادة الشعبيين من أهل مصر ، أمثال عمر مكرم ، والمحروقي ، والسادات .. وبعض علماء الازهر المتحررين ..

ومع بداية الصراع بين الطغاة والقوة الشعبية ، واحساس الطاغيتين « ابراهيم » و « مراد » وأشياعهما - بأن هناك قوة مناوئة ترقبهما وتسارع في مناقشتهما الحساب - قل اهتمام المماليك بالعمارة العامة واتجهوا في مجموعهم الى العمارة الخاصة كاقامة الدور الفخمة ، والقصور الباذخة ، منصرفين عن اقامة المساجد وكأنهم رأوا عددها قد كثر .. ولم يروا حاجة الى المزيد ..

وبرغم هذا القحط العمراني فقد اتجه مراد الى الفسطاط بناظرية ، فاذا هي خرائب دارسة ، واطلال تثير كمين الذكريات وتحرك الشجون وتستثير النخوة وتدفع من له قلب ونفس ، الى محاولة احياء التراث العظيم ، وخاصة مسجد « عمرو بن العاص » الذي شهد مشرق الاسلام في مصر والشرق ، وقام على بناؤه اجلاء المسلمين وكرام صحابة سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام .. فكان أن فكر الطاغية بعقل سليم واحب أن يمحو عن نفسه بعض اثمه ، ويسهم على غير عادته في فعل الخير ، فيقيم المسجد العتيق ..

كان جامع عمرو بن العاص قد تهدم ، فتساقطت جدرانه ، وتهاوت أعمدته ، وضاعت معالمه .. وأصبح قاعا صفصفا ، لا يمكن أن ينفع فيه « ترميم » أو اصلاح .. ورأى مراد بعد أن استشار أهل الفن المعماري أن يهدم المسجد كله فيزيل بقاياه المتخربة ، ويبدأ في تشييده من جديد على أصوله القديمة ، كي لا يفقد هيئته وتضيق معالمه ..

وكلف مراد صديقا أثيرا عنده هو الحاج قاسم الموصلي بأن يشرف على الهدم ، وأن يقوم بمباشرة البناء الجديد .. فقام الرجل بالمهمة التي وكلت اليه خير قيام .. فأزال معالم المسجد العتيق وراح يتلمس أصول جدرانه القديمة ، وأسسها ، فأقام عليها الجدران الجديدة كلها حتى كمل بناء المسجد فالتفت الى الأعمدة التي كاد يضيق بها الصحن والايوانات فأخذ يقيمها في نفس أماكنها الاولى .

ولما كمل بناء جامع عمرو بن العاص من جديد - بنفس الهيئة القديمة وعلى أصولها - وجه الحاج قاسم اهتمامه الى زخرفة المسجد زخرفة شاملة كاملة ، ليستعيد شبابه وجدته ، وأقام له منارتين شامختين ، وجدد جميع شقوقه بالخشب النقي وفرشه بالحصر الفيومي وعلق به القناديل ..

وصليت به آخر جمعة من رمضان سنة ١٢١٢ هجرية ، وكانت الصلاة جامعة ، فتقاطر اليه الناس ..

وكان افتتاحه بمنى للعاصمة الاسلامية ، وصحوة لامجادها القديمة ..

وحضر الصلاة الامراء وكبار الاعيان والعلماء والخاصة والعامة .. وأقيمت الصلاة
بإمامة الشيخ عبد الله الشرفاوى .. الذى دعا بعد الصلاة الى مجلس علم لاهياء ذكرى
المجالس العلمية القديمة ، وجعل الناس يتمثلون كبار فقهاء الشريعة وأئمتها ومجالسهم
العتيدة فى جامع عمرو .. وراحوا يصغون الى حديث الشيخ الاجل ، وهو يشرح لهم
الحديث الشريف :

« من بنى لله بيتا ولو كمفحص قطاة ، بنى الله له بيتا فى الجنة » ..

وعقب الشيخ على تفسير هذا الحديث بتفسير شامل لقوله تعالى للآية الكريمة :

« انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم
يغش الا الله ؛ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين »

وقد لقي حديث الشيخ تقديرًا كبيرًا ، جعل مراد بك يسارع الى تكريمه ، فالبسه
فروا من السمرور .. وألبس خطيب المسجد فروا مثله ..

ولم ينس مراد بك أن يسجل أخبار عمارته هذه لجامع عمرو ، فنقشها بالشعر على
أربع لوحات رخامية ، علق أولها على الباب الغربى أسفل المنارة ، والثانية على باب
قريب من الباب الاول . والثالثة فى أعلا المحراب الكبير الداخلى ، والرابعة على المحراب
الصغير وقد جاء فيها :

مسجد ابن العاص أضحي

بعد هدم قد أصابه

كعبة يسمى اليها

ترتجى فيها الاجابه

جعل التاريخ رجح

قد بنى هذا الصحابه

ولا شك أن فى هذه الابيات ما يغنى عن الرغبة فى معرفة ما كتب على اللوحات الثلاث
السابقة لها ..

وكانت عمارة مراد بك للجامع العتيق آخر عمارة مملوكية شهدتها مصر ، اذ لم تلبث
الخال أن تبدلت بمرور السنين .. وزاد استبداد المماليك بالشعب ، كما زاد عبثهم
بولاية السلطان ؛ فكانوا يخلعونهم مرة ، ويطردونهم أخرى .. ثم تالتبت جموعهم أن
تعتدى على الشعب ، ولا يسلم من عدوانها الا جانب المقيمون بمصر ..

وضج الناس بالشكوى - بين مصرى أصيل ، ومستوطن مقيم ، وأجنبى دعتة ظروفه
الى البقاء وسط هذه المعمة المضطربة بالفتن ، فلم يجد الا أن يتصل بحكومته ، شاكية
مرة وطالبا العون والتدخل مرة أخرى ..

وكان أن تحولت أنظار أوروبا الى مصر ٠٠ واتجهت اليها المطامع ، وبدأ الغرباء المغامرون ينظرون اليها بعيون الذئب ، لتكشف خفاياها الكامنة ، ومزاياها التي غفلت عنها عيون الابناء !!

وهكذا عرف الغرب مصر العظيمة ٠٠

عرفها بعيون المطامع والاغراض ٠٠

ودرس طبائعها ومميزاتها بعقلية التاجر اللص ، الذي لا يكتفي في سبيل الكسب بمبدأ أو انسانية أو دين ٠٠

وهكذا ٠٠ ومن أجل تحقيق مطامع اقليمية ٠٠ تحركت فرنسا ٠٠ وسار أسطولها الى الاسكندرية متخفيا بالسرية الكاملة ، ليصل الى شواطئ مصر ، فينشئ فيها أول امبراطورية شرقية على رأسها مغامر كورسيكي هو نابليون بونابرت !

وحرصت فرنسا على أن تسبق حملتها العسكرية ، بحملة « دعاية » واسعة ، تقول : انها حملة علمية لكشف آثار مصر ، وعرض تاريخها وأجنادها على أنظار العالم !!

ثم دعاية أخرى تقول : انها حملة « تحريرية » ، الغرض منها تخليص مصر من أيدي المماليك اللصوص !

وقيل ٠٠ وقيل ٠٠ ولكن ما لبثت الايام والواقع أن كذبت كل هذه الاقوال !

لقد كانت الحملة استعمارية بشعة ، الغرض منها استبدال السلطان العثماني بسلطان فرنسي ٠٠ وجعل مصر مركز وثوب على أمم الشرق الاخرى بعد ذلك لاكمال ربطها الى العجلة الفرنسية الجامحة الراغبة في التجوال حول الشرق لتملكه والتحكم فيه ، تنفيذا لسياسة المطامع الفرنسية ، التي كان ساستها يحلمون بها !!

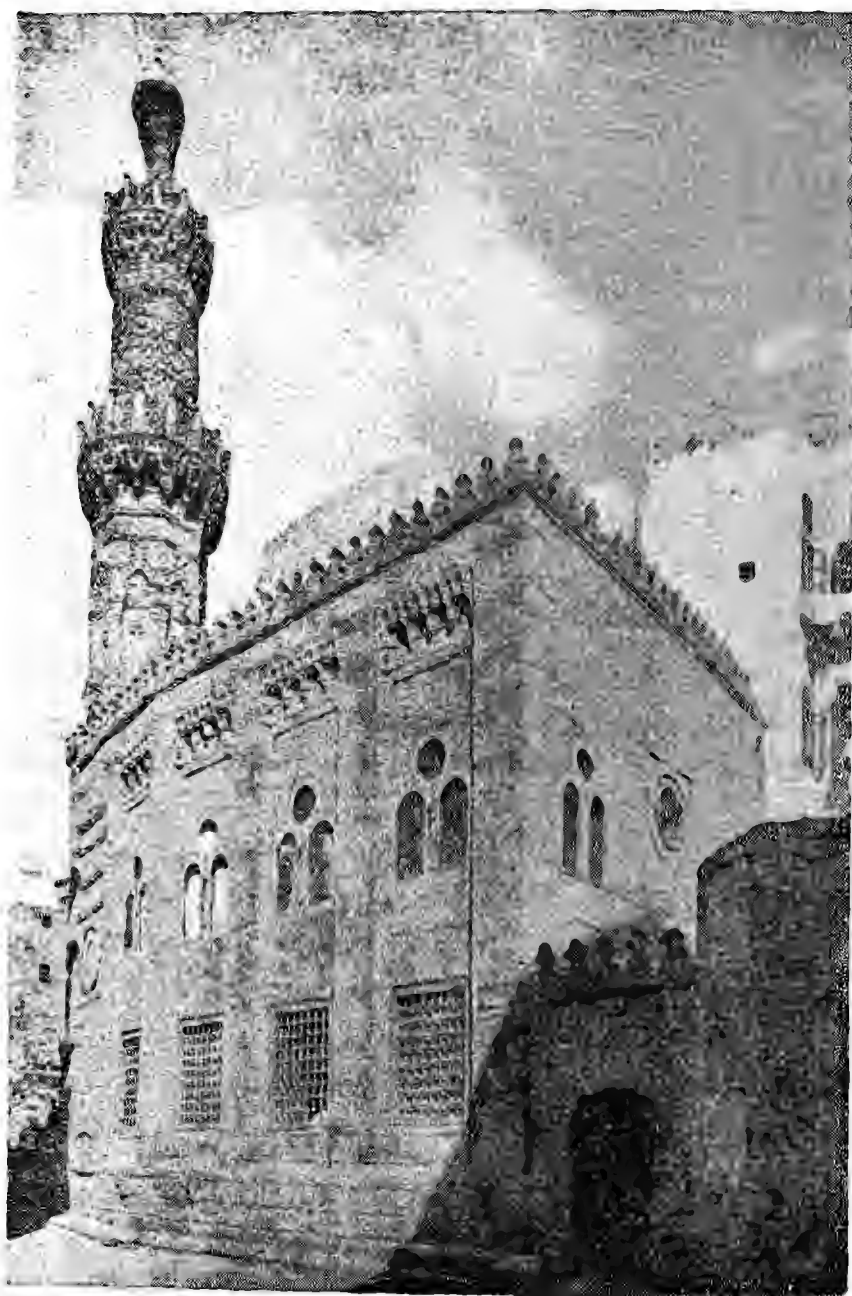
وتداعت الشجاعة المملوكية المزعومة أمام الحملة الفرنسية المحكمة بالسلاح والتكتيك الحديث ٠٠ وهرب الطغاة الجبناء ، ولم يهتموا بمصر ومصريها قدر اهتمامهم بنفائسهم وأموالهم ، فجمعوها وحملوها وولوا هاربين ٠

ومن هنا بدأت الروح الوطنية تصحو بعد غفوة طويلة ٠٠ وتفيق ؛ فترى الحاضر ، وتذكر الماضي ٠٠

وكانت حقبة من الزمن ٠٠ سجلها التاريخ بالدم الزكي لمجاهدى مصر العزل ، الذين هموا بلادهم بصنورهم العارية ، ساخرين بالحديد والنار !

ولكم كان من المخجل وقتها أن يتوارى السلطان العثماني ، خاقان البحرين وحامى الحرمين ٠٠ وقد أصيب هو ورجاله وأساطيله وجيوشه بذعر ودوار !! فقوى بذلك مركز الغزاة اللصوص ، وجعلهم يرعون مصر ويسوسونها بشريعة الذئب الجائع الذي تحكم فى قطيع من الخراف !

ذبح ، وارهأب ، وتقتيل ٠٠ دون تحقيق أو سؤال ، بل مجرد ما كانوا يسمونه « الاشتباه » !!



« مسجد البرديني »

أنشأ هذا المسجد « كريم الدين أحمد البرديني » سنة ١٠٢٥ هـ . ١٦١٦ م بالندوية قرباً من مسجد الملكة صفية ، وبالرغم من أنه أنشئ في العصر العثماني ، إلا أنه احتفظ بالطابع المملوكي ، فمئسراته مملوكة حافلة بالزخارف والكتابات وقد حوى بدائع من الفن الدقيق .. وسقفه مقسم ومزين بنقوش جميلة ، يحيط به أزار مكتوب فيه آيات قرآنية واسم المنشئ وتاريخ الانشاء

ولكن هذه الوسائل الاجرامية ، لم تفد في اتحاد الروح القومي ، بل زادت اشتعالا وفورة وجعلت القوى تتركز وتتوحد كلها حول غاية واحدة ، هي طرد الغاصب الدخيل الذي استباح الحمى واعتدى على المقدسات !

ووسط هذا الطوفان الثورى المائج واشتداد زعازعه ، برز الازهر العظيم ..
المسجد العتيق ، صاحب الاجاد التاريخية ، الذى علم وهذب واناى العقول وحمل مشعل الهدى الاسلامى منذ اشرق نوره على مصر الخالدة ..

كان الازهر معقل الثورة على الفرنسيين ..

وكان علماءه وشيوخه قادتها المغاوير ..

وامر بوناپرت بان يضرب الازهر بالمدافع ! ..

ونصب « رومارتون » مدافعه على سفح المقطم .. وصوبها الى المعقل الحصين للدين والثورة .. فهدم منه ماهدم ، وحطم ماخطم من سقوفه وجدرانته .. وتهاوى البناء الاشيم على الارواح تحت وابل النيران الفرنسية ، ليشهد التاريخ على اخلاق فرنسا التى كانت قد ملأت الدنيا طيننا بالمبادىء والمثل العليا .. وحق الانسان فى الحياة !
واستمر جزاى فرنسا فى فظائهم .. واقتحموا الازهر ، بيت الله المقدس بخيولهم واحديتهم ! واتخذوا من صحنه « حظيرة » للدواب !

وتحول الفرنسيون امام ثورة الشعب وفتكه بقادتهم ، الى وحوش فاقدة الحس ! فزاد عدوانهم على بيوت الله ، وجعلوا من مسجد « قايتباى » بالروضة « ترسانة » لصنع الاسلحة !!

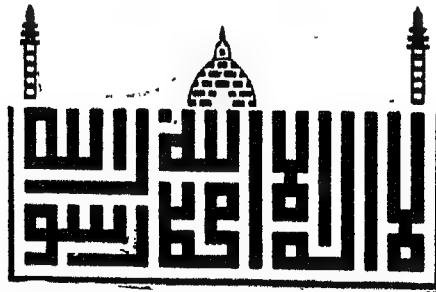
وكذلك فعلوا بجامع عمرو بن العاص !!

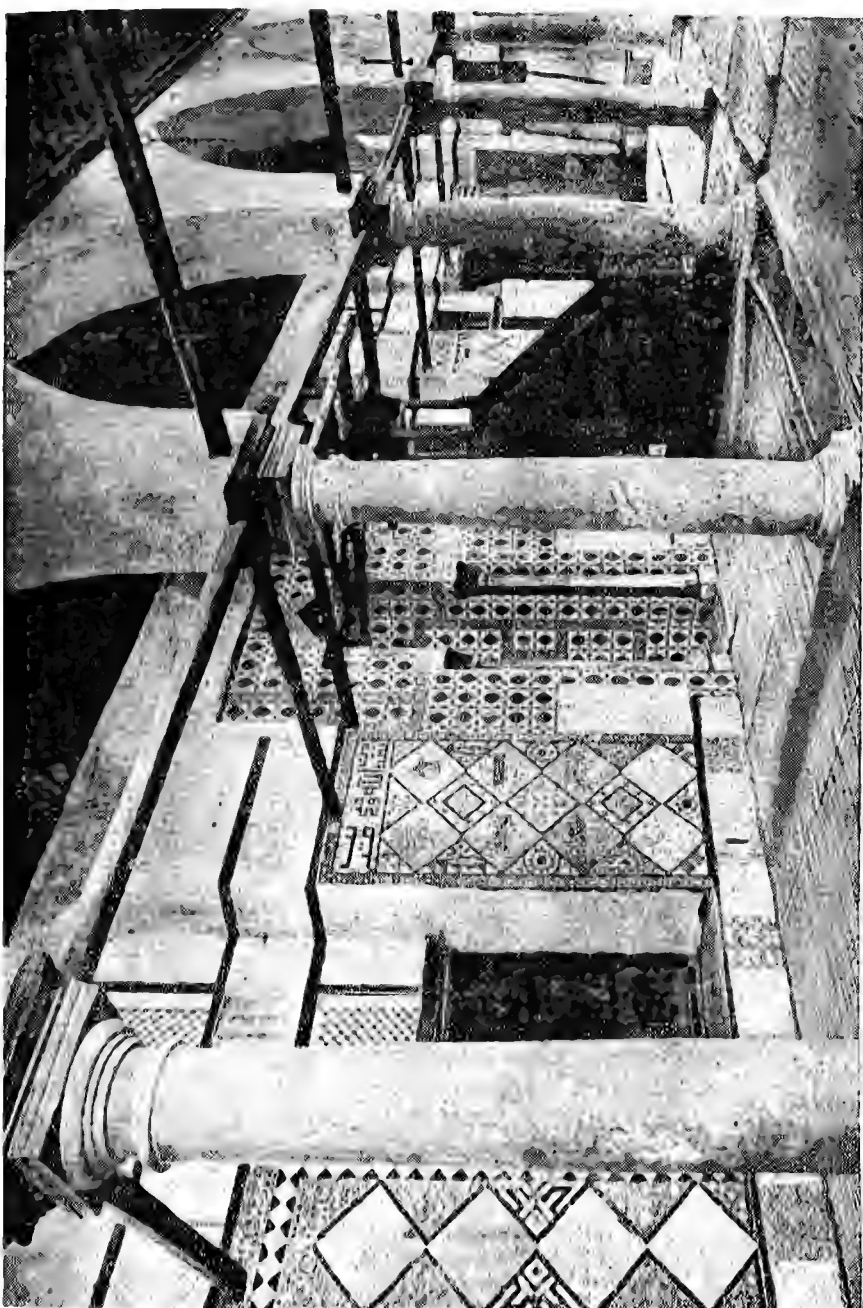
ثم ركبوا رؤوسهم ، فجعلوا من صحون المساجد حانات يتبادلون فيها الشراب علانية ويرتكبون المنكرات !

وكانما أصبح العدوان على المساجد حمى تمكنت من رؤوس هؤلاء اللصوص ؛ فهاجوا جامع الظاهر ببيرس وهدموا مئذنته ذات الشهرة التاريخية ، وحولوها الى مرصد استكشافى .. كما جعلوا المسجد نفسه « قلعة محلية لجنودهم أسموها قلعة سولكوسكى » !
وكما اعتدوا على مساجد القاهرة .. كذلك لم تسلم منهم مساجد الاقاليم فى قنا وقوص والفيوم وأسوان وبنى على ؛ .. فهدموها بمدافعهم واحالوها الى خرائب تصرخ باللعنة والعار فى وجوه الذئاب الفرنسية البشرية !

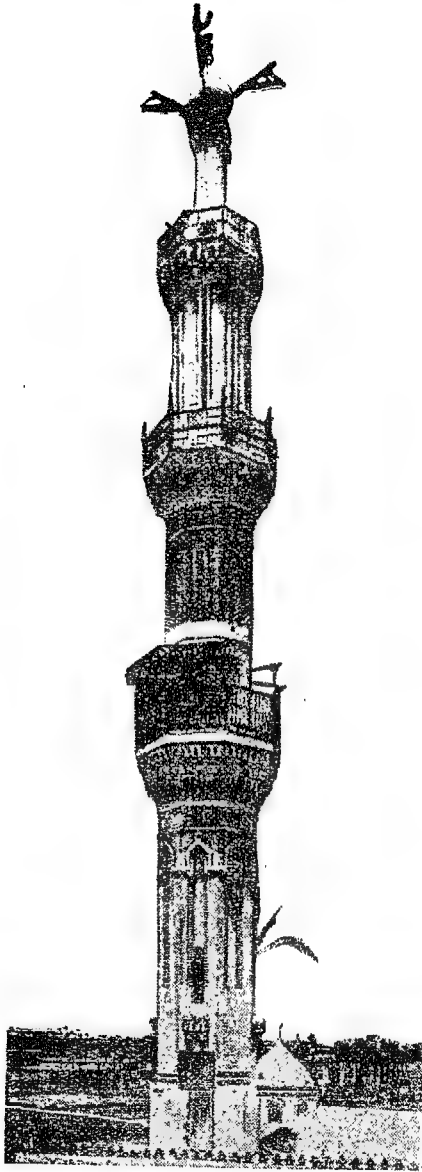
ولقد زادت هذه الفظائع من اصرار الشعب على مقاومة هذه العصابة السفاحية .. فكانت المواقع .. وكانت الانتصارات الشعبية .. وكانت يقظة الروح الوطنى .. وكان الثبات الشعبى الاعزل فى كل ميدان امام قوى الطغيان وما كانت تحمل من آلات الهلاك والدمار !

واخيرا تحرك السلطان !
 لا ليحارب بجيوشه الضعيفة المفككة ! بل ليتراعى على اقدام الانجليز ، وكانوا وقتها
 يتفاوضون فى تصفية تركته وتقسيم أملاك « الرجل المريض » !
 وطلب منهم التدخل لحماية الشرق ومساعدته على اجلاء الفرنسيين !
 وتحرك الاسطول الانجليزى ليحمى السيادة التركية فى الظاهر .. وليحاول تثبيت
 اقدام الاستعمار البريطانى فى الشرق ! .. انها مطامع جديدة !
 مطامع اخفاها أصحابها الذين انتظروا الفرصة السانحة ، فساروا فى الركب ..
 وأطلقوا أبواق الدعاية ..
 انهم يعملون لحماية السلطان ! العاجز الذى تفكك ملكه .. وتهافت مقومات حكمه
 وأذنت شمس الغروب !
 ووصلت الحشود العثمانية الى مصر فى حياة الانجليز ..
 وبدأت جيوشهم تتحرك لتحرير الارض الغالية ..
 ولكن « كليبر » القائد الفرنسى تصدى لهم فى أكثر من موقعة برية .. ورمى بهم
 الى البحر فى أكثر من صراع بحرى وكشف حقيقة قواهم وأظهرهم فى صورة العاجزين
 ومرة ثانية ، استغاث السلطان بالانجليز ليسندوا ظهره المتهالك ، ولجئوا جيوشه
 .. ويحرموها لذة الفرار من الميدان !
 وفى النهاية تمت « اتفاقية الجلاء » بين فرنسا وحدها من جانب ، والانجليز والأتراك
 معا من جانب آخر !
 ومرة أخيرة عادت مصر الى حظيرة الحكم العثمانى وعاد اليها الطفلة والمرتشون
 وأصحاب المطامع ..
 وفى ركبهم دخل الارض الطاهرة مقامى البانى من الجنود المأجورين الذين عرفهم
 الأتراك باسم « الجوفندكية » .. وكان اسمه « محمد على » ..





« جامع دوقسيس برشيد »
 انشا هذا الجامع صالح انا دوقسيس في سنة ١١١٦ هـ ، ١٧٠٤ م ويقع في وسط مدينة رشيد ، وهو من المساجد
 المعلقة يصعد اليه بضع درجات ، واهم ما يتميز به محرابه الكسوة بترابيع من القشاني الخزرف الجميل . والى
 جوار المحراب منبر خشبي دقيق الصنع ، وطراز منارته شائع في كل من رشيد ودمياط ومدن الوجه البحري .



رشوة وطغیان

الوالی الترقى ..

رؤساء الانكشارية ووجقاتهم ...

البكوات الممالیک ، وعلى رأسهم «الافى»

و «والبردىسى» ..

العلماء ومن ورائهم الشعب ..

ثم ..

وبمبعدة من هؤلاء جميعا كان يقف تاجر
حقوق طامع ، كان يتربص ويمنى نفسه
بالاحلام البراقة ، يود لو تصبح حقائق من
اى طريق ، شريف او غير شريف .. ذلكم كان
«الجوفندجى» الالبانى ، حارس الطرق ،
وتاجر الدخان السابق ، والجندى المحترف
فى الجيش العثمانى .. «محمد على» !!

اولئك كانوا ابطال المسرحية المتكررة
الحوادث ، خلال الفترة التى تلت خروج
الفرنسيين وعودة مصر الى السلطان
العثمانى من جديد .. حيث كانت تجرهم
الظروف الى الاشتراك فى القصة المألوفة ،
المعروفة البداية والمكشوفة النهاية ، والتى
قد تفترض مسيرها الرتيب مفاجآت
واحداث ..

الوالى الترقى : رجل تورط ، فدفع ..

ثم جاء الى مصر ليحصل على مادفعه ..

وليحاول الحصول على المزيد عن طريق النهب والسلب والرشوة العلنية فى ارض
الاحلام !! ..

والوالى لهذا يكره الممالیک ، لانهم يتربصون به .. ويتجاسرون على مقامه
بالعزل ، فيوظفونه من حلم بهيج ، كان ينير جوانبه بريق الذهب والهبات ممن لهم
عنده حاجة او رجاء ..

والماليك ، يظنون انهم اصحاب البلاد ، وحفظة تراثها .. وانهم وحدهم المباح لهم ان يفتصبوا علانية كل مانطمع فيه نفوسهم من مال ومتاع !!

أما «الوجاقات» وامراؤها فقد كانوا بين وال طامع ، ومماليك غاصبين .. فلم تفتنهم الفرصة ، فاستباحوا كل محرم ، وراحوا يسرقون وينهبون ويعتدون على الآمنين ..

والشعب .. هو الفريسة لكل هذه الضواري ، ثم هو مع ذلك السد القوى الذى كان يقف فى وجوههم فى كثير من الاحيان ..

ويأتى بعد هذا ثعلب له دور خطير .. دور من يسير وراء المتعاركين ليظفر بالفريسة التى تسقط ، أو بالبقايا التى يتركها الصائد الشجاع .. فهو مع الغلوب مرة ومع الغالب أخرى .. ومرة بينهما ، يسعى بالوقية فيثير الحفيظة ويملا القلوب بالحقد الرهيب !!

وكانما كان الثعلب الأدمى على موعد مع الحظ ، اذ سرعان ما بدأت القوى تصطرع من جديد ..

ومع فورة النضال راحت الرشوة تنسلل الى رجال الباب العالى وحاشية السلطان خليفة المسلمين ..

واقصى الوالى غير المرغوب فيه ..

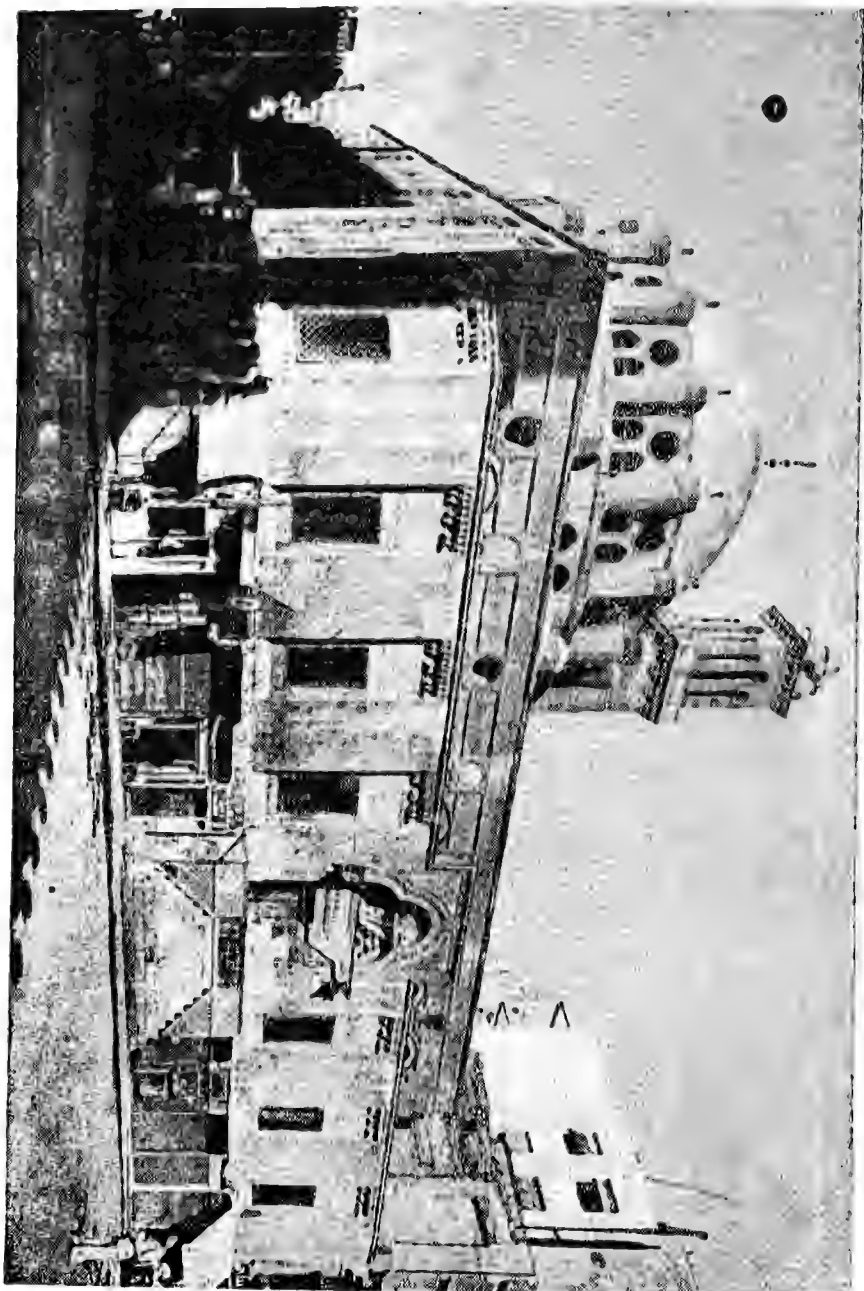
وجاء الوالى المحظوظ ، الذى أنفق وأسرف ، ليشترى الجاه - ولم يلبث أن هبط سعره فى سوق الرشوة ، فطرد قبل أن يتمكن من جنى ثمرات ما أنفق .. ليفسح المجال لمحظوظ جديد ، سخا بالمال والوعود لساداته رجال « المايين » . اذا تهيأ له البقاء ، وتحقق ما كان يرجوه من دعة وسلام واستقرار !! ..

وخرج الولاة ينهبون حيا من الاحياء .. فى الوقت الذى كان الانكشارية فيه يرتكبون نفس الحادث فى مكان آخر ، تاركين الفرصة لرفاقهم الالبان أو « الارنؤود » ، ليقوموا بنفس العمل !!

وتسلل الثعلب من مكمته ، وعرف طريقه الى الشعب ..

لقد اعتاد أن يظهر اثناء الغارات الالبانية على الاحياء ، أو اغارات «الارائطة» - ليجلبهم ويبيعدهم ، ويطيح خواطر المظلومين !!

وراعت مسوح الصلاح والتقى التى لبسها « الجوفندجى » الماكر ، عقول الشعب .. حتى لقد ثبت لديهم ان « محمد على » هذا تركى طيب القلب كثير الحنان ، لارضيه المظالم ، ولا يرضى بسياسة الاغتصاب التى كانت تحدث بايحاء من الولاة وتدير من امراء الوجاقات لبيعدوا عنهم الجنود ومطالبتهم برواتبهم المتأخرة !!



« مسجد محمد أبو الذهب »
المطور والماني الذي نفسه للذهب الشامي ، وكذلك باع سبته على بك الكنيسة وباع استقلال البلد بالمشايخ الكرام « مصر » للفسرية وأسلمها إلى الطائفة
المرتبين من جديد .. إنشاء مسجد سنة ١١٨٧ هـ ، ١٧٧٤ م تجاه الجامع الأزهر .. وهو من المساجد الرائعة ، وقد أنشأه أبو الذهب قبرا ليدفن فيه ، عليه
بركته وخلفه حوت عليها آيات من القرآن الكريم - وفوق بابي الذهب لانه كان يدعى الذهب كثيرا

وكما قام السيد عمر مكرم قومته الغاضبة ومن خلفه جموع الشعب في وجه الطاغية ابراهيم وصاحبه مراد .. وكما قام في وجه بونابرت ثم في وجه كليبر من بعده - كذلك قام من جديد في وجه الولاة ، وبخاصة « خورشيد »

والى جانب السيد عمر مكرم وقف الشعب ممثلا في زعماء من العامة كان اظهرهم « حجاج الخضرى » و « ابن شمعة الجزار » و « اسماعيل افندى جوده » .. وحوصر خورشيد في القلعة ، وجاءه امر عزل من الشعب وباسم الشعب لا باسم السلطان ..

وثار الوالى التركى المحاصر ، وعز عليه أن تطرده شرادم الفلاحين الحفاة .. ولكن السلطان نفسه أمام اصرار الشعب على عزل خورشيد أقر الامر وصدق عليه .. وهنا ظهر الشعب مرة ثانية ، وقد استخفى وراء مسوح الوعاظ أهل الخير والصالح .. واستطاع ان يخدع الشعب البريء وأن يحول حماستهم من أجل وطنهم الى حماسة من أجله هو !!

وكان ان تخيروه واليا على مصر .. وعززوا اختيارهم هذا بان أرسلوا الى السلطان يطلبون الموافقة على اقرار تعيين محمد على !!

وهكذا .. وعلى اكتاف حجاج الخضرى ، وابن شمعة ، والسيد النقيب عمر مكرم وصل المغامر الالبانى الى تحقيق حلمه الذهبى ، ووقف أمام الشعب يتقبل بالشكران منحنه ، ويلبس بأيدى أبنائه البررة المكافحين شارات الولاية ، وينسلم صولجان الجاه الذى سوده على أرض الاحلام وجعله واليها وحاكمها المطلق !!

ووصول محمد على الى كرسى الولاية ، وانتقاله من داره المتواضعة الى قاعات وابهاء قلعة الجبل .. ثم حياته بعد ذلك في جو مشبع بانفاس السلاطين والملوك الذين جلسوا قبله هناك .. كان كافيا لان يززع يقينه ويبدد ايمانه ويجعل منه شخصا آخر .. ويصيبه بشبه « لوثة » بدت بعد ذلك في كل تصرفاته !!

ابدا مافكر حارس الطرق ، وتاجر الدخان ، والجندى المرتزق - في أن يرقى يوما في سلك الجيش العثمانى الى أكثر من رتبته ، فضلا عن ان يصبح حاكما لمصر .. يجلس حيث جلس « صلاح الدين » و « الملك الصالح » و « وايبك » و « بيبرس » !! فكيف به اليوم وقد وصل ؟!

انه الآن يفكر بعقلية التاجر الفقير ، الذى ضحك له الحظ ذات يوم ، فاذا هو مقدم على التجار اجمعين !!

وانه بهذه العين اليوم يستعرض مركزه : انه الوالى .. واعداء الوالى لما يزلوا في أماكنهم حيث عرفهم .. ولكنه كان أسعد من كل الولاة حظا ، اذ لم يسلم نفسه بقوة

الوجاقات العثمانية ، بل بالتفاف الشعب حواليه وحمايته له ..

وتلك كانت قوة لم يلتفت اليها ابدا من سبقوه !!

وهكذا بدأ الوالى الجديد يعمل بعقلية التاجر الذى يريد دعم مركز تجارته الجديد .
وكان أول عمل قام به هو الاتصال بسادته رجال الباب العالى ، فحولهم الى نصرته
عن طريق الاسراف فى الرشوة .. وقد افلح فى ذلك وحقق اكبر نجاح
وخطا الثعلب بعد ذلك خطواته الثانية بترحيل الجند العثماني المتمرد وضباطه
الطامعين واستجلاب غيرهم ، حتى يحين وقت الاستغناء عنهم اجمعين ..

وبدا المسرح يقفر من شخصه العديدة .. وبدأت فى ذات الوقت تنقلص قوى
التيارات الخارجية العارمة .. وأصبح على الوالى الذى دعم مركزه مع سادته أن
يلتفت الى التيارات الداخلية المعارضة ..

وكانت أقواها بالنسبة اليه التيارات المملوكية ..

وتقرب محمد على الى « البرديسى » وجعله سلاحه ودرعه الذى حارب به « الألفى »
.. فلما انتصر عليه وأقصاه وجرده من كل سلطان ، التفت الى حليفه البرديسى ، وحرص
عليه الجنود فحاصروا داره وطالبوه برواتبهم المتأخرة .. وقضوا عليه !!

ولم يكن الرجل الداهية يقضى على رؤوس أعدائه ، حتى التفت الى الأذنان -
وكانوا ممثلين فى البقية الباقية من بكوات المماليك ، فجعل منهم ذات يوم طعامه الشهى
فى وليمة المذبحة المملوكية الشهيرة بالقلعة !!

وخلا المسرح للثعلب الرهيب ، الذى اغتصب جلد الاسد واحكم لبسه ، حتى لقد
بدا وكأنه صاحبه !!

والتفت حواليه بعين التحذر ، فلم يجد أمامه غير قوة الشعب ، ممثلة فى زعيمه
الحليف القديم السيد عمر مكرم ..

ودوى فى خيال محمد على اسم « عمر مكرم » .. وكان للدوى صدى مزعج !! ..
عمر مكرم وحجاج الخضرى .. انهما صاحبا الفضل عليه فى هذا العرش الذى
يتربع فوقه !!

وانه ليرغب فى التحرر ويكره المراقبة . وان مركزه اليوم لأقوى من مركز الوالى
العادى ، وأمكن من مركز السلطان صاحب الحق المنفرد فى بلاده ..

ان «عمر مكرم » يريد أن يجعل من نفسه باسم الشعب رقيبا على أعمال الطاغية
الجديد ، لاسيما تصرفاته المالية .. وان « حجاجا » لفى مكان الجهاد ، يرابط على
أتم استعداد للعمل !!

وهكذا قضى محمد على بنفى عمر مكرم .. والقضاء على حجاج !!

وكان عمله هذا ردا لصنيع الرجلين وجميلهما .. اذ غامرا وسمحا للوحش أن يعيش طليقا بين الناس ..

وهكذا أصبح «محمد على» فريد عصره في مصر بعد أن قضى على الروح القومى .. وأفلح في السعاية بين القادة الشعبين من صفوة رجال الازهر ، فجعلهم ينتكرون زميلهم وقائدهم القديم عمر مكرم !!

وجرى النصار بين يدى الالبسانى المغامر ، وعرف عن طريقه كيف يشتري الذمم ويسكت السنة رجال المايين ، حتى السلطان نفسه .. فتفرد بالحكم .. وراح يتبع سياسة الضغط والارهاب ..

ولم يكتف الداهية بأن تكون له ولاية مصر طوال حياته .. فسعى وأفلح في سعيه وانتزع من السلطان العاجز اعترافا بحصر «الولاية» في أكبر أبنائه من بعده ، فهدأت نائرة القلق في نفسه ..

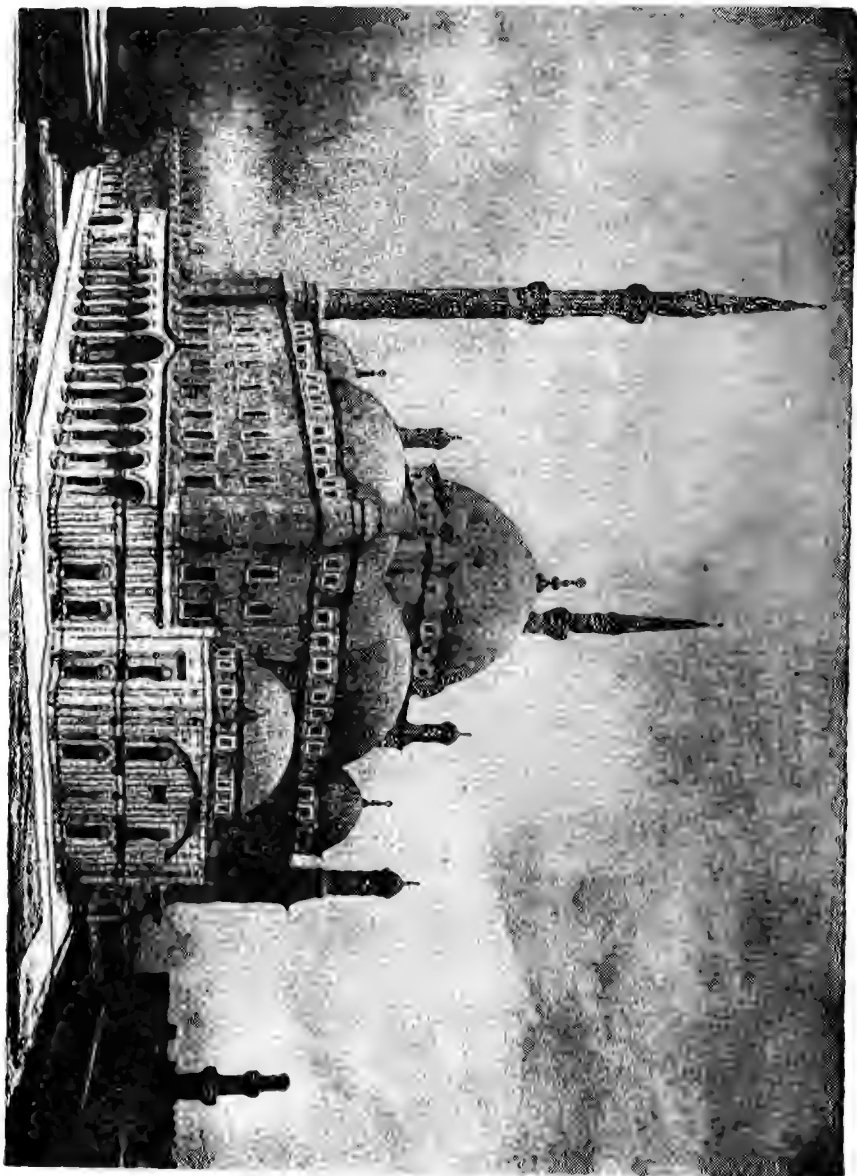
ونظر حوله .. يستعرض التاريخ في معالم القاهرة الخالدة .. لقد راعت أعمال سلاطين الممالك وعمائرهم أنظار محمد على ، فأحب أن يكون له مثلهم أثر خالد في مصر .. فكان أن فكر في بناء مسجد يحمل اسمه ..

واستعرض الوالى الاماكن الشهيرة في القاهرة .. فوجدتها مكتظة بالمساجد والعمائر وكره أن يكون مسجده وسط الزحام وبين غيره من آثار عديدة .. وأحب في نفسه أن يتفرد هذا المسجد كما تفرد هو بكل شيء .. وأن يشرف على مساجد القاهرة كلها كما أشرف هو على البلاد ومن فيها .. فاستقر رأيه على أن يجعل قلعة الجبل مكانا لهذا المسجد ..

وبناء مسجد في القلعة ، فكرة سبقه اليها السلطان المملوكى «الناصر محمد بن قلاوون» ومن بعده «سليمان باشا الخادم» .. ولكن مع فارق ظاهر ، هو أن المسجدين السابقين بنيا داخل القلعة بحيث لا يظهران لأعين الناس .. أما محمد على فقد بنى مسجدا ظاهرا للعيان قابعا فوق مكان شاهق مشرف على القاهرة كلها ، وكأنه عين من عيونه العديدة التى كان يرسلها في أثر الناس ، ليتقضى اخبارهم .. ويرى فيهم بعد ذلك مايراه !!

ومسجد محمد على ، يعتبر من أجمل مساجد القاهرة وأشهر آثارها .. وقد كانت مكانه من قبل عدة مباني قديمة ترجع الى عصور عديدة خلت ، أمر محمد على بإزالتها فأزيلت جميعا

وعماره ينشئها محمد على في ذلك الوقت البعيد ، كان من اللازم ان تسخر لها كل



« مسجد محمد علي »

لقد حارب محمد علي في سبيل استتباب سلطانه . . . وقضى علي وعلى اعدائه . . . واقام وليمة الدبحة المذوية في اقلية حتى خلا المسيح له ودموعه . . .
 . . . لردغم هذا انشا له مسجدا . . . وظلما يعني في تاريخه كرهيب . . . لقد راعه اعمال سلاطين العالينك وعضائهم . . . لاجب ان يكون له منظم اثر خاله في
 . . . فكان ان فكر في بناء مسجد يجعل اسمه . . . في سنة ١٢٤٦ هـ ، ١٨٣٠ م خلد . . . انشاه صلاح الدين الايوبي لتتبره على القاهرة كلها . . .

**الجهود والكفايات الفنية ، ليكون العمل جديرا بالانتساب لصاحب « ضيعة » مصر ،
والمتصرف في أقدارها وأقدار أهلها أجمعين .**

وأخذ العمال في حفر أساس المسجد حتى وصلوا الى عمق عظيم .. ثم راحوا يضعون الأساس المتين ، بحيث يقوى على تحمل ثقل المسجد الفخم ، فأرسوا الحجارة الضخمة طولا وعرضا .. حتى ليبلغ الحجر منها أربعة أمتار .. وبين كل حجرين كانوا يمدون قضيبا من الحديد ويسكبون فوقه الرصاص المذاب ، امعانا في تثبيت الأساس وتقويته ..

وأخذ «الأساس» يرتفع حتى وصل في النهاية الى وجه الارض .. وهنا توقف العمل ، وأخذ المهندسون في تخطيط معالم المسجد الذي أراد له صاحبه أن يكون على هيئة مسجد عظيم في القسطنطينية اسمه مسجد « نور عثمان » ..

ومسجد محمد على بالقلعة ذو أربعة أبواب فخمة تفضى الى داخله ، اثنان من ناحيته البحرية ، يوصل أولهما الى الصحن ، والثاني الى القبة .. والبابان الآخران في الناحية القبلية ...

ومساحة المسجد ثلاثة آلاف ومائة وخمسة وثلاثون مترا .. وجدرانها كلها مطعمة بالمرمر النقى المستقطع من محاجر بنى سويف ..

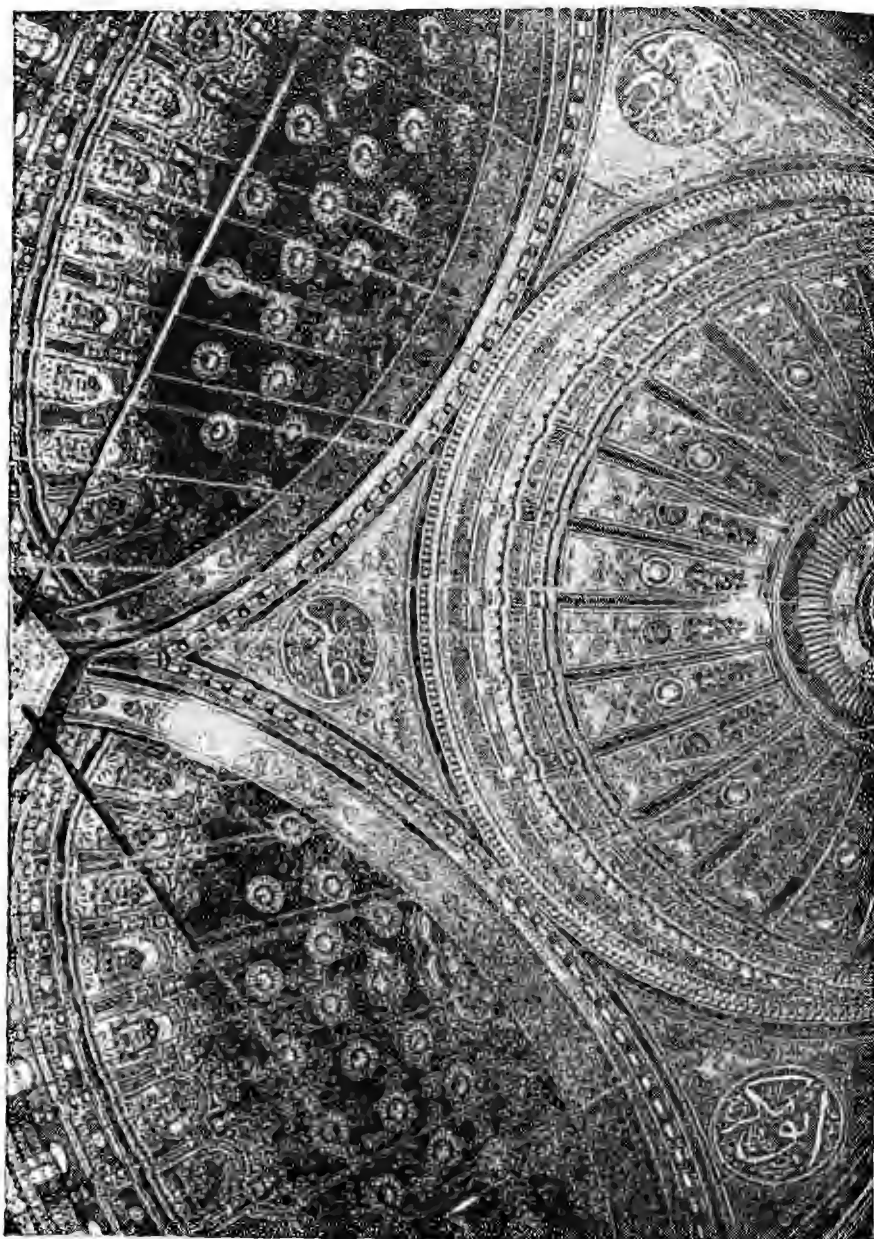
والمسجد مكون من خمسة أيوانات فخمة متسعة ، تعلوها كلها دائريا سبع وأربعون قبة مركبة على عمد من المرمز ، طول كل منها ثمانية أمتار ، غير القاعدة .. وعدد هذه العمد ثمانية وأربعين عمودا لكل واحد منها طوقان من النحاس الأصفر ، أحدهما في أعلا والآخر في أسفل ، وبين كل عمود وآخر وتد من حديد ، علقت فيه سلسلة نحاسية تدلت منها القناديل ..

ولمسجد محمد على منارتان مفردتان بدعنتان شكلا وصنعا .. وبأبوابها من الخشب ويرقى اليهما بسلم يبلغ عدد درجاته مائتين وست وخمسين درجة عدا درج المسلة الحديدى الموجود داخل كل من المنارتين .. ويبلغ ارتفاعهما الى نهاية المسلة في القمة أربعة وثمانين مترا .. وهما مكوئتان من دورين ، وعلى باب كل منهما آية من سورة الفتح ..

وقبة المسجد الكبرى لها تسعة شبابيك ، نقشت على كل شباك آية من سورة الفتح ، محفورة في الرخام ومحلاة بالذهب ..

وصحن المسجد تتوسطه قبة خشبية فخمة ، قائمة على ثمانية أعمدة رخامية ، طول كل عمود سبعة أمتار .. وأسفلها صنبور بقبة من المرمز ذو ستة عشر مصنا ، يعلو كل واحد منها لوح رخامى كتب فيه :

الكبرى
 القبة مسجدة محمد علي من الداخل
 « قبة مسجد محمد علي من الداخل »
 ان مسجد محمد علي يقين من اجمل مشاهد مصر واشهر آثارها ، وقد اريد له صلحيه ان يكون على طراز مسجد « نور عثمان » بالقسطنطينية - - قلبه
 لها نسمة شيايبك لفتت على كل شيايبك آية من سورة الفتح مطبوعة في الزخام وملاحة بالذهب وحوال القبة قلب ودواير منقوشة من الداخل بها الذهب



« ياأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق » . .

ثم الحديث الشريف : « الوضوء سلاح المؤمن » . .

وابوان القبلة آية من آيات الروعة الصناعية ، مساحته تربو على مائة وخمسين مترا ، وارتفاع قبلته واحد وستون مترا ، تعلوه قبة مركبة على أربعة أكتاف من الحجر الجص ، وبه وزرة مرمية دائرية ، ارتفاعها متران ، وحوالى القبة قباب ودوائر منقوشة من الداخل بماء الذهب . .

والحراب والقبة مصنوعان من الرخام ، وفوق القبة دائرة بالزجاج الملون ، نقش فيها :

« رب اجعلنى مقيم الصلاة . . » .

وأسفلها فوق الحراب ، كتب :

«فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى الحراب . . »

ويكتنف الحراب عمودان من الرخام مطوقان و « دكة » قارئ السورة مصنوعة من الخشب وهى مرتفعة بحيث يصعد اليها بخمس درجات مفروشة بالجوخ الاحمر .

والى يمين « الدكة » يقوم منبر المسجد . . وهو آية من آيات الدقة الصناعية ، مصنوع من الخشب المحلى بماء الذهب ، وله خمس وعشرون درجة ، يرقى بها الى مكان الخطيب مفروشة بالجوخ الاحمر ، وله باب بمصراعين ، نقش فى اعلاه :

« أفضل الايام عند الله يوم الجمعة » . .

ويواجه الحراب باب القبة ، وتعلوه « دكة » المؤذنين وهى بعرض المسجد ، وتقوم على ثمانية أعمدة من المرمر النقى ولها حاجز نحاسى . .

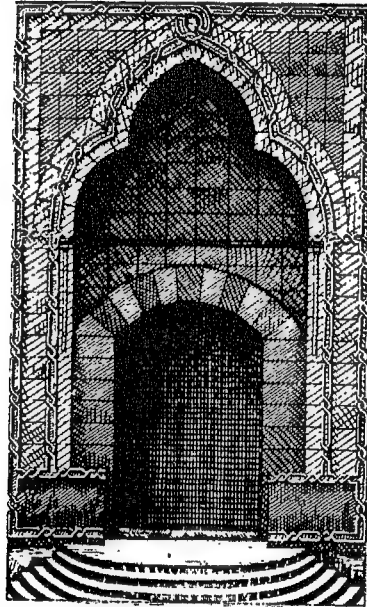
وقد حرص « محمد على » على أن يكون له بالمسجد قبر يضم رفاته ، فأمر بأن ينحت فى الصخر . . وقد أشرف بنفسه على حفره واعداده الذى تم عام ١٢٦٥ الهجرى . . وقد دفن فيه عقب وفاته . .

وتولى أريكة الحكم فى حياة محمد على ولده ابراهيم . .

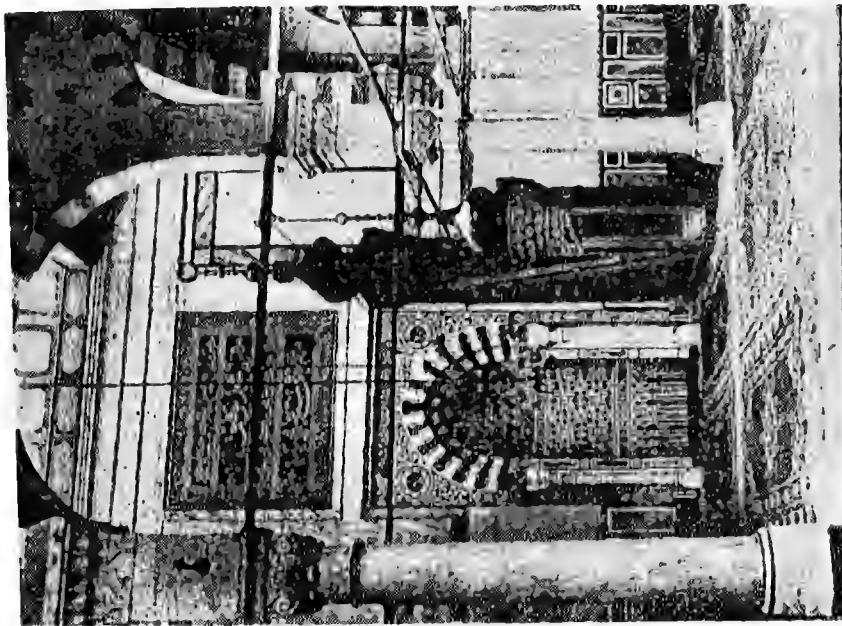
فلما مات ابراهيم ومات أبوه تولى الحكم عباس الاول ، وكان سفاحا ظالما يكره الإصلاح ويمقت كل ماهو مصرى . . ولكنه برغم هذا التفت الى مسجد محمد على ، فجدده ونقش اسمه هناك ودهن قبابه بالطلاء المذهب وجدد فرشته وزخرفته ، وجعل أرضه كلها من الرخام ، وعلق فيه الثريات الرائعة المصنوعة من البللور النقى ، كماجدد «شواهد» القبر وجبس عليه أوقافا متعددة ، جعل غلتها للانفاق عليه وعلى من يقومون بالخدمة فيه . .

واعتنى الوالى محمد سعيد بهذا المسجد ، وزاد فى أوقافه . .

فلما جاء اسماعيل نمقه وزاده روعة وبني فيه «جوسقا» خاصا يوم زاره السلطان
العثماني عبد العزيز ، كي يصل في فيه بعيدا عن الحضور !!
والمسجد من الخارج يمثل منظرا رائعا ، بمئذنتيه السامقتين ، وساعة البرج العتيقة
التي أهداها امبراطور فرنسا « لويس فيليب » لمحمد علي . .

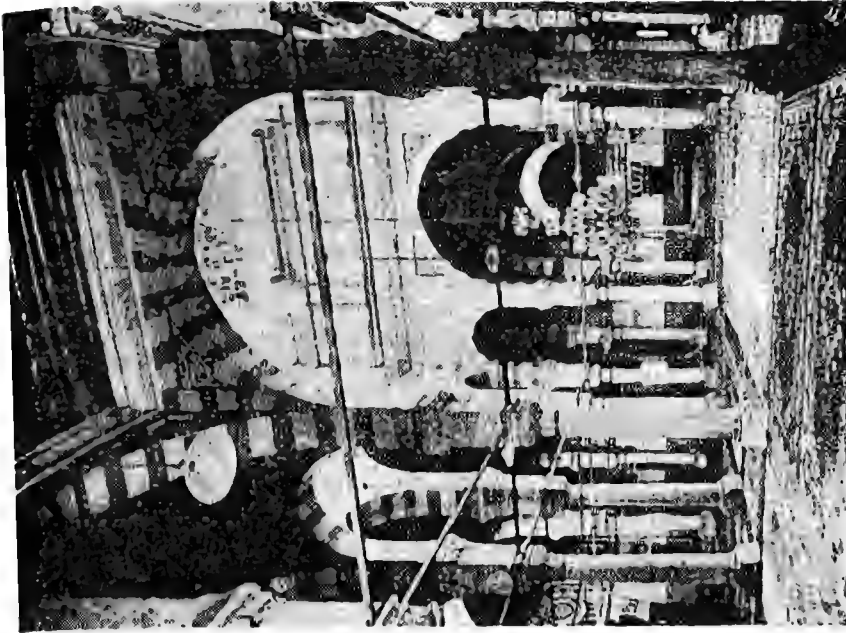


« باب مسجد الملكة صفية »



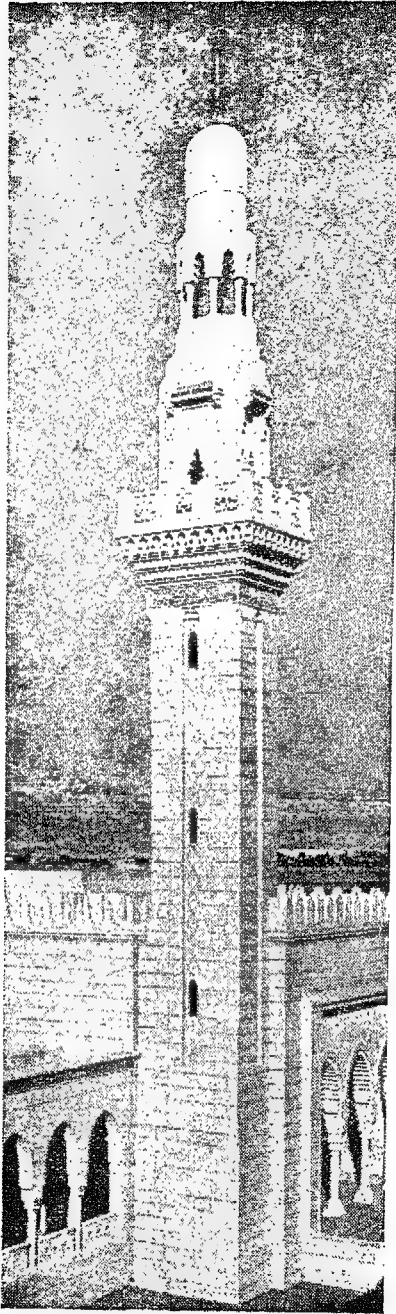
« الحراب والتبر »

« مسجد السيعة زينب »



« من الداخل »

هي زينب الصفري بنت علي بن أبي طالب من فاطمة الزهراء بنت رسول الله ، بصر المصريون على أنها دفنت بمصر ، بينما تؤكد مصادر أخرى أن صاحبة السجود هي زينب بنت يحيى بن زناد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وسواء صحت هذه الرواية أو تلك ، فإن الأمير عبد الرحمن كنفذ راح بكرم السيعة زينب بنت الامام علي وبنيت لها فريحا فطما عليه قبة جليلة وبلغت به مسجدا جامعها سنة ١١٧٤ هـ



خاتمة، وبعث

وجاء اسماعيل الغريب المفامر ، ليرث
من سبقوه من الغريباء المفامرين ، وليسير
في نفس الطريق الذي سبقه فيه خلفاء
الالباني محمد على ..

واسماعيل سفاح ماجن عرييد ، لم
يسع الى الولاية رغبة في ارساء قواعد
عمران ، او نشر أمن ومعرفة ورخاء ..
بل ليعوض مافاته من أسلاب ، وينسى
- وقد تربع مترهلا في ظل أريكة الحكم -
أيام الانتظار القاسية التي قضاها منبودا
يحلم بولاية مصر .

واغرق العرييد الماجن نفسه التافهة
في بحور من الطيش .. وفي غمرة الزيف
والضلالات .. نسي أمانة الحكم ومستقبل
البلاد .. وكان أن غامر وقامر وأسرف في
غير وعى ، وتردى في غير تحفظ ..

وكان اسماعيل صورة من أهله ..
غريبا شادا ، متعصبا لجنسه ، ترهبه
فكرة القومية ، ويروعه أن يتصور مصر
وقد ارتقت على يد بنيها ..

ومن هنا .. وعلى أساس التعصب
الجنسي ، ورغبة في تفتيت القومية المصرية
نظر اسماعيل الى مصر ذات الحضارة
والمجد العريق نظرتة الى بقرة حلوب ،
تعطى ولا يجب أن تأخذ .. وتسرف في

« مئذنة جامع الفولى بالمنيا »
العطاء ، وليس من حقها أن تطالب المستغل الطامع ولو باليسير من الرعاية الواجبة .
وأخذته العزة بالانتماء .. وتمادى في استغلال سلطانه وجبروته ، حتى لقد
تنكر للأرض الواهبة المانحة ، وراح في نشوة مجونه يعرضها في سوق مطاعمه .. وإذا

به خلال نوبة من نوبات حبه للشهرة الكاذبة يبيعها للغريب المترقب ، ويسلمها
للاجنبى الدخيل ..

وتمت الصفقة وسط مظاهرات من الصخب العالمى ظنها المجنون اعجابا بتهوره ..
ومد يده الخسيسة ، فقبض الثمن الذى كان وصمة عار جلله وأسوته الظالمة الى الأبد،
وأظهره وأظهرهم لجيلهم وللجيال التى لحقته فى مظهر مصاصى الدماء ، الساعين وراء
الثروة ، والذين لاتهتمهم صوالح البلد فى شئ .. هذا البلد الذى آواهم ووهبهم الجاه
والملك العريض !!

والحديث عن اسماعيل وعصر اسماعيل يطول ويتشعب .. ولست أرى له هنا فى
هذا المقام مكانا .. وانه من الخير لنا ونحن نتذكر حديث المقدسات ، ونتعرض بالذكر
لبیوت الله - أن ننسى اسماعيل وعبثه - محاولين أن نجد له حسنة ، وهيهات !!

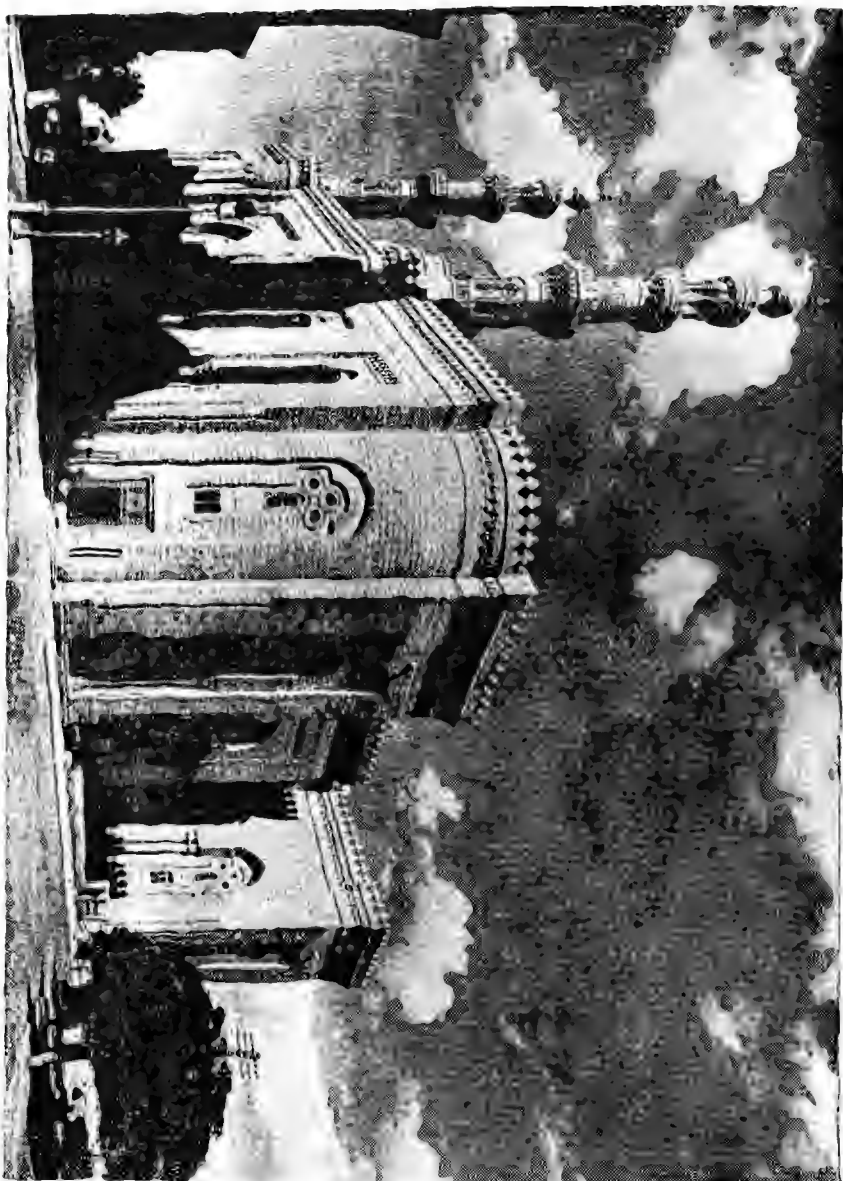
**ولكن «ديوان عموم الاوقاف» فى ذلك العهد ، قد أقدم على مد يد البر لبعض مساجد
مصر ، وفى جملتها مسجد الامام أبى عبد الله الحسين بن على رضوان الله عليهما ونسب
ماتم من اصلاح وتشبيد فى تلك الفترة الى اسماعيل ..**

كانت آخر عمارة تمت بالمسجد الحسينى هى تلك العمارة الانشائية التى قام بها
رجل الخير والصلاح عبدالرحمن كتخدا الذى الحق بالمشهد الحسينى العظيم الذى أنشأ
فى أواخر الدولة الفاطمية مسجدا عظيما دخلت القبة التاريخية المباركة والقبر الطاهر
ضمنه ..

وظل المشهد الحسينى والمسجد الملحق به على حالهما طوال عهد على بك الكبير ومن
تبعه من مماليك وفرنسيين وولاة أتراك ، حتى عهد اسماعيل بن ابراهيم بن محمد على
حيث وجه ديوان عموم الاوقاف اهتمامه الى المسجد ، فكان أن عمل على توسيعه وتجميله
ووضع الثريات به وفرشه فرشاً أنيقاً كما وجه اهتمامه الى حجرة «الخلفات النبوية»
الملحقة بها ، ونسب العمارة كلها الى اسماعيل !!

واذا تركنا بعد ذلك اسماعيل وعصره وأعماله كلها .. وأردنا أن نعبر صحائف
التاريخ لنلقى هذه الذكريات وراء ظهورنا - راعنا بناء ضخيم منيف يعود تاريخه الى
ذلك العصر المقيت، وهو وان لم يكن من أعمال اسماعيل فهو من أعمال أمه «خوشيار هانم»
انه المسجد العظيم المعروف بجامع الرفاعى ..

**والسيدة خوشيار بانية هذا المسجد الجامع المنيف سيدة تركية عاصرت عهد
محمد على وشهدت الكثير من أعماله عن كسب اذ كانت زوج ابنة الجندى ابراهيم ..**
ولقد أحبت لو يكون لها أثر اسلامى يحمل اسمها تسهم به فى الخير ، ويكون لها ذكرى
على كرم السنين .. ورأت ان تنشئه أيام ولاية زوجها ابراهيم ولكن المنية عاجلته
وحرمتها تحقيق أمنية كانت ترجوها فبقيت حيث هى تنتظر وتترقب وترجو ان
ينصفها الزمن او تسعدھا الايام ..



» مسجد الرفاعي بالقاهرة «

في سنة ١٢٨٦ هـ ، ١٨٦٩ م أمرت الاميرة خديجة والدة الخديو اسماعيل بهم « الزاوية البيضاء » والابنة المجاورة لها واقعة مسجد كبرياتها وضمهم
للشيخ علي ابي شهاب الرفاعي والشيخ عبد الله الاصمعي من كانوا مدفونين بها . ووفيت الاميرة خديجة سنة ١٢٠٢ هـ ١٨٨٥ م قبل انهاء المسجد

وتولى عباس الاول الحكم ، وماكفت الامنية الغالية عن مراودة خيال السيدة خوشيار .. وجاء سعيد بعد عباس ، ولكنها لم تعدم أملا ، بل زادت استمساكا بالرجاء ، حتى شاء الحظ اولا ، ومؤامرة اغراق ولى العهد عند كوبرى كفر الزيات ثانيا - ان يتولى ابنها اسماعيل الحكم ، ويصبح صاحب الامر والنهى فى البلاد .. فتبنت لها بوارق الامل ، وآمنت بأنه قد أصبح من السهل الهين عليها أن تحقق الرجاء وتخرج بأمنيتها من الظلمات الى النور وان تقيم اثرا اسلاميا سامقا يحمل اسمها ويخلدها على مر الزمان ..

وحملت خوشيار الرغبة الى ولدها .. وكان وقتها فى عنفوان مجده وجلال سلطانه .. يعمل لتقوية مركزه بالرشوة ، ويسرف فى غير حياء ولا وجل .. وأنصت اسماعيل الى أمه ، وراقته فكرتها ، بل لعله وجد فى اقدامها على بناء مسجد جامع مايكفر عن الكثير من جرائمه وآثامه ، فكان ان بارك الفكرة وايدها ، وأبدى لامه كامل الاستعداد لمعاونتها فى تحقيق ما تأمل ..

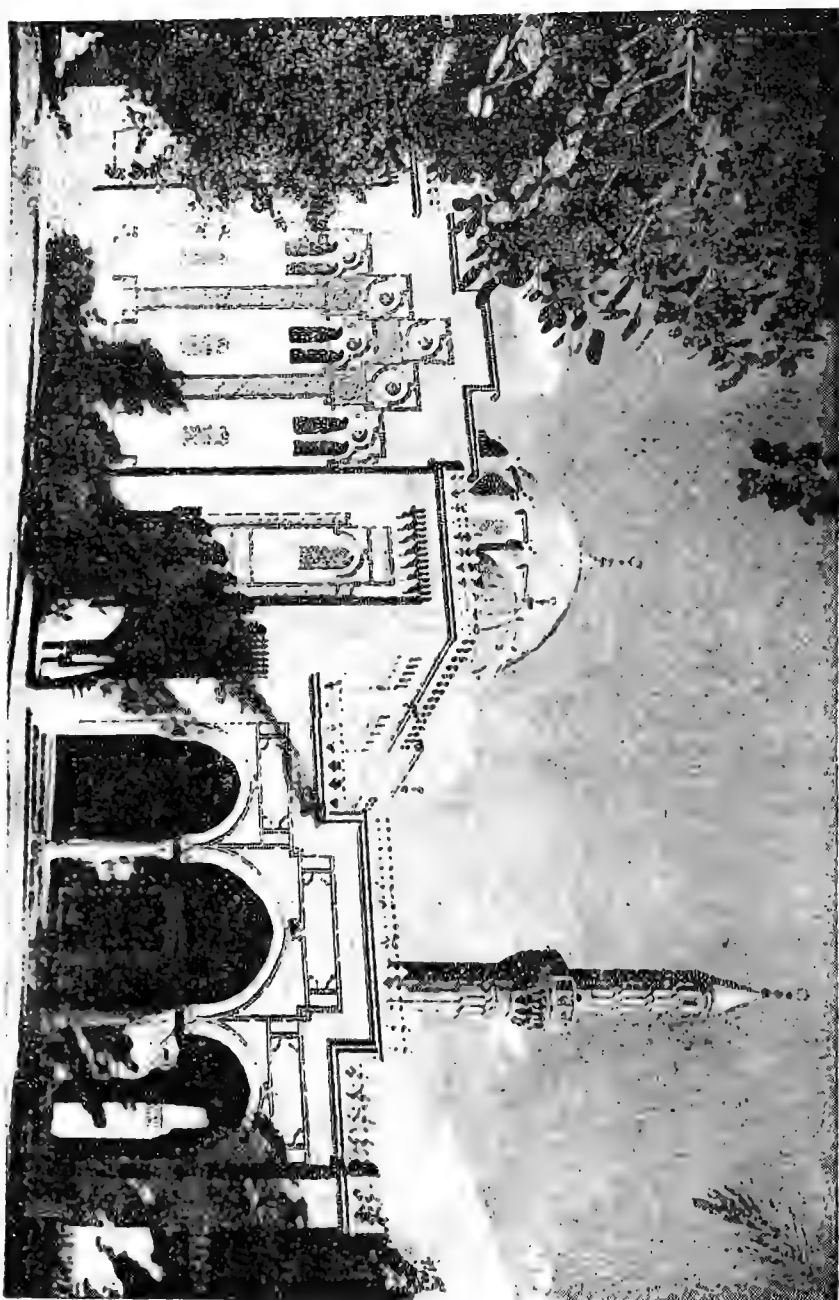
واسرعت خوشيار تعد العدة للعمل العظيم الذى انتوت القيام به ، واستعرضت مع خصاصئها والمقربين اليها الاماكن الشهيرة فى القاهرة ، وطرقت ميادينها جمعاء .. فلم يرقها غير حى « الرملة » العامر بالمساجد العظيمة ، والآثار الاسلامية الرائعة التى تنطق بالثراء والاعجاز .. وارادت ان يكون مسجدتها فيه ..

لقد كان حى « الرملة » مكانا عزيزا بالنسبة لام الخديو خوشيار .. انه نفس المكان الذى تفتحت عليه عينها يوم جاءت مصر لأول مرة لتزف الى الجندى ابراهيم ابن محمد على .. وفى هذا الحى كانت اقامتها الاولى .. وفى قلعة الجبل كان بيتها القديم ..

انها ذكريات تربط بين حاضر تحبه ، وماضى مازالت تعيش بالفكر فيه .. فهنا كانت بداية حياتها ، وهنا أيضا وعلى مقربة من قلعة الجبل ، وامام مسجد محمد على والد زوجها - يسعدنا ان يقام المسجد الجديد ، الذى سيضم رفاتنا ويكون فيه مثواها الاخير ، ويكون فى وجوده فى هذا المكان أيضا مايشعرها بانها استطاعت ان تقلد ابا زوجها ، وتنافس وتبرهن لروحه انها هى الاخرى قادرة على انشاء مسجد عظيم .. وهكذا .. تخيرت خوشيار المكان .. وحددته ، وأمرت باتخاذ الاجراءات السريعة لاعداده هندسيا والبدء بالعمل فيه ..

والغريب فى الاختيار ، ان المكان الذى أرادته السيدة خوشيار لم يكن ميدانا معدا ، بل كان عدة حارات ودروب مليئة بالمساكن ، وبينها « زاوية » متواضعة ضمت رفات بعض الاقطاب الصالحين ..

وبرغم هذا .. أمرت بازالتها .. فازيلت الابنية ومهدت الارض فى سرعة فاذا هى



« مسجد الفتح » أنشأ هذا المسجد سنة ١١١١ هـ ، ٢٢٩/١٧٢٨ م أمر اللواء السلطاني عابدين بك في الشارع الخلفي لقصر عابدين .
 في جهة تسمى سوق صفية بالقرب من الزبر الملق وقد عرفت هذه المنطقة القاهرة باسمه ، حتى أن الخديو اسماعيل لا يرى القصر
 في تلك الجهة سمى قصر عابدين ولا أمر الملك فؤاد في سنة ١٢٣٦ هـ .

فضاء متسع يستقبل القادمين للبدء في بناء المسجد العظيم .. ولكن .. وبعد أن أزيلت المساكن والدروب والحارات كلها ، جابهت « خوشيار » قوة جبارة لم تستطع أن تأتي عليها في يسر كما أتت على المساكن العديدة .. كانت هذه القوة هي تلك « الزاوية » البسيطة التي ضمت بعض الاقطاب الصالحين الذين كانوا يتمتعون بسمعة طيبة وشهرة شعبية عظيمة ..

وحارت خوشيار .. ماذا تفعل !! انها تريد بناء مسجد لها .. ولكن هذا الاصرار الشعبي على الاعتراض ارغمها على ان تبدل وتغير في مشروعها ، وتسارع الى ادخال « الزاوية البيضاء » ضمن حرم مسجدتها ، وهي تضم خمسة من الاولياء الصالحين هم : « على أبو شبك الرفاعي » و « يحيى الانصاري » و « مصطفى الفوري » و « الشيخوني » و « المزارقي » - وعليها ان تخضع بعد هذا لحكم الحظ الذي أبى أن ينسب المسجد الشامخ اليها .. بل نسب الى السيد القطب « على أبي شبك الرفاعي » ساكن الضريح المتواضع في « الزاوية البيضاء » !!

ونسبة مسجد السيدة خوشيار الى الخليفة الرفاعي دونها ، يثبت أن الشهرة الشعبية والقرب الى قلوب العامة ، أقوى من الجاه والاسم العريض ولو كان اسم أم الخديو اسماعيل صاحب السلطة والجاه العريض ..

وعلى أبو شبك المنسوب الى السيد احمد الرفاعي المتصوف الشهير وصاحب « الطريق » المعروف باسمه - كان صاحب كرامات .. وكان له تلامذة واتباع اعتادوا التجمع في زاويته لقراءة الاذكار والاوراد ، حتى دوت شهرتهم في الافاق .. وحتى قيل ان التردد على « الزاوية البيضاء » يشفى من الامراض العصبية وخاصة اذا « حضر » المريض حلقات الاذكار ..

وبدأت بعد ذلك الخطوة الثانية في بناء المسجد ، وهي خطوة الاعداد والتصميم ومحاولة تنفيذ المشروع الفخم لاقامة الاثر الاسلامي النفيس ..

ووجد المشرفون انهم امام اثرين عظيمين .. مسجد السلطان حسن ، ومسجد محمد على .. اذن ، فمن اللازم أن يكون المسجد الجديد في مثل فخامة هذين المسجدين ، والا .. فلا داعي لاقامته بالمرّة ، حفظا لكرامة أم اسماعيل !!

وكلفت السيدة خوشيار - حسين فهمي باشا وكيل ديوان عموم الاوقاف - بوصفه مهندسا معماريا ، أن يقوم بتصميم مسجد يضاهي في روعته وجلال بنائه مسجد السلطان حسن ، بحيث يكون المسجدان مجموعة تنطق بالروعة والجلال المعماري ، وتكون أعظم شاهد على جمال العمارة الاسلامية ..

وقدم المهندس حسين فهمي التصميم المطلوب لبناء المسجد الجديد ، وقد راعى

فيه الجلال والروعة والتناسق بينه وبين مسجد السلطان حسن من حيث الضخامة والارتفاع ..

وأقرت « خوشيار هانم » التصميم وأمرت بالتنفيذ ، وكلفت خليل اغا كبير الاغوات بالاشراف على البناء والاسراع فيه ، خاصة لانها كانت قد أمرت المهندس المصمم بأن يلحق بالمسجد قبورا للسادة الذين كانت تضم عظامهم الزاوية البيضاء ، وأشهرهم على أبو الشباك الرفاعي وقبورا أخرى لمن يموت من ذريتها ..

وبدا خليل اغا في التنفيذ .. وأشار بأن تمتد سكة حديد من هناك الى مكان المحاجر بالجبل لتحمل الحجر الى مكان البناء ..

واخذ البناء يرتفع .. ووصلت أنباءه الى أسمع اسماعيل فراخته النفقات الباهظة التي كان يتكلفتها .. وأحب أن يعرف كل السير فيه ، وأرسل في استدعاء مهندس أجنبي بحجة تعديل التصميم ..

وحضر ذلك الأجنبي وأحب أن يدخل على التصميم الاساسى بعض التعديلات ولكن أم الخديو عارضت ولم تقبل الا ان يقام المسجد كما رسمه حسين فهمى باشا .. وقامت جفوة بينها وبين ابنها توقف بسببها العمل ثم ما لبث ان استؤنف من جديد دون تعديل أو تنميق كما أرادت السيدة خوشيار ..

واستجلب الخشب اللازم للمسجد من جزيرة « طاش بوز » وامتلات المخازن بمستلزمات الاعدادات النهائية ، كالذهب والاسطة والاعمدة وكان عددها ستة وثلاثين عمودا تكلف الواحد منها ألفا من الجنيهات !!

وحدث والعمارة قائمة على قدم وساق أن توفيت « خوشيار هانم » .. فأمر الخديو اسماعيل بأن يحال أمر اتمام المسجد على ديوان عموم الاوقاف ..

وقام الديوان من ناحيته بعمارة المسجد واتمامه على هيئته الحالية ، وقد بلغت تكاليفه الكلية حوالى نصف المليون من الجنيهات !!

ومسجد الرفاعي يمثل صورة من صور البذخ الاسلامى الذى أضفته وزارة الاوقاف على ذلك الاثر النفيس الذى كون مع مسجد السلطان حسن مشهدا من أروع المشاهد الدينية الدائمة الى التأمل واطالة التفكير ..

والمسجد بحالته الراهنة ، يمثل التقدم المعمارى العظيم فى مصر الاسلامية ، والروعة الناطقة بالجلال ، والاعجاز الذى تقف عنده الجهود .. كما أنه يمثل حقبة من الزمان ، ويروى تاريخا فيه الكثير من العبر .. وأنه بمئذنتيه الدقيقتين ليعطى صورة من صور روعة التوحيد وجلال الدين ..

وتم المسجد .. وأقيمت فيه الصلوات الجامعة .. وظل مكانه صامدا يروى



« مسجد أبى العباس المرسى بالاسكندرية »

أنشئ هذا المسجد في حياة أبى العباس سنة ١١٨٩ هـ ، ١٧٧٥م وأبو العباس المرسى هو أحمد ابن عمر الانصارى المرسى . . نسبة الى مرسية من بلاد الاندلس ويكنى أبا العباس ، وكان متعوفاً زاهداً حمل راية الطريقة الشاذلية بعد شيخه الإمام أبى الحسن الشاذلى . . وكان مسجده المدفون به صغيراً فقامت وزارة الأوقاف بهدمه مع المحافظة على القبر وإقامته على مساحة واسعة وجعلته من أهم المساجد في الشرق

قصة عصر تولى .. عصر اسماعيل الماكن الذى ذهب .. ومن بعده ولده توفيق
صنيعة الانجليز الذى جاء من بعده عباس الثانى .. ثم حسين كامل .. واخيرا ..
احمد فؤاد ..

ومسجد الرفاعى بعد هذا - يمثل فى جلاله وشموخه وفخامته نهاية عصر
معمارى تميز بالروعة والشاء .. وان فيه ، وفى المآذن العديدة والقباب الفخمة القائمة
فوق مجموعة المساجد المجاورة له - لقصة من أروع قصص التاريخ الإسلامى ..
قصص تربط بين عهود حديثة ، وأخرى موعلة فى القدم ..

وانه ، ومن حوله منارات وقباب السلطان حسن ، وقانى باى الرماح ،
وام الاشرف شعبان ، ومحمد على .. وبمعدة منهم منارات وقباب عمرو بن العاص
واحمد بن طولون ، والازهر - لينطقون بلسان صدق أن مصر هى قلب العالم الإسلامى
الناضى بآيات العزة والمجد ، وانها كعبة العربوة ومعقد الآمال للفرد المرجو السعيد ..
ومسجد الرفاعى بعد كل اولئك يروى عبرة الموت للأجيال .. ففيه ، وبين جدرانه
تقوم مدافن بعض أفراد أسرة اسماعيل .. الأسرة التى طفت وتنجرت ، وكانت حربا
على القومية ففضى عليها الشعب .

انهم هناك فى مقابرهم بين أمراء .. وسلطين .. وملك واحد .. هو احمد
فؤاد بن اسماعيل ..

ان عصر فؤاد .. عصر جدير بالذكر .. لا لجلال شخصيته الطاغية العريضة ..
ولكن لانه قد تفتحت فيه براعم القومية المصرية ، وبدأ الشعب يرفع رأسه ، ويتطلع
الى مزيد من الحريات .. وقد أحس بها فؤاد .. فعمل على محاربتها باعتماده على
الحراب الانجليزية مرة .. وعلى تمزيق وحدة الأمة مرات ..

كان فؤاد صورة من اسماعيل .. وكان اسماعيل صورة من محمد على .. وكان
هؤلاء جميعا ، ومعهم أهلهم - صورة للجشع والمطامع والاقبال على الدنيا ، ونسيان
الآخرة وتجاهلها .. وان أسهموا اسما - عن طريق مشروعات الدولة العمرانية
بالتجديد أو التعمير أو اقامة بعض المساجد المنسوبة الى أهل بيت رسول الله عليه
صلوات الله وسلامه ، وخاصة المساجد الجامعة التى كانت التجديدات والإنشاءات
التى قام بها عبد الرحمن كنخدا فيها - آخر عمل بها ..

وهكذا .. شاء حظ توفيق وعباس حلمى وفؤاد .. ان تنقش أسماءهم على
جدران مساجد السيدات : نفيسة ، وزينب ، وسكينة - كمجدين ومنشئين !!

وقد أبى طفيان فؤاد الا ان يصل الى بيوت الله ، ولم يكفه ما اغتصبه وسلبه من
عقار ومتاع - لتكون له ثروة طائلة تليق بملك جاء الى العرش مفلسا شريدا -
فامتدت يده الى مسجد أمير اللواء السلطانى « عابدين بك » ، وكان يومها يوسع

« السراى » ويجمله وينمقه ، فضمه الى حرم القصر وجدهه تجديدا شاملا حتى لم يبق فى المسجد من آثاره القديمة شىء غير القبة والمئذنة . .

ثم حاول بعد ذلك ان ينسبه الى شخصه ، ولكنه عجز عن ذلك لشهرة المسجد ، فلم يجد غير أن يجرده من اسم صاحبه الاول ، ويسميه مسجد الفتح !!

لقد ختم ولادة أسرة محمد على عهد الخير وحبه ، والاقبال عليه ، واتجهوا بتفكيرهم ونشاطهم واساءة استقلال سلطانهم الى جمع المال وتكديسه ، وأبوا – أمعنا منهم فى التنكر للفصائل – ان يسهموا فى اقامة بيت من بيوت الله أو عمارة من عمائر لها صلة بالدين . .

وكان التكليف الخديو الذى صدر من اسماعيل الى نظارة الاوقاف لتشرف على مسجد الرفاعى وتتولى اكمال عمارته – عبارة عن صك صريح بابتعاد حكام هذه الاسرة وولاتها عن حلبة العمائر الاسلامية ، وترك أمرها للدولة تنظمه حسبما تقضى اللوائح والقوانين .

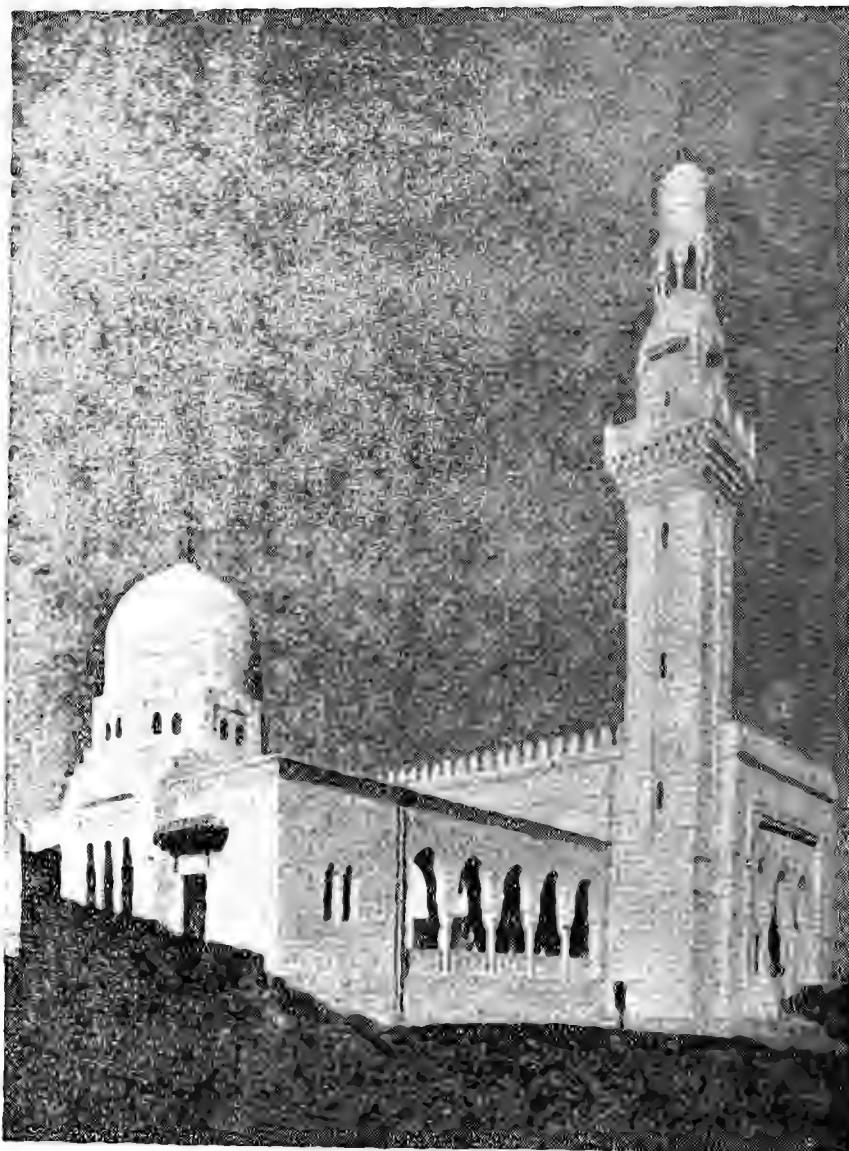
ومن هنا . . وأمام نقطة التحول التى أوجدها انسحاب اسماعيل من ميدان الخير – بدأت نظارة الاوقاف سلطاتها وهيمنتها على جميع المساجد فى مصر . . ثم ، ولما أصبحت بعد ذلك « وزارة » ذات صبغة تنفيذية واشراف حكومى مباشر بعيد عن تدخل الولاة وأذئاب الابائيسين ، اتجهت بسياسة انشائية شاملة الى الاهتمام بالمساجد وتعميرها .

ولما كانت البلاد غنية بوجود « مشاهد » بعض كرام الائمة من علماء الدين ، فقد اتجهت وزارة الاوقاف الى تخليد ذكراهم ، والاعتراف بسابق جهادهم وتضحياتهم فى سبيل الدين ، بأن حولت تلك « المشاهد » و « الزوايا » المتواضعة الى مساجد عظيمة ، فبنت وشيدت فى الاسكندرية مسجدا شاهقا للامام العالم أبى العباس المرسى ، وجملته وفرشته بالبسط الغالية ، وشرعت فى نزع ملكية المنازل المتداعية المحيطة به ، ليكون المسجد فى ميدان فسيح تظهر معه أبعته ، وتكتمل بوجوده المجموعة المكونة منه ومن مسجد الامام البوصيرى ، وزاوية بعض تلاميذ الامام من السادة العلماء المجتهدين . .

واتجهت وزارة الاوقاف بعد ذلك الى الوجه القبلى . . وخصت بنشاطها العارف بالله « الامام الفولى » ، فاقامت له مسجدا على أحدث طراز بمديرية المنيا . .

ثم سار موكب الإصلاح قدما . . حتى استقر فى قنا ، حيث أقيم مسجد جامع للسيد القطب عبد الرحيم القنائى . .

وظلت موجة الانشاء فى مسيرها جنوبا حتى وقفت عند مدينة الاقصر ، وفيها مسجد متواضع يحمل اسم القطب الصوفى السيد « يوسف أبى الحجاج » صاحب



« مسجد الفولى بالمنيا »

اسما صاحبه الفولى لنفسه فى حياته زاوية صغيرة .. والفولى هو الشيخ العالم الصوفى على بن محمد الذى تلقى علومه بالازهر ونصوف على الطريقة الشاذلية ، واشغل بحجارة الفول اوسمى من اجل ذلك بالفولى وكان اهالى المنيا يحبونه لشدة تقواه وصلاحه ، ولادل على ذلك من انتساب مدينتهم لاسمه .. فقد سميت من قبل « منية الفولى » فلا عجب ان يكثر زواره وزائروه حتى يضيق مسجده بمن يؤمه من المصلين ..

وفكرت وزارة الاوقاف فى تجديد مسجد الفولى وتوسيعه وكان ان نفذت عمارته واعادت بناءه على اجمل طراز سنة ١٣٦٥هـ ، ١٩٤٦م

ويقع هذا المسجد فى مكان ممتاز على شاطئ النيل والحقت به الوزارة حديقة كبيرة ...

الكرامات الشهيرة ورأس الاسرة الحجججية العريقة بالاقصر ، وفيه مشهده وضريحه .
فتركت المسجد القديم في مكانه فوق أنقاض معبد الاقصر ، وشيدت مسجداً جديداً
آخر على الطراز الانداسى يحمل اسم أبى الحجاج ..

ثم .. ظل المسجد الجديد حيث هو .. ولم ينقل اليه الضريح ، ولم يهدم
المسجد القديم . وبقي رابضاً فوق الرابية المسرفة على المعبد الفرعونى الخالد ، كأنه
حارس أمين ، يأبى أن يكشف ماتحته من اسرار ستكون لها قيمتها في أسفار التاريخ !!
وكان من الغريب بعد هذا ، أن يتخذ الماخن فاروق حفيد العربيد اسماعيل ، من
اقامة بيوت الله هذه ، وافتتاحها ، وسائل للدعاية الكاذبة عنه ، حتى لقد اعتاد أن يظهر
فيها بما أراد عن طريقه أن يخفى بعض فضائحه .. ولكن الله كان للطاغية بالمرصاد ،
وقد ظن أنه يستطيع أن يخادع الله والذين آمنوا ، وما كان يخدع غير نفسه .. حتى
شاء الله في النهاية أن تأتبه الضربة القاضية من ناحية الشعب ، فأطاحت به وهدمت
عرشه ، وثلت عرشه ..

فقد حدث بعد هذا .. ووسط الظلم والظلمات التى شملت مصر - ان ثارت
الارض على غاصبها ، فاذا بالتاريخ يتجدد ، واذا بها تنبت الفلاح الاصيل من بنيتها ،
صاحبها ووارثها .. ليترد الدخلاء ويطيح بالغرباء ، ويعيد كل شىء الى اصحابه ..
وانهار الصنم الالبانى الغريب ، وهوت فوقه مطرقة الشعب يحملها الزعيم المصرى
جمال عبد الناصر مع فتية من أشبالها البررة ..

وبدأت مصر تدخل في طور وعهد جديد ..

وقد ترجم جمال عن سياسة هذا العهد المصرى الصميم ، بأنها سياسة العمل
والبناء .. بناء المجد المدعم ، المقام لصالح الشعب .. وراح البطل المصرى ينقل عينيه
حواليه :

مشاكل رهيبة ..

قلق دولى ..

انهيار اقتصادى ..

أكاذيب تدعمها أرقام زائفة ..

افلاس أخلاقى ..

وقائمة اخرى مليئة بأسماء وصفات مثيرة مذهلة ، ورثتها الثورة المصرية الشابة .
فكان عليها ان تحاربها فى أكثر من جهة وان تسارع بالقضاء عليها فى أكثر من ميدان ..
واذن .. لم تكن الملكية وحدها هى علة العال ، وآفة الآفات .. كان هناك
الاحتكار ، والاستغلال ، والانتهازية ، والرجعية ، والحزبية المقيتة .. وبقية سدنة
الصنم الذى تهاوى وتبعد ..

وظل جمال عبد الناصر في الميدان ، يحارب بروح مصر كلها .. وبقلب الملايين التي كانت ترجو التحرر على يديه ، حتى استطاع بقوة ايمانه الغالبة ، أن يمسد الظلمات الكثيبة ، ويفتح الابواب كلها استعدادا لمقدم موكب النور ..

وهكذا .. اشرق على مصر نور عهد جديد .. بدأت خلاله تسترد انفاسها اللاهثة وتسارع الى ظلة الايمان لتستروح عبقها الذي لم تشعر به طوال مدة حكم الطاغية ، الذي كانت نهايته نهاية مؤكدة لعهود تحكم الغرباء ..

واتجهت البصائر كلها الى جمال .. وجمال بدوره راح يترجم عن عواطف التسعب ورغباته ، كي يضيء على اوشاب الماضي اضواء من النورانية . تشعر العالمين جميعا بأن عهد الظلمات قد ولى ، وان عهد النور والاصلاح قد حلت مواعيده ..

وكما ترجم جمال عبد الناصر عن عواطف الشعب ورغائبه .. كذلك راح يترجم في حماسة وقدره عن سياسة العهد المصري الجديد .. سياسة العمل والبناء ..

وانفتح المجال للاكفاء .. وسار الركب خلف جمال وقد تعاضد الايمان بالمثل العليا والمستقبل المشرق ..

وفرت الاشباح كلها .. واحس الشرق ببرد الراحة يسرى في كيانه ، فاتجهت القلوب الى الله تسالنه التوفيق والسداد وحسن الالهام .. وراحت العيون المعجبة تقرب الوثبة التي بدأت تتحرك كنائبها ..

ووسط طوفان الاصلاح الشامل ، وقد طهرت الارض لتنبئ أقوى الثمرات ، وانشئت المصانع واقامت المعامل - حظيت الاسماء الخالدة في سفر الجهاد بنصيب وافر من تقدير رجل الثورة وبطلها ..

لقد كرم جمال ذكرى عرابي ، ولم ينس نشر صحائف جهاد محمد فريد .. وأبى وقد اجنت شجرة اسرة محمد على من اساسها ، الا ان يكرم الزعيم الفلاح السيد عمر مكرم ، ويعيد نشر صفحته البيضاء امام العيون ليؤمن الجميع بأن الله لا يضيع أجر من احسن عملا ، وانه يهيء للمظلوم من يقتص له من ظالمه ولو طال الزمن وكثرت السنون ..

لقد كان السيد عمر مكرم نقيب اشراف مصر وزعيم جهادها ضد بونايرت ، هو الرجل الطيب الذي البس الطاغية الفاصب محمد على خلعة الحكم واجبر بقوة الشعب الذي وراءه - سلطان تركيا على تنصيب محمد على واليا على مصر .. فكان جزاؤه من الفاصب الالباني النفي والتشريد والتجريد من الممتلكات ، لانه ابى ان يقر سرقات « الباشا » ويوافق على تصرفاته الاستبدادية حيال الشعب ..

ولقد مات السيد عمر مكرم شبه منسى .. ودفن في ضريح متواضع كاد ينسى على كر الاعوام لولا ان شاء الله لسيرة الزعيم الاسيوطى ان تنشر من جديد على يد الزعيم

الشباب الذى أنبتته أرض أسيوط ، وأخرجته زرعاً مباركا فى بلده « بنى مر » . .
ورأى جمال ألا يكون تكريم السيد عمر مكرم فى نشر سيرته فحسب ، بل فى إقامة
أثر عظيم يحمل اسمه ويذكر الناس به على كرام الأيام . . وأى أثر أبقى وأجمل وأخلد
من مسجد يقام فى أعظم ميادين الدولة يحمل اسم الزعيم المصرى الجريء ؟!

وهكذا أقامت الثورة المباركة ، للنائر المصرى الاول اثرا نفيسا ، وشيدت من أجل
تخليد ذكره مسجدا على أحدث طراز فى ميدان التحرير ، ألحقت به مكتبة فاخرة
للاغبين فى الاطلاع والعرفان ، وافتتحت للصلاة الجامعة بعد أن زينته وجعلته آية من
آيات الفن المعماري الحديث ، المعبر عن التطور الانشائي الجديد الذى حققته ثورة
الابطال و ارادت به تكريم ذكرى العاملين . .

ورأى جمال بعد هذا التكريم . . وبعد أن أسهم عهده الميمون فى الحركة الانشائية
الدينية ، أن يكون عمليا فى تعبيره عن حبه لهذا الميدان ورغبته فى توسيعه وتعظيمه ومد
آثره الى ميادين أشد سعة من مجرد التشييد والاعداد لاقامة الصلوات . .

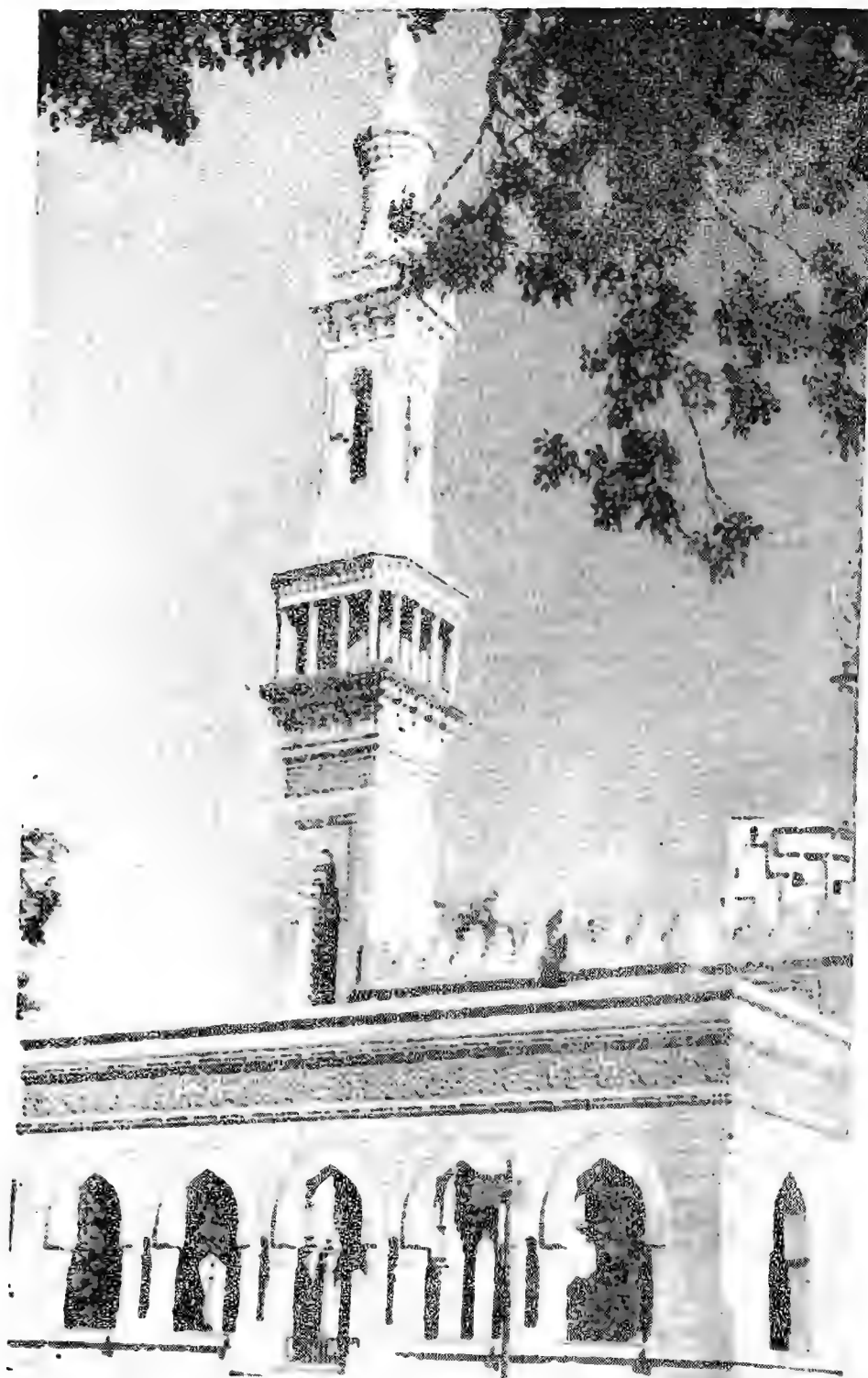
لقد كان المسجد فى اول الامر هو نواة المدينة ، وسر عمرانها . انشاء الولاة المسلمون
قبل ان يبنوا عواصمهم لتوجه منه الدعوة الى الدين الجديد ، وليكون فوق كونه دار
تعبد وصلاح ، بيت عدل ودعوة الى الاحسان والجهاد فى سبيل الله . .

على هذه الاسس بنيت المساجد الجامعة فى مصر : عمرو، وطولون ، والازهر، وغيرها . .
وعلى هذه الاسس بالذات أراد جمال أن يقيم دعائم عهد جديد . .

ان هذه المساجد العديدة ، بنيت على أساس الدعوة الشاملة الى الاتحاد التام . . ان
الدعاة من فوق منائرهما حين يكبرون ويدعون الى الصلاة وتعمير المساجد ، فانهم انما
يجمعون الشمل ويطالبون بتقوية الصفوف وترتيب الجماعات واشعار الجميع بانهم أخوة
فى الله واللغة والوطن والدين . . فهل ترى هذه الدعوة قصرت ، أم تصامم عن سماعها
المؤمنون !!

أبدا ما قصرت الدعوة . . . ولا تهاون الدعاة ، ولا كفت بيوت الله عن اداء رسالتها
السامية التى لا تقتصر على اداء الصلوات الخمس بل تتعداها الى غرس الفضائل فى
أعماق النفوس والعمل بها من أجل خلق مجتمع فاضل عظيم يتمثل فيه قول الله تعالى
« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ،

رأى جمال أن رسالة المسجد استمرار للرسالة المحمدية الكبرى ، ودعوة القرآن
للمسلمين جميعا الى الاعتصام بحبل الله دون تفرق ولا وهن ، مع تذكر حكمته جل
وعلا وقد أراد لهم العزة فى الاتحاد بعد أن كانوا على شفا حفرة من النار فانقذهم منها
بالترايط والتأخى والايمان . . .



« مسجد الزمالك » انشىء سنة (١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م) افتتح سنة (١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م) بحضور
السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية والسيد احمد حسن الباقورى والوزراء.

لقد جعل الله البيت مثابة للناس وأمنا وقبله ارتضاها لهم جميعا ، فلم لا تكون المساجد قبلة للعرب كلهم حيث يكونون !!

كان قلب جمال عبد الناصر كبيرا .. وكان هذا القلب قادرا على أن يسع العرب أجمعين ، فعز عليه أن تقتصر جهوده على مصر الحبيبية ورأى من واجب الوفاء عليه لدينه وعروبته أن يمد يده الى الشرق بأسره ، لينهض من كبوته ويلقى عن كتفيه ذل القرون ويطيح بناطير الاستعمار .. وينهض نهضة المارد الجبار المطالب بحقه ومكانته تحت الشمس ..

وأعلن جمال أن مصر جزء من الوطن العربى .. وسار بعد ذلك قدما ليحقق الوحدة الشاملة للعرب

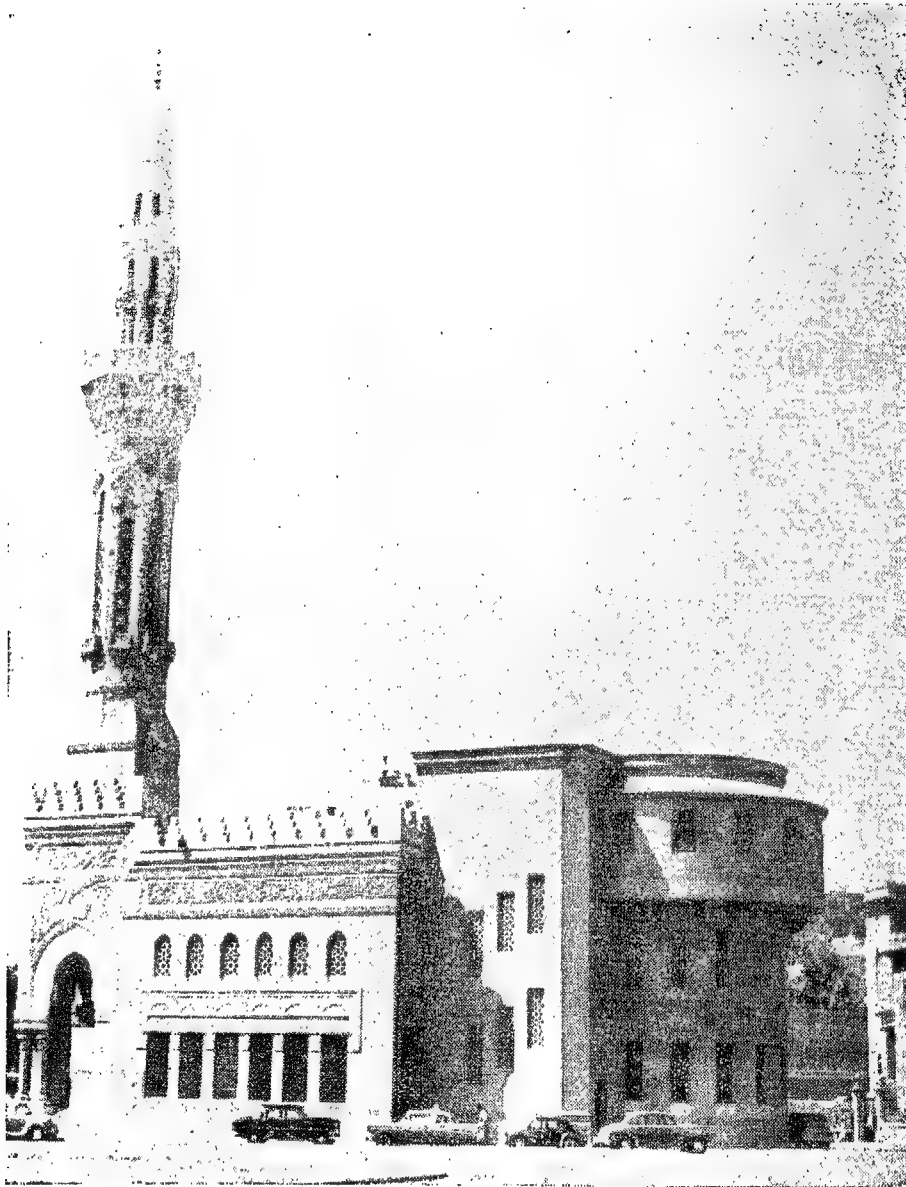
وسار الركب .. واستجابات القلوب للدعوة الفتيية الى عودة دولة العرب الى حدودها ومعالمها القديمة ، من شاطئ المحيط الصحاب الى ضفاف الخليج العربى .. دولة تبنى وتوطد .. وترسى أسس الحب والسلام والاخاء .

وتوحدت المساجد كلها فى مسجد واحد كانت القاهرة ميدانه .. وتلاقت المنارات كلها فى منارة واحدة ، كانت الدعوة تصدر منها واحدة ، فيها الامر بالمعروف والنهي على الاتحاد والاستمسك بالترابط لتعود امجاد الماضى جمعاء ..

لقد أصبح المسجد دولة .. وأصبحت الدولة وحدة مترابطة جمعت بين الشعوب العربية وربطت بينها بأكثر من رباط ..

وخرجت الدعوة الجريئة الى حيز العمل .. وأبى ايمان جمال عبد الناصر بالسياسة العملية الا أن يمضى قدما الى الامام برغم العقبات التى اثارها المفرضون .. وكان أن عرف الركب طريقه واستجابات القلوب للدعوة ونودى بضرورة قيام المؤتمر الاسلامى .. والمؤتمر الاسلامى ، الذى يعتبر مرقاة من مراقى اتمام الوحدة الشاملة بين المسلمين فى شتى بقاع الارض - فكرة .. ورسالة وهدف .. وفيه يقول الشاعر الشاب السيد أنور السادات سكرتيره العام :

((كان حريا بالمسلمين بعد أن تخلصوا من الاستعمار وأدوائه ومكائده وسطوته ، أن يفكروا فى وسيلة فعالة تعمل على تنظيم حياتهم طبقا لتعاليم الاسلام الصحيحة القوية المستمدة من هدى دينهم السموح ومثله العليا ، وتاريخهم المجيد .. وتعمل كذلك على ربط المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها برابط متين من الاخوة الصادقة ، واشعارهم بأن موثق الاسلام قوى مكن ، وانهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وانهم أحوج ما يكونون الى التعاون والتآزر فى مختلف ميادين الحياة ، يعين القوى منهم الضعيف ويأخذ بيده الى مدارج القوة والنفوذ ، غير مدخر فى سبيله جهدا حتى يشعر العالم الذى نواجهه فى هذه الآونة الحاسمة من تاريخنا ، ان هذه الرابطة الروحية التى تؤلف



« مسجد السيد عمر مكرم »

هذا المسجد شيدته الثورة المباركة تكريما وتخليدا للشاكر المصري الاول السيد عمر مكرم ... ولد السيد عمر مكرم بمدينة أسيوط حوالي عام ١٧٥٥م ويتصل نسب أسرته بالنبي صلى الله عليه وسلم ، والتحق بالأزهر واستطاع بقيادته الموفقة انتزاع جيروت المالك ، كما استطاع في إحدى ثورات الجماهير أن يحمل تركيا على عزل ممثلها في مصر ، وأجبرها على احترام ارادة الشعوب .. والمسجد شيد على أحدث طراز في ميدان التحرير ، وألحقت به مكتبة فاخرة للراغبين في الاطلاع والعرفان وافتتحته الثورة للصلاة الجامعة بمد أن زينته أجمل زينة وجعلته آية من آيات الفن المعماري الحديث المعبر عن التطور الانشائي الجديد الذي حققته ثورة الإبطال وأرادت به تكريم ذكرى العاملين

بين قلوبنا أقوى وأمتن من أية رابطة تزججها المبادئ المبصرة ، والتشريعات الفجة
والمنافع الشخصية ، وتعمل على جمع الشعوب الإسلامية على كلمة واحدة هي كلمة
الحق ، وتجعلهم قوة فعالة تستطيع أن تسهم في تحقيق سلام العالم ورفاهيته وتقدمه
وقد ألهم الله قادة المسلمين في موسم حج سنة ١٣٧٣ هـ ، وأمامهم الجموع الحاشدة
التي وفدت الى بيت الله الحرام من شتى بقاع الارض مخلصه مؤمنة ، ترجو المثوبة
وتؤدى الفريضة ، أن يتذكروا الحكمة السامية من الحج ، حيث كان منذ شرعه الله
مؤتمرا اسلاميا عظيما ، أفاد منه السلف الصالح في توجيه المسلمين وارشادهم الى خير
الدنيا والآخرة . فنبئت فكرة المؤتمر الاسلامي ...

واستقر الرأي في موسم حج تلك السنة على انشاء هيئة مشتركة تنهض بالمسلمين،
وتجمع قواهم المبددة ، وتوجهها الوجهة الصالحة لخدمة السلام والانسانية ، وتهدى
أواصر الود والمحبة والاخوة والتعاون بين المسلمين في شتى أرجاء المعمورة .

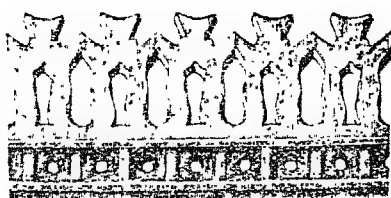
وقطع القادة على انفسهم عهدا - يعتبر نقطة تحول في تاريخ المسلمين ودليلا ساطعا على
يقظة الشعوب الإسلامية ورغبتها القوية في أن تتبوأ المكانة التي تليق بها بين أمم الارض -
أن ينشئوا هذه الهيئة ، وحددوا لها أغراضا عملية لتكون راشدا لهم فيما يهدفون اليه
من خير الاسلام والمسلمين . وقرروا أن يتألف المؤتمر الاسلامي من مجموع المسلمين
أفرادا وجماعات وشعوبا في أقطارهم المختلفة ، ممن يقبلون العمل المشترك لخير الاسلام
ورفعة المسلمين وتعاونهم ، وان لهذا المؤتمر شخصية اعتبارية مستقلة عن شخصيات
أعضائه .

فالغاية التي يرمون اليها هي ضم شتات المسلمين، وجعل المؤتمر هيئة شعوب لاهيئة
دول ، وان أزرنه حكومات الدول التي يمثلها المجلس الاعلى للمؤتمر ماليا وأديبا ،
والحق أن المسلمين حين يشعرون بحاجتهم الملحة الى التعاون في مختلف ميادين الحياة،
وحين ينبع ذلك الشعور من قلوبهم ينجح المؤتمر ويؤتى ثماره الطيبة ، وبينوا كذلك ان
الغاية النبيلة التي يسعون اليها هي تقوية أواصر الثقة والاخوة الإسلامية ورفع مستوى
المسلمين ثقافيا واقتصاديا ، وانشاء صلات جديدة ، أو تعزيز الصلات القائمة بينهم
وتنسيق جهودهم تحقيقا للتعاون والتآزر ، والنظر بصفة عامة في شئون المسلمين
والعمل على كل ما من شأنه أن يعود عليهم في شتى بلادهم بالخير والنفع

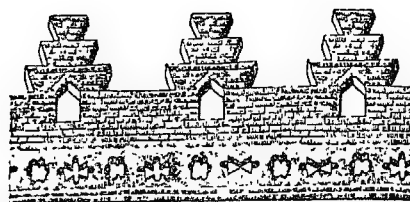
تلك هي سياسة الانشاء الاسلامي التي يريد بها العهد الجديد وقائده الملهم جمال
عبد الناصر

وهذه هي العمارة العربية الشامخة التي وضع الرئيس أساسها وسارع بأقامة
البناء

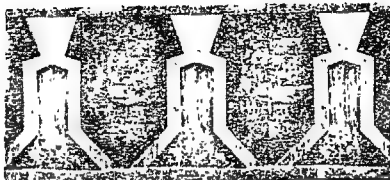
وهذه هي الدولة ... الدولة العظمى ذات الخير الوفير المكتملة الكيان ... الغنية
بمواردها عن المعونات أيا كان نوعها ...



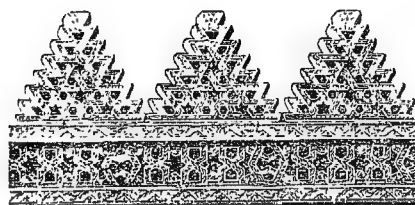
جامع احمد بن طولون



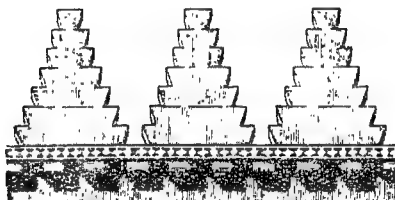
جامع الحاكم



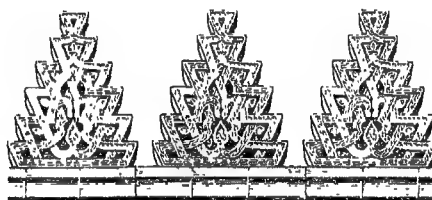
قبة الجعفرى وعائكة



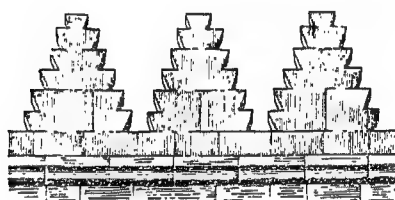
قبة الإمام الشافعى



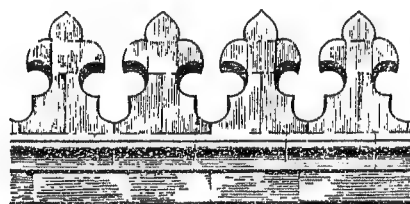
قبة الصالح نجم الدين



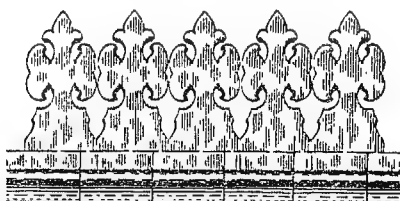
مسجد قلاوون



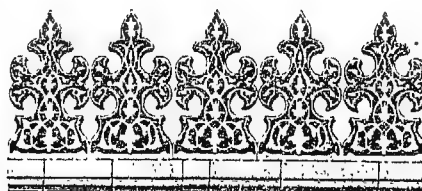
خانقاه بى بى بن الجاشنكير



مسجد السلطان حسن



مسجد قانباى أمير اخور



مسجد وقبة الغورى

نماذج من شرفات المساجد

الدولة القادرة التى تشغل ربع مساحة العالم ، والتى تستطيع أن تتحكم فى مصائر الامور وتوجه الرياح فى صفها لتسير سفينتها الى حيث يريد القائد البطل جمال ...

هذا هو المسجد الاعم الجامع الذى سيلتئم الشمل بين جدرانها العزيزة ... وهذه هى الدولة التى ستميد امجاد الماضى ، وتبنى للجيل الحاضر والاجيال المقبلة العز والسؤدد والرفعة والسعادة والسلام ...

الله اكبر ... الله اكبر ... الله اكبر والمجد للعرب والعزة للمسلمين ..

الله اكبر ... وحي على الاتحاد ...

انها دعوة جمال عبد الناصر ... وانها لنفس دعوة الاسلام ... حي على الفلاح ... وانها لنفس الدعوة المزهوة القدسية الرنين التى انطلقت بها حناجر بناء المجد الاسلامى الذين اقاموا صرح الوحدة الشاملة ، وانطلقوا حاملين مشاعل النور فتبددت امامهم الظلمات ...

انها الدعوة التى ارادها الله ، والهيم بها خيار عباده ... وانها للصدى الذى ظل يتردد عبر الاجيال ولم يجد له من سميع حتى تقدم جمال عبد الناصر ، فحمل اللواء وتقدم الصفوف وحقق الآمال ...

وهذا الشرق ... المارد الذى صحا بعد غفوة طويلة ... هذا الشرق المزهو بآثاره ومعاليه ... الفخور بما حوى من مساجد كلما طالعته منائر السامقة وقبابها الشامخة تذكر آيات المجد القديم ، وعاش بالروح فى ظلال الدول التى مرت به ...

هذا الشرق العظيم الذى أبى الا أن تكون أيامه جمعاء ، مواسم حجيح ، تجمع الشمل ، وتقوى أواصر الاتحاد ...

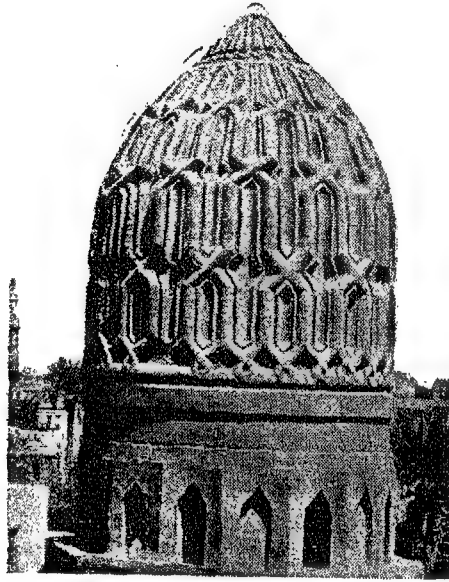
هذا الشرق ، شهد على يد جمال عبد الناصر بناء كعبة الوحدة ، ومسجدها العظيم ..

انه مسجد كنا نحلم به ... وانه لمن توفيق الله ، أن يقوم المسجد فى أرض مصر ... وأن تمتد رفعتة نحو الشمال ، فيشمل سوريا وتصبح له صفة جديدة جديدة بالاكبار ، واسما عزيزا جديرا بالخلود ، هو الجمهورية العربية المتحدة ...

وانها - بعد - دولة كنا نرجوها ... دولة شامخة بناها جمال عبدالناصر ، واقام صرحها فى اقدس البقاع واغناها بالذكريات ، ليسترجع فيها التاريخ اجمل حوادثه ... ولتنطلق بمد ذلك ابواقه العادلة فى كل مكان : ها قد تجمع الاشقاء ، واتحد الاهل ، واكتمل البناء وليس على العالم الا أن يرقب مشرق النور الجديد الذى ستعلو منارته لتكون هدى ورحمة للشعوب جميعا ...

الله اكبر وحي على الاتحاد .. انها دعوة جمال عبد الناصر ناصر الوحدة ، وباعث

القومية العربية ، الذى آمن بعروبه . وكرس حياته لخدمة هذه العروبة الخالدة
التي غير بعثها مجريات الحوادث وصحائف التاريخ ...
الدعوة الظافرة المنتصرة التي سيتم عن طريقها انشاء المسجد الأعم الشامل ..
والدولة العربية القوية المتحدة التي سينضوى تحت لوائها سائر العرب في كل مكان ..
حفظ الله مصر في جمهوريتها العربية المتحدة .. وحيا شعبها النبيل وقائده
نهضتها البطل جمال عبد الناصر ..



« قبة جامع تغرى بردى »



« انتهى البحث والحمد لله »

كتابتها القادم : « حارس المجد » بقلم سنية قراعة

مكتب الصحافة الدولى للصحافة والنشر

مؤسسة سننية قراعة

١ ميدان سليمان باشا بالقاهرة - تليفون ٢٥٧١٧

أهم أعمال المكتب :

يصدر مجله ثقافية أدبية باسم « الوان جديدة » تضم صفحاتها خلاصة انتاج رجال الفكر ، واعلام الطب ومشاهير رجال الادب والفن فى الشرق والغرب - كما تقدم الى ربات البيوت نماذج من أرقى وأحسن الارشادات البيتية وطرق تنظيم البيت وحسن اعداده ، وترشدن الى خير ما وصل اليه التفكير فى فن التفصيل الحديث والاذاياء المبتكرة ..

يقوم بنشر كتب علمية وثقافية اهم ما ظهر منها :

« مصارع الطفلة » تأليف سننية قراعة ، « خاطئات فائنات » للاستاذ حبيب جاماتى ، « السينما والجماهير » للاستاذ عبد المنعم شمس ..

ويقوم فوق ذلك باول محاولة من نوعها فى تاريخ الجهاد الفكرى المصرى لتكون المكتبة النسائية التى تشرف المرأة المصرية وتضع اسمها فى مصاف الخلود
اذ تساهم مديرة المكتب وصاحبة فى ارساء أسس هذه المكتبة وتقدم للعالم العربى ثورة بحوثها فى سلسلة مؤلفات تظهر خلال هذا العام تالاتى :

« ست الملك الفاطمية طبعة جديدة » - « أم الملوك » الفائز بالجائزة الاولى فى مسابقة وزارة التربية والتعليم لعام ١٩٥٨ - « حارس المجد » - « عروس الزهد رابعة العدوية » - « قصة الجامعة الازهرية » - « نفرتيتى طبعة جديدة » - امرأة العزيز - « موكب الزمن » ..

الكتب التى ظهرت للمؤلفة :

أذكرونى - البحث عن السعادة - نفرتيتى - ست الملك الفاطمية - نساء محمد (طبعة أولى) - زهر السياسة المصرية - مصارع الطفاه - نساء محمد (طبعة ثانية) - من وحي السماء - الاسكندر الاكبر - مساجد ودول ..

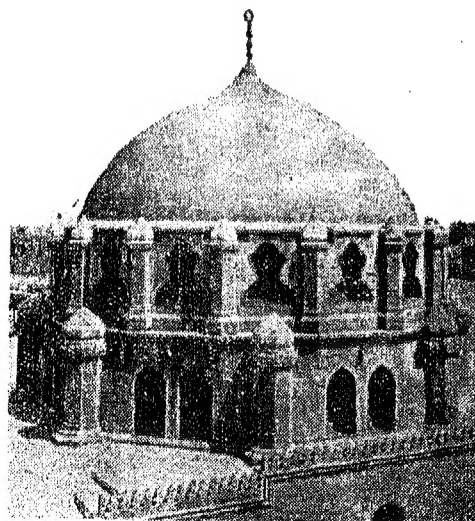
فهرس الفصول

((وقد روعى ترتيب المآذن تاريخيا من حيث الانشاء))

صفحة	
٧	كلمة السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة ..
٨	كلمة السيد احمد حسن الباقورى وزير الاوقاف ..
١٠	كلمة السيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم ..
١٣	الاهداء للمؤلفة ..
١٥	كلمتى للمؤلفة ..
١٨	شكر ..
١٨	مراجع الكتاب ..
١٩	فتح مصر : مئذنة أحمد بن طولون ..
٣١	امام المساجد :)) قايتباى بالازهر ..
٤١	تقاليد :)) الغورى بالازهر ..
٥٣	دولة ومسجد :)) الحاكم ..
٦١	نهاية دولة :)) الامام الحسين ..
٦٩	دول تدول :)) الصالح نجم الدين أيوب ..
٧٩	احمد بن طولون :)) السلطان المنصور قلاوون ..
٨٥	النذر :)) سلار وسنجر الجاولى ..
٩٧	الفاطيون :)) السلطان بيبرس الجاشنكير ..
١٠٥	قاهرة الدنيا :)) السلطان الناصر محمد بالقلعة ..
١١٥	الازهر :)) الطنبغا الماردانى ..
١٢٧	مسجد وجامعة :)) الامير صرغتمش ..
١٣٥	أسوار القاهرة :)) السلطان حسن ..
١٤٣	غروب . . :)) منجك اليوسفى ..
١٥٣	شروق . . :)) السلطان برقوق ..
١٦٣	حروب وحصون :)) السلطان الاشرف برسباى ..
١٧١	الناصر صلاح الدين :)) السلطان المؤيد ..

صفحة

١٨٣	مئذنة قايتباى بقلعة الكباش	:	عمائر قلاوون
١٩١	القاضي يحيى	:	مؤامرات المماليك
١٩٧	مسجد السيدة زينب	:	نهضة عمرانية
٢٠٩	الامير بشتاك	:	عودة الناصر
٢١٩	مسجد الامير قوصون	:	مساجد ومساجد
٢٢٩	الناصر محمد بن قلاوون	:	بداية ونهاية
٢٣٧	جامع الامير اسنبغا	:	سلاطين الشراكسة
٢٤٧	السلطان برقوق بقرافة المماليك	:	المؤيد
٢٥٥	جامع ابو بكر مزهر	:	عهود الفوضى
٢٦١	قانى باى الرماح امير اخور	:	قايتباى
٢٦٧	جامع السلطان الفورى	:	الفورى
٢٧٥	جامع جانم البهلوان	:	العثمانيون
٢٨٧	جامع الحريشى بالمحلة الكبرى	:	عودة المماليك
٢٩٥	مسجد العباس برشيد	:	استقلال وخيانة
٢٩٩	جامع محمد ابو الذهب	:	تسابق في المكرمات
٣٠٧	جامع الامير قرقماس	:	البلد الطيب
٣١٧	جامع المنبولى بدمياط	:	رشوة وطفيان
٣٢٩	جامع الغولى بالمنيا	:	خاتمة ، وبعث



((قبة جامع سنان باشا))

فهرس الصور

« وقد روعى ترتيبها تاريخيا من حيث الانشاء »

صفحة	
٥	محراب المدرسة الطبرسية بالازهر
٢٢	مسجد عمرو بن العاص
٤٠	جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة
٥٥	مقياس النيل بالروضة
٦٠	جامع أحمد بن طولون
٧١	المنظر الخارجى للجامع الازهر
٧٥	صحن الجامع الازهر
٧٨	الجامع الازهر
٨٤	أسوار القاهرة وباب النصر
٩١	باب الفتوح
١٠٠	باب زويلة
١٠٧	المنارة البحرية لجامع الحاكم
١١٣	قطاع رأسى بالريشة لجامع أحمد بن طولون
١١٤	مسجد الجيوشى
١٢٠	الجامع الاقمر
١٢٥	قطاع رأسى للجامع الازهر
١٢٦	مشهد السيدة رقية
١٣١	مشهد ومحراب المسجد الحسينى
١٣٨	باب الغرب بالقلعة
١٤٦	المدرسة الصالحية
١٤٨	مسجد الصالح طلائع
١٥٥	قبلة الامام الشافعى
١٦٥	مسجد ومدرسة السلطان قلاوون
١٧٣	قبلة السلطان المنصور قلاوون
١٧٩	خانقاه ومسجد السلطان بيبرس الجاشنكير
١٨٧	مسجد ومدرسة سلار وسنجر الجاولى
١٩٩	مسجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون
٢٠٣	مسجد ومدرسة السلطان الناصر محمد بن قلاوون
٢٠٧	جامع الطبى الماردانى

صفحة

٢١٣	مسجد ومدرسة السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون
٢١٧	صحن مسجد السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون
٢٢٣	مسجد ومدرسة الامير سيف الدين صرغتمش الناصرى
٢٢٧	مسجد ومدرسة السلطان شعبان
٢٣١	مسجد ومدرسة الجاى البيوسفى
٢٣٥	مسجد ومدرسة السلطان برقوق
٢٣٩	جامع السلطان المؤيد
٢٤٦	منبر ومحراب جامع السلطان المؤيد ابو النصر شيخ المحمودى
٢٥١	مسجد ومدرسة الاشرف برسباى
٢٥٣	مسجد الاشرف برسباى
٢٥٤	مسجد ومدرسة الملك الاشرف ابو النصر قايتباى الجركسى
٢٥٩	مسجد القاضى يحيى
٢٦٠	مسجد قجماسى الاسحاقى
٢٦٥	مسجد قانى باى الرماح
٢٦٩	مسجد السلطان الفورى
٢٧٣	مدرسة الفورى
٢٧٧	طومان باى فى طريقه الى باب زويلة لشنقه
٢٨١	مسجد الامير خير بك
٢٨٩	جامع ابا صوفيا بتركيا
٢٩٧	مسجد السلطان سليم شاه العثمانى
٣٠١	مسجد سليمان باشا الخادم
٣٠٥	مسجد سنان باشا
٣٠٩	مسجد الملكة صفية «الواجهة»
٣٠٩	مسجد الملكة صفية «من الداخل»
٣١٣	مسجد البردينى
٣١٦	مسجد دومقسييس
٣١٩	مسجد محمد بك ابو الذهب
٣٢٣	مسجد محمد على من الواجهة
٣٢٥	مسجد محمد على من الداخل
٣٢٨	مسجد السيدة زينب من الداخل
٣٢٨	مسجد السيدة زينب . . المنبر
٣٣١	مسجد الرفاعى بالقلعة
٣٣٣	مسجد الفتح
٣٣٦	مسجد ابنى العباس المرسى بالاسكندرية
٣٣٩	مسجد الفولى بالمينا
٣٤٣	مسجد الزمالك تجاه كوبرى الزمالك
٣٤٥	مسجد السيد عمر مكرم
٣٤٧	نماذج من شرفات المساجد